



عناصر الموضوع

المجلد التاسع والعشرون

مفهوم اللسان

أولًا: المعنى اللغوي:

اللام والسين والنون: أصل صحيح يدل على طول لطيف غير واضح، في عضو أو غيره، ومن ذلك اللسان[١].

فاللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة، فتؤنث حينئذٍ[٢].

ويطلق اللسان على اللغة، والمتكلم عن القوم، وأرض بظهر الكوفة[٣].

وتجمع (اللسان) على ألسن وألسنة ولسن (مثل: كتاب وكتب) فمن ذكر جمعه على (ألسنة) ومن أنث جمعه على (ألسن) والتذكير أكثر، وهو في القرآن كله مذكر[٤].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «اللسان الجارحة وقوتها، فإن العقدة لم تكن في الجارحة، وإنما كانت في قوته التي هي النطق به، ولكل لسان نغمة مخصوصة يميزها السمع، كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر»[٥].

وقال الرازي: «هو الآلة في إعطاء المعارف؛ فوجب أن يكون أشرف الأعضاء»[٦].

وبالنظر إلى التعريفين يتبين أن تعريف الجرجاني أجمع وأشمل؛ إذ إنه يتحدث عن كل ما يستوعبه التعريف المراد من جهة وهو يمنع ما عداه من جهة أخرى.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٤٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٨٥.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٥٨٨.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٥٣.
(٥) التعريفات ص٦٢٠.
(٦) مفاتيح الغيب ٦/ ٤٤.



اللسان في الاستعمال القرآني

ورد (اللسان) في القرآن الكريم (٢٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٥	﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣]
الجمع	١٠	﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]

وجاء اللسان في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[٢]:

الأول: اللسان بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٩]. وهذا كثير.

الثاني: اللغة: ومنه قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]. أي: بلغة العرب.

الثالث: الدعاء: ومنه قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]، يعني: في دعاء داود وعيسى.

الرابع: الثناء الحسن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].
يعني: ثناءً حسنًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٤٧.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٣٤، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤١٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ النطق:

النطق لغة:

هو التكلم بأصواتٍ وحروفٍ تعرف من خلالها المعاني المرادة[١].

النطق اصطلاحًا:

التكلم بما يعرف من خلاله المعاني المراد إيصالها إلى الآخر، وهو مختص بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية[٢].

الصلة بين النطق واللسان:

اللسان هو الآلة الجارحة التي من خلالها يتم النطق فيعرف من خلال ذلك المعاني المراد إيصالها، وعلى هذا فإن اللسان أعم وأشمل؛ لأن النطق مختص بالإنسان، واللسان أعم من ذلك، كما أن اللسان يضاف إلى استعماله في النطق استعمالات أخرى، منها: التذوق، والبلع، وغير ذلك.

٢ القول:

القول لغةً:

ما كان جزءًا من النطق أثناء التحدث، والمقول: اللسان. ورجلٌ قولةٌ وقوالٌ: كثير القول[٣].

القول اصطلاحًا:

هو الكلمة المركبة في القضية المنطوقة، أو المفهوم المركب العقلي في القضية المعقولة[٤].

الصلة بين القول واللسان:

اللسان هو الآلة الجارحة التي من خلالها يقول المتحدث، والنطق والقول أعم منه.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٥٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٢.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٨٠.



٣ الكلام:

الكلام لغةً:

ما أفاد معنىً أثناء التحدث من اللسان، ويقال: قد يكون قلة الكلام كثرةً في القول؛ لأن القول كلمة أفادت معنىً، والكلام أعم من ذلك وأوسع[١].

الكلام اصطلاحًا:

هو ما تضمن كلمتين أو أكثر بالإسناد، ومكان إخراجها من اللسان[٢].

الصلة بين الكلام واللسان:

اللسان هو الآلة الجارحة التي من خلالها يتكلم الإنسان بكلمتين أو أكثر بالإسناد، وإن كان الكلام أعم من القول إلا أن النطق أعم منهما، واللسان أعم من الجميع؛ لأنه الآلة التي من خلالها يكون التحدث من جهة وللسان استعمالات أخرى من جهة أخرى.

٤ الرأس:

الرأس لغةً:

هو ما دل على تجمع وارتفاع، كأن يقال عن أعلى الإنسان: رأسه[٣].

الرأس اصطلاحًا:

ما يجمع فيه الخلقة من إنسان أو غيره من كل المخلوقات، ومجتمع كل شيء رأسه[٤]، وبالتالي فهو يجمع كثيرًا من الجوارح.

الصلة بين الرأس واللسان:

اللسان هو جزء لا يتجزأ من الرأس، بل إن اللسان من أخص خصوص الرأس.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٢٣.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٨٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٧١.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٧٣.

اللسان آية ونعمة

أولًا: اللسان والإنسان:

امتن الله جل وعلا على الإنسان بأنه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨-٩].

وذكر الله ذلك؛ تعليلًا للإنكار والتوبيخ في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥].

أو قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧].

أي: هو غافل عن قدرة الله تعالى وعن علمه المحيط بجميع الكائنات الدال عليهما أنه خلق مشاعر الإدراك التي منها العينين، وخلق آلات الإبانة، وهي اللسان والشفتان، فكيف يكون مفيض العلم على الناس غير قادر وغير عالم بأحوالهم؟!

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والاستفهام يجوز أن يكون تقريريًا وأن يكون إنكاريًا، والاقتصار على العينين؛ لأنهما أنفع المشاعر، ولأن المعلل إنكار ظنه أن لم يره أحد، وذكر الشفتين مع اللسان؛ لأن الإبانة تحصل بهما معًا، فلا ينطق اللسان بدون الشفتين ولا تنطق الشفتان بدون اللسان.

فمن دقائق القرآن أنه لم يقتصر على اللسان ولا على الشفتين خلاف عادة كلام العرب أن يقتصروا عليه، يقولون: ينطق بلسان فصيح. ويقولون: لم ينطق ببنت شفة أو لم ينبس ببنت شفة؛ لأن المقام مقام استدلال، فجيء فيه بما له مزيد تصوير لخلق آلة النطق، وأعقب ما به اكتساب العلم، وما به الإبانة عن المعلومات، بما يرشد الفكر إلى النظر والبحث؛ وذلك قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

فاستكمل الكلام في سياق الآيات أصول التعلم والتعليم، فإن الإنسان خلق محبًا للمعرفة، محبًا للتعريف بمشاعر الإدراك، يكتسب المشاهدات، وهي أصول المعلومات اليقينية، وبالنطق يفيد ما يعلمه لغيره، وبالهدى إلى الخير والشر يميز بين معلوماته ويمحصها[1].

فذكر اللسان ومعه الشفتين للدلالة على أن النطق السليم لا يتأتى إلا بوجودهما معًا، فاللسان لا ينطق نطقًا صحيحًا بدون الشفتين، وهما لا ينطقان بدونه؛ ولهذا جاء في الأثر: «ابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق، وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٢٨.

عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق»[١].

وأيضًا من حكمة اقتران اللسان بالشفتين أنهما العضوان الناطقان، فأما الهواء والحلق والنطع واللهوات والأسنان فمتصلة حركة بعضها مرتبطة بحركة البعض بمنزلة غيرها من أجزاء الحنك، فأما اللسان والشفتان فمنفصلة، ثم الشفتان لما كانا النهاية حملا الحروف الجوامع: الباء والفاء والميم والواو[٢].

وذكر الله هذه النعم تذكيرًا للإنسان؛ ليشكرها، فهي ثلاث نعم من أكبر النعم على الإنسان:

النعمة الأولى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد:٨].

يعني: يبصر بهما، ويرى فيهما، وهاتان العينان تؤديان إلى القلب ما نظر إليه الإنسان، فإن نظر نظرة محرمة كان آثمًا، وإن نظر نظرًا يقربه إلى الله كان غانمًا، وإذا نظر إلى ما يباح له فإنه لا يحمد ولا يذم، ما لم يكن هذا النظر مفضيًا إلى محظور شرعي فيكون آثمًا بهذا النظر.

والنعمة الثانية: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٩].

لسانًا ينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق، وهذه من نعم الله العظيمة؛ لأنه بهذا اللسان والشفتين يستطيع أن يعبر عما في نفسه، ولولا هذا ما استطاع، فلو كان لا يتكلم فكيف يعبر عما م في قلبه؟ وكيف يعلم الناس بما في نفسه؟ اللهم إلا بالإشارة ،والإشارة متعبة، تتعب المشير وتتعب الذين أشير إليهم، ولكن من نعمة الله أن جعل له لسانًا ناطقًا، وشفتين يضبط بهما النطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا[٣].

ثم قال في نعمة الدين: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠].

أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي، فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكره على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه.

وهذه الأعضاء الثلاثة -العينان واللسان والشفتان- هي الأعضاء الدائمة الحركة والكسب، إما للإنسان وإما عليه، بخلاف ما يتحرك من داخل فإنه لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، وبخلاف بقية الأعضاء الظاهرة فإن السكون أغلب، وحركتها قليلة بالنسبة إلى هذه[٤].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١٤/ ١١٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٣، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٥٢١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤/ ٢٥٤ بتصرف.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم، ص٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٤/ ٢٥٤.

ثانيًا: اللسان أداة للبيان والتبليغ:

امتن الله عز وجل على الإنسان بنعمة النطق التي يحصل بها إبانة الإنسان عما يريده، فقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٣-٤].

وفسر البيان بالنطق.

ونلحظ أنه لم يقل: وعلمه البيان بالواو؛ لأنه لو عطفه عليه لكان مغايرًا له، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ كأنه إنما يكون خالقًا للإنسان إذا علمه البيان[1].

فيكون في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:٣-٤]، بيانٌ لنعمتين من نعمه سبحانه، والمراد بالإنسان جنسه، والمراد بالبيان الفهم والنطق والإفصاح عما يريد الإفصاح عنه، بالكلام الذي أداته اللسان.

أي: إنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان على أجمل صورة وأحسن تقويم، ومكنه من الإفصاح عما في نفسه عن طريق المنطق السليم والقول الواضح، كما مكنه من فهم كلام غيره له، فتميز بذلك من الأجناس الأخرى، وصار أهلًا لحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، وأصبح مستعدًّا لتلقي العلوم والخلافة في الأرض[2]. والإنسان لا يقدر على إقامة مصالحه إلا بإفهام غيره أغراضه، وذلك بواسطة اللسان التي هي أداة للكلام، وكل هذه المصالح تفوت بزوال اللسان أو بقطعه.

ويعد النطق فضيلة عظيمة، ويدل على فضله أن في مناظرة آدم عليه السلام مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق، حيث قال: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:٣٣][3].

لما كان العلم أفضل الأشياء و كانت آلة إعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الأعضاء[4].

والبيان بيانان كما قال العلماء، وهما الأشهر، وإن كانت ثم أنواع أخر من أنواع البيان، فالبيانان الأشهران أحدهما بيان باللسان، والآخر بيان بالقلم.

وأصل البيان إظهار ما في نفس الشخص للآخرين، وهذا يكون إما عن طريق اللسان، وإما عن طريق القلم، فالامتنان بالتعليم بالقلم ذكر في سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٣٩٨.

(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٤٠٣.

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١١/ ١٥٤.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٣٩٩.

فامتن الله علينا بتعليمنا البيان بكل أنواعه، وبهذا يفارق بنو آدم سائر العجماوات من البهائم وسائر الدواب.

ولأن البيان بالنطق هو أعظم أنواع البيان امتن الله به علينا، مع أنه ثم أنواع أخر من أنواع البيان -كما سبق- كالإشارات وكالنظرات، لكنها ليست بتلك الشهرة؛ إذ كتاب الله يذكر الغالب الأشهر.

ومن المعلوم أن هذه النعمة إنما تكون نعمة حقًا إذا استعمل النطق بما هو خير، أما إذا استعمل بشر فهو وبال على صاحبه، ويكون من فقد هذه النعمة أحسن حالًا منه، فاللسان مع أهميته آلة ذات حدين، حيث يستعمل للخير كالصدق في القول والإرشاد والتعليم والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدفاع عن الحق، كما أنه يستعمل للشر من إيذاء الناس بالشتم أو بالنميمة والدفاع عن الباطل ومساندته[1].

ويأتي أهمية البيان من كونه قوة مؤثرة في تحريك النفوس وتوجيه الناس، يقول صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرًا)[2]. يقول ابن حبان البستي معلقًا على هذا الحديث: «وشبه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا البيان بالسحر؛ إذ الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعوذته، والفصيح الذرب اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائقة، والأعين إليه رامقة»[3].

وما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله، ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه بحق أو باطل، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات والحروف، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذلك سائر الأعضاء، بخلاف اللسان، فإنه رحب الميدان، ليس له نهاية، ولا حد له، فله في الخير مجال رحب، وله في الشر بحر سحب[4].

وأخبر الله أنه أنزل القرآن مصدق بما قبله من الكتب، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ [الأحقاف:١٢].

وزاده ثناء بكونه ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: باللغة العربية، فإنها أفصح اللغات، وأنفذها في نفوس السامعين، وأحب اللغات للناس، فإنها أشرف وأبلغ وأفصح من اللغة التي جاء بها كتاب موسى عليه السلام، ومن اللغة التي تكلم بها عيسى عليه السلام،

(١) انظر: موسوعة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٤/ ٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب إن من البيان سحرًا، رقم ٥٤٣٤.

(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٢١٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٣٩٩.

ودونها أتباعه أصحاب الأناجيل.

«لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

فوصفه سبحانه بأبلغ ما يوصف به الكلام وهو البيان... فلما خص سبحانه اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه»[(١)].

وأدمج لفظ (لسانًا) للدلالة على أن المراد بعربيته عربية ألفاظه لا عربية أخلاقه وتعاليمه؛ لأن أخلاق العرب يومئذٍ مختلطة من محاسن ومساوئ، فلما جاء الإسلام نفى عنها المساوئ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[(٢)].

ولا شك أن اللسان العربي مختص بأنواع الفصاحة والجزالة التي لا توجد في سائر الألسنة، قال بعض الحكماء: حكمة الروم في أدمغتهم؛ لأنهم يقدرون على التركيبات العجيبة، وحكمة الهند في أوهامهم، وحكمة اليونان في أفئدتهم؛ لكثرة ما لهم من المباحث العقلية، وحكمة العرب في ألستهم، بحلاوة ألفاظهم وعذوبة عباراتهم[(٣)].

والمقصود أن الله تعالى خص العرب بفهم القرآن ومعرفته، وفضلهم على غيرهم بعلم أخباره، ومعاني ألفاظه، وخصوصه وعمومه، ومحكمه ومبهمه، وخاطبهم بما عقلوه وعلموه ولم يجهلوه، وقبلوه ولم يدفعوه، وعرفوه فلم ينكروه؛ إذ كانوا قبل نزوله عليهم يتعاملون بمثل ذلك في خطابهم ولغاتهم وكلامهم[(٤)].

واللسان وسيلة لتبليغ الخير للناس، ودعوتهم إلى الله، وقد ذكر جل وعلا أنه يسر هذا القرآن بلسان هذا النبي العربي الكريم؛ ليبشر به المتقين، وينذر به الخصوم الألداء، وهم الكفرة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم:٩٧].

وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨].

يخبر تعالى عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان النبي صلى الله عليه وسلم، يسر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب

---

(١) المزهر، السيوطي ١/ ٢٥٤.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، ١٠/ ١٩١، رقم ٢٠٥٧١.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٤٥.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٤٩.

(٤) الحيدة، الكناني ص ١٢٣.

الموجبة للبشارة ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم فتنذرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة[1].

وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ إشارة إلى أهمية اللسان الذي هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كذلك لسان قومه، يفهمون به ما يقوله لهم، ويحيط هو كذلك علمًا بما يقولون له، مما يفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد بلغ القمة في فصاحة الكلام ووضوح الخطاب وقوة الحجة.

فيكون المراد باللسان في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ اللغة، أي: بلغتك، وهي العربية، كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

فإن نزول القرآن بأفضل اللغات وأفصحها هو من أسباب فضله على غيره من الكتب، وتسهيل حفظه ما لم يسهل مثله لغيره من الكتب[2].

والباء في قوله: (بلسانك) للسببية، أي: بسبب لغتك، أي: العربية، وذكر قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ لبيان الحكمة في إنزال القرآن باللسان العربي، وفي إضافة اللسان إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم عناية بجانبه، وتعظيم له، وإلا فاللسان لسان العرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤].

وإطلاق اللسان وهو اسم الجارحة المعروفة في الفم على اللغة مجاز شائع؛ لأن أهم ما يستعمل فيه اللسان الكلام[3].

وفي الآية دلالة على دور اللسان في الدعوة والتبليغ، لأن الله بين أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر، ولولا أنه تعالى نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم . ويرجع سبب ذلك التيسير كونه بأفصح اللغات، وكونه على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم ؛ فلذلك كان تسببه في حصول تذكرهم تسببًا قريبًا لو لم يكونوا في شك يلعبون[4].

وإذ كان القرآن كلامًا فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام، وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به، دون كلفة على السامع، ولا إغلاق، كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن. وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني: فأما من جانب الألفاظ فذلك

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ١٧٦.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢٥/ ٣٢١.
(٤) المصدر السابق.

بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي: فصاحة الكلام وانتظام مجموعها بحيث يخف حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، وبتولد معان من معان أخر، كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف[1].

وفي الآية الأخرى قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلًا واضحًا بينًا جليًّا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها، وعلل هذا التيسير بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون[2].

والمقصود أن من وسائل الدعوة الوسيلة اللسانية، وهي أبرز وسيلة دعوية يقوم بها الرجل، وتقوم بها المرأة، واستخدام اللسان في المجال الدعوي إما عن طريق الدرس، وإما عن طريق الخطابة، وإما عن طريق المحاضرة، وإما عن طريق الدعوة الفردية، وهناك طرق كثيرة جدًا، وممكن أن يستفيد المسلم مما أعطاه الله سبحانه وتعالى، ويحاول قدر جهده أن يستثمر هذا اللسان الذي وهبه الله سبحانه وتعالى في مجال الدعوة، وهناك مجالات عدة للاستفادة من الجانب اللساني ليس المقصود بسطها في هذا الموضع.

(١) المصدر السابق ٢٧/ ١٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٦٣.

اللسان أداة وخاصية

أولًا: اللسان بين الصدق والكذب:

ذكر الله تعالى صفة الكذب في اللسان، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل:٦٢].

فقال في الآية الأولى: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ وقال في الثانية: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾ والوصف: ذكر الشيء بحليته ونعته، والصفة: الحالة التي عليها الشيء من حليته ونعته، كالزنة التي هي قدر الشيء، والوصف قد يكون حقًا وباطلًا، فمن الباطل قوله في هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل:١١٦].

تنبيهًا على كون ما يذكرونه كذبًا[(١)].

ومعنى وصف ألستهم الكذب قولها للكذب صريحًا لا خفاء به، وتصويرها له بصورة مستحسنة، وتزيينها له في المسامع، كأن ألستهم لكونها منشأ للكذب ومنبعًا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس، ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف، على طريقة الاستعارة بالكناية، كما يقال: وجهه يصف الجمال، وعينه تصف السحر[(٢)].

قال الألوسي: وقد بولغ في الآية من حيث جعل قولهم كذبًا، ثم جعل اللسان الناطقة بتلك المقالة ينبوعه مصورة إياه التي هو عليها، وهو من باب الاستعارة بالكناية، وجعله بعضهم من باب الإسناد المجازي، نحو: نهاره صائم، كأن ألستهم لكونها موصوفة بالكذب صارت كأنها حقيقته ومنبعه الذي يعرف منه حتى كأنه يصفه ويعرفه[(٣)].

وقرئ: (الكذب) بالجر صفة ﴿لِمَا﴾ مع مدخولها، كأنه قيل: لوصفها الكذب، بمعنى: الكاذب، كقوله تعالى: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨].

أو على البدل من (ما): أي: ولا تقولوا الكذب الذي تصفه ألستكم هذا حلال وهذا حرام، والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة[(٤)].

وقرئ: (الكذب) بضم الكاف والذال

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥١٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٤٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٣٢٧.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٤٧، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٧.

والباء، جمع: كذوب، على أنه نعت للألسنة؛ كأنه قال: «ألسنةٌ كذبٌ». وقرئ: بالنصب على الشتم، أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب، من قولهم: كذب كذبًا[١].

و(ما) في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم[٢]. أو موصولة، والعائد محذوف، أي: ولا تقولوا في شأن الذي تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة: هذا حلال وهذا حرام، من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر، فضلًا عن استناده إلى وحي أو قياس مبني عليه، بل مجرد قول باللسان[٣].

ويصح أن يكون لفظ الكذب مفعولًا لـ(تصف) وأن يكون قوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ مفعولًا لـ(تقولوا) وعلى هذا الوجه يكون في وصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب، حتى لكأن ماهية الكذب كانت مجهولة، فكشفت عنها ألسنتهم ووضحتها ووصفتها ونعتتها بالنعوت التي جلتها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم

(١) انظر: المصادر السابقة.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.
(٣) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٢٥٧٨.

فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر[٤].

واللام في قوله: ﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ هي لام الصيرورة والعاقبة، أو هي -كما يقول صاحب الكشاف- من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض[٥]؛ لأن ما صدر عنهم من تحليل وتحريم دون أن يأذن به الله ليس الغرض منه افتراء الكذب فحسب، بل هناك أغراض أخرى كظهورهم بمظهر أولي العلم، وكحبهم للتباهي والتفاخر.

وقوله: ﴿لِّتَفْتَرُواْ﴾ من الافتراء، وهو أشنع أنواع الكذب؛ لأنه اختلاق للكذب الذي لا يستند إلى شيء من الواقع، أي: ولا تقولوا لما تحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لا صحة لها: هذا حلال وهذا حرام؛ لتنسبوا ذلك إلى الله تعالى كذبًا وزورًا.

وقد حكى الله تعالى عن هؤلاء الجاهلين في آيات كثيرة أنهم حللوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٠٧.
(٥) المصدر السابق.

﴿لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

قال ابن كثير: ويدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله أو حرم شيئًا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه[1].

والمقصود أن الله جعل من أنواع كذب اللسان قولها: هذا حلال وهذا حرام، وهو من أعظم أنواع الكذب؛ لأنه من القول على الله بغير علم؛ لأن الملك والحكم لله سبحانه وتعالى، وكذلك الحكم الشرعي لله ليس لأحد، فالله تعالى هو الذي يحلل ويحرم ويوجب، وليس أحد من الخلق له الفضل في ذلك الإيجاب والتحليل والتحريم؛ ولهذا نهى الله عباده أن يصفوا شيئًا بالحلال والحرام بدون إذن. ففي الآية دليل واضح على حرمة القول بدون علم، وكذا الاعتقاد والعمل، فلا يحل لأحد أن يعتقد أو يقول أو يعمل بدون علم شرعي قد تمكن من معرفته.

وتتناول هذه الآية بعموم لفظها فتيا من أفتى بخلاف ما في كتاب الله أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يقع كثيرًا من المؤثرين للرأي المقدمين له على الرواية، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة، وإنهم لحقيقون بأن يحال بينهم وبين فتاويهم، ويمنعوا من جهالتهم، فإنهم أفتوا بغير علم من الله، ولا هدى ولا كتاب منير، فضلوا وأضلوا[2].

وهكذا أضاف الله الكذب إلى اللسان، فقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

وهذا تصوير بليغ لما جبلوا عليه من كذب صريح وبهتان واضح، ومعنى: ﴿وَتَصِفُ﴾ تقول وتذكر بشرح وبيان وتفصيل، حتى لكأنها تذكر أوصاف الشيء.

والمعنى: أن هؤلاء المشركين يجعلون لله تعالى ما يكرهونه من الأولاد والأموال والشركاء، وتنطق ألستهم بالكذب نطقًا واضحًا صريحًا؛ إذ زعموا أنه إن كانت الآخرة حقًا فسيكون لهم فيها أحسن نصيب.

والمقصود أن من آفات اللسان الكذب، وأعظمه الكذب على الله عز وجل وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، كما حكى الله في هذه الآية، وكما قال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تكذبوا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٨.

علي، فإنه من كذب علي فليلج النار)[1].

لهذا يجب التثبت فيما يحكيه المرء، وعدم التحديث بكل ما سمع إذا لم يظن صحته، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع)[2].

وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم مع سعة علمهم وفقههم لا يكثرون من إطلاق عبارات التحليل والتحريم، وهذا من شدة ورعهم ومحاسبتهم لأنفسهم، يقول الإمام مالك رحمه الله: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، ما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره هذا، ونرى هذا حسنًا، ونتقي هذا، ولا نرى هذا، ولا يقولون: هذا حلال ولا حرام[3].

فعلى المسلم أن يعود لسانه الصدق، بل لا بد أن يكون صادقًا في قوله وعمله وحاله، فالصدق يكون في هذه الثلاثة: فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها، والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد، والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة، فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صديقيته؛ ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ذروة سنام الصديقية، سمي الصديق على الإطلاق، والصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول، مع كمال الإخلاص للمرسل[4].

وقد قيل: إن في اللسان أكثر من عشرين آفة، وخصلة واحدة نافعة، وهي الصدق، وبها ينتفي عن الإنسان جميع الخصال الذميمة، وعن بدنه جميع الأفعال القبيحة، فإذا حجبه بالصدق فقد كملت له التقوى ونال المرتبة القصوى[5].

وقد ذكر الله من صفات اللسان الصدق، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٠٦، ومسلم في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١.

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم ٧.

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر ٣/ ٣٨٢.

(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٢١.

(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١١٢.

أي: ثناءً حسنًا باقيًا في أهل الأديان، فكل أهل دين يتلونهم ويثنون عليهم ويفتخرون بهم؛ استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

أي: فأعطي ذلك، فكل أهل دين يتولونه، ويثنون عليه.

أو يكون المعنى: واجعلني على طريق قويم، وحال مرضي، يقتدى بي فيهما، ويحمد أثري بعد موتي، وقال بعضهم: سأل أن يجعله صالحًا بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذبًا. وقيل: سأل الإمامة في التوحيد والدين، وقد أجيب بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾[البقرة:١٢٤][(١)].

وخص بعضهم لسان الصدق بما يتلى في التشهد من قول: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، والعموم أولى[(٢)].

وقد تحقق له جميع ذلك، وخصوصًا في هذه الأمة، حتى إنه مذكور ومقرون في كل صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

فيكون المراد بلسان الصدق هنا: الكلام، من إطلاق اسم الآلة على ما يتقوم بها. ووضع اللسان موضع القول على الاستعارة؛ لأن القول يكنى بها[(٣)].

والمقصود أنه لسان صدق؛ لأنه ثناء بالصدق عليه من سائر الأمم، وليس ثناء بالكذب، فهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق، وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل.

ولما كان الصدق باللسان وهو محله أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقًا، وعبر به عنه، فإن اللسان يراد به ثلاثة معان، ومنها هذا الذي هو (الثناء)[(٤)]. وهو المراد بـ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦]، في الآية الأخرى، أي: الذكر الجميل الرفيع لهم في الآخرة.

واللام في قوله: (لي) تقتضي أن الذكر الحسن لأجله، فهو ذكره بخير، وإضافة (لسان) إلى (صدق) من إضافة الموصوف إلى الصفة، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر، أي: لسانًا صادقًا، والصدق هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه؛ لأنه يرغب في تحققه ووقوعه في نفس الأمر[(٥)].

و﴿عَلِيّٗا﴾ حال من اللسان، وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو مجازًا؛ لشرف ذلك الثناء، أو للدلالة على أنهم أحقاء لما يثنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل[(٦)].

وقد رتب الله جزاء إبراهيم على نبذه

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٣٦.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٩.
(٣) انظر: أضواء البيان ١٧/ ٢٥٣.
(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص٢٣.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٠٢.
(٦) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٤٦٧.

أهل الشرك ترتيبًا بديعًا؛ إذ جوزي بنعمة الدنيا، وهي العقب الشريف، ونعمة الآخرة وهي الرحمة، وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق؛ إذ لا يذكر به إلا من حصل النعمتين(1)، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما يعبر باليد عما يوجد باليد، وهو العطية(2).

وقيل: إذا أريد ذلك فلا بد من تقدير مضاف في كلامه عليه السلام، أي: اجعل لي صاحب لسان صدق في الآخرين، أو جعل اللسان مجازًا عن الداعي بإطلاق الجزء على الكل؛ لأن الدعوة باللسان، فكأنه قال: اجعل لي داعيًا إلى الحق صادقًا في الآخرين، ولا يخفى أن فيما ذكرناه سابقًا غنى عن ذلك كله(3).

ثانيًا: اللسان بين الفصاحة والعي:

خلق الله الألسنة متفاوتة من حيث الفصاحة والعي، وقد أخبر الله تعالى بهذا التفاوت، حيث قال حاكيًا قول موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤].

وقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه:٢٧].

وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

فنلحظ من الآيات السابقة أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى سلامة آلة التبليغ وهي اللسان، بأن يرزقه فصاحة التعبير، والمقدرة على أداء مراده بأوضح عبارة، فشبه حبسة اللسان بالعقدة في الحبل أو الخيط ونحوهما؛ لأنها تمنع سرعة استعماله.

فالعقدة: موضع ربط بعض الخيط، أو الحبل ببعض آخر منه، وهي بزنة فعلة، بمعنى مفعول كقصة وغرفة، أطلقت على عسر النطق بالكلام أو ببعض الحروف على وجه الاستعارة؛ لعدم تصرف اللسان عند النطق بالكلمة، وهي استعارة مصرحة، ويقال لها: حبسة، يقال: عقد اللسان كفرح فهو أعقد إذا كان لا يبين الكلام، واستعار لإزالتها فعل (الحل) المناسب للعقدة على طريقة الاستعارة المكنية(4).

والسبب من سؤال موسى عليه السلام من الله أن يحلل عقدة من لسانه أنه كان في لسانه حبسة إما في أصل الخلقة وإما لأنه وضع الجمرة في فيه(5).

وموسى عليه السلام سأل الله ذلك لئلا يقع خلل في أداء الوحي، وقيل: لئلا

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٠٧.
(2) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١١/ ٨٧.
(3) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٥٥.
(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٣٧.
(5) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ٣٨٢.

يستخف بكلامه فينفروا عنه ولا يلتفتوا إليه، أو: لإظهار المعجزة، كما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزًا في حقه، فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه[1].

أو سأل ذلك طلبًا للسهولة؛ لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره عسير جدًا، فإذا انضم إليه تعقد اللسان بلغ العسر إلى النهاية، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفًا وتسهيلًا.

ولما قال: ﴿عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ بتنكير العقدة، ولم يقل: واحلل عقدة لساني دل على أنه طلب حل بعضها؛ لأجل أن يفهم عنه فهمًا جيدًا؛ ولذا قال: ﴿يَفۡقَهُواْ﴾ أي: يفهموا ﴿قَوۡلِي﴾ عند تبليغ الرسالة، ولم يطلب الفصاحة الكاملة، و﴿مِّن لِّسَانِي﴾ صفة للعقدة، كأنه قيل: عقدة من عقد لساني[2].

فهو على هذا لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية، بل حل عقدة تمنع الإفهام، فخفف بعضها لدعائه لا جميعها؛ ولذلك نكرها ووصفها بقوله: ﴿مِّن لِّسَانِي﴾ أي: عقدة كائنة من عقد لساني[3].

وقد قيل: إنه لم يكن هذا العي في موسى عليه السلام عيبًا؛ لأنه لم يكن مقام موسى يومئذٍ مقام خطابة ولا تعليم حتى تكون قلة الفصاحة نقصًا في عمله، ولكنه مقام استدلال وحجة، فيكفي أن يكون قادرًا على إبلاغ مراده، ولو بصعوبة، وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرغ لدعوة بني إسرائيل، كما قال الله: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦].

والمقصود أن الألسنة تتفاوت من حيث الفصاحة والبلاغة؛ ولهذا هارون كان أفصح لسانًا من موسى عليهما السلام ؛ لذا طلب إرساله معه لتميزه بفصاحة اللسان[4].

ولما كان العي في اللسان يوهم نقصًا نفاه الله عن زكريا عليه السلام، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم:١٠].

فقال: (سويًا) أي: ليس المانع له من كلام الناس بكم طرأ له، أو آفة تمنعه من ذلك، إنما المانع له هو الله، وهو صحيح لا علة فيه، فانتفاء التكلم عنه لا لبكم ولا مرض؛ لأن قوله: ﴿سَوِيّٗا﴾ حال من فاعل (تكلم)، مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة لا لاعتلال اللسان بمرض، أي: يتعذر عليك تكليمهم ولا تطيقه في حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح، ما بك شائبة بكم، ولا خرس، وهذا ما عليه

(١) السراج المنير، الشربيني ٥/ ٤١٣.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٣٨.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٧١، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٦٩، السراج المنير، الشربيني ١/ ٢١٥.

الجمهور، ويشهد له قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١][١].

فأمره بالذكر ولو كان لعلة لما استطاع أن يذكر الله تعالى.

ومعنى: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [مريم: ١٠] أي: اجعل لي علامة ودلالة على حمل امرأتي؛ لأن البشارة بالولد وقعت مطلقة، فلم يعرف وقتها بمجرد البشارة، فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع.

فجعل الله له آية وهي تعذر الكلام عليه مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكنًا من ذكر الله ومن قراءة التوراة؛ لأن اعتلال اللسان مطلقًا قد يكون لمرضٍ وقد يكون من فعل الله، فلا يعرف زكريا عليه السلام أن ذلك الاعتلال معجزٌ إلا إذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات، فلما اعتل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة علم بالضرورة أن ذلك الاعتلال ليس لعلةٍ ومرضٍ بل هو لمحض فعل الله، فيتحقق كونه آية ومعجزة، ومما يقوي ذلك قوله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ [مريم: ١٠].

خص ذلك بالتكلم مع الناس؛ وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادرًا على التكلم مع غير الناس[٢].

والمقصود أن من عيوب اللسان العي، والمراد به عجز اللسان وتعبه عن الكلام عند المخاصمة، فالعي مذموم عند بلغاء العرب وخطبائهم، وقد قال شاعرهم[٣]:

أعذني ربي من حصر وعيٍّ
ومن نفس أعالجها علاجا

والحصر والعي متقاربا المعنى، فإن قال قائل: كيف يكون عي اللسان عيبًا وقد جاء مدح العي في قوله النبي صلى الله عليه وسلم: (الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق)؟![٤].

والجواب: أن هذا مع أنه في الظاهر عي، وصاحبه لا يسترسل في الكلام كأن معلوماته ليست جيدة، أو كأنه ليس وقاد الذهن ولا سيال اللسان، لكن في الواقع إنما حجزه عن ذلك الخوف أن يقول على الله بلا علم؛ لهذا صار العي إيمانًا بهذا الاعتبار،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٩.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب ١١/ ٤٣.

(٣) البيت للنمر بن تولب.
انظر: البيان والتبيين، الجاحظ ١/ ٢٧، عيون الأخبار، ابن قتيبة ٢/ ١٨٥.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٦٤٩، رقم ٢٢٣١٢، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في العي، ٤/ ٣٧٥، رقم ٢٠٢٧.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦١٠، رقم ٣٢٠١.

وهو محمود، وهو شعبة من الإيمان باعتبار أن خوفه من الغلط وخوفه أن يقول على الله بلا علم جعله يكون كأنه ذو عي، ينقطع في كلامه، ولا يتواصل كلامه؛ لأجل تحرزه وتحرسه من أن ينطق بشيء يغلط فيه على الشريعة، أو أن يقول على الله بلا علم.

ومما يظهر فضل اللسان والنطق أن الله ذم قومًا بوصفهم بالبكم، فقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨].

والبكم: جمع أبكم، وهو الذي لا ينطق. فالبكم: آفة في اللسان تمنع معها اعتماده على مواضع الحروف، أو الأبكم الذي يولد أخرس، أو المسلوب الفؤاد الذي لا يعي شيئًا ولا يفهمه، أو الذي جمع الخرس وذهاب الفؤاد[١].

والبكم -كما قال أهل العلم- نوعان: بكم القلب، وبكم اللسان، كما أن النطق نطقان، نطق القلب، ونطق اللسان، وأشدهما بكم القلب، كما أن عماه وصممه أشد من عمى العين وصمم الأذن، فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق، ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم -كما هو معلوم- يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب، من سمعه وبصره وقلبه، وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة، فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، والقلب بالبكم[٢].

وقد جعل بعض المازنيين الحبسة في اللسان والعي ختمًا عليه، فقال[٣]:

ختم الإله على لسان عذافرٍ
ختمًا فليس على الكلام بقادر

وإذا أراد النطق خلت لسانه
لحمًا يحركه لصقرٍ ناقر

(١) تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ١/ ٢٣.

(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص١٦٥.

(٣) انظر: البصائر والذخائر، التوحيدي ٤/ ١٩٠، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، الزمخشري ٥/ ٢٠٩.

آفات اللسان

للسان آفات بينها القرآن الكريم نوضحها فيما يأتي:

أولًا: النطق بكلمات الكفر:

من أعظم آفات اللسان النطق بكلمات الكفر من غير إكراهٍ.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة:٧٤].

وكلمة الكفر: الكلام الدال عليه، وأصل الكلمة اللفظ الواحد الذي يتركب منه، ومن مثله الكلام المفيد، وتطلق الكلمة على الكلام إذا كان كلامًا جامعًا موجزًا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:١٠٠].

وفي الحديث: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[(١)].

فكلمة الكفر جنس لكل كلام فيه سب أو استهزاء أو تكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم، كما أطلقت كلمة الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فالكلمات الصادرة عنهم على اختلافها ما هي إلا أفراد من هذا الجنس، كما دل عليه إسناد القول إلى ضمير جماعة المنافقين.

ولم تبين هذه الآية ما هي هذه الكلمة التي قالوها وكفروا بها؟ ولم تذكر إلا أنها كلمة صدرت من بعض المنافقين تدل على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: إن الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول لقوله الذي حكاه الله عنه بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨].

فسعى به رجل من المسلمين، فأرسل إليه رسول الله فسأله، فجعل يحلف بالله ما قال ذلك[(٢)].

وعلى هذه الرواية يكون إسناد القول إلى ضمير جمع كناية عن إخفاء اسم القائل، كما يقال: ما بال أقوام يفعلون كذا وقد فعله واحد، أو باعتبار قول واحد وسماع البقية فجعلوا مشاركين في التبعة، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانًا، وإنما قتله واحد من القبيلة، وعلى فرض صحة وقوع كلمة من واحد معين فذلك لا يقتضي أنه لم يشاركه فيها غيره؛ لأنهم كانوا يتآمرون على ما يختلقونه، وكان ما يصدر من واحد منهم يتلقفه جلساؤه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الشعر، ٤/١٧٦٨، رقم ٢٢٥٦.

(٢) ذكر سبب النزول هذا الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ١٨٤، والسمعاني في تفسيره ٢/ ٣٢٩، وابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ٣٤٣.

وأصحابه ويشاركونه فيه[1].

ومعنى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا ﴾ [التوبة:٧٤].

أي: إن المنافقين إذا قالوا قولًا فيه الاستهزاء بالدين وبالرسول وبلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه شيء من ذلك جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا، وكلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين، عصمة لأموالهم ودمائهم.

وقد حكى القرآن كثيرًا من أيمانهم الكاذبة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة:٥٦].

وقوله سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦٢].

وأتى بصيغة الفعل المضارع (يحلفون)؛ لاستحضار الصورة، أو للدلالة على تكرير الفعل.

فلما نطقت ألسنتهم بكلمة الكفر، وحلفوا أنهم ما قالوا قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

فإسلامهم السابق -وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر- ينقضه كلامهم الأخير ويدخلهم بالكفر.

وقال: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ولم يقل: بعد إيمانهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم: آمنا، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبهم.

ومما يدل أيضًا على أن من أعظم آفات اللسان النطق بالكفر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ولي اللسان أي: تحريف الكلام في النطق به أو في معانيه، أي: يقلبونها ويحرفونها، كما قال في موطن آخر: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء:٤٦].

فلي اللسان شبيه بالتشدق والتنطع والتكلف وذلك مذموم، فعبر الله عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بلي اللسان ذمًا لهم، ولم يعبر عنها بالقراءة، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد، فيقولون في المدح: خطيب مصقع، وفي الذم: مكثارٌ، ثرثارٌ، فالمراد بقوله: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي: بقراءة ذلك الكتاب الباطل، فيعمدون إلى اللفظة فيحرفونها عن حركات الإعراب تحريفًا يتغير به المعنى، وهذا كثيرٌ في لسان العرب، فلا يبعد مثله في العبرانية، فكانوا يفعلون ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد صلى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٨٥.

الله عليه وسلم في التوراة[١].

والمراد تحريفهم كآية الرجم، ونعت محمد صلى الله عليه وسلم، ونحو ذلك، والضمير في (لتحسبوه) يرجع إلى ما دل عليه ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو المحرف، ويجوز أن يراد يعطفون ألسنتهم بشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه من الكتاب، أي: التوراة، ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وليس هو من التوراة[٢].

والباء في قوله: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ صلة أو للآلة أو للظرفية أو للملابسة، والجار والمجرور حال من الألسنة، أي: ملتبسة بالكتاب[٣].

ومن نطق اللسان بالكفر ما حكاه الله عن اليهود والنصارى حيث قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فنسبة الولد إلى الله تعالى كفر بجلاله وكماله، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ليس له من الواقع شيء؛ إذ ليس لله تعالى ولد، وكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة؟! وإنما ذلك قولهم بأفواههم فقط.

و ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ حال من القول، والمراد أنه قول لا يعدو الوجود في اللسان، وليس له ما يحققه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كذبًا، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وفي هذا أيضًا إلزام لهم بهذا القول، وسد باب تنصلهم منه؛ إذ هو إقرارهم بأفواههم وصريح كلامهم.

فإن قيل: من المعلوم أن كل قول إنما يقال بالفم فلم قال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؟ وما معنى تخصيصهم بهذه الصفة؟ فالجواب: لما كان قولهم لا يعضده برهان وإنما هو لفظ يفوهون به، وهو فارغ من معنى معتبر؛ لأن إثبات الولد للإله قول باطل، لأنه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة، اعتبر قولهم هذا مجرد قول بالأفواه فقط، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقد يكون المراد: أنهم يصرحون بهذا المذهب ولا يخفونه ألبتة، أو يكون المعنى: أنهم دعوا الخلق إلى هذه المقالة حتى وقعت هذه المقالة في الأفواه والألسنة، والمراد مبالغتهم في دعوة الخلق إلى هذا المذهب.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٤/ ١٧٥.
(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٦٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٣/ ١٠١.

قال أهل المعاني: إن الله سبحانه لم يذكر قولًا مقرونًا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولًا زورًا؛ كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران:١٦٧].

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[الفتح:١١][1].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن من أخبر عن كفر غيره الذي لا يجوز لأحد أن يبتدئ به لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على سبيل الاستعظام له والرد عليه، ولو شاء ربنا ما تكلم به أحد، فإذا أمكن من إطلاق الألسنة به فقد أذن بالإخبار عنه، على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة»[2].

ومن نطق اللسان بالكفر ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[إبراهيم: ٩]وضمائر (ردوا) و(أيديهم) و(أفواههم) عائد جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه، ومعنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ يحتمل عدة وجوه، أنهاها في الكشاف إلى سبعة[3]، وفي بعضها بعد، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل؛ كراهية أن تظهر دواخل أفواههم، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل.

والرد مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه، كما أشار إليه الراغب[4].

أي: وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها، ثم أعادوا وضعها، فتلك الإعادة رد.

وحرف (في) للظرفية المجازية، والمراد بها التمكين، فهي بمعنى (على) كقوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الزمر:٢٢]، فيكون معنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: جعلوا أيديهم على أفواههم، وعطفه بفاء التعقيب مشيرًا إلى أنهم بادروا برد أيديهم في أفواههم بفور تلقيهم دعوة رسلهم، فيقتضي أن يكون رد الأيدي في الأفواه تمثيلًا لحال المتعجب المستهزئ؛ فالكلام تمثيل للحالة المعتادة، وليس المراد حقيقته؛ لأن وقوعه خبرًا عن الأمم مع اختلاف عوائدهم وإشاراتهم واختلاف الأفراد في حركاتهم عند التعجب قرينة على أنه ما أريد به إلا بيان عربي[5].

أو يكون معنى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١١٨.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٦٢.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٤٢.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤٩.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٦٧.

﴿أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ عضوها غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل، كقوله: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران:١١٩].

أو ضحكًا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به، من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، تيئيسا لهم من التصديق، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ وهذا قول قوي، أو يكون المراد أنهم وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو يكون المراد: ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون[١].

ومن نطق اللسان بالكفر أيضًا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ﴾ [المائدة:٦٤].

ففي هذه الآية إخبار من الله عن جراءة اليهود عليه سبحانه، وسوء أدبهم معه، وتوبيخ لهم على جحودهم نعمه التي لا تحصى.

وأرادوا بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ أنه سبحانه بخيل عليهم، ممسك خيره عنهم، مانع فضله عن أن يصل إليهم، حابس عطاءه عن الاتساع لهم، كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف[٢].

وهذه من أقبح الكلمات التي نطقتها ألسنتهم بالكفر.

والمقصود أن من آفات اللسان النطق بالكفر، ويجري مجرى النطق بألفاظ الكفر كتابتها مدركًا معناها ومرماها من غير إكراه، وقد جاءت الرخصة بإجراء كلمة الكفر على اللسان على سبيل الإكراه، ويتفاوت الأمر بين صاحب العزيمة والرخصة.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦].

فمن نطق بالكفر عالمًا به غير مكره وقاله لا على سبيل الحكاية علم كفره؛ لأن اللسان ترجمان صاحبه، ومدبر أمره، والمؤدي لمافي قلبه وجوارحه من صلاح أو فساد، يجري ذلك على ترجمته بما ينطق.

ثانيًا: النطق بالكذب والنفاق:

ومن آفات اللسان النطق بالكذب والنفاق.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٦٩.

(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ٣١٣.

﴿لَنَآ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [الفتح:١١].

فوصف الله هؤلاء المنافقين أنهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في الجنان، وهو كناية عن كذبهم، فالجملة استئناف لتكذيبهم، والكذب راجع لما تضمنه الكلام من الخبر عن تخلفهم بأنه لضرورة داعية له، وهو القيام بمصالحهم التي لا بد منها، وعدم من يقوم بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام[1].

وهذا يدل على أن مخالفة اللسان لما في القلب من علامة النفاق، وهذه هي طبيعة المنافقين ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢].

وكان خداعهم بالقول وبالفعل، وخداعهم بالقول في قوله عنهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [الفتح:١١].

وخداعهم في الفعل في قوله عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء:١٤٢].

ومع أن القول لا يكون إلا باللسان إلا أنه قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم﴾ وكأن المراد أن هذا القول لم يواطئ القلب وإنما هو من طرف اللسان فقط.

ولهذا قيل: إن القول المطلق والعمل المطلق في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وهذا لا يسمى قولًا إلا بالتقييد، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [الفتح:١١].

وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين التي لا يتقبلها الله[2].

وذكر الألسنة لأن الناس يقولون: قال في نفسه، وقلت في نفسي، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[المجادلة:٨].

فعلم أن ذلك القول باللسان دون كلام النفس.

فلما كان المنافق يختلف ما في قلبه عما في لسانه صار ما ينطق به لسانه كذبًا ونفاقًا، أما المؤمن فقلبه ولسانه سواء؛ ولذلك جاء الأمر بحفظ اللسان والتحذير من إطلاق العنان له.

وسلامة اللسان من سلامة القلب، فإذا كان القلب سليمًا كانت الجوارح سليمة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٩].

أي: أن يكون خاليًا عن العقائد الفاسدة، والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها.

---

(١) روح المعاني، الألوسي ١٩/ ١٩٤.

(٢) انظر: الإيمان الأوسط، ابن تيمية ص١٢٣.

فإن قيل: فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيًا، وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد، وجوابه: أن القلب مؤثر، واللسان والجوارح تبع، فلو كان القلب سليمًا لكانا سليمين لا محالة، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب[1].

ووصف الله ألسنة المنافقين بأنها سلقة ذربة، فقال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب:١٩].

والسلق والصلق: رفع الصوت والصياح، ومنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بريء من الصالقة[2]. يعني بالصالقة أو السالقة التي ترفع صوتها بالنياحة. ومنه قولهم: خطيب مسلق ومسلاق وسلاق وصلاق، بالسين والصاد جميعًا، أي: ذو بلاغة ولسن[3]. وأصل السلق: بسط العضو ومده للأذى، سواء أكان هذا العضو يدًا أو لسانًا[4].

والسلق بالألسنة عبارة عن الكلام بكلام مستكره[5]. ففسر السلق بأذى اللسان، ومنه قول الأعشى[6]:

فيهم الخصب والسماحة والنجـ
ـدة فيهم والخاطب المسلاق[7]

والمراد به الإيذاء بالكلام السيء القبيح، أي: رفعوا أصواتهم عليكم بألسنة حداد، والحداد: جمع حديد، وحديد: كل شيء نافذ، ومثله قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢][8]. يقال: لسان حديد نحو لسان صارم وماضٍ، وذلك إذا كان يؤثر تأثير الحديد. والمعنى: فصحاء قادرين على الكلام، وأصحاب ألسنة شديدة ذربة.

فألسنة المنافقين كانت عند الخوف في غاية اللجلجة، لا تقدر على الحركة من قلة الريق ويبس الشفاه، وهذا لطلب العرض الفاني من الغنيمة وغيرها، فإذا ذهب الخوف صارت ذربة قاطعة[9].

وهكذا حال المنافقين لما ذكر القتال أمامهم صار حالهم كحال المغشي عليه من الموت، وعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانًا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٤٨٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة، رقم ١٢٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية، رقم ٢٩٨.
(٣) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٣٤٠.
(٤) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٤٠٦.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٦١.
(٦) البيت في ديوانه ص٢٦٣.
وانظر: الحيوان، الجاحظ ٣/ ٢٣٤، تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٣٠٨.
(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٥٤.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٣٦.
(٩) السراج المنير ٨/ ٣٤٥.

فهم -أي: المنافقون- عند الشدائد جبناء بخلاء، فإذا ما ذهب الخوف وحل الأمان سلطوا عليكم ألسنتهم البذيئة بالأذى والسوء، ورموكم بألسنة ماضية حادة، تؤثر تأثير الحديد في الشيء، وارتفعت أصواتهم بعد أن كانوا إذا ما ذكر القتال أمامهم صار حالهم كحال الذي يغشى عليه من الموت[1].

فإن قيل: وصف الله ألسنة المنافقين هنا بقوله: ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]، وقال في موطن آخر: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، أي: لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، ووصفهم في موضع آخر بأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨].

إلى غير ذلك من الآيات، فكيف الجمع؟

والجواب: أن وجه الجمع ظاهر، وهو أنهم بكم عن النطق بالحق وإن رأوا غيره، وقد بين تعالى هذا الجمع بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف:٢٦]. الآية؛ لأن ما لا يغني شيئًا فهو كالمعدوم، فالكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء؛ فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم، والعرب ربما أطلقت الصمم على السماع الذي لا أثر له، ومن ذلك قول قعنْ:

إذا سمعوا خيرًا ذكرت به

وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر[2]:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب

حلمي أصم وأذني غير صماء

ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب من إطلاق الصمم على السماع الذي لا فائدة فيه، وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه، والرؤية التي لا فائدة فيها[3].

فهذا الذي ذكره جل وعلا من فصاحتهم وحدة ألسنتهم مع تصريحه بأنهم بكم يدل على أن الكلام الذي لا فائدة فيه كلا شيء، كما هو واضح، وكما قيل[4]:

وإن كلام المرء في غير كنهه

لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

ثالثًا: لي اللسان بقصد السب والإيذاء:

(اللي) عبارة عن عطف الشيء ورده عن الاستقامة إلى الاعوجاج، يقال: لويت يده والتوى الشيء إذا انحرف، والتوى فلان علي إذا غير أخلاقه عن الاستواء إلى ضده، ولوى لسانه عن كذا إذا غيره، ولوى فلانًا عن رأيه إذا أماله عنه[5].

فيكون أصل اللي: الانعطاف والانثناء، ومنه: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران:١٥٣].

---

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٤٠٦.

(٢) البيت لبشار بن برد في ديوانه ص١٢٥.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٥٥.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ١٧، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٣٧.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٦٨.

ولي اللسان: تحريف الكلام في النطق به أو في معانيه. أي: إنهم يثنون ألسنتهم ليكون الكلام مشبهًا لغتين، بأن يشبعوا حركات، أو يقصروا مشبعات، أو يفخموا مرققًا، أو يوقفوا مفخمًا؛ ليعطي اللفظ في السمع صورة تشبه صورة كلمة أخرى، فإنه قد تخرج كلمة من زنة إلى زنة ومن لغة إلى لغة بمثل هذا، فاللي كيفية من كيفيات القول[1].

والعلة من هذا اللي بالكلمة أو بالكلام ليكون اللفظ في السمع مشبهًا لفظًا آخر هم يريدونه لأنه يدل على معنى ذميم.

وهذا اللي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود في بني إسرائيل، وقد أخبر الله أن من اليهود فريقًا دأبوا على تبديل كلام الله وتغييره عما هو عليه افتراء على الله واستهزاءً بالرسول.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٤٦].

فقوله: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾ معناه: أنهم يعمدون إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفًا يتغير به المعنى، وهذا كثير في لسان العرب، فلا يبعد مثله في العبرانية، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد -عليه الصلاة والسلام- من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾[2].

وفي الآية نهي من الله لعباده المؤمنين من أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم؛ وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص، وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم[3]، والسام هو الموت؛ ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ«وعليكم» وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولًا وفعلًا[4].

وذكر الله بعض الأمثلة من لي الألسنة من قبل يهود، منها: أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ ويقصدون بهذا القول الإساءة إليه صلى الله عليه وسلم، يقصدون به رميه بالرعونة، ويوهمون

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٦١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشًا ولا متفحشًا، رقم ٥٦٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم ٥٧٨٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٣.

أنهم يقولون: راعنا، أي: احفظنا، أو راعنا سمعك، وإنما يريدون الرعونة[1].

وينطقون بهذه الكلمة وما يشابهها نطقًا ملتويًا منحرفًا ليصرفوها عن جانب احتمالها للخير إلى جانب للشر؛ ولذا فقد نهى الله تعالى المؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الألفاظ[2].

وأتوا بلفظ ظاهره طلب المراعاة، أي: الرفق، والمراعاة: مفاعلة مستعملة في المبالغة في الرعي على وجه الكناية الشائعة التي ساوت الأصل؛ لأن الرعي من لوازمه الرفق بالمرعي وطلب الخصب له ودفع العادية عنه، وهم يريدون بـ(راعنا) كلمة في العبرانية تدل على ما تدل عليه كلمة الرعونة في العربية.

وقد روي أنها كلمة (راعونا) وأن معناها الرعونة، فلعلهم كانوا يأتون بها يوهمون أنهم يعظمون النبي صلى الله عليه وسلم بضمير الجماعة، ويدل لذلك أن الله نهى المسلمين عن متابعتهم إياهم في ذلك، فقال في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٠٤][3].

وقوله: ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: فتلًا بها وتحريفًا عن الحق إلى الباطل، حيث يضعون راعنا مكان انظرنا، وغير مسمع مكان لا أسمعت مكروهًا، أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقًا[4].

ومعنى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أنهم يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم عند مراجعته في أمر الإسلام: اسمع منا، ويعقبون ذلك بقولهم: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يوهمون أنهم قصدوا الظاهر المتبادر من قولهم: غير مسمع أي: غير مأمور بأن تسمع، في معنى قول العرب، «افعل غير مأمور» أو يكون معناه: غير مسمع مكروهًا، فلعل العرب كانوا يقولون: أسمعه بمعنى سبه.

والحاصل أن هذه الكلمة كانت معروفة الإطلاق بين العرب في معنى الكرامة والتلطف إطلاقًا متعارفًا، ولكنهم لما قالوها للرسول أرادوا بها معنى آخر انتحلوه لها من شيء يسمح به تركيبها الوضعي، أي: أن لا يسمع صوتًا من متكلم، بأن يصير أصم، أو أن لا يستجاب دعاؤه، وقصدهم من إيراد كلام ذي وجهين أن يرضوا الرسول والمؤمنين، ويرضوا أنفسهم بسوء نيتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرضوا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٤.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٩٦١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٦١.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ١٥٣.

قومهم، فلا يجدوا عليهم حجة[1].

ثم بين سبحانه ما كان يجب عليهم أن يقولوه لو كانوا يعقلون، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي: لو تبدلوا بالعصيان الطاعة، ومن الطاعة الإيمان بك، واقتصروا على لفظ: اسمع، وتبدلوا براعنا قولهم: وانظرنا، فعدلوا عن الألفاظ الدالة على عدم الانقياد والموهمة إلى ما أمروا به؛ لكان أي: ذلك القول خيرًا لهم عند الله، وأعدل، أي: أقوم وأصوب[2].

رابعًا: اللسان ومقالة السوء:

جعل الله تعالى اللسان وسيلة للتعبير عن النفس وخواطرها وأفكارها، كما جعله وسيلة للتعارف والتآلف بين الناس، وقد خصص الله اللسان للكلام، وحدد له ما ينبغي له التحدث فيه، ألا وهو الحسن من الكلام، الذي يؤلف القلوب، ويصلح بين الناس، ويحق الحق، ويبطل الباطل، وحذرنا من الكلام المذموم، ومن الإسراف بالقول، ومن قالة السوء.

وقد أخبر الله تعالى أن الكفار يبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء للمؤمنين، فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢].

فبسط الأيدي حقيقة في مدها للضرب والسلب، وبسط الألسنة مجاز في عدم إمساكها عن القول البذيء[3].

فالبسط مستعار للإكثار لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل، وتشبيه ضده وهو القبض بضد ذلك، فبسط اليد الإكثار من عملها، والمراد به هنا عمل اليد الذي يضر، مثل الضرب والتقييد والطعن، وعمل اللسان الذي يؤذي، مثل الشتم والتهكم، ودل على ذلك قوله: ﴿بِالسُّوءِ﴾ فهو متعلق بـ ﴿وَيَبْسُطُوا﴾ الذي مفعوله: ﴿أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾[4].

وأخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، فقال: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨].

والمعنى أنه تعالى لا يحب لأحد من عباده أن يجهر بالأقوال السيئة إلا من وقع عليه الظلم فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول في الحدود التي تمكنه من رفع الظلم عنه دون أن يتجاوز ذلك، كأن يجهر الخصم بما ارتكبه خصمه في حقه من مآثم، وكأن يذكر المظلوم الظالم بالقول السيئ متحريًا البعد عن الكذب والبهتان.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٦١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ١٥٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٦.
(٤) المصدر السابق ٢٨/ ٣٨٣.

ومع ذلك فعفوه وعدم مقابلته أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ استثناء منقطع، فتكون إلا بمعنى (لكن) أي: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن من ظلم له أن يجهر بالسوء لكي يدفع ما وقع عليه من ظلم.

ويحتمل أن يكون متصلًا، فيكون المعنى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من أحد إلا ممن ظلم، فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول لرفع الظلم عنه، فيكون الاستثناء من الفاعل المحذوف، وهو من أحد، أو: لا يحب الله الجهر السوء من القول إلا جهر من ظلم، فإنه ليس بخارج عن محبة الله؛ لأن دفع الظلم واجب، فيكون الكلام على تقدير مضاف محذوف[(١)].

فمقالة السوء بدون مقتضٍ يبغضها الله سواء أكان هذا القول سرًا أو جهرًا، إلا أنه سبحانه خص الجهر بالذكر؛ لأنه أشد فحشًا، ولأنه أكثر جلبًا للعداوة بين الناس، وأشد تأثيرًا في إشاعة الجرائم في المجتمع، فإن كثرة سماع الناس للكلام السيئ وللقول الماجن يغري الكثير منهم بترديد ما سمعوه، وبحكايته في أول الأمر بشيء من الحياء، ثم لا يلبث هذا الحياء أن يزول بسبب إلف الناس للكثير من الألفاظ النابية والأقوال السيئة.

وفي القرآن عشرات الآيات تأمر المسلمين بالمداومة على النطق بالكلام الطيب حتى تنتشر بينهم المحبة والمودة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

والمقصود أن الله تعالى لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقته، ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله، ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

والإسلام يحب لأتباعه أن يلتزموا النطق بالكلمة الطيبة، ويكره لهم أن يجهروا بالسوء من القول إلا في حالة وقوع ظلم عليهم، ففي هذه الحالة يجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول حتى يرتدع الظالم عن ظلمه.

وأمر الله عباده المؤمنين أن يقولوا التي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فهذا الأمر ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ على وجه الإطلاق وفي كل مجال،

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ١١٦.

فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه؛ بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة، فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيء يتلوها، فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف، ثم بالجفوة، ثم بالعداء، والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، وتندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم.

وهذه الآية تكشف لنا عن أدب عظيم حريٌّ بكل مسلم أن يتأدب به ويتخلق به، وهو خلق تعويد اللسان على القول الحسن، والمجادلة بالتي هي أحسن.

و ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: الكلمة التي هي أحسن من غيرها؛ للطفها وحسنها؛ لتجد طريقًا إلى القلوب.

و ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ صفة لمحذوف يدل عليه فعل (يقولوا) تقديره: بالتي هي أحسن، وليس المراد مقالة واحدة، واسم التفضيل مستعمل في قوة الحسن، ونظيره قوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل: ١٢٥]،أي: بالمجادلات التي هي بالغة الغاية في الحسن، فإن المجادلة لا تكون بكلمة واحدة.

وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه، وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بأعمال تدخله الجنة، ثم قال له: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه وقال: (كف عليك هذا) قال: قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (ثكلتك أمك، وهل يكب الناس في النار على وجوههم) أو قال: (على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)[١].

والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضًا بحسن المعاملة، وإلانة القول؛ لأن القول ينم عن المقاصد[٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ تعليل للأمر السابق، أي: إن الشيطان يتربص بكم، ويتلمس السقطات التي تقع من أفواهكم، والعثرات التي تنطق بها ألستكم؛ لكي يشيع الشر بينكم، ويبذر بذور الشر والبغضاء في صفوفكم، ويهيج أعداءكم عليكم، فهو يتلمس سقطات فمه، وعثرات لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٦١٦، والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، سورة السجدة، رقم ١١٣٩٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٩/ ٦٤، رقم ٣٢٨٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤٦٩.

الأخوة آمنًا من نزغاته ونفثاته[١].

وينزغ بمعنى يفسد، يقال: نزغه كنفعه ينزغه إذا طعن فيه واغتابه، أي: أن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس وإشعال نار الفتنة بالكلمة الخشنة يفلت بها اللسان؛ لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم؛ ولقد حذرنا الله سبحانه من الشيطان وكيده في كثير من آيات القرآن الكريم[٢].

قال ابن القيم رحمه الله مبينًا حرص الشيطان على إفساد هذه الجارحة في الإنسان: ثم يقول -أي الشيطان-: قوموا على ثغر اللسان؛ فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك؛ فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل؛ فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم، ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق؛ فإن الساكت عن الحق أخ لك أخرس، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم، أما سمعتم قول الناصح: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس» فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبهم منه على مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر! وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع؛ فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعوانًا على الإنس بكل طريق[٣].

والمقصود أن هذا من لطف الله بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، ففي قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨.
(٢) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٦٤٢.
(٣) الجواب الكافي ص٦٩.

فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره[١].

ولهذا كان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٠.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٣٥.

دلالة اللسان على قدرة الله وعظمته

من آيات الله المعجزة خلق الألسن التي تعبر باللغات المختلفة، وبها تعرف الحالة الصحية للإنسان، وفيها لمسات إعجازية أشار إليها العلماء، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: اختلاف الألسن من آيات الله:

أخبر الله جل جلاله أن من آياته الدالة على باهر قدرته اختلاف ألسنة البشر، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

فقوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم[٣].

بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التي يتكلم بها أفرادها، ومئات اللهجات، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها مع اتحاد

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٩.

المدلول عجائب وغرائب في المفردات والمركبات.

فاختلاف لغات البشر آية عظيمة، فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما كونه الله في غريزة البشر من اختلاف التفكير، وتنويع التصرف في وضع اللغات، وتبدل كيفياتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغير الأصول المتحدة إلى لغات كثيرة، فلا شك أن اللغة كانت واحدة للبشر حين كانوا في مكان واحد، وما اختلفت اللغات إلا بانتشار قبائل البشر في المواطن المتباعدة، وتطرق التغير إلى لغاتهم تطرقًا تدريجيًا على أن توسع اللغات بتوسع الحاجة إلى التعبير عن أشياء لم يكن للتعبير عنها حاجة، قد أوجب اختلافًا في وضع الأسماء لها، فاختلفت اللغات بذلك في جوهرها، كما اختلفت فيما كان متفقًا عليه بينها باختلاف لهجات النطق، واختلاف التصرف، فكان لاختلاف الألسنة موجبان، فمحل العبرة هو اختلاف مع اتحاد أصل النوع، كقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾[الرعد:٤]، ولما في ذلك الاختلاف من الأسرار المقتضية إياه.

أو يكون المراد: باختلاف الألسنة اختلاف الأصوات لا اللغات، بحيث تتمايز أصوات الناس المتكلمين بلغة واحدة، فنعرف صاحب الصوت وإن كان غير مرئي[1].

وسواء قلنا: إن اختلاف الألسنة معناه: اختلاف اللغات أو المراد به اختلاف الأصوات (النغمة) حتى لا يشتبه صوتان من أخوين لأم وأب، فعلى كلا المعنيين هي آية عظيمة من آيات الله تعالى.

فاختلاف لغات البشر على كثرتهم منذ خلق الله آدم إلى آخر الدنيا مع اتحادهم في النوع ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز، وهذا دال على كمال قدرته ونفوذ مشيئته، ومن عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

وباختلاف الألسنة يقع التعارف والتمايز، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح، وفي ذلك آية بينة، حيث ولدوا من أب واحد وهم على كثرتهم متفاوتون[2].

فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجه، بل هناك تمايز بين الأشخاص، حتى إن التوأمين مع توافق

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٣٤.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٢.

موادهما وأسبابهما والأمور المتلاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة، وإن كانا في غاية التشابه، وإنما نظم هذا في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة بالانتظام في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم[1].

فمن حكمة الله ورحمته أن علم كل صنف لغته، وألهمه وضعها، وأقدره عليها، وخالف بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وهم من نفس واحدة[2].

ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك فيه الدلالة القاطعة على أن الله جل وعلا واحد، لا شبيه له، ولا نظير، ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير فهو بقدرة وإرادة الفاعل المختار، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته جل وعلا .

وقد أوضح تعالى في غير هذا الموضع أن اختلاف ألوان الآدميين واختلاف ألوان الجبال والثمار والدواب والأنعام كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر: ٢٨].

واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر جل وعلا، وأن إسناد التأثير للطبيعة من أعظم الكفر والضلال[3].

كما أوضح ذلك في قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم والمقادير والمنافع. فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه جل وعلا عن الشركاء والأنداد[4].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٥٦.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٧٧.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق.

ثانيًا: عضلة اللسان والعلم الحديث:

اللسان هو عضو عضلي موجود داخل الفم، يرتبط بالفك عبر سبع عشرة عضلة، تؤمن له حركته وعمله، ويغلف سطح اللسان غشاء مخاطي، تغطيه آلاف الحليمات الصغيرة، التي تحتوي في أطرافها على نهايات عصبية بمثابة حاسة التذوق، ويكون سطحه مبللًا باللعاب مما يبقيه رطبًا.

ويغطي سطح اللسان العديد من الحليمات التي تنقسم إلى أربعة أنواع: الخيطية، والكمئية، والورقية، والكأسية.

ومن حكمة الله وقدرته أن جعل اللسان عضوًا لحميًا لا عظم فيه ولا عصب؛ لتسهل حركته، ومن حكمته أنه لم يجعله يعظم كثيرًا حتى يخرج من الفم، ولا يسعه الفم، بل ينمو بقدر الفم.

يقول ابن القيم: «وجعل سبحانه اللسان عضوًا لحميًا لا عظم فيه ولا عصب؛ لتسهل حركته؛ ولهذا لا تجد في الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه، فإن أي عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون إلا اللسان، و أيضًا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها، وهو في الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه، فمزاجه من أعدل أمزجة البدن، ويحتاج إلى قبض وبسط وحركة في أقاصي الفم وجوانبه، فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك، ولم يتهيأ منه الكلام التام، ولا الذوق التام، فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلي والغائي[(١)].

واللسان يتركب من مجموعة من العضلات: خارجية: تربط بينه وبين أجزاء الفم الأخرى، وداخلية: وهي مختلفة الأشكال، فتعطي اللسان القوة والمرونة، ويحتوي لسان الإنسان على (١٢٠٠٠) حليمة ذوقية.

وجعل سبحانه وتعالى على اللسان غلقين: أحدهما: الأسنان، والثاني: الفم، وجعل حركته اختيارية، وجعل على العين غطاء واحدًا، ولم يجعل على الأذن غطاء، وذلك لخطر اللسان وشرفه، وخطر حركاته، وكونه في الفم بمنزلة القلب في الصدر، وذلك من اللطائف، فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر، وآفة النظر أكثر من آفة السمع، فجعل للأكثر آفات طبقين، وللمتوسط طبقًا، وجعل الأقل آفة بلا طبق[(٢)].

وهو العضلة الوحيدة المشدودة من طرف واحد، ويتحرك بطريقة لا تتحرك بها أية عضلة أخرى، وسطح اللسان معظمه من نتوءات صغيرة تسمى الحليمات، وفي جدران هذه الحليمات تقع براعم الذوق والطعم، ولدى الإنسان حوالي ثلاثة آلاف

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص١٩٣.
(٢) المصدر السابق.

برعم ذوقي، وقيل: أكثر من ذلك.

ثالثًا: وظائف اللسان:

وظائفه كثيرة: كالكلام، والتذوق، وتقليب الطعام أثناء مضغه في الفم، والمساعدة في البلع، حيث يعطي البلعوم إشارة عاجلة بالانفتاح، ويبقي الأسنان نظيفة بحمايتها من تجميع الحموض عليها، أو تسوسها، وهو وسيلة للوقاية من الأطعمة الضارة، التي لا يستسيغها الذوق؛ لتلوثها أو تسممها، فيدرك اللسان ذلك أول وهلة، فيسمح للنافع بالمرور، ويمنع الضار، ويرسل ما يمكن معالجته للأسنان، ويمنع غير ذلك؛ فهو حارس أمين بما قدره الله له.

وهو عامل مهم في مضغ الطعام وبلعه، يدفع باللقمة إلى الأسنان، ويلتقطها دون أن يتعرض هو للقطع، وقد يحدث نادرًا أن يقع اللسان في مصيدة الأسنان أثناء الأكل، فنشعر بالألم، ونفهم عندئذٍ مدى مهارة اللسان في تجنب الانزلاق تحت الأسنان مع أنه ملاصق لها! واللسان بعد ذلك ينظف جوف الفم والأسنان من بقايا الطعام.

ولو تعرض هذا اللسان لقطع أو جرح أو عضته الأسنان عفويًا فإنه لأهميته من أسرع عضلات الجسم التحامًا.

رابعًا: اللسان والكلام:

جعل الله للإنسان لسانًا يترجم به عن ضمائره، وبه تنعقد المعاملات، وتحصل الشهادات، ولو لم يكن اللسان لاحتاج الإنسان إلى الإشارة أو الكتابة فتعسر أمره، وقد سبق الكلام على دور اللسان، وأنه وسيلة في البيان والإفصاح عما يريده الإنسان.

فأهم وظائف اللسان الكلام بتحركه السريع المتواصل المنظم في الجهات الست، وهو دور عجيب، والإمعان فيه يثير الدهشة والحيرة، فقد يسر الله تعالى للإنسان وسيلة سهلة للتكلم، وفي متناول الجميع، فلا يصيبها تعب ولا نصب ولا ملل، ولا تكلف الإنسان خرجًا!

وقد قيل: إن كل حرف ينطقه اللسان يسهم في تكوينه سبعة عشر عضلة، فكم يا ترى حركة يتحركها اللسان إذا نطقت بحرفٍ واحد؟!

وأعجب من ذلك موضوع استعداد الإنسان للكلام، وهذا الاستعداد أودعه الله في الإنسان؛ ليستطيع من خلاله تكوين الجمل بأشكال لا تعد ولا تحصى، وأن يبين ما لا نهاية له من الغايات، وتنوع اللغات أيضًا وقابلية الإنسان على وضع لغات مختلفة هذه الأهمية تتضح من خلال مطالعة مفردات آلاف اللغات المنتشرة في العالم.

يقول ابن القيم وهو يتكلم عن منافع اللسان: «وأودع في اللسان من المنافع منفعة الكلام -وهي أعظمها- ومنفعة الذوق والإدراك»[1].

ومن عجائب قدرة الله في اللسان أن يأتي النطق من هواء يكون من الرئة يخرج من مخارج معينة، إن مر بشيء صار حرفًا، وإن مر بشيء آخر صار حرفًا آخر، وهو هواء واحد من مخرج واحد، لكن يمر بشعيرات دقيقة في الحلق، وفي الشفتين، وفي اللثة، هذه الشعرات تكون الحروف، فتجد مثلًا الباء والشين كلها بهواء يندفع من الرئة، ومع ذلك تختلف باختلاف ما تمر عليه في هذا الفم، ومخارج الحروف المعروفة، هذا من تمام قدرة الله عز وجل[2].

والمختصون في الأصوات ونبراتها يوزعون حروف الهجاء على أجزاء الفم واللسان، وسموها مخارج الحروف، وهي أربعة عشر مخرجًا، ومن صنع الله الذي أتقن كل شيء، فلا يخرج حرف مع مخرج حرف آخر، ولا تتشابه نبرة حرف بنبرات حرف آخر، حتى يسهل التفاهم بين الناس، وحتى تمر حوائجهم بسهولة، كما هيأ سبحانه لمخارج الحروف التي ينطقها اللسان قدرة عجيبة على التكيف مع كل لغة يريد الإنسان دراستها، بحيث يتعود لسانه عليها كما ينطقها أبناؤها الذين مارسوها طوال حياتهم.

ثم إنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة؛ لتختلف الأصوات باختلافها، فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان، وهذا من أظهر الأدلة، فإن هذا الاختلاف -الذي بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها فقلما يشتبه صوتان أو صورتان- ليس في الطبيعة ما يقتضيه، وإنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء، وأحسن كل شيء خلقه، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين، فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر[3].

ونلحظ حتى الطفل الصغير قد وهبه الله لسانًا يعبر به عن نفسه، ووهبه غريزة حب الكلام والتعبير عن النفس، وهذه الغريزة تجعله يخترع دلالات بلسانه قبل أن يعرف المعنى الذي يريد، فيقول عن كل شيء غير حسن مثلًا: (كخه) والقبيح: (يعه)، وهكذا يخترع كلمات تعبر عن مفهومه، وقد قيل عن سكان الغابات: إنهم يتفاهمون مع حيواناتها والوحوش بنغمات قريبة من نطقها، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم ص ٢٨.
(٣) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص١٩٣.

يقول الغزالي: «فإن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه؛ إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مئونة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان، واللسان رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله»[1].

والمقصود أن من أهم وظائف اللسان الكلام، وهذا الكلام الذي امتن الله تعالى به على العبد يمكن أن يرتقي به الإنسان إلى أعلى الدرجات، ويمكن أن ينحط به إلى أسفل الدركات، فالكلمة ذات جوانب متعددة الأهمية: بها يتم إعلان المبادئ والمعتقدات، وبها يتم التلفظ بالعقود والشهادات، كما أنها هي التي يعرف بها كفر الكافرين وجحود الجاحدين، كما قال القائل[2]:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالألسنة -كما يقال- مغاريف القلوب، فهي التي تعبر عما استقر فيها من الإيمان والمعتقدات؛ ولذلك قال جل وعلا: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

وكلمة التقوى هنا هي كلمة التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

خامسًا: اللسان والتذوق:

خلق الله في اللسان حاسة التذوق، بما يسمى قنوات التذوق، فيوجد في اللسان مع صغر حجمه تسعة آلاف برعم ذوقي؛ لمعرفة الطعم الحلو، والحامض، والمر، والمالح، ولا يختلط بعضها ببعض، حيث تتميز بها طعم الفاكهة بأنواعها، ويظهر التمايز بينها وبين الخضروات من طماطم وخيار وخس وجرجير وغيرها من المأكولات والمشروبات من أنواع

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٠٨.

(٢) البيت منسوب للأخطل في مجمع الحكم والأمثال، أحمد قبش ٩/ ١٢٧.

المأكولات والمشروبات العديدة التي سخرها الله لعباده في الحياة الدنيا، فضلًا منه جل وعلا .

ومن بديع صنع الخالق سبحانه وتعالى أن جعل لكل طعم منطقته الخاصة في اللسان، فتتذوق المادة الحلوة بطرف اللسان، بينما تتذوق المادة المالحة على جانبي اللسان من الأمام، وتتذوق المادة المرة في نهاية اللسان والحنك، بينما تتذوق المادة الحامضة على جانبي اللسان والحنك، أما وسط اللسان فهو لا يميز أي مذاق.

ويكسو اللسان غشاء مخاطي، كما يتصف سطح اللسان السفلي بالنعومة، أما العلوي فخشن بسبب النتوءات المنتشرة على سطحه، وتوجد ضمن هذه النتوءات أربعة أصناف من النتوءات الذواقة التي تساعدنا على التمييز بين الطعم الحلو والحامض والمالح والمر.

وتتأثر حاسة التذوق بعوامل كثيرة، منها: وجود التهاب، أو اضطراب في الجهاز التنفسي، أو في حاسة الشم.

سادسًا: من عجائب اللسان:

نعمة اللسان موجودة في الإنسان والحيوان ولكن ما يميز الإنسان عن الحيوان أن الله أعطاه اللسان وسيلة للتخاطب والتعارف والقدرة على الكلام، ومناجاة الخالق سبحانه وتعالى، بينما الحيوان لا يستطيع سوى تحريك الطعام بلسانه، فسبحان الله الخالق الحكيم!

ومن عجيب حكمة الله أن جعل في كل آدمي من الأعضاء النافعة -في الغالب- اثنين اثنين، والأعضاء الضارة واحدًا واحدًا، فهناك أذنان حتى إذا أصيبت واحدة بالصمم عملت الثانية، وجعل يدين ورجلين وكليتين، فإذا خربت واحدة عملت الأخرى.

لكن الأشياء الضارة واحدة واحدة، عضلة اللسان واحدة، وفرج واحد، تأمل كيف سيكون الحال لو أن مع الإنسان لسانين واحدًا هنا وواحدًا هنا؟! كيف سيكون حاله؟ هو ما نجح ولا أفلح مع لسان واحد فكيف سيفلح مع لسانين؟! ما أمسكه، بل تجده أفسد الدنيا بلسانه، ولا نجح في الدنيا بفرج واحد، فلو كان معه فرجان؟! كان ذلك همًّا عليه كبيرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فمن رحمة الله وحكمته أن جعل له من النافع اثنين، ومن الضار واحدًا، إلا القلب جعله واحدًا وهو نافع، قال الله عز وجل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤].

فلماذا يا ترى؟ فالجواب: لو أن معه قلبين والقلب هو مركز الإحساس لكان قلب يريد أن يرقد وقلب يريد أن يذهب،

للعمل، وقلب يحب فلانًا وقلب يكرهه، وقلب يريد أرزًا، وقلب يريد عصيدة ومرقًا، وقلب يريد أن يواصل الدراسة وقلب يقول: لا والله لا أواصل، فمن يطيع منهم يا ترى؟! إذن لا يصلح أن يكون معه قلبان إنما الذي يصلح أن يكون معه قلب واحد؛ ولهذا قال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤].

وإنما تعدد العين والأذن وتفرد اللسان؛ لأن حاجة الإنسان إلى السمع والبصر أكثر من حاجته إلى الكلام، وفيه تنبيه أيضًا على أن يقلل من الكلام إلا في الخير، وألا يتكلم فيما لا فائدة فيه، وهو السر في أن الله تعالى جعل اللسان داخل الفم، وجعل دونه الشفتين اللتين لا يمكن الكلام إلا بفتحهما؛ ليستعين العبد بإطباق شفتيه على رد الكلام، وقد حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يجعل في فمه حجرًا؛ ليمتنع من الكلام فيما لا يعنيه، وقد قيل: «ابن آدم، إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك بطبقتين فأطبق»[1].

ومن عجيب حكمته تعالى أنه أجرى في هذا الرأس أربعة أنهار: نهر في العين مالح، ونهر في الأذن مر، ونهر في الفم عذب، ونهر في الأنف مخاطي مالح، فمن الذي أفرز الأنهار هذه كلها والمادة كلها واحدة؟

مالح في العين، لماذا؟ لأن العين شحمة لو لم يكن فيها مادة مالحة؛ لتعفنت ودودت، وظهر الدود من العين، ومر في الأذن؛ لأن الأذن مجرى للسمع، فلو أن الله لم يجعل هذه المادة الصمغية المرة موجودة؛ لقام الإنسان في الصباح ومسمعه مليء بالبراغيث أو بالقمل، ودخلت في رأسه، فمن الذي سوف يخرجها من رأسه؟ لكن الله جعل هذه المادة السامة المرة بمجرد وأنت نائم تأتي الحشرات إلى مسمعك ثم تهرب ولا تدخل مسمعك، من الذي قام في يوم من الأيام وقال: والله في مسمعي حشرات؟ لا أحد، لا تستطيع أن تدخل؛ لأنه يوجد مادة ضدها.

والفم جعل الله فيه اللعاب، واللعاب حلو، ومذاقه طيب، لماذا؟ من أجل أن تهضم به الطعام وتمضغه، وتقطع وتكسر وبعد ذلك تنزل! وجعل الله المادة المخاطية في الأنف، لماذا؟ لتمتص وتحجز الأتربة والغبار الذي يدخل الرأس، ولو كنت الآن في المزرعة من الصباح إلى الظهر، ثم جئت تتوضأ وتستنثر، أما تلحظ أنه يخرج من الاستنثار تراب؟ أين كان هذا التراب؟ لقد أمسكته الأغشية التي في الأنف، ولولاها لدخلت إلى الرأس، ودخل غدًا مثلها، وتتكون في الرأس كوم طين من يخرجها من الرأس؟

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ١٧/ ٢٦١.

وما ظنك لو أن الله تبارك وتعالى جعل المادة التي في أذنك تفرز من فمك، فكيف تأكل؟! أو جعل الله المادة التي في أنفك تخرج من فمك (المخاط) كيف تصنع؟! أو جعل الله المادة الملحية تخرج من فمك، كيف تصنع؟! لكن من علم العين أن تفرز مادة ملحية؟ من علم الأذن أن تفرز مادة صمغية مرة؟ إنه الله الذي لا إله إلا هو.

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه التبيان في أقسام القرآن: «وأما الفم فمحل العجائب، وباب الطعام والشراب والنفس والكلام، ومكان اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم، وترجمان القلب، ورسوله المؤدي عنه، ولما كان القلب ملك البدن، ومعدنًا للحرارة الغريزية، فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه، فاعتدلت حرارته، وبقي هناك ساعة، فسخن واحترق، فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه، فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سببًا لحدوث الصوت في الحنجرة والحنك واللسان والشفتين والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض، ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف؛ ليؤدي بها عن القلب ما يأمر به.

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عنه المحتاج إلى دفعه وإخراجه، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة، هي من أكمل المنافع والمصالح، فإن المقصود الأصلي من النفس هو اتصال الريح البارد إلى القلب، فأما إخراج النفس هو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة، فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ومنفعة أخرى، وجعله سببًا للأصوات والحروف والكلام»[1].

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة، والريق يتحلل إليه دائمًا، لا يفارقه، وجعله حلوًا لا مالحًا كماء العين، ولا مرًا كالذي في الأذن، ولا عفنًا كالذي في الأنف، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها، حكمة بالغة، فإن الطعام والشراب يخالطه، بل هو الذي يحيل الطعام، ويمتزج به امتزاج العجين بالماء، فلولا أنه حلو لما التذ الإنسان بل ولا الحيوان بطعام ولا شراب، ولا ساغه إلا على كره وتنغيص[2].

سابعًا: دلالة اللسان على حالة الجسم الصحية:

يقول ابن القيم وهو يتكلم عن منافع اللسان: «وجعله دليلًا على اعتدال مزاج القلب وانحرافه، كما جعله دليلًا على استقامته واعوجاجه، فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة والملاسة والبياض والحمرة والتشقق

(١) التبيان في أقسام القرآن ص١٩٣.
(٢) المصدر السابق.

وغيره على حال القلب والمزاج، وهو دليل قوي على أحوال المعدة والأمعاء، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما في القلب، فيبدو عليه صحة القلب وفساده،معنىً وصورة»[1].

فتعرف حالة الإنسان الصحية من مظهر لسانه، كالتالي:

- فإذا كان اللسان كالقطيفة، وردي غامق اللون: فدل على أن الشخص سليم.
- وإذا كان على سطح اللسان غطاءٌ أبيض: فالشخص عنده سوء الهضم، أو ارتفاع في درجة الحرارة.
- وإذا كان اللسان يميل إلى الاصفرار: فهذا دليلٌ على أن نسبة الصفار عالية في الدم.
- وإذا كان اللسان يميل إلى الزرقة: فهذا يدل على وجود مرضٍ بالقلب، أو الجهاز التنفسي.
- وإذا كان لون اللسان باهتًا: فذلك يدل على وجود أنيميا.
- وإذا كان هناك رعشة في اللسان عند إخراجه من الفم: فهذا يدل على وجود تسمم، أو توتر عصبي.
- وإذا كان في اللسان بقع حمراء أو بقع حمراء محوطة بخطوط بيضاء: نقصٌ في حمض الفوليك، أو بسبب تغير المكان، وتسمى مشكلة اللسان الجغرافية.
- وإذا كان لون اللسان أسود مغطى بالشعر: فهو شكل غريب، وليس بخطير، وهو ناتج عن تزايد النتوءات بشكل كبير لدى بعض الناس، وهذا يجعلها أكثر عرضة لإيواء البكتيريا، التي عندما تنمو تتلون باللون الأسود، وتزيد من تكون تلك النتوءات التي تبدو كالشعر، وهذه الحالة ليست شائعة، وتظهر بشكل محدد لدى الأشخاص الذين لا يتبعون نظامًا صحيًا مع أسنانهم، كما يمكن أن تصيب الأشخاص الذين يستخدمون العلاج الكيميائي، أو المضادات الحيوية، وكذلك المصابين بمرض السكر.
- وإذا وجدت تشققات في اللسان: فهذا يدل على أن الشخص يعاني تعبًا في الجهاز الهضمي أو الجهاز التنفسي.

ثامنًا: اللسان والعبادة:

فأما عبودية اللسان فواجبها النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن، وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في

(١) المصدر السابق.

الركوع والسجود، وأمر بقول: ربنا ولك الحمد بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير[1].

تاسعًا: شهادة الألسن على أصحابها يوم القيامة:

اللسان سبب في نعيم الإنسان أو عذابه، فيجب على المؤمن الموحد أن يحفظ لسانه من كل ما يؤذيه في الدنيا والآخرة فكم من إنسانٍ حافظ على لسانه من الضرر الدنيوي، ولم يحفظ لسانه من الضرر الأخروي!

وقد أخبر الله تعالى أن الجوارح ومنها اللسان تشهد على ما اقترفه المذنبون، يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

فالآية صريحة في شهادة اللسان على ما فعله الإنسان، ولعله في موقف خاص من مواقف القيامة بشهادة أن القرآن يذكر أنه يختم على أفواههم فلا تتكلم ألسنتهم وإنما تتكلم أيديهم وأرجلهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

أو يكون المراد بذلك أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض، لا أن ألسنتهم تنطق وقد ختم على الأفواه[2].

وقد يكون الختم على الأفواه ليس بعدم شهادتها؛ إذ المراد منه منع المحدث عنهم عن التكلم بألسنتهم، وهو أمر وراء تكلم الألسنة أنفسها، وشهادتها بأن يجعل فيها علم وإرادة وقدرة على التكلم فتتكلم هي، وتشهد بما تشهد، وأصحابها مختوم على أفواههم لا يتكلمون[3].

والمقصود أن كل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم.

فقال في هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ بحيث يقول اللسان: نطقت بكذا ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ تقول اليد: بطشت كذا، ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ تقول الرجل: مشيت إلى كذا.

و(ما) في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ موصولة، والمراد: جميع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة، لا عن جناياتهم المعهودة فقط[4]. ونلحظ أن الله جل وعلا ذكر الأعضاء من الأعالي إلى الأسافل، فذكر أولًا شهادة اللسان، ثم شهادة الأيدي، ثم شهادة الأرجل، وأسندها إلى الجميع، فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، وهذا ترتيب بديع.

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٤٠.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٢٠.
(٤) المصدر السابق ١٣/ ٤١٠.

وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت:٢١]؛ لأن لهذه الأعضاء عملًا في رمي المحصنات، فهم ينطقون بالقذف، ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات، ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف[1].

فيكون ذكر شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم؛ للتهويل عليهم، لعلهم يتقون ذلك الموقف فيتوبون؛ لأن شهادة الأعضاء على صاحبها من أحوال يوم القيامة الفظيعة، حيث يظهر من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

وتكون شهادة الألسنة يوم القيامة بنطقها من غير اختيار الإنسان، فاللسان في الدنيا آلة خاضعة لإرادة الإنسان أما في الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه؛ لأن صاحبه ليس له مراد يومئذٍ، فتتعطل إرادته وسيطرته على جوارحه كلها، فتنطق وتتحرك لا بإرادته، إنما بإرادة الله وقدرته، ولا يبعد أن يخلق الحياة والعقل والنطق في هذه الأعضاء، ثم يوجه السؤال عليها[2].

فإن قلت: ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلامًا ونطق الرجل شهادة في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]؟

فالجواب: إن اليد مباشرة، والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى، وقول الفاعل إقرار على نفسه بما فعل[3]. والله أعلم.

موضوعات ذات صلة.

الافتراء، التسبيح، الحمد، الذكر، الشكر، الصدق، العربية، الكذب، النعم

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٨٩١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٥٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٥/ ٢٥٢.





عناصر الموضوع

مفهوم اللعب

أولًا: المعنى اللغوي:

اللعب واللعب: ضد الجد، لَعِبَ يَلْعَبُ لَعِبًا ولَعْبًا، ولَعَّبَ، وتَلاعَبَ، وتلعب مرة بعد أخرى[(١)].

ويقال لكل من عمل عملًا لا يجدي عليه نفعًا: إنما أنت لاعبٌ[(٢)].

قال الراغب: (أصل الكلمة اللعاب، وهو البزاق السائل، وقد لعب يلعب لعبًا: سال لعابه، ولعب فلان: إذا كان فعله غير قاصد به مقصدًا صحيحًا، يلعب لعبًاواللعبة للمرة الواحدة، واللعبة: الحالة التي عليها اللاعب، ورجل تلعابةٌ: ذو تلعبٍ، واللعبة: ما يلعب به، والملعب: موضع اللعب)[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وردت تعاريف كثيرة ومتعددة للفظة (اللعب)، نذكر منها:

اللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع[(٤)].

اللعب ما يشغل الإنسان، وليس فيه منفعة في الحال ولا في المآل[(٥)].

اللعب عمل يشغل النفس وينفرها عما تنتفع به[(٦)].

اللعب: عملٌ أو قولٌ في خفةٍ وسرعةٍ وطيشٍ، ليست له غايةٌ مفيدةٌ، بل غايته إراحة البال، وتقصير الوقت، واستجلاب العقول في حالة ضعفها[(٧)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٣٩.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٥٣، لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٣٩، تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٢٠٩.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٤١.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٠٠، الدر المصون، السمين الحلبي ١/ ١٥٠.
(٥) فتح البيان، القنوجي ١٣/ ٧٩.
(٦) روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٩٣.



اللعب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (لعب) في القرآن الكريم (٢٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٩	﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف:١٢]
المصدر	٨	﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[الأنعام:٣٢]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ [الأنبياء:١٦]

وجاء اللعب في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: ضد الجد[٢]، وهو أيضًا:كل فعل لا يدل على مقصدٍ صحيحٍ[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص١١٢٩.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٣٩، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤.
(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٤٣١.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللهو:

اللهو لغة:

قال ابن منظور: (اللهو: ما لهوت به ولعبت به وشغلك من هوًى وطربٍ ونحوهما. واللهو: اللعب. يقال: لهوت بالشيء ألهو به لهوًا وتلهيت به إذا لعبت به وتشاغلت وغفلت به عن غيره. ولهيت عن الشيء، بالكسر، ألهى، بالفتح، لهيًا ولهيانًا إذا سلوت عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه واشتغلت)[١].

اللهو اصطلاحًا:

هو الشيء الذي يتلذذ به الإنسان فيلهيه، ثم ينقضي[٢].

وقيل: هو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى[٣].

وقيل: هو صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروي[٤].

الصلة بين اللهو واللعب:

اللعب تقديم شيء على غيره من غير إهمال للثاني إنما يأتي بعده، مثال ذلك من يقول: بعد هذا الشغل، أشتغل بالعبادة والآخرة.

وأما اللهو فالاشتغال بشيء إلى حد الاستغراق فيه والإعراض عن غيره، فالدنيا للبعض لهو يشتغل به، وينسى الآخرة بالكلية[٥].

وكلاهما فيه انشغال عن المهمات من الأعمال بأخرى ليست ذات أهمية.

وكلاهما يخلو من مقصد يحقق منفعة حقيقيةً في الحياة.

وآثارهما لا تدوم؛ بل هي سريعة الزوال.

٢ العبث:

العبث لغة:

يقول ابن فارس: (العبث، هو الفعل لا يفعل على استواءٍ وخلوص صوابٍ. تقول: عبث

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٥٨.

(٢) التعريفات، الشريف الجرجاني ص ١٩٤.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٠.

(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٢١.

(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٧٩٩.

يعبث عبثًا، وهو عابثٌ بما لا يعنيه وليس من باله)[1].

وقد عبث يعبث عبثًا فهو عابث: لاعب بما لا يعنيه وليس من باله[2].

العبث اصطلاحًا:

أن تعبث بالشيء، وقيل: العبث: ما لا فائدة فيه يعتد بها، أو ما لا يقصد به فائدة[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحةٌ ولا منفعةٌ ولا فائدةٌ تعود على الفاعل)[4].

الصلة بين العبث واللعب:

العبث من مرادفات اللعب، ومعناهما متقارب جدًا، ولذا يفسر كل منها بالآخر.

٣ الرتع:

الرتع لغة:

قال الراغب الأصفهاني:(الرتع أصله: أكل البهائم، يقال: رتع يرتع رتوعًا ورتاعًا ورتعًا. قال تعالى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢]، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير)[5].

الرتع اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الرتع واللعب:

أن كلًا منهما يدل على الحركة والنشاط والانبساط.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٥.

(٢) العين، الفراهيدي، ٢/ ١١١، تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ١٩٩، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٢٩٥.

(٣) تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٢٩٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٩٠.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤١.

تنزيه الله تعالى عن اللعب

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾ [الدخان:٣٨].

قبل البدء بتنزيه الله عن اللعب، يجب علينا الحديث عن صفة الحكمة لله تعالى؛ لأن بإثبات هذه الصفة لله تعالى ننزهه عن اللعب والعبث.

والحكمة عبارةٌ عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم[(١)].

الحكمة عند العرب، هي ما منع من الجهل، وبذلك سمي الحاكم لمنعه الظالم[(٢)].

والحكيم: الذي لا يدخل تدبيره خللٌ ولا زللٌ[(٣)]. أو هو العالم بوضع الأشياء في مواضعها[(٤)].

والحكمة صفة من صفات الله عز وجل، لذلك فإن الله تعالى لم يشرع حكما من الأحكام، وما خلق شيئًا من المخلوقات إلا له فيها حكمة عظيمة وغاية نبيلة، وهذه الحكمة التي خلق الله تعالى لها الخلائق مذكورة في كثير من الآيات في كتاب الله الكريم سواء كان بصريح العبارة أو بالتضمين، وكذلك يدل عليها اسم الله: الحكيم.

فـ (الحكيم) اسم من أسماء الله الحسنى يدل على الكمال وأن الله تعالى لم يفعل فعلا، ولم يخلق خلقا إلا له فيه حكمة وغاية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقد أجمع المسلمون على أن الله موصوف بالحكمة، لكن تنازعوا في تفسير ذلك: فقال الأشاعرة والجهمية: الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده. ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة. وهم قد أطلقوا ألفاظها، ولكنهم لا يعنون بها معناها، بل يطلقونها لأجل مجيئها في القرآن. وهم يثبتون أنه مريد، وينكرون أن تكون له حكمة يريدها، وأنه لم يخلق شيئًا لشيء، وأنكروا الأسباب والطبائع والقوى الموجودة في خلق الله وأمره والحكم المقصودة بذلك. وقال أهل السنة: بل هو حكيم في خلقه وأمره. والحكمة ليست مطلق المشيئة، إذ لو كان كذلك، لكان كل مريد حكيمًا)[(٥)].

والحكمة تناقض العبث واللعب، وأصحاب العقول السليمة والفطرة يدركون أن الله الخالق الموصوف بالحكمة لا بد

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٤١٩.
(٢) مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ١٩٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٧٨.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٤٩٤.
(٥) النبوات، ابن تيمية ٢/ ٩٠٤.

أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة، وتعالت حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثًا.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن تكوين العالم وخلق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى مؤسس على الحكم والغايات، ولم يأت اعتباطا ولعبا ولهوا، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦]. يعني: ما خلقناهما عبثًا.

وفي آية أخرى يؤكد سبحانه على أن خلق السماوات والأرض لم يكن عبثا بل كان بالحق والجد، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان:٣٨-٣٩].

وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية:٢٢].

وأشار سبحانه وتعالى إلى أن الذي لا يؤمن بالبعث والنشور شأنه شأن من لا يرى في خلق السماوات والأرض حكمة وغاية، حتى لو لم يصرحوا بأن الله خلقهما باطلا، ولكن لما أنكروا البعث والجزاء صار في ظنهم خلقهما باطلا، حيث قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٧-٢٨].

وفي آية أخرى يذكر لنا أن في خلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته لمن كان ذا عقل ولب، من الذين يذكرون الله على كل حال، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض وعجائب صنع الله فيهما، فيقولون معتقدين ومعترفين: ربنا وخالقنا ما خلقت هذا الكون والخلائق باطلا وعبثا وخاليًا عن حكمة، أنت منزه من أن يكون خلقك وفعلك عبثًا.

فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

وقد وبخ الله منكري البعث والحساب على تماديهم في الغفلة، بأسلوب الاستفهام الاستنكاري، فإنه يلزم من إنكارهم البعث أن يكون خلق الناس مشتملًا على عبثٍ فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة:٣٦].

ثم نفى عن نفسه العبث فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون:١١٦].

فالأدلة النقلية والعقلية تثبت بأن الله تعالى منزه عن اللعب والعبث واللهو والباطل.

وهنا قد ترد شبهة، وهي إن الله تعالى يذم الحياة الدنيا في كثير من الآيات، ويصفها بأنها لهو ولعب وزينة، ولا مُنْشِئ لها غيره سبحانه. فإن كانت الحياة الدنيا على هذا الوصف، وهي مخلوق لله تعالى، فكيف التوفيق بين هذا وبين كون الله تعالى لا يخلق عبثا؟

فالإجابة عن هذا من وجوه:

أولًا: على التقديم والتأخير مع الإضمار: كأنه قال: اعلموا أن مَثَلَ الحياة الدنيا وزينتها وتفاخرها وتكاثرها ولعبها ولهوها، كمثل الغيث أعجب الكفار نباته، ثم يصير إلى ما ذكر حتى لا ينتفع به؛ فهكذا هي حال الحياة الدنيا، والله أعلم.

ثانيًا: إنما الحياة الدنيا على ما هي عند كثير من الناس لهو ولعب و لأنهم لا يعرفون من الدنيا إلا التمتع والتزين والتفاخر والتكاثر، وكذا الذين لا يؤمنون بالبعث على ما يظنون أن الحياة الدنيا لم تكن إلا للإفناء والإهلاك، وعلى هذا الظن تكون لهوا ولعبا وعبثا، فأما الحياة الدنيا على ما هي عند أهل التوحيد فهي حكمة وحق وصواب، وارتقاء بسبب العبادة إلى المراتب العليا عند الله، والفوز بالجنة.

ثالثًا: لو أن الحياة الدنيا قوبلت بحياة الآخرة، لكانت عبثا ولهوا؛ لأن الدنيا بنيت على الفناء والانقطاع والزوال عن قريب، والآخرة على الدوام والبقاء، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

فالآخرة باقية، والدنيا فانية. فالحياة الدنيا -مقارنة بالآخرة- قليل جدا، وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٣٢﴾ [الأنعام:٣٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾ [التوبة:٣٨].

وقوله: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد:٢٦].

وقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت:٦٤].

وقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝٣٩﴾

[غافر:٣٩].

رابعًا: أو يقال: إن من جعل الحياة الدنيا للدنيا خاصة تكون لعبا ولهوا، ومن جعل الحياة الدنيا زادا للآخرة وبُلْغَةً إليها، فهي ليست بلعب، وهو ما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:١١٧].

أخبر أن الإنفاق للدنيا كمثل ريح فيها صر – البرد الشديد–، شبه إنفاقهم بزرع اجتاحته جائحة أو أصابته ريح باردة فأهلكته.

وقال في النفقة التي تكون في الدنيا لحياة الآخرة: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

والله أعلم[(١)].

أنواع اللعب

أولًا: اللعب المباح

إن المتتبع والناظر في الآيات التي ذكر فيها (اللعب، ومشتقاتها)، يجد أن اللعب ليس بمذموم على إطلاقه، بل من اللعب ما هو مباح، كما في قوله تعالى، في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، ذاكرا قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب عليه السلام وطلبهم منه أن يرسل معهم أخاهم يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١٢].

فقد ذكر المفسرون أن المراد باللعب المذكور في هذه الآية هو اللعب المباح، وهو مجرد الانبساط لانشراح الصدر، والاستجمام ورفع السأمة، أو هو اللعب الذي يتعلمون به الحرب ويتقوون به عليه، فقد كان أكثر لعب أهل البادية بالاستباق والانتضال والرمي بالعصى والسهام ونظائرها، مما يعد من باب التأهب للغزو أو رد العدو. بدليل: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧].

ولم يكن هذا من اللعب المحظور الذي هو ضد الحق وقرين اللهو، والدليل على ذلك: أن يعقوب عليه السلام لم ينكر عليهم لما قالوا: ونلعب–وفقا لقراءة أهل البصرة– وإنما سماه لعبًا؛ لشبهه به، وإنه في

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٩/ ٥٢٧–٥٢٨.

صورته[١].

ونسبة اللعب -على جميع الاحتمالات- إلى يوسف لا حرج فيها؛ لأن يوسف حينها كان صبيا، ولم يكن نبيا بعد.

وفي السنة النبوية الشريفة ما يدل على اللعب أو اللهو المباح، فعن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل ما يلهو به الرجل المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق)[٢].

وإنما أبيحت هذه الثلاثة الأنواع؛ لأن في هذه الثلاثة عونا على الدين وقواما له، فالرجل يرمي بقوسه؛ لئلا تذهب عادته للرمي، ولا يتشنج أعضاؤه ومفاصله وكتفاه، ويؤدب فرسه؛ لئلا يجمح، ولا يكون مستوليا على النزع منه.

ويتعلم الفروسية؛ لئلا ينقطع عنه شجاعته، ويكون جريئا ذا قلب. فإذا ترك ذلك ضعف قلبه وجبن.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٤٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٢٤، تفسير العز بن عبد السلام ٢/ ١١١، غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٦٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الرمي، رقم ٢٥١٣، والنسائي في سننه، كتاب الخيل، باب تأديب الرجل فرسه، رقم ٣٥٧٨، والترمذي في سننه، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله تعالى، رقم ١٦٣٧.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.

ويلاعب أهله ليسكن ما به وبها. وهذا كله وإن كان مُلْهيًا، فهو في الأصل حق. وإنما رخص للمؤمن في التلهي بهذا؛ لأن قلبه في أثقال العظمة، فإذا دام عليه ضاق به والتمس تفريجا وتخفيفا، فيلجأ إلى هذه الأشياء التي هي في الأصل حق حتى يكون مزاجا للمؤمن[٣].

وقد رأى جماعة من العلماء في مفهوم كلمة:(باطل)، في الحديث المذكور آنفا، أن الكلمة هذه لا تدل على تحريم ما سوى تلك الثلاثة، فقال ابن حجر العسقلاني:وإنما أطلق على ما عداها البطلان من طريق المقابلة، لا أن جميعها من الباطل المحرم[٤].

وقال الهروي والمباركفوري: في معنى:(باطل): لا ثواب له)[٥].

وقال الشوكاني:قال الغزالي: قلنا قوله صلى الله عليه وسلم: (فهو باطلٌ) لا يدل على التحريم، بل يدل على عدم فائدةٍ انتهى. وهو جوابٌ صحيحٌ؛ لأن ما لا فائدة فيه من قسم المباح، على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة وهم يرقصون في مسجده صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحيح خارجٌ عن

(٣) انظر: نوادر الأصول، الحكيم الترمذي ٤/ ٢٣٥.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.

(٥) انظر: مرقاة المفاتيح، الهروي ٦/ ٢٥٠٢، تحفة الأحوذي، المباركفوري ٥/ ٢١٩.

تلك الأمور الثلاثة)[1].

و عن عطاء بن أبي رباحٍ قال: رأيت جابر بن عبد الله وجابر بن عميرٍ الأنصاريين يرميان قال: فأما أحدهما فجلس فقال له صاحبه: أكسلت؟قال: نعم فقال أحدهما للآخر: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(كل شيءٍ ليس من ذكر الله فهو لعبٌ، لا يكون أربعةٌ: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعلم الرجل السباحة)[2].

وهناك أنواع من اللعب المباح، منها مثلًا: المسابقة، فقد سابق النبي صلى الله عليه وسلم عائشة مرتين، سبقته في الأولى وسبقها في الثانية، عن عائشة، رضي الله عنها، (أنها كانت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني فقال: (هذه بتلك السبقة)[3].

وسابق النبي صلى الله عليه وسلم بناقته العضباء فسبقت، عن أنسٍ رضي الله عنه (كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقةٌ تسمى: العضباء، وكانت لا تسبق، فجاء أعرابيٌّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبِقَتِ العضباءُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن حقًّا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه)[4].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في اللعب المباح كما رخص صلى الله عليه وسلم للحبشان، وأذن لعائشة النظر إليهم.

عن عائشة، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا فسمعنا لغطًا وصوت صبيانٍ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا حبشيةٌ تزفن والصبيان حولها، فقال: (يا عائشة تعالي فانظري). فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: (أما شبعت، أما شبعت). قالت: فجعلت أقول: لا؛ لأنظر منزلتي عنده إذ طلع عمر، قالت: فَارْفَضَّ الناس عنها. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر) قالت: فرجعت)[5].

---

(١) نيل الأوطار، الشوكاني ٨/ ١١٨.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، باب ملاعبة الرجل زوجته، رقم ٨٨٨٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٣، رقم ٤٥٣٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٤٣/ ٣١٣، رقم ٢٦٢٧٧، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، بابٌ في السبق على الرجل، ٣/ ٢٩، رقم ٢٥٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٧٥، رقم ٢٣٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠١.

(٥) أخرجه الترمذي، أبواب المناقب، باب في

ومن هنا يتبين لنا أن الإسلام أباح أنواع اللعب التي تفيد الذهن أو الجسم، أو ترفع عنهما السآمة والملل، أو تعيد إليهما النشاط والحيوية بشرط ألا تكون في هذا اللعب مخالفة شرعية أو إهدار للوقت فيما لا فائدة فيه، وأن لا يتضمن ضررا، ولا يكون فيه خسة ودناءة لا يليق بصاحب المروءة، ولا يشغل عن الواجبات والفرائض[1].

قال العيني: إذا لم يشغله، أي: اللعب عن طاعة الله يكون مباحا، وعليه أهل الحجاز. لا يرى أن الشارع أباح للجاريتين يوم العيد الغناء في بيت عائشة من أجل العيد، كما مضى في كتاب العيدين، وأباح لها النظر إلى لعب الحبشة بالحراب في المسجد؟[2].

ومن اللعب المباح الألعاب الرياضية التي تنشط البدن وتقوي الروح، وتساعد في علاج بعض الأمراض، بشرط أن لا تؤدي إلى إضاعة الصلاة أو أي فرض آخر، وأن لا تتسبب في حصول الحقد والكره والبغضاء والعداوة بين اللاعبين، وأن لا ينكشف فيها شيء من العورة، وأن لا تكون على عوض من مال، أو منفعة دنيوية.

قال ابن القيم الجوزية: والرياضة المعتدلة، هي التي تَحْمَرُّ فيها البشرة وتربو، و يتندى بها البدن، وأما التي يلزمها سيلان العرق فمفرطة. وأي عضو كثرت رياضته قوي فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة، ولكل عضو رياضة تخصه وأما ركوب الخيل ورمي النشب والصراع، والمسابقة على الأقدام، فرياضة للبدن كله، وهي قالعة لأمراض مزمنة، كالجذام، والاستسقاء، والقولنج[3].

اللعب الحرام:

الإسلام دين جاد، يريد من المسلمين أن يكونوا جادين في كل الأمور والشؤون، ولو تأملنا في أنواع اللعب التي أباحها الإسلام لرأينا أنها تحقق مقصدًا من مقاصد الشريعة، وحد الإسلام لها حدودها ضمن ضوابط وقواعد معينة، مثل: خلوها من المحرمات، وأن لا يفضي إلي ترك الواجبات، ولا إلى بث العداوة والكراهية والبغضاء والفساد، و فإذا أخل بهذه الضوابط والشروط تحول من الحل إلى الحرمة.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ

مناقب عمر بن الخطاب ٥/ ٦٢١، رقم ٣٦٩١.

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه.

وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ٨١٩.

(١) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٠٦، فقه السنة، سيد سابق ٣/ ٥١٤، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٥/ ٢٦٨.

(٢) عمدة القاري، العيني ٢٢/ ٢٧٣.

(٣) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٨٦.

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة:٦٥].

فيه إشارة إلى أن نوعا من اللعب يؤدي إلى الكفر، وهو اللعب على وجه الاستهزاء بالله وبالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد روي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥].

قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وركبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: (علي بهؤلاء النفر) فدعاهم فقال: (قلتم كذا وكذا؟) فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب[١].

يقول الفخر الرازي: (إِنَّهُ تعالى بين أن ذلك الاستهزاء كان كفرًا، والعقل يقتضي أن الإقدام على الكفر لأجل اللعب غير جائزٍ، فثبت أن قولهم: إنما كنا نخوض ونلعب ما كان عذرًا حقيقيًّا في الإقدام على ذلك الاستهزاء، فلما لم يكن ذلك عذرًا في نفسه نهاهم الله عن أن يعتذروا به؛ لأن المنع عن الكلام الباطل واجبٌ)[٢].

فاللعب الذي يؤدي إلى الكفر أو ارتكاب محرم، أو تضييع واجبٍ، يكون حراما، وسياقُ الآيات القرآنية التي وردت فيها مادة: (لعب) ومشتقاتها كلها وردت في سياق الذم والتقبيح إلا ما وردت في سورة (يوسف الآية:١٢)، وإن أغلبها مقترنة بألفاظ تدل على الذم مثل: اللهو، والهزء، والخوض.

عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(كل ما يلهو به الرجل المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق)**[٣].

قال الكاساني الحنفي: واللعب حرامٌ في الأصل إلا أن اللعب بهذه الأشياء صار مستثنًى من التحريم شرعًا، واستثنى الملاعبة بهذه الأشياء المخصوصة فبقيت الملاعبة بما وراءها على أصل التحريم[٤].

وقال الخطابي: إن جميع أنواع اللهو محظورة، وإنما استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخلال من جملة ما حرم منها؛ لأن كل واحدة منها إذا تأملتها وجدتها معينة على حق، أو ذريعة إليه، ويدخل في معناها ما كان من المثاقفة بالسلاح، والشد على الأقدام، ونحوهما مما يرتاض به الإنسان، فيتوقح بذلك بدنه، ويتقوى به

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣٤..
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٩٥.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) بدائع الصنائع، الكاساني ٦/ ٢٠٦.

على مجالدة العدو. فأما سائر ما يتلهى به البطالون من أنواع اللهو كالنرد، والشطرنج، والمزاجلة بالحمام، وسائر ضروب اللعب، مما لا يستعان به في حق، ولا يستجم به لدرك واجب، فمحظور كله[1].

وصف الحياة الدنيا باللعب

إن الله تعالى وصف الدنيا باللهو واللعب في كثير من الآيات، وبأسلوب القصر؛ ليُفْهِم الخلق أن الدنيا مهما تزينت لأصحابها، وطال عمر الإنسان فيها، ومهما اجتمع للإنسان فيها من أسباب الغنى والثروة، ومهما كثر متاعها وزخرفها، فهي لا تعدو أن تكون لهوا ولعبا، وأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وأن الدار الآخرة خير منها.

وقد اختلف العلماء في المراد من الحياة الموصوفة باللعب واللهو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:٣٢].

على قولين:

الأول: المراد منها حياة الكافر والمشرك، لأن حياة المؤمن يكثر فيها الأعمال الصالحة ويتقرب فيها إلى الله تعالى فهي مزرعتها لآخرته، وعليها يثاب بأجزل الثواب، وأعظم الجزاء. ويقل فيها اللغو والباطل، فلا توصف حياته باللعب واللهو. وأما الكافر فإن كل حياته في الدنيا وبال عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد حياة أهل الشرك والنفاق[2].

(١) معالم السنن، الخطابي ٢/ ٢٤٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٠٦، غرائب القرآن،

والحياة في ذاتها غير مذمومة، بل في الحياة حكم عظيمة، يكفيها أنها من خلق الله، ليبلو بها بني آدم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:٢].

ومعلوم أن لله تعالى حكمة في خلق كل مخلوقاته، ولم يخلق عبثًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء:١٦].

فدل مجموع ما ذكرنا على أن الحياة الدنيا غير مذمومة على إطلاقها من غير قيد، بل المراد أن من لم يستخدم هذه الحياة الدنيا في طاعة الله، بل صرفها إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذاك هو المذموم[1].

ومن خلال استقراء كلمة اللعب في القرآن الكريم يتبين لنا أن حياة المؤمن التقي والعالم حياة جد وعطاء، وليس حياة لهو ولعب وغفلة وعبث. لننظر إلى الآيات التي ورد فيها وصف الحياة الدنيا باللعب واللهو، كيف يصف الدار الآخرة ويحدد أهلها، في إشارة إلى أن لكل منهما أهلها.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد:٣٦].

وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

ففي هذه الآيات إشارة إلى أن المتقين والعالمين بالحقائق لا يعنيهم أمر اللعب واللهو في شيء، وأنهم بعيدون عنه كل البعد، وهم في طاعة مستمرة ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

الثاني: أنها تشمل حياة المؤمن والكافر، فهي عامة؛ لأن الإنسان مسلمًا كان أو كافرًا، يلتذ باللعب واللهو، ثم عند انقضائه وانتهائه، تحصل له الحسرة والندامة؛ لأن اللذة الحاصلة من اللعب واللهو سريعة الزوال لا بقاء لها[2].

ووجه تسمية الحياة الدنيا باللعب واللهو؛ لأن مدتها قليلة سريعة الانقضاء والانتهاء، كمدة اللعب واللهو؛ ولأن الإنسان في كثير من الأحيان يقع في المكاره والمتاعب بسبب الانشغال باللهو واللعب،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٥. النيسابوري ٣/ ٦٩.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٠٦، غرائب القرآن، النيسابوري ٣/ ٦٩.

كذلك الحال لمن انشغل بملذات الدنيا.

أو لأن اللعب واللهو إنما يحصل للصبيان والمغفلين. وأما العقلاء والنبلاء فقلما يحصل لهم خوضٌ في اللعب واللهو وكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا لا يحصل إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور[1].

من صور اللعب بالدين

ذكرت في القرآن الكريم بعضا من صور اللعب بالدين. نذكر جلها ضمن النقاط الآتية:

أولًا: اللعب بالآيات:

قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى نبيه الكريم أن يذر ويترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، واغتروا بمباهج الحياة الدنيا وزخارفها ومتاعها ولذائذها، ووأمره أن يذكر الناس بالقرآن، كي لا ترتهن أو تحبس نفس بذنوبها وتصبح رهينة ما كسبت، في يوم ليس لها غير الله ناصر ينقذها من العذاب، ولا شافع يشفع لها عنده، ولا فدية تنفعها.

والأمر بترك هؤلاء يعني: عدم المبالاة بتكذيبهم واستهزائهم، أو هو تهديد لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر:١١].

أو المراد به ترك معاشرتهم ومخالطتهم

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٥، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ١٠٦.

لا ترك الإنذار والتخويف؛ لأن هذا يناقض مهمة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾[1].

وفي المراد بدينهم الذي اتخذوه لعبا ولهوًا وجوه[2]:

أولًا: دين الإسلام، فإنهم كلفوا وأمروا به، فاستهزؤوا به.

ثانيًا: اتخذوا ما هو لعبٌ ولهوٌ من عبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم.

ثالثًا: اتخذوا أعيادهم لعبًا ولهوًا.

رابعًا: الملة، أي ما يتدينون به وينتحلونه ويتقربون به إلى الله.

والذي يبدو لي أن تفسير الدين بالإسلام الذي أخذ جل تعاليمه وأحكامه من القرآن والذي كان المشركون يستهزؤون به، يتناسب مع سياق الآيات السابقة، فإن الله تعالى خاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم في حق الذين يخوضون في آيات الله من الكافرين والمشركين فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام:٦٨-٦٩].

ثم أمره بأن يذر الذين يتخذون دينهم لعبًا ولهوًا، وغرتهم الحياة الدنيا بزينتها، ثم أمره بأن يستمر بتذكير هؤلاء و غيرهم بالقرآن الكريم ولا يبالي باستهزائهم وتعنتهم.

وعلى هذا يكون المراد بالاسم الموصول (الذين) في قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ الكفار الذين يخوضون في آيات الله[3]: وقد قيل: إن الكفار كانوا إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه[4]:

وقد فسر كل من الواحدي[5]، والبغوي[6]، وابن عادل [7]، والألوسي [8] قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ بالكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٦، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٣، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ١٣١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٩٥.

(٢) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي ٢/ ٥١٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٣، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٤٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٩٥.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.

(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٣، روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي ٢/ ٢٨٦.

(٦) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٣٣.

(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢١٢.

(٨) روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٥٠.

يقول الخطيب الإسكافي: (فهؤلاء قوم حضروا النبي وسمعوا القرآن، وعبثوا عند سماعه ولعبوا بآياته، وأجروها مجرى أفعال يستروح إليها، ولا نفع في عقباها، ثم شغلوا بدنياهم عن تدبرها وألهتهم حلاوتها عن الفكر في صحتها)[1].

وأما كيفية اتخاذهم دينهم لعبًا ولهوًا فإنهم بنوا أمر دينهم على التشهي، وتدينوا بما ليس فيه فائدة ونفع، كعبادتهم للأصنام، أو أن أعمال دينهم لم تكن واقعة موقعًا مما يرضي الله تعالى. فكانت إما صرفًا للوقت فيما لا نفع فيه فيكون لعبًا، وإما شاغلة عن بعض الشؤون فيكون لهوًا[2].

ثانيًا: الشعائر الدينية:

ذكر الله سبحانه وتعالى نوعًا من اللعب الحرام، وهو اللعب والاستهزاء بالصلاة والنداء إليها، فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٨].

أي: إذا أذن المؤذن للصلاة، فسمعه الكفار استهزءوا به. وإذا رأوهم يصلون ورأوا ركوعهم وسجودهم استهزءوا بذلك أيضا. وكان استهزاؤهم بسبب كونهم قوم لا يعقلون، وإنما نفى عنهم العقل؛ لأن لعبهم واستهزاءهم هذا من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنه لا عقل لهم، أو لأنهم لم ينتفعوا بعقولهم في أمور دينهم[3].

فقد أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن سفه الكافرين والمشركين فيما صنعوا من السخرية والاستهزاء حين سماعهم الأذان ومشاهدتهم الصلاة.

فقد ذكر المفسرون عددًا من الروايات في سبب نزول هذه الآية، منها:

عن السدي: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: «أشهد أن محمدًا رسول الله»، قال: «حرق الكاذب» فدخلت خادمةَ ذات ليلة من الليالي بنار، وهو نائم، وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله[4].

وقال الكلبي: كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا، ويضحكون على طريق الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية[5].

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي ٢/ ٥١٨.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ١٣١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٣٢.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٥٤٧، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٥٠، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٥٧.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٣٢، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٦٤.

(٥) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢١٠، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٢٤، الدر

وقيل: كان المنافقون يتضاحكون ويتغامزون عند القيام إلى الصلاة تنفيرًا للناس عنها[1].

وقال آخرون: إن الكفار لما سمعوا الأذان حسدوا رسول الله والمسلمين على ذلك، فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد لقد أبدعت شيئًا لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية. فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء قبلك، ولو كان في هذا الأمر خير كان أولى الناس به الأنبياء والرسل قبلك، فمن أين لك صياح كصياح العنز؟ فما أقبح من صوت وما أسمج من أمر. فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

وهذه الآية توكيد للآية السابقة وبيان لمن اتخذ الدين هزوًا ولعبًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [المائدة:٥٧].

فقد بين استهزاءهم بحكم خاص من أحكام الدين، بعد ذكر استهزائهم بالدين بوجه عام[3].

وعلى هذا فتأخذ هذه الآية حكم سابقتها في عدم جواز موالاة من استهزأ بالأذان والصلاة، وعدم اتخاذهم أولياء؛ لأنهم بفعلهم هذا قد كفروا.

ثالثًا: الأنبياء وأتباعهم:

من صور اللعب بالدين هو الاستهزاء بالرسل وورثتهم من العلماء والدعاة، وهذه العادة قديمة معروفة عبر القرون.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ [الحجر:١٠- ١١].

أي: لقد أرسلنا قبلك رسلًا إلى أمم قد مضت من قبل، وما أتى رسولٌ أمةً إلا كذّبوه واستهزءوا به. فهذا دأب الأمم المكذبة لرسلها عبر التاريخ.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الاستهزاء بالرسل، منها: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام:١٠].

و﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾ [الحجر:١٠- ١١].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٢٤.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٢٠١، غرائب القرآن، نظام الدين النيسابوري ٢/ ٦٠٧، المنثور، السيوطي ٣/ ١٠٧.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٤٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٥٣، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١٧٧.

و﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات:٥٢].

و﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٦].

والرسل الكرام عليهم السلام تعرضوا للسخرية والاستهزاء، فصبروا وتحملوا، ولم يتركوا دعوة أقوامهم إلى الله تعالى، وكان نتيجة استهزاء هؤلاء الأقوام الهلاك والخسران.

واللعب على وجه الاستهزاء بالعلماء والقراء وأهل الخير والصلاح بمثابة الاستهزاء بالله وآياته ورسوله، كما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة:٦٤-٦٥].

عن عبد الله بن عمر قال: (قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن. قال عبد الله ابن عمر: فأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة، وهو يقول: (يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب)، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم)[(١)].

ففي هذا بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها، أو بفعل يفعله، ومن ذلك الخوض واللعب في الباطل الذي يؤدي إلى الاستهزاء بالله والقرآن والرسول، وكذا المؤمنين على وجه العموم وأهل العلم على وجه الخصوص. وقد وصف الله من كان هذا شأنه بالمجرم، وأن عمله هذا يجعله كافرا، حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين:٢٩-٣٤].

ومن الأدلة على أن الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين من شأن أهل النار، فعندما ينادي أهل النار قائلين: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون:١٠٧].

يقول الله تعالى جوابًا لهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٣٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٦٥.

﴿عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١].

فالاستهزاء بالمؤمنين لأجل إيمانهم، وبالعلماء لكونهم علماء يخدمون الشريعة الإسلامية، ومن أجل العلم الشرعي، فهذا كفر؛ لأنه استهزاء بدين الله تعالى.

وأخيرًا إن اللعب في الدين بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وورثة الرسول من العلماء والدعاة يوصل إلى الكفر، ولا يعذر فاعله.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥- ٦٦].

أسباب اللعب المحرم

نجمل فيما يأتي أهم أسباب اللعب كما تفهم من الآيات القرآنية:

١ . الكفر.

من البدهي أن يكون الكفر سببًا من أسباب اللعب واللهو في الحياة الدنيا؛ لأن الكافر لا يؤمن بالآخرة، فلا يجهد نفسه في الطاعات والعبادات، ولا يمسك نفسه عن المحرمات، فما تشتهيه نفسه يفعله.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

فالكافر يرى نفسه على الحق، وأن كفره بالله وباليوم الآخر هو عين الصواب، ومن يخالفه الرأي فهو جاهل أو مجنون أو مختل العقل، فيستهزيء بهم ويسخر منهم، وإذا قريء عليه القرآن أو دعي إلى الله اتخذها لعبًا وهزوًا، ويضحك منهم.

ويشير سبحانه وتعالى في القرآن الكريم

إلى وجود علاقة ظاهرة بين الكفر وبين اتخاذ الدين لعبًا ولهوًا.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

ففي صدر الآية يتحدث عن من يتخذ الدين لعبًا ولهوًا، والحال غرتهم الحياة الدنيا، يذكر أن الذين أسلموا أنفسهم للهلاك بسبب كسبهم في الاستخفاف بالدين واتخاذه لعبًا ولهوًا، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم.

وفي النتيجة: إن رسوخهم في الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير[1].

٢. الجهل.

الجهل نقيض العلم، وقد جهله فلانٌ جهلًا وجهالة، وجهل عليه. وتجاهل: أظهر الجهل، والتجهيل: أن تنسبه إلى الجهل، والجهالة: أن تفعل فعلًا بغير العلم[2].

والجهل سبب من أسباب اللعب في الحياة الدنيا، فالجاهل لا يفرق بين الحق والباطل، وبين النفع والضر، وبين الجد والهزل.

والجهل هو المصدر الرئيس لفساد العقيدة وفعل المعاصي.

قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤].

واللعب والهزء من أفعال الجاهلين، ألا ترى إلى جواب موسى عليه السلام لقومه في قصة ذبح البقرة؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧].

حيث نفى الهزء، بنفي الجهل عن نفسه. فلو كان من الجاهلين - حاشاه - لصدق عليه اتخاذهم هزوا.

ثم إن جهل الناس بحقيقة الحياة الدنيا، ونظرهم السطحي إليها، وإعجابهم بظاهرها، دون البحث عن ما فيه خير لهم، ومن غير التفكر في الآخرة، جعلهم يلعبون ويلهون ويعبثون.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم:٦-٧].

وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

(١) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٦٣.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ١٢٩.

فالعالم يستغل الحياة الدنيا الفانية، للفوز بالنعيم المقيم في الحياة الباقية في الآخرة، فلا يريد أن تذهب لحظات عمره في الدنيا سدى، فالدنيا عنده مزرعة الآخرة. فلا يقبل أن يخسر الحياة الأبدية في الجنة، مقابل الحياة الفانية المنغصة في الدنيا. فهو يؤمن إيمانا جازمًا بما قاله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

فلا يبيع آخرته بدنياه، بعكس الجاهل.

إذًا فالذي يقضي حياته في اللعب واللهو والاستهزاء، فيخسر آخرته، لم يقع في هذا الجرم والإثم إلا عن جهل. وجهله هذا إما أن يكون من جهة المستهزأ به، بحيث لا يعلم ما يجب عليه من حق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام، من التعظيم والتبجيل. وإما أن يكون الجهل من جهة حكم اللعب والاستهزاء، فلا يدري أن فعله هذا ولعبه يخرجه عن دائرة الإسلام[١].

٣. الاغترار بالحياة الدنيا.

الاغترار: من غرر، انخدع بالشيء. وظن الشيء كما يتصوره لأمور فيه فإذا هو على غير ذلك[٢].

والتغرير: إيهام النفع والصلاح فيما هو ضرٌ وفساد[٣].

قال الخليل الفراهيدي: (غرر بماله أي: حمله على الخطر. والغرور من غر يغر فيغتر به المغرور. والغرور: الشيطان. والغار: الغافل)[٤].

الاغترار بالحياة الدنيا سبب من أسباب اللعب، فينخدع الإنسان المغتر، ولا يجد في شيء ينتفع بها في الآخرة. فهمه الشاغل متع الدنيا وحطامها، وجمع المال بأية طريقة ووسيلة كانت. فيطمئن إلى الدنيا، وينسى حق الله عليه، فيلهو ويلعب كيفما شاء. وهذا الشأن يناقض الغاية التي خلق لها الإنسان.

لذلك حذر الله عباده من أن ينخدعوا ويغتروا بالحياة الدنيا، وخوفهم من أن يكونوا من أصحاب النار، يوم لا يجدون من دون الله وليًا ولا شفيعًا.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [الأنعام:٧٠].

---

(١) الاستهزاء بالدين أحكامه وآثاره،أحمد بن محمد القرشي ص٨٩-٩١.
(٢) معجم لغة الفقهاء، القلعجي والقنيبي ص ٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٥٨.
(٤) العين، الفراهيدي ٤/ ٣٤٦.

قال الشيخ الشعراوي: (وقوله الحق: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هو تصوير لا يوجد أبرع منه؛ لأنهم أصحاب العقول التي تغتر بالحياة الدنيا فهي عقول تائهة، فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأنًا من أن تكون غاية، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة)[1].

كما أن الاغترار بالحياة الدنيا يجعل الإنسان يتعدى حدود الله، وينسى مراقبة الله لعباده، فلا يرتدع عن معصية، ويجحد نعم الله وفضله عليه، فيهلك.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ النَّارِ أَصْحَـٰبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

وضرب تعالى المثل في قصر عمرها وزوالها، بل وخيبة آمال أهلها، كي لا تغرهم الحياة الدنيا، بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٣-٢٤].

(١) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٧١٢.

الموقف من اللاعبين بالدين

نستنتج من الآيات القرآنية التي تحدثت عن اللعب، أن الموقف من اللاعبين ينبغي أن يكون في الخطوات الآتية:

أولًا: إقامة الحجة وقطع المعذرة:

إن الله تعالى يحيي الناس ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء، وإنه يسألهم عن الصغيرة والكبيرة ولا يعزب عنه شيء.

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس:٤].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس:٥٤].

فميزان يوم القيامة ميزان عدل وقسط.

ولا يظلم أحد يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء:٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

ومن العدل إرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الوحي، وتبليغ الناس شرع الله، وإقامة الحجة عليهم.

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:١٦٥].

وبالتبليغ وإقامة الحجة يزال ويزاح كل علة، فلا يبقى أي عذر للمخالفة والتقصير والتكذيب والغفلة؛ لذا فمن خالف حكم الله تعالى وقصر فلا يلومن إلا نفسه، فيكون ما يلاقي من العذاب في الآخرة عدلًا، ولا يكون ظلمًا؛ لأنهم بلغوا وأخبروا، فكذبوا واستهزءوا وخاضوا ولعبوا، فاستحقوا جزاءهم.

فالله سبحانه وتعالى حين يصف الحياة الدنيا باللعب واللهو، وأنها زينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد:٢٠].

وأنها متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

وأن متاعها قليل، وأن الحياة الآخرة أفضل وأحسن من الحياة الدنيا ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء:٧٧].

وتشبيه الحياة الدنيا بالغيث ينبت به الزرع، وما يجري على الزرع من التحولات

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي هذه الآيات إشارة إلى إقامة الحجة، وإذا كانت الدنيا بهذه الصفات فلا تستحق الاغترار بها، ولا يحق التساهل في حق الآخرة والعمل لها.

ثانيًا: تركهم في خوضهم يلعبون:

إن الذي يلعب بالدين ويستهزئ به لابد أن يؤدب، ولا يجوز معاونته ومساعدته على الاستمرار في عمله هذا، ويجب تحقيره حتى يعرف قدره.

والله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه العزيز كيفية التعامل مع الذين يخوضون في آيات الله ويلعبون بالدين وبشعائر الإسلام، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

فالله سبحانه يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض عن المشركين إذا رآهم يخوضون في آيات الله بالباطل والتكذيب واللعب والاستهزاء، ويترك مجلسهم؛ احتقارا لهم واستنكارا لأفعالهم، وهذا الإعراض لأجل أن يتركوا الخوض في آيات الله، ويتحولوا إلى الخوض في مسائل أخرى. ثم يأمره بأنه إذا أنساه الشيطان ما أمر به من الإعراض عن المشركين وترك مجالستهم، فليبادر بالصرف عنهم حين تذكر الأمر.

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٠].

وهذا خطاب آخر للنبي صلى الله عليه وسلم بترك الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذي كلفوا به لهوًا ولعبًا، حيث كانوا يستهزئون بتعاليمه وأحكامه ويكفرون به. وكانوا منشغلين بزخارف الدنيا واغتروا بالحياة القليلة، ثم أمر نبيه أن يذكر هؤلاء وغيرهم بالقرآن الكريم.

والأمر بتركهم ليس المراد به ترك إنذارهم، وترك دعوتهم للإيمان، وإنما المراد به ترك مجالستهم ومعاشرتهم وملاطفتهم[1].

وأعاد سبحانه وتعالى نهيه عن مجالسة المستهزئين في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٣.

[النساء:١٤٠].

وفي هذه الآية إشارة إلى ما جاء في سورة الأنعام، الآيات (٦٨-٧٠).

قال أبو السعود: (﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ جملة مستأنفةٌ سيقت لتعليل النهي أي: لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت، إنكم إن فعلتموه كنتم مثلهم في الكفر واستتباع العذاب وإفراد المثل)[(١)].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: (وسبب هذا النهي أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء لهم بالتمادي فيه، وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه، والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر)[(٢)].

ثالثًا: عدم اتخاذهم أولياء:

الولي: ضد العدو. يقال منه: تولاه. والمولى: المُعْتِقُ، والمُعْتَقُ، وابن العم، والناصر، والجار، والموالاة: ضد المعاداة. والولاية بالكسر: السلطان. والولاية: النصرة. يقال: هم على ولاية، أي: مجتمعون في النصرة[(٣)].

فكلمة الولي تأتى بمعنى المتولي للأمور المتصرف فيها، وتأتي بمعنى الناصر والخليل والمحب، فهي لفظ مشترك ولا يمكن تحديد المراد من معنى اللفظ المشترك إلا بقرينة تدل عليه، ويمكن ذلك بالرجوع إلى سياق الجملة، كما في معنى (أولياء) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة:٥٧-٥٨].

وكذا كل ما ورد في القرآن الكريم من النهي عن موالاة الكافرين وأهل الكتاب، جاءت كلها في الموالاة التي ضد الكره، أي أنها جاءت بمعنى النصرة والمحاباة والمعونة.

فنجد أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء وحلفاء وأنصارًا، يحبونهم ويتولونهم، مع أن هؤلاء يتخذون دين الإسلام هزوًا ولعبًا، ويسخرون من القرآن والرسول والمؤمنين، كما يسخرون من الأذان والصلاة ويتمنون زوال الإسلام. فكيف يصلح للعاقل أن يقابل كل هذه العداوة والكره والسخرية والاستهزاء واللعب بالموالاة لهم وحبهم ونصرتهم؟!

قال ابن عاشور: (فالذي يتخذ دين امريء هزوًا، فقد اتخذ ذلك المتدين هزوًا،ورمقه

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٤٥.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٢١.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٥٢٩.

بعين الاحتقار؛ إذ عد أعظم شيء عنده سخرية، فما دون ذلك أولى. والذي يرمق بهذا الاعتبار ليس جديرًا بالموالاة؛ لأن شرط الموالاة التماثل في التفكير؛ ولأن الاستهزاء والاستخفاف احتقار، والمودة تستدعي تعظيم الودود)[1].

واتخاذ أهل الكتاب والكفار أولياء مسألة في غاية الخطورة، فمن الجانب العقائدي أن موالاتهم يؤدي إلى الكفر، ويحسب الإنسان منهم، وحسابه كحسابهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

ومن الجانب الدنيوي، فإن الإنسان إذا اتخذ الكفار أولياء وأحباء، حينئذ يكون مطيعًا لأوامرهم، غير معترض لأفعالهم وأقوالهم، بل يكون مؤيدًا لهم ومدافعًا عنهم، وناصرهم ومعينهم على الإسلام وأهله، من حيث يدري أو لا يدري.

وقال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران:٢٨].

ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون، الكفار ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل[2].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٤١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣١٣.

علاج اللعب

بما أن الانشغال بالدنيا فوق الحد اللازم مذموم، وخاصة إذا كان على حساب الآخرة. وأنه ربما ينسيه حق الله تعالى، فيترك الواجبات الدينية أو يقصر فيها، ويقع في المحرمات طلبا لزيادة المال والجاه والشهوات، فلابد من علاج لهذه الآفة، وهذا الغرور. ويمكن لنا أن نستنتج من الآيات التي فيها ذكر اللعب بعضًا من تلك العلاجات، منها:

أولًا: الإيمان والتقوى:

إن لإيمان المرء وتقواه الأثر الكبير الفعال في تنبيه الناس من غفلة اللعب واللهو في الحياة الدنيا، فالمرء كلما كان إيمانه متينا وتقواه كثيرا ازداد من الله تقربًا، ولا يتقرب العبد من ربه إلا بما يرضى به الله تعالى من الأعمال والأقوال وصالح النيات، فينشغل بها، ويبتعد عن كل ما يلهيه ويشغله عن ذكر الله وعن الطاعات. فهو يجد لذته في العبادات، وتضيق صدره بالمعاصي والذنوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد:٣٦].

فبعد أن أمر الله المؤمنين بالاستمرار في الجهاد ومقاتلة الأعداء نصرة للإسلام، وحثهم عليه بأن الله معهم بنصره فينتصرون، وأن المؤمنين هم الأعلون، فليس من الحق أن يطلبوا الصلح والهدنة مع العدو؛ خوفًا على الحياة الدنيا ولذاتها. فبين لهم حقيقة الدنيا بأنها كاللهو واللعب في سرعة زوالها، وانقضاء آجالها، وانتهاء لذاتها، فهي مشغلة عن صالح الأعمال، فلا ينبغي الحرص عليها، وترك الجهاد من أجلها، وترك الصدقات والإنفاق في سبيل الله حرصًا على جمع المال. فإن الجهاد والإنفاق في سبيل الله زاد يبقى للمؤمن المتقي، المؤمن بالله الذي لا يخفى عليه شيء، وهو خير ثوابا ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

والمتقي الذي يقف عند حدود الله، ويرجو رحمة ربه ويخاف عذابه، فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يغير حال الحياة الدنيا من اللعب واللهو إلى الجد. فالمؤمن المتقي لا يرى في جهاده وإنفاقه خسارة وإضاعة نفس ومال، وإنما ذلك عنده التحويل إلى دار مستقره، فيجده عند الله. والله تعالى يؤتيه أجره بأحسن ما كان يعمل.

إن الذي يقضي حياته الدنيا باللهو واللعب لا ينبغي أن يوصف بالتقوى، فالمتقي يعمل بجد وإخلاص، والعمل بهذه الصفة يكون مقبولًا عند الله ويجزي عامله

خير الجزاء، فتكون الدار الآخرة خيرًا له من الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام:٣٢].

ثانيًا: تذكر نعيم وعذاب الآخرة:

ومن الأسباب المانعة لاتخاذ الحياة الدنيا لعبًا ولهوًا تذكر نعيم وعذاب الآخرة، حيث إن الإنسان إذا تفكر في نعيم وثواب من صبر عن الحرام، ولم يقض أوقاته في اللهو واللعب، فإنه ينال رضا الله ورضوانه والفوز بالجنة، حينئذ يستقيم أمره وحاله، كما لو تفكر في مصيره يوم القيامة لو قضى أوقاته في اللعب واللهو، وأنه سيحاسب على تفريطه وإفراطه، وأنه يسأل عن عمره في الحياة الدنيا كيف قضاه وفيم أفناه، يرتدع ويرجع إلى الصواب ولا يضيع أوقاته في ما لا فائدة فيه، وفيما لا يرضي الله تعالى.

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه)[(١)].

وفي القرآن الكريم تخويف لمن أضاع حياته الدنيا باللهو واللعب.

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:٢٠].

فبعد أن وصف الله تعالى الحياة الدنيا بما وصف بها في الآية الكريمة، وشبهها بالغيث المطر الذي أعجب الزراع والفلاحين نباته، ثم يهيج ذلك الزرع فيكون مصفرًا، ثم يكون يبسًا متحطمًا، كذلك حال الإنسان في الدنيا ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤].

ولما ذكر هذا المثل الدال على زوال الدنيا، وعلى أن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾. ففي الآخرة عذاب شديد لمن لم يعمل لها، ومغفرة من الله ورضوان لمن استعد لها، وأطاع الله تعالى[(٢)].

وفي أخرى يأمر الله نبيه صلى الله عليه

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب في القيامة، ٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢١، رقم ٧٣٠٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٤.

وسلم أن يترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا على وجه التهديد لهم، فإنهم سيلقون مصيرهم السيء.

قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام:٧٠].

وقال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف:٨٣].

وفي سورة الأعراف يذكر الله سبحانه حال الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا ونسوا اليوم الآخر، فلم يعملوا لها، أنه سبحانه يتركهم في جهنم يعذبون فيها.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥١].

قال الرازي: والأظهر أن حمل النسيان على الترك مجاز؛ لأن المنسي يكون متروكًا، فلما كان الترك من لوازم النسيان أطلقوا اسم الملزوم على اللازم[(١)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٦٣٧.

ثالثًا: فقه الأولويات:

قال الكفوي: (الأولى: بالفتح واحد الأوليان، والجمع الأولون، والأنثى الوليا، والجمع الوليات

والأولى: يستعمل في مقابلة الجواز، كما أن الصواب في مقابلة الخطأ

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ فويل لهم، دعاء عليهم بأن يليهم المكروه، أو يؤول إليه أمرهم)[(٢)].

قال محمد الوكيلي في تعريف فقه الأولويات: (فقه بأحكام الشرع ومراتبها، وبالأهم منها من المهم، وبالقطعي منها من الظني، وبالأصل منها من الجزء، وبالكبير منها من الصغير)[(٣)]. ويمكن القول بأنه: العلم بالأحكام التي لها حق التقديم على غيرها، فيقدم الأهم على المهم والأحسن على الحسن، بناءً على العلم بمراتبها.

ومن هذا المنطلق نجد أن الله تعالى ذكر الحياة الدنيا مع الآخرة في آيات كثيرة في القرآن الكريم، ويفضل الآخرة على الدنيا بلفظ صريح أو ضمني. فتقديم الآخرة على الدنيا يندرج تحت مصطلح فقه الأولويات.

والمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء:٧٧].

(٢) الكليات، أبو البقاء الكفوي ص ٢٠٨.

(٣) فقه الأولويات دراسة في الضوابط، محمد الوكيلي ص ١٦

فلو نظرنا إلى الآية الكريمة بتدبر وتفكر، نرى أن الله تعالى فضل الآخرة على متاع الدنيا فقط لمن اتقى. وقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى:٣٦].

ولا يدرك هذه الخيرية إلا أصحاب العقول وأولو الألباب. فخيرية الآخرة من وجوه كثيرة، منها: إن نعم الدنيا قليلة ونعم الآخرة كثيرة، ومتاع الدنيا زائل، لكن متاع الآخرة دائم، الدنيا فيها ما ينغصها من الآلام والأوجاع والغم والهم، لكن الآخرة لا تنغيص فيها، إن نعم الدنيا مشكوكة، فلا يعلم أحد ماذا يكون حاله بعد ساعات، ونعم الآخرة يقينية، الدنيا دار بلاء والآخرة دار جزاء، وغير ذلك من الفوارق[(١)].

يقول عبدالرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

(يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، ثم تزول سريعا، وتنقضي جميعًا، ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين)[(٢)].

موضوعات ذات صلة.

الأسرة، الحدود، النساء، النكاح

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٥.





عناصر الموضوع

مفهوم اللعن

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن منظور: «اللعن: الإبعاد والطرد من الخير، وقيل: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء، واللعنة الاسم، والجمع لعانٌ ولعناتٌ، ولعنه يلعنه لعنًا طرده وأبعده»[1].

ويقول الزمخشري: «لعنه أهله: طردوه وأبعدوه، وهو لعين طريد، ولعنت الكلب والذئب: طردتهما، ومن المجاز: أبيت اللعن، وهي تحية الملوك في الجاهلية»[2].

فأصل اللعن في اللغة الإبعاد، ويطلق على التعذيب والشتم والسب، ومنه الملاعنة واللعان وهو المباهلة، والملعنة قارعة الطريق ومنزل الناس، وفي الحديث: (اتقوا الملاعن)[3]، يعني: عند الحدث، وتلاعنوا: لعن بعضهم بعضًا، ومنه اشتقاق ملاعنة الرجل امرأته، والحاكم يلاعن بينهما ثم يفرق[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال ابن تيمية: «اللعن: الإبعاد عن الرحمة»[5].

وقال الغزالي: «اللعن: عبارة عن الطرد والإبعاد عن الله تعالى»[6].

---

(١) لسان العرب ٥/ ٤٠٤٤.

(٢) أساس البلاغة، ص ٥٦٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنه، ١/ ٢٩٩، رقم ٢٧١٥، وأبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن البول فيها، رقم ٢٦، ١/ ١١. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٨٣، رقم ١١٢.

(٤) انظر: العين، الفراهيدي، ٢/ ١٤١، مختار الصحاح، الرازي، ص٦١٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ٤/ ٢٦٩.

(٥) الصارم المسلول على شاتم الرسول ٢/ ٨٧.

(٦) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢٣.

اللعن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ل ع ن) في القرآن الكريم (٤١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٧	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾[الأحزاب:٦٤]
الفعل المضارع	٥	﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[النساء:٥٢]
فعل الأمر	١	﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٨]
المصدر	١	﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٨]
اسم مرة	١٤	﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[هود:١٨]
اسم فاعل	١	﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[البقرة:١٥٩]
اسم المفعول	٢	﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب:٦١]

وجاء اللعن في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٤٩-٦٥٠.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٤١.

الألفاظ ذات الصلة

١ السب والشتم:

السب لغة:

القطع؛ يقال: سبه سبًا بمعنى قطعه، والتساب التقاطع، والسب الشتم، مصدر سبه يسبه سبًا: شتمه[١].

الشتم لغة:

قبيح الكلام، والشتم السب، والشتم تقبيح أمر المشتوم بالقول، وأصله من الشتامة، وهو قبح الوجه، ورجل شتيم أي: قبيح الوجه، وسمي الأسد شتيمًا لقبح منظره[٢].

وبذلك فإن السب والشتم مترادفان؛ إلا أن السب أشد من الشتم؛ لأن السب هو الإطناب في الشتم، والإطالة فيه[٣].

السب والشتم اصطلاحًا:

«وصف الغير بما فيه نقص وازدراء»[٤].

الصلة بين السب واللعن:

من خلال التأمل في المعاني السابقة لكلا اللفظين يتبين أن اللعن أشد من السب والشتم؛ لأن اللعن ليس مجرد تقبيح بالكلام؛ بل هو دعاء على الملعون بالطرد من رحمة الله عز وجل، وكذلك فإن السب يشمل اللعن ويشمل الشتم والتقبيح، فالسب أعم من اللعن.

٢ البعد:

البعد لغة:

البعد والبعاد: اللعن، يقال: أبعده الله: بمعنى نحاه عن الخير ولعنه[٥].

البعد اصطلاحًا:

بمعنى الهلاك والعذاب والطرد واللعن[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٩٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢١٩٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٩٤.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٦٥.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٤٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٤٤.

الصلة بين البعد واللعن:

البعد في الأغلب يحمل نفس المعنى الذي يحمله اللعن من الطرد من رحمة الله عز وجل ؛ إلا أن البعد يأتي أحيانًا بمعنى: الهلاك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠][1].

٣ السحق:

السحق لغة:

البعد، وقد سحق الشيء فهو سحيق أي: بعيد، وسحقه الله أي: أبعده، ومكان سحيق أي: بعيد[2].

السحق اصطلاحًا:

الهلاك والبعد من رحمة الله عز وجل [3].

الصلة بين السحق واللعن:

لا يظهر فرق بين بين السحق واللعن؛ فكلاهما إبعاد عن رحمة الله عز وجل وعن الخير؛ إلا أن اللعن أكثر استعمالًا في القرآن الكريم، وفي كلام الناس أيضًا، وكذلك فإن السحق هو مطلق الإبعاد، أما اللعن فهو خاص بالإبعاد عن رحمة الله عز وجل .

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٥٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٩٥٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢١٣.

اللاعنون في القرآن

إنه من خلال الوقوف على الآيات التي ورد فيها اللعن في الكتاب العزيز، نجد أن أغلب الآيات في ذلك قد أخبرت بأن اللعن كان من الله عز وجل على من استحقه من خلقه، وفي بعض المواضع أخبرت الآيات بأن اللعن كان من غير الله عز وجل؛ حيث إن بعض الآيات أخبرت عن اللعن الصادر من الملائكة، أو من بعض الأنبياء، أو من الناس، أو من المؤذن بين الجنة والنار، وسنقف في السطور الآتية بإذن الله على بيان من صدر منهم اللعن (اللاعنين) في القرآن الكريم.

أولًا: اللعن من الله تعالى:

لقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن لعنته لبعض خلقه؛ لأنهم قد اقترفوا ما استحقوا به لعنة الله عز وجل عليهم، ومعنى لعنة الله عز وجل لهؤلاء: أنه سبحانه أقصاهم وأبعدهم، وأخزاهم وأهلكهم، وطردهم من رحمته ومن توفيقه وهدايته ومن كل خير[(١)].

ومن خلال تتبع الآيات التي أخبر سبحانه فيها عن لعنه لبعض خلقه نجد أن الله عز وجل قد لعن من خلقه الآتي:

١ . إبليس الرجيم.

حيث أخبر سبحانه عن لعنته لإبليس، وذلك في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز[(٢)]، وأخبر سبحانه بأن إبليس استحق اللعن حينما عصى أمر الله عز وجل بالسجود لآدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣٥].

٢ . كفار اليهود.

وهم أكثر الملعونين نصيبًا من لعنة الله عز وجل لهم في القرآن الكريم؛ حيث أخبر الله عز وجل -في غير موضع من الكتاب العزيز- عن لعنه لطوائف من اليهود؛ وذلك بسبب ذنوبٍ عظام قد اقترفوها في حق الله سبحانه؛ كاستكبارهم عن قبول

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٦.

(٢) هذه المواضع هي: النساء: ١١٨، الحجر ٣٥، ص: ٧٨، وسيأتي ذكر هذه المواضع بإذن الله عند الحديث عن الملعونين في القرآن الكريم.

الحق، وتعاليهم عن الاستجابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع هديه، قال تعالى مخبرًا عمن فعل ذلك من اليهود: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

لقد استحق أولئك اليهود لعنة الله عليهم إذ رفضوا الحق، وكفروا بكتاب الله عز وجل ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

والآيات التي أخبر الله عز وجل فيها عن لعنته لكفار اليهود كثيرة، وسيأتي ذكر تتمتها إن شاء الله تعالى.

٣. الكافرين والمنافقين.

حيث أخبر سبحانه عن لعنته للكافرين والمنافقين في العديد من آيات الذكر الحكيم، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

٤. المؤذين لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ويدخل في هؤلاء اليهود والنصارى الذين نسبوا لله سبحانه الولد، وافتروا عليه ما لا يليق بجلاله سبحانه، ويدخل فيهم كذلك المشركون الذين افتروا على الله الكذب، ونسبوا له الشريك تعالى الله عن كذبهم علوًا كبيرًا، ويدخل فيهم أيضًا كل من افترى على الله الكذب من مدعي النبوة وغيرهم، وكل من آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل[1].

ولقد أخبر الله عز وجل عن لعنته لأولئك المجرمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

٥. من اقترفوا كبائر الذنوب.

فقد أخبر الله سبحانه عن لعنته لقاتل النفس المؤمنة عمدًا، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وأخبر سبحانه عن لعنته للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣٧٥، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤٠.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وكذلك أخبر سبحانه عن لعنته لقاطعي الأرحام، المفسدين في الأرض، فقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣].

ثانيًا: اللعن من الملائكة عليهم السلام:

أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن لعنة الملائكة للكافرين، وورد ذلك صريحًا في موضعين من الكتاب العزيز، وفي كلا الموضعين ورد ذكر لعنة الملائكة لأولئك الكافرين مقرونةً بلعنة الله عز وجل ولعنة الناس أجمعين لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥ - ٨٨].

وهناك آية أخرى في كتاب الله عز وجل ذكرت لعنة الملائكة لأشد الناس ظلمًا، وهم الذين افتروا على الله الكذب.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

فالمقصود بالأشهاد هنا -حسب أشهر أقوال المفسرين فيها- ملائكة الرحمن، يشهدون على أولئك المجرمين بأنهم كذبوا وافتروا على الله عز وجل، فاستحقوا بذلك أن تحل عليهم لعنة الله سبحانه ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولعنة الملائكة لهؤلاء إنما تكون بالدعاء عليهم، فكما أن الملائكة يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم، فإنهم يلعنون الكافرين ويدعون عليهم بسخط الله عز وجل وعذابه والطرد من رحمته[1].

والملاحظ أن الملائكة في الآيات السابقة إنما كانت لعنتهم على أقوام كفار، كفروا بربهم عز وجل، وليس بعد الكفر ذنب، ولعل الحكمة من قرن لعنة الملائكة للكافرين مع لعنة الله عز وجل لهم لبيان

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٣٤٢.

شدة قبح صنيعهم، فهم شر الناس؛ لأنهم كفروا بعد أن آمنوا وشهدوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق من عند الله عز وجل، وجاءتهم الآيات البينات من الله عز وجل، ولكنهم -مع كل ذلك- أصروا على الكفر وماتوا وهم كفار فاستحقوا أن تجتمع عليهم لعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين مع لعنة الله عز وجل لهم، نعوذ بالله عز وجل من الكفر والظلم والضلال.

ثانيًا: اللعن من الرسل عليهم السلام:

ليس في كتاب الله عز وجل ذكرٌ صريح للعن الأنبياء والرسل لأحد من أقوامهم؛ إلا آية واحدة ذكر الله عز وجل فيها لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود عليه السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام، وتلك الآية هي قول الله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على نبيه داود عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك بسبب عصيانهم لله سبحانه، واعتدائهم على خلقه، قال العوفي: عن ابن عباس رضي الله عنه: لعنوا في التوراة، والإنجيل، وفي الزبور، وفي الفرقان»[١].

فلعن داود وعيسى عليهما السلام للذين كفروا من بني إسرائيل هو ما أنزله الله عز وجل من لعنتهم في الزبور والإنجيل، فالله سبحانه لعن هؤلاء الكافرين من بني إسرائيل في هذين الكتابين المنزلين منه سبحانه على نبيين من أنبيائه الكرام[٢].

والرسل والأنبياء عليهم السلام هم من الأشهاد الذين يشهدون على الخلائق يوم القيامة، ويلعنون الكفار الذين افتروا على الله عز وجل الكذب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

فقد ذكر المفسرون في معنى الأشهاد أن الأنبياء يدخلون في ضمنهم.

والملاحظ أنه ليس في كتاب الله عز وجل ما يدل على أن الرسل والأنبياء عليهم السلام كانوا يلعنون أقوامهم؛ وإنما بين كتاب الله عز وجل دعوة الرسل والأنبياء لأقوامهم بأحسن طريقة وأتم أسلوب، دعوا أقوامهم بالحكمة والموعظة الحسنة، باللين والرفق والرحمة، وفي هذا درس للدعاة

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٠٠.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٩٦.

جميعًا بالبعد عن اللعن والسب والشتم في مخاطبتهم لعباد الله عز وجل، فالداعي رسول رحمة وهداية، وليس فظًا لعانًا.

ثالثًا: اللعن من الناس أجمعين:

أخبر الله عز وجل بلعنة الناس أجمعين للكافرين، وذلك في موضعين من كتاب الله عز وجل، وفي كلا الموضعين قرنت لعنة الناس للكافرين بلعنة الله عز وجل ولعنة ملائكته لهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٥-٨٨].

ففي الآيتين السابقتين أخبر الله عز وجل أن الناس أجمعين يلعنون أولئك الكافرين الذين كفروا بعد إيمانهم وماتوا على الكفر، فاستحقوا لعنة الله ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين.

وللمفسرين أقوال في معنى لعنة الناس أجمعين لأولئك الكفار؛ فقال بعضهم: «إنما ذلك يوم القيامة، حيث يلعنهم جميع الناس في أرض الحساب، كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]»، وقال بعضهم: «إن اللعنة من أكثر الناس يطلق عليها لعنة الناس؛ تغليبًا لحكم الأكثر على الأقل»، وقال بعضهم: «إن المراد بالناس في الآية: المؤمنين منهم»، وقال بعضهم: «كل أحد يلعن الظالم، وإذا لعن الكافر الظالم فقد لعن نفسه»[(١)].

قال الشيخ محمد طنطاوي في تفسيره: «والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم صادرة من الله عز وجل -وهي أشد ألوان اللعن-، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وصادرة من الناس أجمعين، أي أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق»[(٢)].

رابعًا: اللعن من الأتباع:

أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن حال الكفار يوم القيامة، وكيف يتبرأ بعضهم

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٦٧.
(٢) التفسير الوسيط ٢/ ١٤٧.

من بعضٍ، ويلوم بعضهم بعضًا، ويتنازع الأتباع مع من اتبعوهم، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

في ذلك الموقف العصيب يعترف الكفار بجرمهم، يعترفون باتباعهم للباطل من غير تعقل، ويرمون اللوم على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم في الكفر والشرك والضلال، فيجدوا في لعنهم والدعاء عليهم، قال تعالى مخبرًا عن حال هؤلاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٨].

وهذه الآيات من سورة الأحزاب هي الموضع الوحيد الذي ذكر فيه لعن الأتباع لمتبوعيهم يوم القيامة، وإنما كان اللعن من الأتباع لمتبوعيهم من باب الاستشفاء والانتقام منهم؛ لما قاموا به من إضلالهم وإغوائهم، وذلك كقول الله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨][(١)].

ولا شك أن في لعن هؤلاء الأتباع -يوم القيامة- لمتبوعيهم بيانًا لشدة حسرتهم وندمهم على اتباعهم في الباطل، ويوم القيامة لا ينفع الندم، فلا يجدون أمامهم إلا أن يجتهدوا في لعن من كان سببًا في ضلالهم وغوايتهم، وفي إخبار الله عز وجل عن ذلك تحذير شديد للعباد من اتباع السادة والكبراء في سبل الضلال والشر؛ فقد بين الله عز وجل أن عاقبة ذلك وخيمة، والندم عليه شديد، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

خامسًا: اللعن من عبدة الأوثان:

إن من أحداث يوم القيامة العظام ما يكون من تخاصم أهل النار وتنازعهم وإلقاء بعضهم اللوم على غيره، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]؛ ولكن ذلك كله لا ينفعهم عند الله عز وجل شيئًا، فلا يجدون إلا أن يتلاعنوا، ويدعو بعضهم على

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٢.

بعض بمضاعفة العذاب من النار.

ومن أهل النار الذين يحدث بينهم تخاصم عظيم وتلاعن: عبدة الأوثان، الذين كانوا في الدنيا يجتمعون على ضلالهم؛ يقيمون الأعياد والطقوس المزعومة، ويأكلون ويشربون حول أوثانهم؛ ولكن حالهم هذا سينقلب يوم القيامة، حينما يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، قال تعالى على لسان نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام مخاطبًا قومه عبدة الأوثان: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فهذه الآية من جملة ما قاله إبراهيم عليه السلام لقومه وهو يعظهم ويرشدهم؛ فأخبرهم بحقيقة يتجاهلونها، وهي أنهم ما اتخذوا تلك الأوثان آلهة يعبدونها إلا لأجل التعارف عليها والتوادد والتحاب من أجلها، فيقيمون الأعياد لها، ويجتمعون حولها، فيأكلون ويشربون، لا أنهم حقيقة يعتقدون أنها آلهة وهي أحجار نحتوها بأيديهم، وأخبرهم نبيهم محذرًا لهم بما سيؤول إليه أمرهم يوم القيامة، حينما تنعكس الأمور فـ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يكفر المتبوعون وهم الرؤساء بمن اتبعوهم، وهم الأتباع وعوام الناس، ويلعن كل من الأتباع والمتبوعين بعضهم بعضًا، وذلك عند معاينة العذاب الأليم[(١)].

سادسًا: اللعن من المؤذن بين أهل الجنة وأهل النار:

أخبر الله عز وجل أنه في يوم القيامة عندما يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ينادي أهل الجنة أهل النار ويسألونهم: هل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والعذاب؟ -وفي ذلك تقريع وتوبيخ عظيم لأهل النار- فيجيبون: نعم وجدنا، مقرين بعذاب الله عز وجل الذي حصل لهم كما كان يوصف لهم من قبل رسل الله عز وجل.

وحينئذ يؤذن مؤذن بين الجنة والنار معلنًا أن لعنة الله ملازمة لأهل النار، مستقرة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وذكر المفسرون أن المؤذن بين الجنة والنار ملك من الملائكة، أوكل الله عز

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٥٠٣، أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ١٢٤.

وجل له تلك المهمة، ينادي بين أهل الجنة وأهل النار؛ فيسمع الجميع صوته[1].

ولا شك أن في أذان ذلك المؤذن تقريعًا وتوبيخًا ومزيد عذابٍ وحسرةٍ لأهل النار، إذ يبشرون بدوام اللعنة والسخط من الله عز وجل عليهم[2].

سابعًا: اللعن من الأمم التي في النار:

إن أهل النار لما يجدوا ما فيها من بؤس وعذاب وشقاء محيط بهم، دائم عليهم يأخذون في لعن بعضهم بعضًا، ويدعو من كان منهم تابعًا على المتبوعين الذين ساقوهم إلى طرقات الغي والضلال.

قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

يخبر الله سبحانه عما يقال لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة من الجن والإنس، كلما دخلت أمة النار، وجدت من قد أدخل قبلها؛ فيلعن بعضهم بعضًا، ويسب بعضهم بعضًا، حتى إذا اجتمعوا فيها جميعًا ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾، فيرد عليهم الجبار سبحانه: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وسبب اللعن بين الأمم في النار: أن كل أمة إنما تدخل النار بعد مناقشة الحساب، فيتبين لهم أن ما كانوا عليه من الضلال والباطل إنما كان بسبب اتباعهم لكبرائهم ورؤسائهم من غير هدى ولا علم، وبذلك تقع في نفوسهم كراهية عظيمة لهم، فإذا دخلوا النار فرأوا من كان سببًا في غوايتهم وضلالهم أخذوا في لعنهم والدعاء عليهم[4].

إن في هذا الخبر من الله عز وجل عن أهل النار وأحوالهم وتلاعنهم داخل النار موعظة عظيمة للعباد، فلا يسمع بذلك أحد إلا ويقشعر من حالهم تلك، ويخاف على نفسه من أن يكون مع أولئك الكافرين.

ثامنًا: اللعن من عموم اللاعنين:

أخبر الله عز وجل عن قوم بلغوا الغاية في الفساد والإضلال وظلم العباد، إنهم أقوام يكتمون الهداية، ويحاولون إخفاء النور الذي أنزله الله عز وجل ليستنير به العباد، فكانت عقوبة هؤلاء أن عليهم لعنة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٠٩، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٣٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٦٤.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٢٠.

الله ولعنة اللاعنين، قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

قال ابن كثير في هذه الآية: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب؛ كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أخبر أنه يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون»[1].

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد باللاعنين؛ فقال بعضهم: «هم الملائكة والمؤمنون»، وقال آخرون: «هم دواب الأرض وهوامها»، وقال غيرهم: «كل ما عدا بني آدم والجن»، وغير ذلك من أقوال، ورجح الإمام الطبري القول الأول مستدلًا بآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١][2].

وقول الطبري هو الأقرب للصواب والله أعلم؛ لأن الآية التي استدل بها ظاهرة في ذلك، والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٦.
(٢) انظر: جامع البيان ٣/ ٢٥٨.

الملعونون في القرآن الكريم

إنه من خلال التدبر في الآيات التي ورد فيها اللعن في كتاب الله عز وجل نجد أن الملعونين في هذه الآيات أصناف من الخلق، يترأسهم إبليس اللعين، ومما يلفت النظر أن بعض هؤلاء الملعونين قد ذكر الله عز وجل لعنهم مرات متعددة، كما هو الحال بشأن اليهود -وهم أكثر من ورد في شأنهم لعنٌ في كتاب الله عز وجل -، وبعض الملعونين ورد لعنهم مرة واحدة فقط، وسيأتي بيان ذلك -بإذن الله تعالى-.

كما أنه من الأمور التي تلفت الانتباه أيضًا عند التدبر في الآيات التي ورد فيها اللعن أن صيغة اللعن تختلف؛ فتارة يكون اللعن بصيغة: (لعنه الله) أي: بالفعل الماضي وفاعله الله عز وجل، وتارة يكون اللعن بصيغة: (يلعنهم الله) أي: بالفعل المضارع الذي فاعله الله عز وجل، وتارة يكون اللعن بصيغة المصدر: (لعنة الله على، عليهم اللعنة، عليك لعنتي)، وتارة يكون اللعن بالنعت باسم المفعول: (ملعونين، الملعونة)، وتارة يكون بفعل الطلب: (العنهم)، ولا شك أن في ورود اللعن بهذه الصيغ المتعددة في كتاب الله عز وجل له دلالات وحكمٌ عظيمةٌ أرادها الحكيم الخبير سبحانه ؛ فصيغة الفعل الماضي لها دلالة تختلف عن دلالة المضارع، وصيغة المصدر لها دلالة تختلف عن دلالة الفعل الماضي والفعل المضارع، وما في كتاب الله عز وجل من لفظةٍ إلا ولها مدلولاتها، كما قال ابن عطية: «وكتاب الله لو نزعت منه لفظةٌ ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[1].

ونحاول -بإذن الله تعالى- الوقوف على شيء من هذه الحكم.

وباستقراء الآيات التي ورد فيها لعنٌ يمكن أن نحصر أبرز الملعونين في كتاب الله عز وجل بالآتي:

أولًا: الشيطان:

ذكر الله عز وجل لعنته للشيطان في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز؛ ورد اللعن في موضعين منها لإبليس عندما استكبر عن أمر ربه ولم يسجد لآدم عليه السلام.

قال تعالى مخبرًا عن ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٢.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٣٥].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «يذكر الله تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه، بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة؛ حسدًا وكفرًا وعنادًا واستكبارًا وافتخارًا بالباطل ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، [الحجر: ٣٣]. وكقوله قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[ص: ٧٦]»[١].

ونظير هذه الآيات -في ذكر لعنة الله عز وجل لإبليس بسبب استكباره عن أمر ربه- قول الله عز وجل في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧١ - ٧٨].

ونلاحظ أن الله عز وجل قد أخبر -في كلا الموضعين- عن لعنته لإبليس بأشد صيغ اللعن؛ حيث إنه سبحانه أخبر عن لعنته لإبليس بصيغة الاسم (المصدر) المؤكد بـ (إن) فقال سبحانه في آيات الحجر: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وقال في آيات ص: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ولا شك بأن التعبير بالاسم يدل على ثبات اللعنة على إبليس واستمرارها، قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ قال المفسرون: معناه يلعنه أهل السماء والأرض إلى يوم الحساب»[٢].

ونلاحظ أيضًا التعبير بقوله: ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ في سورة الحجر، وبقوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ في سورة ص، وفي ذلك تأكيد على شدة اللعن لإبليس، فـ(أل) التعريف في كلمة (اللعنة) إما أن تكون للعهد، وإما أن تكون عوضًا عن الضمير المضاف إليه في قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾، وإما أن المراد بقوله: ﴿عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ أي: كل لعنة، وفي قوله: ﴿عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ شامل أيضًا لكل لعنة؛ وذاك لأن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين إنما هي من جهة الله تعالى ؛ فهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته، وبهذا فإن التعبيرين يؤديان نفس المعنى ويؤكد بعضهما بعضًا[٣].

وقد دل قوله تعالى في كلا الموضعين:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٦.

(٢) زاد المسير ٤/ ٤٠١.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٤٧، البحر المديد ابن عجيبة ٦/ ٢٣٣.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ على أن لعنة الله عز وجل لإبليس دائمة مستمرة لا تنقطع، فهي باقية ما بقيت الدنيا، فإذا كان يوم الدين اقترن له مع اللعنة صنوف المهانة والعذاب الأليم ما ينسى عنده اللعنة، فكأنها انقطعت عنه مع أنها مستمرة عليه[(١)]، ونقل ابن الجوزي عن ابن الأنباري قوله: «وإنما قال إلى يوم الدين لأنه يوم له أول وليس له آخر، فجرى مجرى الأبد الذي لا يفنى، والمعنى عليك اللعنة أبدًا»[(٢)].

أما الموضع الثالث: الذي أخبر الله عز وجل فيه عن لعنته للشيطان فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٦ - ١١٨].

ففي هذه الآيات يخبر الله سبحانه عن شدة ضلال المشركين؛ إذ إنهم ما يعبدون من دون الله إلا آلهة مزعومة من الأصنام والأوثان التي كانوا يسمونها بأسماء الإناث، كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك، وهم بفعلهم هذا ما يدعون إلا شيطانًا عاصيًا متمردًا على أمر ربه، وقد أخبر سبحانه بأنه قد لعن ذلك الشيطان، فأقصاه وأخزاه وأبعده وطرده من رحمته[(٣)].

ثانيًا: اليهود:

قد ورد لعن الله عز وجل لليهود في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز؛ بل إن اليهود هم أكثر من ورد بشأنهم لعن من الله عز وجل في القرآن الكريم، إذ إن المواضع التي ورد فيها لعنهم تقارب العشرة مواضع، وما ذلك إلا لشدة فسادهم وإفسادهم، وكثرة جرائمهم.

فأول المواضع -حسب ترتيب المصحف الشريف- التي ورد فيها لعن اليهود في القرآن الكريم هو قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

حيث تخبر هذه الآية عن بعض أقوال اليهود القبيحة؛ إذ إنهم قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم -معتذرين عن عدم إيمانهم به-: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي: عليها غلاف وغطاء فلا تفقه ما تقول، وهم كاذبون في ذلك، يريدون تبرير كفرهم، فكشف الله عز وجل حقيقة الأمر، فقال سبحانه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أقصاهم الله وأبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم؛

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٥/ ٢٨٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٦.

(٢) زاد المسير ٤/ ٤٠١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢١٠-٢١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧٧.

بسبب كفرهم وجحودهم آيات الله عز وجل، وما أرسل به رسله عليهم السلام؛ فلذلك استحقوا لعنة الله عز وجل[1].

والموضع الثاني: الذي ورد فيه لعن اليهود هو قول الله عز وجل مخبرًا عنهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فهذه الآية تبين شدة حسد اليهود للعرب؛ إذ إنهم كانوا يعلمون -من كتبهم- أن زمان قدوم النبي المكتوب عندهم قد آن، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وجاءهم بالقرآن الكريم، وكانوا من قبل بعثته يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما جاءهم الرسول، ووجدوا أنه ليس منهم، كفروا به وبالكتاب الذي معه، فلعنهم الله عز وجل لأجل كفرهم وحسدهم[2].

ومن هذه المواضع أيضًا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

والمقصود بهؤلاء علماء اليهود وأحبارهم، وعلماء النصارى، وسبب استحقاقهم لتلك اللعنة المغلظة كتمانهم للحق والبينات، وكتمانهم أمر صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعدم اتباعه مع علمهم بصدقه؛ لذلك أخبر الله عز وجل عن لعنته لهم، وأخبر أنه يلعنهم أيضًا كل شيء على صنيعهم ذلك؛ فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون[3].

إن جرائم اليهود كثيرة، وأفعالهم شنيعة قبيحة، بلغوا الذروة في ذلك حينما حرفوا كلام الله عز وجل، وغيروا صفات النبي صلى الله عليه وسلم المكتوبة عندهم؛ ليحرموا الناس من اتباعه والاهتداء بهديه، واستهزؤا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وطعنوا في دين الله عز وجل، قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦][4].

لقد بلغ من قبح اليهود وعدوانهم أنهم تجرؤا على الله عز وجل، فنسبوا إليه ما لا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٦.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٠.

يليق بجلاله سبحانه، من ذلك أنهم نسبوا إليه البخل -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا- قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن لعن الله عز وجل لليهود لعنه سبحانه لأصحاب السبت الذين انتهكوا حرمات الله عز وجل، ولم يلتزموا حدوده، ولم يتنصحوا بنصيحة المتقين منهم، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن قصتهم في قوله سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ثم أخبر سبحانه عن العذاب الذي أصابهم حينما لم ينتفعوا بنصح الناصحين، وتمادوا في عدوانهم وغيهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥- ١٦٦].

وأما الموضع الذي ذكر الله عز وجل فيه لعنته لأولئك المعتدين المتهكين لحدود الله فقد جاء في سياق دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بما أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم، وتحذيرهم من أن تطمس وجوههم أو يصيبهم ما قد أصاب أصحاب السبت من المسخ واللعن.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

والمراد بطمس وجوههم محو آثارها حتى تصير كالقفا من غير أنف ولا عينين ولا شفاه، أو المراد جعل أبصارهم إلى قفاهم فيمشون القهقري[(١)].

والمراد بلعنهم كما لعن أصحاب السبت مسخهم قردة كما مسخ أصحاب السبت، قال الشنقيطي: «لم يبين هنا كيفية لعنه لأصحاب السبت؛ ولكنه بين في غير هذا الموضع أن لعنه لهم هو مسخهم قردة، ومن مسخه الله قردًا غضبًا عليه فهو ملعون بلا شك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]»[(٢)].

ونلاحظ في لعن اليهود أن الله عز وجل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٤٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٧.
(٢) أضواء البيان ١/ ٢٤٢.

قد لعنهم بصيغة الفعل الماضي: (لعنهم الله)، وبصيغة الفعل المضارع: (يلعنهم الله)، وبصيغة المصدر: (فلعنة الله على)، ولا شك في أن لعن اليهود في القرآن الكريم قد جاء بهذه الصيغ المختلفة فيه بيان لشدة لعنتهم وغلظتها، فالفعل الماضي يدل على وقوع تلك اللعنة عليهم فيما سبق، والفعل المضارع يدل على استمرارية اللعنة عليهم، والمصدر: (الاسم) يدل على ثبات ودوام اللعنة وملازمتها لهم، وفي هذا إشارة إلى أن الصفات التي استحق اليهود عليها اللعن ستبقى موجودة فيهم، وهذا ما يدل عليه واقع الحال في أيامنا هذه.

ثالثًا: الكافرون والمنافقون:

إن من الأصناف الذين لعنهم الله الكفار والمنافقين، وهم شرار الخلق، رفضوا دعوة الله، وأبوا النور الذي أنزله إليهم، استحبوا العمى على الهدى، فكان لهم اللعن والعذاب الأليم.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٦].

والمنافقون كفار، أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان، فكانوا إخوان الكافرين، اجتمعوا معهم على الكفر والضلال، فجمع الله عز وجل بينهم في اللعن وسوء الدار، قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

إن اللعن للكفار لمن مات منهم على الكفر؛ أما من تاب من كفره، ودخل في الإسلام قبل موته، فهذا يتوب الله عز وجل عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٩].

رابعًا: المرتدون:

إن ممن وجبت عليهم لعنة الله عز وجل من ارتدوا عن الإيمان إلى الكفر، واستحبوا العمى على الهدى، فبعد أن أبصروا نور الإيمان نكسوا أنفسهم إلى ظلمات الكفر، واستبدلوا الضلالة بالهدى، فأنى لهم الهداية؟!

قال الله عز وجل مخبرًا عن أولئك

المرتدين: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩].

فهؤلاء قد قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم، ووضح لهم الأمر، واستنارت لهم الطريق، ثم بعد هذا الهدى ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من الضلال والكفر؟![1].

ولقد كانت لعنة الله عز وجل لهؤلاء المرتدين شديدةً مغلظةً؛ فهي لعنة من الله عز وجل ومن الملائكة، ومن الناس أجمعين، وهي لعنة عليهم، ملازمة لهم، وهم خالدون فيها، لا يخفف عنهم شيء من العذاب ولا من اللعنة، ولا يمهلون، ولا يؤجلون، فهم في اللعنة والعذاب خالدون[2] ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧-٨٨].

خامسًا: المفسدون:

لقد ذكر الله عز وجل لعنته للمفسدين في الأرض في موضعين من الكتاب العزيز؛ الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التي ذكر سبحانه فيها حال أهل الجنة من المؤمنين والمصلحين، وذكر صفاتهم وأعمالهم، فجاءت هذه الآية لتبين حال الأشقياء الذين اتصفوا بعكس صفات المؤمنين؛ فهؤلاء الأشقياء ينقضون عهد ربهم عز وجل من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم؛ بل قابلوه بالإعراض والنقص، ويقطعون ما أمرهم ربهم بوصله، فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجًا، لذا استحق هؤلاء اللعن والبعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين، واستحقوا سوء الدار في نار الجحيم وما فيها من العذاب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٠٥.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٥٤.

الأليم[1].

والموضع الثاني: الذي ذكر فيه سبحانه لعنته للمفسدين في الأرض هو قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وهاتان الآيتان جاءتا في سياق مخاطبة الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٠-٢١].

ومعنى الآيتين: «فلعلكم إن توليتم عن تنزيل الله جل ثناؤه، وفارقتم أحكام كتابه، وأدبرتم عن محمد صلى الله عليه وسلم وعما جاءكم به أن تعصوا الله في الأرض؛ فتكفروا به، وتسفكوا فيها الدماء، وتعودوا لما كنتم عليه في جاهليتكم من التشتت والتفرق بعد ما قد جمعكم الله بالإسلام، وألف به بين قلوبكم»[2].

فهذان الموضعان قد ورد فيهما لعن المفسدين في الأرض، والمراد بالإفساد في الموضعين -كما بين المفسرون- كل ما يدخل تحت مسمى الإفساد، وأعظم ذلك الكفر والعصيان وسفك الدماء والصد عن سبيل الله عز وجل[3]، وقد جمع الله عز وجل في الموضعين -مع الإفساد في الأرض- تقطيع الأرحام التي أمر الله عز وجل بأن توصل، وفي ذلك تعظيم لشأن الرحم، وبيان لعظم جرم من قطعها.

وقد كانت صيغة اللعن للمفسدين مختلفة في الموضعين؛ ففي الموضع الأول: جاءت بصيغة: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وفي الموضع الثاني: بصيغة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

سادسًا: الذين يؤذون الله ورسوله:

لقد أخبر الله سبحانه عن لعنته لمن آذاه وآذى رسوله صلى الله عليه وسلم، وتوعدهم سبحانه بالعذاب المهين؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

والذين يؤذون الله عز وجل هم الذين خالفوا ما أمر به سبحانه، وعصوه، وانتهكوا ما حرم، وأصروا على ذلك، ووصفوه سبحانه بما هو منزه عنه، أما من آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم الذين طعنوا فيه صلى الله عليه وسلم، أو نالوا منه بسب

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٨٧.

أو شتم أو عيب، أو آذوه بأي نوع من أنواع الأذى[1].

والملاحظ أن لعنة الله عز وجل لهؤلاء شديدةٌ مغلظةٌ؛ حيث إنه سبحانه قد لعنهم في الدنيا والآخرة، فهم مطرودون من رحمة ربهم عز وجل في الدنيا والآخرة، وهذه اللعنة توجب زوال النصر والتوفيق عنهم من كل وجه، وتبعدهم عن أسباب الرحمة في الدارين، ومن هذه اللعنة أنهم استحقوا القتل في الدنيا، واستحقوا العذاب المهين في النار في الآخرة[2].

وكما أن لعنة هؤلاء جاءت شديدة مغلظة فإن العذاب الذي توعدهم الله عز وجل به شديدٌ أيضًا ؛ وذلك إن الله عز وجل قد أخبر بأنه أعد لهم عذابًا مهينًا، والعذاب المهين أشد وأفظع من العذاب الأليم؛ فإن العذاب المهين يشمل العذاب الأليم ويزيد عليه الإهانة، والإهانة إذلال وتحقير وخزي، وذلك قدر زائد على ألم العذاب؛ فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان، ولم يذكر الله عز وجل في كتابه العزيز أنه أعد عذابًا مهينًا إلا في حق الكافرين، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥١][3].

سابعًا: أقوام ملعونون:

ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز لعنته لأقوام معينين، أرسل إليهم سبحانه الرسل لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولكنهم جحدوا واستكبروا وأصروا على كفرهم وعنادهم رغم ما رأوا من آيات الله عز وجل ومعجزاته التي أجراها على يد رسله عليهم السلام ؛ فاستحق هؤلاء الكافرون المكذبون لعنة الله وسخطه وعذابه.

ومن هؤلاء الأقوام الذين لعنهم الله عز وجل في كتابه العزيز قوم عاد، الذين كذبوا رسول الله إليهم هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

فلما أصروا على كفرهم وتكذيبهم، وعصوا رسول الله إليهم، واتبعوا كبراءهم وسادتهم المستكبرين المعاندين للحق أرسل الله عز وجل عليهم العذاب،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢٤٠.

(٢) انظر: دقائق التفسير، ابن تيمية ٢/ ٤٥٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٤٢٠.

(٣) انظر: دقائق التفسير، ابن تيمية ٢/ ٤٥٩.

واستحقوا لعنة الجبار سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩ - ٦٠].

ولقد كانت لعنة الله عز وجل عليهم لعنةً شديدةً مغلظةً، حيث إنهم قد لعنوا في الدنيا، ويوم القيامة لهم لعنة متبوعة باللعنة التي سبقت عليهم في الدنيا، فاللعنة مستمرة عليهم، متصلة إلى يوم القيامة[(١)].

ولذا فقد استحقوا الدعاء بالإبعاد عن رحمة الله عز وجل ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، وفي هذا الدعاء عليهم تهويل لأمرهم، وتفظيع لحالهم، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم[(٢)].

ونظير هؤلاء في استحقاق الإبعاد واللعن الشديد في الدارين فرعون وقومه، الذين كذبوا رسول الله إليهم موسى عليه السلام، وبدلًا من طاعته واتباع هديه اتبعوا أمر فرعون، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ - ٩٩].

فلما كان فرعون قدوة لقومه في الكفر والضلال في الدنيا، فهو كذلك يوم القيامة، يتقدمهم وهم يتبعونه، إلى أن يدخلهم النار معه ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[(٣)].

ولما كان جرمهم عظيمًا، وذنبهم كبيرًا -إذ استحبوا الكفر على الإيمان، وقدموا طاعة فرعون على طاعة الرحمن- كانت عليهم اللعنة في الدارين ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي أن اللعن من الله، والملائكة، والأنبياء ملتصقٌ بهم في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضًا، لا يزول عنهم[(٤)].

وقد ذكر الله عز وجل اللعنة التي جوزي بها فرعون وجنده في الدنيا والآخرة في موضع آخر من كتابه العزيز، وذلك في قوله تعالى عن فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٩.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢١٠.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٩.
(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥٥٩.

[القصص: ٣٩ - ٤٢].

ثامنًا: القاتل للمؤمن عمدًا:

إن للنفس المؤمنة عند الله عز وجل حرمة عظيمة، ومن شدة حرمتها أنه سبحانه جعل اللعن والخلود في عذاب جهنم لمن اعتدى على هذه النفس المؤمنة فقتلها، وقد ورد لعن قاتل النفس المؤمنة في آية واحدة من كتاب الله عز وجل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

لقد بينت الآية مدى حرمة النفس المؤمنة من خلال بيان شدة العقوبة وغلظها على من تجرأ على حرمة هذه النفس فقتلها عمدًا، قال ابن كثير: «وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله عز وجل ؛ حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية.

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا»[1].

إن الوعيد الذي ذكره الله عز وجل في شأن قاتل النفس المؤمنة عمدًا لهو وعيد عظيم، ترجف منه القلوب، وتتصدع له الأفئدة، فلم يرد في أنواع الكبائر وعيدٌ أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله؛ حيث إن الله عز وجل قد أخبر بأن من اقترف ذلك فإن جهنم هي جزاؤه، فهذا الذنب العظيم قد كفى وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، ثم إن للقاتل فوق ذلك غضب الجبار سبحانه، وزيادة على ذلك فقد لعنه الله عز وجل فأبعده وطرده من رحمته، وأخزاه، وحرمه من الفوز والفلاح، وأعد له عذابًا عظيمًا، فبئس ذلك المصير!! ونعوذ بالله عز وجل من كل سبب يبعد عن رحمته[2].

تاسعًا: الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات:

إن من الذين ذكر الله عز وجل لعنهم في كتابه العزيز من يخوضون في أعراض المؤمنين، فيقولون الإفك، ويدعون الكذب، طاعنين أعراض المؤمنات العفيفات الغافلات عن كل رذيلة، ومن اقترف ذلك فقد استحق لعنة الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٩.

(٢) انظر: تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٣.

وللمفسرين أقوال في بيان المقصود بالمحصنات الغافلات اللاتي ورد ذكرهن في الآية.

وأرجح الأقوال في ذلك ما ذهب إليه شيخ المفسرين الطبري حيث قال بعد أن ذكر أقوال المفسرين: «وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها؛ وإنما قلنا ذلك أولى تأويلاته بالصواب؛ لأن الله عم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ كل محصنة غافلة مؤمنة، رماها رام بالفاحشة، من غير أن يخص بذلك بعضًا دون بعض، فكل رام محصنة بالصفة التي ذكر الله -جل ثناؤه- في هذه الآية فملعون في الدنيا والآخرة، وله عذاب عظيم، إلا أن يتوب من ذنبه ذلك قبل وفاته»[1].

ولعنة هؤلاء القذفة أخبر الله عز وجل بأنها في الدارين، حيث قال تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، قال المفسرون: «المراد باللعنة في الدنيا الإبعاد، وضرب الحد الذي شرعه الله عز وجل، واستيحاش المؤمنين منهم، وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، والبعد عن الثناء الحسن والذكر الجميل على ألسنة المؤمنين، وأما لعنتهم في الآخرة فبحرمانهم من الفوز والفلاح، وطردهم من رحمة الله عز وجل، وبالعذاب العظيم الذي أعده الله لهم»[2].

عاشرًا: شجرة الزقوم:

أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز عن شجرةٍ تخرج في أصل الجحيم، يعذب الله سبحانه بها أهل النار؛ يأكلون من طعامها الأثيم، ويجدون من نتنها وخبثها ما يزيدون به عذابًا وألمًا، وقد جاء الخبر في القرآن الكريم عن هذه الشجرة في أربعة مواضع؛

الموضع الأول: في سورة الصافات، حيث ذكر الله عز وجل خبر هذه الشجرة عقب الإخبار عن أهل الجنة وما أعد الله عز وجل لهم من نعيم وشراب وأزواج مطهرة؛ ليكون ذكرها بعد ذلك لمقارنة حال أهل النار وما لهم من عذاب وشقاء بحال أهل الجنة وما أعد لهم من نعيم وسرور.

قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٨].

---

(١) جامع البيان ١٩/ ١٤٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٠١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٩١.

والمعنى: أنعيم الجنة خير نزلًا أم شجرة الزقوم التي تبنت في أصل الجحيم وفيها من ألوان العذاب ما فيها؟، ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ فهذا طعامهم وفاكهتهم، وذاك شرابهم بدل رزق أهل الجنة ونعيمهم وشرابهم[1].

والموضع الثاني: الذي أخبر الله عز وجل فيه عن تلك الشجرة الملعونة قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

فقد جعل الله عز وجل تلك الشجرة طعامًا لمن كان أثيمًا كافرًا جاحدًا، فإذا أكل منها كانت في بطنه كعكر الزيت المغلي، تغلي في بطنه كغليان الحميم وحرارته وشدته[2].

والموضع الثالث: الذي ذكرت فيه شجرة الزقوم هو قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

وجاء ذكرها هنا في سياق الحديث عن أهل الشمال وما أعد الله لهم من سموم وحميم، فأخبر هنا عن طعامهم وشرابهم؛ فطعامهم شجر الزقوم، هو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحًا، وأبشعها منظرًا، قال السعدي: «والذي أوجب لهم أكلها -مع ما هي عليه من الشناعة- الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم. هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع»[3].

أما الموضع الرابع: الذي ذكرت فيه الشجرة الملعونة فهو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وهنا بين الله عز وجل أن الرؤيا التي أراها لنبيه صلى الله عليه وسلم وهي ما رآه حقيقة من آيات الله عز وجل ليلة الإسراء- وكذلك الشجرة الملعونة في القرآن -وهي شجرة الزقوم على الراجح من أقوال المفسرين- جعلهما الله عز وجل فتنة يفتن بهما الناس؛ فأما المؤمن بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم فقد صدق بما أخبر به الله سبحانه وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما من سبق عليه الكفر فقد كفر وأنكر ذلك.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢/ ٣٥١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٨٣٤.

قال ابن عطية: «والشجرة هنا في قول الجمهور هي: شجرة الزقوم؛ وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصافات قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمرًا وزبدًا، وقال لأصحابه: تزقموا[(١)]، فافتتن. أيضًا بهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنةً واختبارًا؛ ليكفر من سبق عليه الكفر، ويصدق من سبق له الإيمان»[(٢)].

ومعنى إخبار الله عز وجل عن شجرة الزقوم بأنها شجرة ملعونة في القرآن أي: أن ذكرها باللعن قد ورد في القرآن، وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤].

ومعنى كونها ملعونة: أي أنها مذمومة، قال الزجاج: «العرب تقول لكل طعام مكروه وضار ملعون»[(٣)]، أو المراد بالملعونة الملعون آكلها، أو أن معنى الملعونة المبعدة عن منازل أهل الفضل[(٤)].

أسباب اللعن

لاشك في أن من ورد اللعن في حقهم في القرآن الكريم قد اقترفوا من الجرائم والآثام، وارتكبوا من الكبائر والموبقات ما استحقوا به ذلك اللعن والإبعاد، ولولا شدة قبح جرمهم لما لعنهم الله عز وجل، وهو سبحانه العفو الغفور، والحليم الصبور.

وفي السطور الآتية نقف بإذن الله تعالى على الأسباب التي استحق بها الملعونون ذلك اللعن، وذلك من خلال تتبع الآيات القرآنية التي ورد فيها لعن لهم، وبينت سبب لعنهم:

١ . الكفر والشرك بالله عز وجل.

إن الكفر بالله عز وجل أو بما أرسل به رسله عليهم السلام هو أعظم ما يقترفه الإنسان من ذنب، وليس أعظم من الكفر ذنب -والشرك بالله عز وجل داخل تحت الكفر-؛ لأن من كفر أو أشرك فإنه لم يؤد حق الله عز وجل عليه، وحق الله عز وجل على عباده: -كما جاء في الحديث- (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا)[(٥)]؛ ولذلك فإن الله عز وجل قد أخبر عباده بأنه سبحانه يغفر كل الذنوب إلا الكفر والشرك، قال سبحانه:

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٣١٠.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٤٨.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٥٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍ فيه دخل الجنة وحرم على النار، رقم ١٥٢، ١/ ٤٣.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وإن من كفر أو أشرك بربه عز وجل، فقد ظلم نفسه ظلمًا عظيمًا، ليس كمثله ظلم، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وإن الذين كفروا هم شر الخلق على الإطلاق، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

ولقد أرسل الله عز وجل الرسل ليرشدوا الناس إلى توحيد ربهم عز وجل، وتحذيرهم من أعظم الذنوب، من الكفر والشرك، وعبادة غير الله عز وجل، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولذا فإن من لقي الله عز وجل يوم القيامة بكفرٍ أو شركٍ لم يتب منه وفارق الدنيا عليه استحق من الله عز وجل اللعن المغلظ، والطرد من رحمته سبحانه، واستحق الخلود في نار جهنم وبئس المصير، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢].

لقد كان اللعن والخلود في النار جزاءً وفاقًا لمن كفر بربه، واستمر على كفره، ولم ينتفع بآيات الله عز وجل من حوله، استكبارًا عن الحق، وتعالٍ عن الهدى والنور الذي بعثه الله إليه، فما أشد عذابه! ويا لسوء مصيره! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٦].

وإن أشنع الكفر أن يكفر الإنسان بعد أن يهديه الله عز وجل إلى الإيمان، فهذا الذي رأى النور بعد الظلام، ففضل الظلام على النور، وانتكس على نفسه، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، واشترى الضلالة بالهدى، فليس له جزاء إلا اللعن من الله عز وجل ومن ملائكته ومن الناس أجمعين، خالدًا في العذاب لا يخفف عنه، ولا ينظر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢].

ولقد توعد الله عز وجل الكفار مع إخوانهم المنافقين -وهم كفار مثلهم- بنار جهنم وباللعن وبالعذاب المقيم، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

٢. الظلم.

لقد استحق الظالمون اللعن من الله عز وجل، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

وقد ورد لعن الظالمين -صريحًا- في موضعين آخرين من القرآن الكريم، وقد بين الله عز وجل في كلا الموضعين صفات أولئك الظالمين؛ فقال سبحانه في الموضع الأول: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

وقال سبحانه في الموضع الآخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٨-١٩].

ونلاحظ بأن المراد بالظالمين في كلا الموضعين هم الكفار، وقد ذكر الله عز وجل -في كلا الموضعين- الصفات نفسها لأولئك الظالمين، وصفاتهم هي أنهم: يصدون عن سبيل الله، ويبغون السبيل المعوج لا الصراط المستقيم، وهم كافرون بالآخرة وبلقاء ربهم عز وجل، قال ابن كثير: «يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن يكون السبيل معوجة غير مستقيمة؛ حتى لا يتبعها أحد، وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون جاحدون مكذبون بذلك، لا يصدقونه ولا يؤمنون به؛ فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكرٍ من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حسابًا عليه، ولا عقابًا، فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا»[(١)].

إن أولئك الظالمين قد ظلموا أنفسهم أولًا إذ فتح الله لهم أبواب رحمته فصدوا أنفسهم عنها، وبعث إليهم الهدى والنور فاستحبوا العمى على الهدى، ثم هم بعد ذلك قد ظلموا غيرهم بأن صدوهم عن سبيل الله، ومنعوهم من الدخول في دينه والإيمان برسله، فما أشد ظلمهم إذ حرموا أنفسهم وحرموا غيرهم من رحمة الله عز وجل، ومن جنة الخلد، واستبدلوا ذلك بالخلد في نار جهنم وبئس المصير[(٢)].

٣. الكذب والافتراء على الله عز وجل.

إن من أقبح الآثام وأعظم الجرائم الكذب على الله عز وجل، ووصفه سبحانه

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٤٦٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٩.

بما لا يليق بعظيم جلاله وسلطانه، وافتراء الكذب عليه سبحانه لصد الناس عن سبيله؛ ولذا استحق من فعل تلك الآثام القبيحة أن تحل عليه اللعنة، وأن يطرد من الرحمة.

ولقد افترى اليهود على الله عز وجل كذبًا عظيمًا، وجاءوا ببهتانٍ مبين، وجرمهم هذا من أهم الأسباب التي استحقوا بها لعنة الجبار سبحانه ؛ فهم الذين نسبوا البخل لله عز وجل، وقالوا على الله عز وجل افتراءً وكذبًا: يد الله مغلولة. فكانت عليهم اللعنة بما قالوا.

قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومن افتراء اليهود على الله عز وجل تحريفهم لكتابه سبحانه، وكتمان بعض ما جاء به من الحق، وطعنهم في دين الله، واستبدالهم الضلالة بالهدى.

قال الله عز وجل عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

لقد كانوا يبدلون معنى كلام الله الذي عندهم في التوراة ويغيرونه عن تأويله، وكانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيستمعون إلى كلامه، ويسألونه عن الأمر، فيخبرهم، فيرى أنهم يأخذون بقوله، فإذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه وغيروه كذبًا وافتراءً[١].

ومن افتراء اليهود وكذبهم أنهم كتموا الهدى والبينات، وكتموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم المكتوبة عندهم؛ ليصدوا الناس عن الدخول في دين الله عز وجل، فاستحقوا اللعن من الله عز وجل، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

فهذه الآية نزلت -كما ذكر المفسرون- في أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقال بعض المفسرين: المراد بها كل من كتم الحق؛ فهي عامة في كل من كتم علمًا من دين الله يحتاج إلى بثه[٢]، قال السعدي: «هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموا من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، فإن حكمها عام لكل من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٣٢، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٠.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ٣٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٨٤.

اتصف بكتمان ما أنزل الله من الدالات على الحق المظهرات له، ومن العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم»[1].

إن الكذب على الله عز وجل أشنع الكذب وأقبحه، ولقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من أن تقع في شيء مما وقعت فيه اليهود من الكذب على الله عز وجل، فحذر صلى الله عليه وسلم من الكذب عليه فالكذب عليه صلى الله عليه وسلم كذب على الله عز وجل فقال صلى الله عليه وسلم: (إن كذبًا علي ليس ككذب على أحدٍ، فمن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)[2].

٤ . الإضلال.

لاشك بأن من أضل غيره قد تعدى شره إلى الآخرين، فلم يكتف بأن يكون وحده في ظلمات الضلال والغواية، وإنما أرادت نفسه الخبيثة أن يشرك غيره في ضلاله وغوايته، وهو بذلك يكون قد ظلم نفسه وظلم غيره، وحرم نفسه وحرم غيره من رحمة الله عز وجل، وأي ظلم أعظم من ذلك؟!.

ولا شك بأن إبليس اللعين على رأس أولئك المضلين؛ إذ إنه تعهد بعد أن لعنه الله عز وجل بأن يضل عباد الله إلا المخلصين منهم، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩- ٤٠].

وفي موضع آخر من كتاب الله عز وجل أخبر سبحانه عن قسم إبليس على سعيه لإضلال العباد، قال تعالى عن إبليس اللعين: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

ولذا فقد حذرنا الله عز وجل منه أعظم تحذير، وبين لنا مكايده وسبل إغوائه؛ لنتجنبه ونحذر منه.

قال الله عز وجل: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾

[النساء: ١١٧ - ١٢٠].

ومن المضلين الذين يسعون في إضلال العباد، ويحرفونهم عن الصراط بعض السادة والكبراء، الذين استكبروا واستعبدوا الناس، ونصبوا أنفسهم على

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب في التحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٥، ١/ ٨.

رؤوس الخلائق، يأمرون بالشر، وينهون عن المعروف، ويصدون الناس عن الهداية، ويضلونهم بأهوائهم، فما لهؤلاء المجرمين إلا اللعنة وسوء الدار.

إن هؤلاء الأسياد المضلين يلعنهم أتباعهم الذين ضلوا بسببهم، يجتمعون في النار فيلعن بعضهم بعضًا كما أخبرنا ربنا عز وجل بذلك عنهم إذ قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

ومن المضلين أيضًا اليهود المجرمون، الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم، وحملهم ما في قلوبهم من الكبر والحسد أن يكتموا الحق، وأن يصدوا الناس عن سبيل الله عز وجل، قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩].

قال القرطبي: «﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾: أي يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له»[1].

ولا شك بأن كل من سعى ليضل الناس ويصدهم عن سبيل الله عز وجل وينفق أمواله في ذلك فهو مستحق للعن والإبعاد، والخلود في النار وبئس المهاد، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٥. الإفساد في الأرض وقطع ما أمر الله أن يوصل.

لقد بين الله عز وجل في كتابه العزيز أن الإفساد في الأرض سبب للوقوع في لعنة الله سبحانه فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٣].

فمن تولى عن شرع الله عز وجل، وفارق أحكام كتابه، وأدبر عن منهج نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فعصى وكفر، ودعا إلى غير دين الله عز وجل، وسفك الدماء، وقطع الأرحام، وأعاد الفرقة والتشتت إلى الأمة الإسلامية كما كانوا في الجاهلية، وسعى في ظلم العباد فهذا هو المفسد في الأرض[2]، وهذا مستحق لأن يبعده الله عز وجل من رحمته ويلعنه، ويسلبه سمعه فلا ينتفع بما يسمع من الهدى، ويسلبه بصره وعقله فلا يهتدي للحق، ولا يتذكر ما يرى من عبر

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١١٠.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٣٦٠.

وآيات[1].

وقد قال الله عز وجل في موضع آخر من كتابه العزيز مخبرًا عن أولئك المفسدين القاطعين لما أمر سبحانه أن يوصل: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

فهذا حال الأشقياء المفسدين، وهذه صفاتهم، وقد ذكر الله عز وجل مصيرهم وما لهم في الآخرة من اللعن وسوء الدار والمآل، قال ابن كثير: «قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا»[2].

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد بما أمر الله به أن يوصل في قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، فقالوا: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قطعوه بالتكذيب والعصيان، وقالوا: التصديق بالأنبياء؛ أمروا بوصله فقطعوه بتكذيب بعض وتصديق بعض. وقالوا: الرحم والقرابة، وقالوا: إنه على العموم في كل ما أمر الله به أن يوصل. وقد رجح أبو حيان هذا القول الأخير وقال: «وهذا هو الأوجه؛ لأن فيه حمل اللفظ على مدلوله من العموم، ولا دليل واضح على الخصوص»[3].

أما الإمام الطبري فرجح أن يكون المراد بما أمر الله به أن يوصل: الرحم والقرابة، وبين أن قطعها يكون بترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجب من برها، وأن وصلها يكون بأداء الواجب لها من حقوق الله التي أوجب لها، والتعطف عليها؛ ولم ينف رحمه الله أن تكون الآية عامة في قطع كل ما أمر الله عز وجل بوصله، فقال: «غير أنها دالةٌ على ذم الله كل قاطعٍ قطع ما أمر الله بوصله، رحمًا كانت أو غيرها»[4].

٦. الاعتداء على الآخرين.

لقد حرم الله عز وجل على عباده أن يعتدي بعضهم على بعض، وحرم سبحانه عليهم إيذاء العباد من غير وجه شرعي؛ فحرم القتل، والزنا، والسرقة، والغصب، وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من الذنوب والآثام التي فيها اعتداء على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٣٩.
(٣) البحر المحيط ١/ ٢٧٣.
(٤) جامع البيان ١/ ٤١٦.

الآخرين، وقد بين سبحانه في غير موضع من كتابه العزيز حرمة تلك الجرائم؛ بل قرنها سبحانه بالشرك الذي هو أعظم الذنوب، من ذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٢].

وقد جعل الله عز وجل العقوبات الرادعة في الدنيا لمن اقترف شيئًا من تلك الجرائم، وجعل سبحانه العقاب العادل في الآخرة لمن لم يتب منها، ومات مصرًا عليها، ولم يعد الحقوق لأصحابها.

ولا شك أن أعظم أنواع الاعتداء على الآخرين هو إزهاق أنفسهم بالقتل المتعمد؛ ولذا فقد جعل الله عز وجل العقوبة الشديدة، والعذاب الأليم لمن اقترف جريمة القتل العمد، قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فقد جمع الله عز وجل للقاتل المتعمد فوق عذاب جهنم الذي يخلد فيه غضب الجبار سبحانه، واللعنة، والعذاب العظيم، قال ابن كثير: «وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله؛ حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]الآية.

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا»[(١)].

وكما أن الله عز وجل قد جعل اللعنة على القاتل العمد لاعتدائه على الأنفس البريئة، فإنه سبحانه قد جعل اللعنة أيضًا على من اعتدى على أعراض المسلمين الطاهرة العفيفة؛ فالاعتداء على الأعراض أمر عظيم، وأذيته للمؤمنين كبيرة، ومفسدته خطيرة؛ لذا فقد جعل الله عز وجل اللعن في الدنيا والآخرة لمن اقترف تلك الرذيلة، فقذف المؤمنات الغافلات، وخاض في أعراض المسلمين بدون حجة أو برهان، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٩.

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد بالمحصنات الغافلات المؤمنات اللاتي ذكرهن الله عز وجل في الآية؛ فقال بعضهم: المراد عائشة رضي الله عنها . وقال آخرون: المراد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كلهن. وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في شأن عائشة، وعني بها كل من كان بالصفة التي وصف الله في هذه الآية، قالوا: فذلك حكم كل من رمى محصنة، لم تقارف سوءًا. وهذا القول الأخير هو ما رجحه الإمام الطبري رحمه الله تعالى[1].

٧. نقض العهود المؤكدة.

لقد أمر الله عز وجل بالوفاء بالعهود في غير آية من كتابه العزيز، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومدح سبحانه الموفين بالعهد، قال عز وجل: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وبين سبحانه أن الوفاء بالعهود صفة عباده المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

وبين سبحانه أيضًا عظم العهد عند الله عز وجل، وأن العبد مسؤول عنه يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وفي مقابل ذلك بين سبحانه أن نقض العهود ذنب عظيم، وإثم كبير، لا يقترفه إلا المجرمون المفسدون، ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

ولعظم نقض العهود فقد جعل الله عز وجل اللعنة لمن فعل ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وإن ممن اشتهر بنقض العهود اليهود الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

فنقض العهود صفة لليهود، كانت من أسباب استحقاقهم للعنة الله سبحانه، ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ [المائدة: ١٣].

ومعنى الآية: أنه بسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعنهم الله عز وجل، وجعل قلوبهم قاسية غليظة؛ فلا تجدي فيها

(١) انظر: جامع البيان ١٩/ ١٣٨-١٤٠.

المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر[1].

فنقض العهود سبب لاستحقاق اللعن والطرد من رحمة الله عز وجل ؛ ولذا فإن المؤمن حريص على الوفاء بالعهود كلها، سواء ما كان بينه وبين ربه عز وجل، أو ما كان بينه وبين العباد.

٨. الكذب ونشر الأخبار الكاذبة.

لقد أمر الله عز وجل عباده بالصدق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ومدح سبحانه الصادقين: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

فالصدق خلق المؤمنين المتقين، وهو سبب للفوز بجنة النعيم، وعكسه الكذب، الذي هو صفة الكافرين والمنافقين، وسبب لاستحقاق عذاب الجحيم.

ولقد حرم الإسلام الكذب؛ بل وعده من كبائر الذنوب التي تهلك صاحبها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذابًا)[2]، وإن المداومة على الكذب، واستمراءه، ونشره بين الناس من أسباب وقوع العبد في لعنة الله عز وجل ؛ لأن فيه مفسدة عظيمة على الأمة المسلمة.

ولا شك أن أعظم الكذب هو الكذب على الله عز وجل، أو على رسوله صلى الله عليه وسلم، ولقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يباهل من أصر على الكذب ورفض الانصياع للحق من نصارى وفد نجران الذين جاؤوا يحاجون في أمر عيسى عليه السلام، فأنزل الله عز وجل على نبيه الآيات البينات من مطلع سورة آل عمران تبين الحق في أمر عيسى عليه السلام، وقد قال عز وجل في خاتمتها: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يباهل[3] من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور الحق؛ فإن من أصر على الكذب بعد ذلك فهو مستحق للعنة الله عز وجل[4].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٣٥، تيسير الكريم الرحمن ص٢٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم ٦٨٠٣، ٨/ ٢٩.

(٣) أصل الابتهال: الاسترسال في الدعاء، ويفسر الابتهال في الآية باللعن لأجل أن الاسترسال هنا إنما هو لأجل استنزال اللعنة على الكاذب. انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٣-٧٦.

وإن من أسباب استحقاق لعنة الله عز وجل اختلاق الأخبار الكاذبة ونشرها بين الناس؛ لأجل زعزعة الأمن، ونشر الخوف والفتنة بين المسلمين -ولا يخفى ما في ذلك من خطورة شديدة على الأمة الإسلامية-، وهذا ما كان يفعله المنافقون في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أنزل الله عز وجل تهديده ووعيده لهم: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١].

والمراد بالمرجفين في المدينة: الذين ينشرون الأخبار الكاذبة بين المسلمين ليبثوا الخوف بينهم؛ فيقولوا: جاء الأعداء، وجاءت الحروب، وقتل من كان في سرية كذا، والعدو حول المدينة وغير ذلك من أخبار الكذب التي يقصد بها الإرجاف بين المسلمين، وقد توعد الله عز وجل هؤلاء المنافقين -إن لم ينتهوا عن فعلهم هذا- بأن يسلط عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فينفيهم من المدينة نفيًا، ملعونين مطرودين من رحمة الله عز وجل[(١)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١/ ٢٤٣.

الملاعنة بين الزوجين

إن من متطلبات الحديث عن اللعن في سياق القرآن الكريم الحديث عن الملاعنة بين الزوجين؛ لأن تلك الملاعنة من اللعن الذي شرعه الله عز وجل لعباده كحكم شرعي يخص قضية معينة تقع بين الزوجين، وفيما يأتي بيان موجز لمعنى الملاعنة وحقيقتها:

الملاعنة لغة: مصدر لاعن كقاتل، مشتق من اللعن، واللعان والملاعنة: اللعن بين اثنين فصاعدًا، وسمي به ما يحصل بين الزوجين؛ لأن الزوج يلعن نفسه في الشهادة الخامسة، وأطلق في جانب المرأة من مجاز التغليب[(٢)]، يقال: لاعن الرجل زوجته ملاعنة ولعانا برأ نفسه باللعان من حد قذفها بالزنا[(٣)].

الملاعنة اصطلاحًا: للفقهاء تعريفات عدة للملاعنة، وكلها تؤدي إلى المعنى ذاته، من تلك التعريفات: «شهاداتٌ أربعٌ، مؤكداتٌ بالأيمان، مقرونة شهادة الزوج باللعن، وشهادة المرأة بالغضب، قائمة شهاداته مقام حد القذف في حقه، وشهاداتها مقام حد الزنا في حقها»[(٤)].

(٢) انظر لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٤٠٤٤.
(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٢٩.
(٤) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٣٣٠.

وحقيقة اللعان تكون في حالة رمي الرجل امرأته بالزنا، وليس معه أربعة شهداء، فيحلف أربع مرات إنه لمن الصادقين، وفي الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فإن أنكرت الزوجة ذلك، وأرادت أن تدفع عن نفسها حد الزنا فإنها تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن عليها غضب الله إن كان من الصادقين، فإذا تم اللعان سقط عن الزوج حد القذف، واندرأ عن الزوجة عذاب الزانية المحصنة، وحصلت الفرقة بينهما والتحريم المؤبد، وانتفى الولد إذا ذكر في اللعان[1].

وقد بين الله عز وجل أحكام اللعان في آياتٍ بيناتٍ من سورة النور، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩].

قال السعدي: «وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دارئة عنه الحد، لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يدنسه ما يدنسها إلا إذا كان صادقًا، ولأن له في ذلك حقًا، وخوفًا من إلحاق أولادٍ ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره»[2].

وقد شرع الله عز وجل للزوج أن يلعن نفسه في الشهادة الخامسة إن كان من الكاذبين فيما رمى به زوجته -وهذه هي الحالة الوحيدة في الشرع التي يؤمر فيها المسلم بلعن نفسه إن كان من الكاذبين-، ولا يخفى أن في ذلك تغليظًا شديدًا على من رمى زوجته وهو كاذب؛ إذ إنه يلعن نفسه، ويحل على نفسه لعنة الله عز وجل ؛ وهو مستحق لذلك؛ لأن فعله غاية في القبح، وجرمه غاية في البشاعة؛ إذ إنه بفعلته تلك يكون قد قبح عرض زوجته، وعرضها للعنة الناس، ونبذ الأزواج لها[3].

ولا شك بأن في ذلك التشريع الإلهي الحكيم سدًا لباب رمي الزوجة لمجرد الشك أو الشبهة؛ فلا يقدم الرجل على رمي زوجته إلا إذا كان متأكدًا بنفسه من وقوع الفاحشة منها.

أما الزوجة إن لم تتب وتعترف بعد شهادات زوجها -إن كان من الصادقين-، وتسلم لحكم الله عز وجل، وتشهد أربع شهادات بالله - وهي كاذبة - على أن زوجها من الكاذبين فهي بذلك أعظم

(١) انظر: منهج السالكين، السعدي ص٢١٥، فقه السنة، السيد سابق ٢/ ٣١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٦٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٦٦.

جرمًا منه؛ لأنها تعلم صدقه فيما رماها به، ومع ذلك تشهد بالله على خلاف ما قد علمت، فاستحقت بذلك غضب الله عليها -والغضب أشد من اللعن-، فأشبهت بفعلتها تلك فعل اليهود المغضوب عليهم، الذين يعرفون الحق ثم يكتمونه[1].

قال أبو السعود: «وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء كثيرًا ما يستعملن اللعن؛ فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن»[2].

آثار اللعن في الدنيا والآخرة

لاشك أن للعن آثارًا عظيمةً وخطيرة في الدنيا والآخرة؛ إذ اللعن طرد من رحمة الله عز وجل، وأي خسارة أشد من الطرد من رحمة الرحمن سبحانه ؟! وأي حياة تستقيم بعد الحرمان من رحمة الرحيم الرحمن؟! وأي ملجأ يلجأ إليه العبد، وأي حصن يتحصن به إن هو طرد من الحصن الحصين والملاذ الأمين الذي يجده في رحمة الله عز وجل ؟!

إن العبد لا غنى له عن رحمة ربه عز وجل، وإنه إن طرد من تلك الرحمة الواسعة فلا أمن له، ولا سعادة في الدنيا، وليس له منجٍ من عذاب الله عز وجل يوم القيامة، فمن ينصره؟ ومن يتولاه؟ ومن يمنعه في ذلك اليوم؟ يوم لا ينفع مال ولا بنون، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

إن من آثار اللعن في الدنيا عدم التوفيق للملعون، ونزع البركة منه ومن رزقه، وحرمانه من رعاية الله عز وجل ومعيته، وتعرضه للأذى وضيق الصدر، وغير ذلك مما يصيب العبد إذا طرد من رحمة الله عز وجل، وقد ذكر المفسرون في المراد من اللعن في الدنيا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ١٧٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٥٩.

﴿الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].
بأنه يشمل: التفسيق، وسلب أهلية الشهادة، واستيحاش المؤمنين منهم، ووقوع حد القذف عليهم[١].

إن أثر اللعنة يحيق بالملعون؛ فيحرمه مما هو خير، ولا يبقى في نفسه إلا الشر، فلا يهتدي لطريق الهداية، ولا يوفق إلى سبيل الرشاد، وينحدر بنفسه إلى مهاوي الرذيلة والعصيان، وهذا ما أصاب اليهود لما حلت عليهم لعنة الله عز وجل، ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦][٢].

أما آثار اللعن في الآخرة فهي أشد؛ إذ العبد يوم القيامة أحوج ما يكون إلى رحمة ربه، فكيف يصير حاله إذا طرد من تلك الرحمة، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢].

فمن لعنه الله فلن يجد من ينصره، ولن يجد من يدفع عنه عذاب الله عز وجل، ولن يجد من يتولاه ويقوم بمصالحه، ويحفظه من المكاره، وهذا غاية الخذلان والعياذ بالله[٣].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٩١.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٧٧.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي

ولما كان للعنة آثار مذمومة على الملعون فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى المؤمنين عن أن يلعن بعضهم بعضًا، وحذر من ذلك تحذيرًا شديدًا، وبين صلى الله عليه وسلم عظم ذنب من لعن مؤمنًا فقال صلى الله عليه وسلم: **(ولعن المؤمن كقتله)**[٤].

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللعن ليس من صفات المؤمنين فقال صلى الله عليه وسلم: **(ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء)**[٥].

وأنه **(لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا)**[٦].

وأن من كان كثير اللعن فسيحرم من الخير الكثير يوم القيامة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة)**[٧].

ص١٨٢.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم ٣١٦، ١/ ٧٣.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب، باب ما جاء في اللعنة، رقم ١٩٧٧، ٣/ ٥٢٠.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣٢٠.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٦٧٧٣، ٨/ ٢٣.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٦٧٧٥، ٨/ ٢٤.

وحذر صلى الله عليه وسلم أمته من آثار اللعنة التي يطلقها المرء، فلا يدري هل أصابت من لعن أم عادت إليه، فقال صلى الله عليه وسلم: (إن العبد إذا لعن شيئًا صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يمينًا وشمالًا، فإذا لم تجد مساغًا رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلًا لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها)[(١)].

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لعن مخلوقات غير الإنسان، فنهى عن لعن الديك، ونهى عن لعن الريح، ونهى عن لعن الدابة، فعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (خذوا ما عليها ودعوها؛ فإنها ملعونة)[(٢)].

وفي ذلك كله دليلٌ على خطورة الآثار المترتبة على اللعن، سواء كانت تلك الآثار في الدنيا أم في الآخرة، والمؤمن يحذر من كل ما قد يوقعه في لعنة الله عز وجل، ويجنب نفسه كل ذنب يترتب عليه لعن أو غضب من الله سبحانه، ويحرص كل الحرص على ما يعرضه لرحمة الرحمن سبحانه، ويدخله في واسع رحمته، وجميل عفوه وستره.

موضوعات ذات صلة

الحمد، الظلم، الكذب، الظلم

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم ٤٩٠٧، ٤/ ٤٢٩.
وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ٤٩٠٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٦٧٦٩، ٨/ ٢٣.





عناصر الموضوع

المجلد التاسع والعشرون

مفهوم اللغة العربية

أولًا: المعنى اللغوي:

اللغة: هي ما يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم[(١)].

والعربية مشتقة من الفعل (عَرَبَ)، والعين والراء والباء لها ثلاث معانٍ، منها: الإبانة والإفصاح؛ كقولهم: أعرب الرجل عن نفسه: إذا بين وأوضح، ومنه الحديث: (الثيب تعرب عن نفسها)[(٢)]، فأما الأمة العربية فسميت بذلك؛ لأن لسانها أعرب الألسنة، وبيانها أجود البيان.

والأعراب منهم: سكان البادية بخاصة، والنسبة إليهم أعرابي، وليس الأعراب جمعًا لعرب، بل هو اسم جنس، والعرب العاربة الخلص منهم، وتعرب فلان: تشبه بالعرب، والعرب المستعربة: الذين ليسوا بخلص، وكذا المتعربة بكسر الراء وتشديدها، والعربية هي لغة العرب[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

اللغة العربية هي ما نطق به العرب، أو هي لغتهم[(٤)].

وعلى هذا فاللغة العربية اصطلاحًا: هو اللسان الذي تكلمه العرب، ونزل به القرآن الكريم[(٥)].

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص ١٩٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب ما جاء في فضل النكاح، ٣/ ٧٢، رقم ١٨٧٢، وأحمد في مسنده، ٢٩/ ٢٦٠، رقم ١٧٧٢٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩١، رقم ٣٠٨٤.

(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٤٦٧.

(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص ٧٩٨، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٠.

(٥) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ١/ ٢٤٦.



الألفاظ ذات الصلة

١ الأعراب:

الأعراب لغة:

جمع أعرابي، وهو ساكن البادية، صاحب ارتيادٍ للكلإ، وتتبعٍ لمساقط الغيث[(١)].

الأعراب اصطلاحًا:

الأعراب هم أهل البدو، سواءٌ كان من العرب أو من مواليهم، ويعرفون بالغلظة والجفاء[(٢)].

الصلة بين العربية والأعراب:

العربية هي اللسان الذي تكلم به العرب، والأعراب هم سكان البادية.

٢ الأعجمي:

الأعجمي لغةً:

الأعجم: الذي لا يفصح، سواء كان من العرب أو من العجم، ويجمع الأعجم على عجم، أما العجمي: فمن ينسب إلى العجم وإن كان فصيحًا بليغًا، ونظيره: عربي وعرب، وكلامٌ أعجمٌ وأعجميٌّ: بين العجمة[(٣)].

الأعجمي اصطلاحًا:

الأعجمي الذي يمتنع لسانه من العربية، ولا يفصح، وإن كان نازلًا بالبادية، والعجمي فهو منسوب إلى العجم، وإن كان فصيحًا[(٤)].

الصلة بين العربية والأعجمية:

الفرق بينهما واضح فالعربية هي اللغة الفصيحة البليغة التي نزل بها القرآن الكريم، أما الأعجمية فهي اللغة غير الفصيحة.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٨٦، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٣٣٣.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٩٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣١.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ٣٤٢، مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٦٨.
(٤) انظر: الفروق الفردية، العسكري ١/ ٥٨.

أمور وصفت بالعربية

ذكر القرآن الكريم أشياء وصفت بالعربية منها: اللسان، والقرآن، والحكم، وسوف نتناول ذلك بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: اللسان العربي:

وصف الله تعالى اللسان الذي أنزل به القرآن بأنه عربي، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

والإشارة في قوله: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾: إلى القرآن، أو أراد باللسان البلاغة، فكأنه قال: وهذا القرآن ذو بلاغة عربية، وبيان واضح، فكيف تزعمون أن بشرًا يعلمه من العجم، وقد عجزتم أنتم عن معارضة سورة منه، وأنتم أهل اللسان العربي، ورجال الفصاحة، وقادة البلاغة؟![1].

وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

والمراد باللسان في هذه الآية: اللغة، فهو أحد معانيها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤]. أي: بلغتهم.

وهذا الوصف للسان الذي أنزل به القرآن بأنه عربي جاء في سياق المدح، ففيه دلالة على أن الله اصطفى هذه اللغة؛ لتكون لغة البيان المبين، والتعبير الأمين، ولسان الإسلام، ولغة القرآن؛ وذلك لشرفها، ولأنها أفصح اللغات وأصفاها، وأرقاها وأكثرها قدرة على استيعاب أحاديث الوحي ومضامينه، وقيمه وتعاليمه، بما تمتلكه من خصائص ومميزات، وبما تمتاز به من ثراء ومقومات، حيث بلغت أعلى مستوياتها اللفظية والتعبيرية، مما جعلها أرقى اللغات وأقدرها على التلقي والبيان والاستيعاب والتأثير.

ومما لا شك فيه أن لسان العرب قد بلغ الغاية في الفصاحة والبيان، فلا يماثله غيره من الألسنة، ولا يقاربه ولا يدانيه، فهو مختص بأنواع الفصاحة والجزالة التي لا توجد في سائر الألسنة؛ والعرب العرباء قد بلغت من البلاغة في الكلام مبلغًا لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم، والمتأخرة عنهم، ووطئوا موطنًا لم تطأه أقدام غيرهم في كمال البيان، وجزالة النظم، ووفاء اللفظ، ورعاية المقام، وسهولة المنطق.

وقد قال بعض الحكماء: حكمة العرب في ألسنتهم، بحلاوة ألفاظهم، وعذوبة

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٧٩.

عباراتهم[1].

وهو أيضًا لسان سالم من العيوب، ومنزه من النقائص، وخالٍ من كل ما يستهجن ويعاب، قال الفارابي عن هذا اللسان: «وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلى من كل خسيسة، والمهذب مما يستهجن أو يستشنع، فبنى مبانٍ بَايَنَ بها جميع اللغات من إعراب أوجده الله له، وتأليف بين حركة وسكون حلاه به، فلم يجمع بين ساكنين، أو متحركين متضادين، ولم يلاق بين حرفين لا يأتلفان، ولا يعذب النطق بهما، أو يشنع ذلك منهما في جرس النغمة وحس السمع، كالغين مع الحاء، والقاف مع الكاف، والحرف المطبق مع غير المطبق، مثل تاء الافتعال، والصاد مع الضاد في أخوات لهما، والواو الساكنة مع الكسرة قبلها، والياء الساكنة مع الضمة قبلها، في خلال كثيرة من هذا الشكل لا تحصى»[2].

ومع وصف اللسان بأنه عربي وصفه أيضًا بأنه مبين، فقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

فَوَصْفُهُ بـ(المبين) تأكيد لما يفيده ﴿عَرَبِيٍّ﴾ وزيادة تقتضيها المغايرة، فكونه مبينًا يعني أنه أفصح ما يكون من العربية، وأنه يقع من التفاضل في العربية ما لا يقع في غيرها من اللغات.

وبَيَّنَ سبحانه وتعالى علة هذا الوضوح والبيان، وعلة نزول القرآن بالعربية، فقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

قال ابن كثير: «أي: هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾»[3]. فلما كان البيان الكامل لا يحصل إلا باللسان العربي، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

فدل ذلك على أن سائر الألسنة دونه في البيان.

والمقصود أن الله تعالى وصف اللسان الذي أنزل به القرآن، ولسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولسان أصحابه بوصفين اثنين:

- أنه عربي.
- وأنه مبين.

فهو لسان عربي في غاية الإعراب والوضوح، فنزهه أن يكون أعجميًّا؛ لأن العجمة خلاف الإبانة، والإعجام الإبهام، والأعجم من في لسانه عجمة عربيًّا كان أو غير عربي، ومنه قيل للبهيمة: عجماء، من حيث إنها لا تبين عن نفسها بالعبارة إبانة

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٤٩.

(٢) انظر: مقدمة ديوان الأدب للفارابي، ١/ ٨٠، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٦.

الناطق، واللسان الأعجمي هنا لا يعني لسانا بعينه، وإنما هي كلمة تطلق على كل لسان غير اللسان العربي الفصيح.

وهو كذلك لسان مبين كامل البيان والاستقامة والوضوح، ظاهر المعنى، وواضح المدلول، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو في غاية البيان والوضوح والبرهان، حيث تخلص -بفضل القرآن- من حوشي الكلام ومستهجنه، وارتقى بالمعجم القرآني في أسماع الناطقين به وأذواقهم، في حسن النظم، وتنوع الأنساق، وانضباط التراكيب، وسلامة الأساليب.

وقد شاء الله تعالى؛ لحكمةٍ أن يحمل العرب رسالة الإسلام، وأن ينزل القرآن بلسانهم، وأن يكون الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم منهم عربي الأصل واللسان، وأن يخاطب البشرية خطابه الأخير بهذا اللسان العربي؛ ليصبح لسانًا عالميًّا.

فاللسان العربي باقٍ ببقاء القرآن وخالد بخلوده؛ لأنه سبيل اتصال العبد المسلم بربه ولا سبيل غيره، وهو محفوظ -إن شاء الله- ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

والحفظ يشمل الحافظ والمحفوظ، وهذه من أعظم المؤكدات على حفظ القرآن العربي واللسان العربي.

والأمة اليوم مطالبة بالعناية بهذا اللسان، والاجتهاد في تعلمه وتعليمه؛ لأنه مفتاح الأصلين العظيمين؛ (الكتاب والسنة)، ووسيلة إلى الوصول إلى أسرارهما، وفهم دقائقهما؛ ولهذا لابد من النظر إلى اللسان العربي على أنه لسان القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولسان التشريع الإسلامي، بحيث يكون الاعتزاز به اعتزازًا بالإسلام وتراثه الحضاري العظيم، فهو عنصر أساسي من مقومات الأمة الإسلامية، والشخصية الإسلامية.

والنظر إليه كذلك على أنه وعاء للمعرفة والثقافة بكل جوانبها، ولا يكون مجرد مادة مستقلة بذاتها للدراسة؛ لأن الأمة التي تهمل لغتها أمة تحتقر نفسها، وتفرض على نفسها التبعية الثقافية، يقول الرافعي رحمه الله مبينًا ذلك: «ما ذلت لغة شعبٍ إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عملٍ واحدٍ:

أما الأول: فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا.

وأما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا.

وأما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبعٌ»[(١)].

فعلى المسلم إذن أن يعرف أهمية هذه اللغة ومكانتها، وأنه لا غنى له عنها، كما يجب أن يعتز بها لا بغيرها من اللغات، بل ينبغي لمن يعرف العربية ألا يتكلم بغيرها، كما ينبغي لمن دخل الإسلام من الأعاجم أن يتعلم العربية، بل قد قيل: إن اعتياد التكلم باللغة العربية يؤثر في العقل والخلق والدين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًّا بينًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق»[(٢)].

وكان يقول الشافعي: «من نظر في اللغة رق طبعه»[(٣)].

وانطلاقًا من هذا المفهوم نقول: إن تعلم اللغة العربية والاهتمام بها ليس مهنة تعليمية، أو قضية تعليمية فحسب، وإنما هي قضية عقدية، ورسالة سامية يعتز بها المسلم؛ لأنها خصيصة هذه الأمة؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية»[(٤)].

ويقول السيوطي: «ولا شك أن علم اللغة من الدين؛ لأنه من فروض الكفايات، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنة»[(٥)].

وتزداد أهمية تعلم اللسان العربي حين بعد الناس عن الملكة والسليقة اللغوية السليمة؛ مما سبب ضعف الملكات في إدراك معاني الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، مما جعل من الأداة اللغوية خير معين على فهم معاني القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد نبه ابن خلدون على ذلك بقوله: «فلما جاء الإسلام، وفارقوا الحجاز -أي: العرب-، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين من العجم -والسمع أبو الملكات اللسانية-، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه، باعتبار السمع، وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسًا بطول العهد؛ فينغلق القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة

(١) وحي القلم ٣/ ٣٣-٣٤.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٢٤.
(٣) المجموع، النووي ١/ ٢٠.
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٠٧.
(٥) المزهر ٢/ ٣٠٢.

مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه»[(١)].

ومما يدل كذلك على أهمية هذا اللسان أن العلم به مما يحصل به إقامة الحجة على الناس، وهو داخل في عموم قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

فلا يمكن أن يكون الإنسان شاهدًا لله إذا لم يكن فاهمًا لما يشهد به؛ لأن العلم شرط في الشهادة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١].

ولقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

فلا يمكن أن يشهد الشاهد بما لا يعلمه ولا يفهمه، ولا بد أن يكون الإنسان فاهمًا لما يشهد به حتى تقبل شهادته على ذلك، والله تعالى جعل هذه الأمة شاهدة على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣].

ولا يمكن أن تتم الشهادة على الناس إذا كنت لا تفهم ما تشهد به، وليس هناك وسيلةٌ للاطلاع من خلالها على أحوال الناس، وما كذبوا به أنبياءهم إلا القرآن، والقرآن بلسان عربي مبين، فإذا لم تفهم هذا فلا يمكن أن تكون شاهدًا على الناس، فإذا جاء نوح يوم القيامة يخاصمه قومه، فقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقال: بلى، قد مكثت فيكم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فإذا كنت لا تفهم الآيات التي جاءت في قصة نوح فكيف تكون من الشهداء على هذا؟! لأن الشهادة من شرطها العلم.

ولهذه الأهمية الكبيرة للسان العربي نجد أن السلف قد اعتنوا بعلوم اللغة العربية، وحثوا على تعلمها، والنهل من عبابها، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «تعلموا العربية، فإنها من دينكم»، وكتب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي»[(٢)]، وفي توجيه عمر هذا دعوة إلى فقه اللسان العربي وفقه الشريعة معًا. وقد بين شيخ الإسلام سبب قول عمر: «تفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية» حيث قال: «لأن الدين فيه فقه أقوال وفقه أعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه الأقوال، وفقه الشريعة هو الطريق إلى فقه

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧، رقم ٩٩٦٣، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ٢/ ١١٣٢، رقم ٢٢٢٨.

الأعمال»[1]. ومما يدل على أهمية معرفة اللسان العربي قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «كنت لا أرى ما ﴿فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال: ابتدأتها»[2]. وقال: «إذا خفي عليكم شيء من القرآن، فابتغوه في الشعر؛ فإنه ديوان العرب»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، ولم يكن سبيلٌ إلى ضبط الدين، ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، صارت معرفته من الدين، وأقرب إلى إقامة شعائر الدين»[4]. وفي الكلام السابق لشيخ الإسلام ما يدل على أن بين اللسان العربي والعقيدة الإسلامية ارتباطًا وثيقًا لا يماثله رباط آخر في أي من المجتمعات القديمة والمعاصرة؛ لأن اللغة العربية هي لغة الإسلام، ولغة كتابه العزيز، ولغة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولذا فإن الاهتمام والعناية بها، إنما هو استكمال لمقوم من مقومات العقيدة الإسلامية التي نجتمع جميعًا على إعزازها والدعوة إليها.

ثانيًا: القرآن:

وصف الله تعالى أيضًا القرآن بأنه عربي، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

ومعنى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

أي: أنزلنا هذا الكتاب باللسان العربي الذي هو لسان العدنانيين والقحطانيين سواء.

والمقصود أن هذه منة على العرب؛

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٨٣، تفسير ابن أبي حاتم في ١٠/ ٣١٧٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٤٢-٣٨٤٥، وابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٦٦، رقم ١٨٩٥٣.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٣٤٣.

إذ نزل القرآن بلغتهم، وقد قال الله تعالى ممتنًّا على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى العرب، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف: ٤٤].

أي: لشرف لك ولقومك يا محمد أن نزل عليك هذا القرآن، وأن نزل بلغتك ولغة قومك.

فشرفٌ إذن للعرب أن القرآن نزل بلغتهم؛ ولهذا شكر لابد أن يقدم، فكل من أنعم الله عليه بنعمة فإنه يلزمه أن يقدم لها شكرًا موازيًا.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

فعلى العرب أن يشكروا نعمة الله عليهم؛ إذ أنزل القرآن بلغتهم، فلزامًا عليهم أن يحملوا عبء الدعوة إلى الله أكثر من غيرهم، فهي نعمة أسداها الله إليهم ولم تُسدَ إلى غيرهم؛ فجدير بهم أن ينهضوا إلى حمل دعوة الإسلام، وبثها ونشرها في العالم، وقد قال الله تبارك وتعالى محذرًا إياهم من التخاذل عن هذه المهمة: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ومن هنا ينشأ اعتزازنا بلغة العرب، لا لأنها لغة لجنسنا ولبني جلدتنا، ولكن لأنها اللغة التي نزل بها كتاب ربنا، والتي تحدث بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فمن ثم لزمنا التمسك بها، ولزمنا بثها، ونشرها من غير استحياء ولا استنكاف[1].

ولما كان الله قد أرسل محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى قومه العرب وجب أن يكون الوحي بلسانهم المفهوم بينهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤].

قال الأزهري: «وجعل الله عز وجل القرآن المنزل على النبي المرسل محمد صلى الله عليه وسلم عربيًّا؛ لأنه نسبه إلى العرب الذين أنزله بلسانهم، وهم النبي والمهاجرون والأنصار الذين صيغة لسانهم لغة العرب في باديتها وقراها العربية»[2].

ومن الحكم من كونه أنزل عربيًّا: أن يعقلوه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:٢].

أي: لكي يفهموه ويفقهوه ويعقلوه، ولا يخفى عليهم لفظه ولا معناه، قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره: إنا أنزلنا هذا الكتاب المبين قرآنًا عربيًا على العرب؛ لأن لسانهم وكلامهم عربي، فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم؛ ليعقلوه ويفقهوا منه؛ وذلك قوله عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: سلسلة التفسير، مصطفى العدوي ٢٤/ ٦.

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٢١٩.

﴿تَعْقِلُونَ﴾»[1].

ولأن العرب كما قال ابن خلدون: «هم أسرع الناس قبولًا للحق والهدى؛ لسلامة طباعهم من عوج الملكات، وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المُتَهيِّئ لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد، وسوء الملكات»[2].

ومن الحكم من نزول القرآن باللسان العربي أن هذا اللسان قد بلغ الغاية في الفصاحة والبيان، فصار أهلًا لنزول القرآن به. يقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]: وذلك؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه[3].

قال الشافعي بعد أن ساق الآيات السابقة: «فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]»[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

وقال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

ويؤخذ من هذه الآيات أن القرآن كله عربي، نزل بلسان العرب، وما من لفظ فيه إلا وهو عربي أصلًا، أو معرب خاضع لموازين اللغة العربية وقوالبها ومقاييسها، ولا يشكل على هذا اشتماله على بعض كلمات قيل: إنها من أصل أعجمي (غير عربي) مثل (سندس) و(إستبرق) و(قسورة) وغيرها؛ لأن هذه الكلمات إما أن تكون مشتركة بين العرب وغيرهم، أو أن العرب قد استعملوها وعربوها، فصارت تنسب إليهم لا باعتبار أصلها، بل باعتبار استعمالها وتعريبها.

قال الطبري: «ولم نستنكر أن يكون

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥١.
(٢) مقدمة ابن خلدون ص٧٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٥.
(٤) الرسالة ص ٤٦- ٤٧.

من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بجنسين منها، كما قد وجدنا اتفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة؛ وذلك كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرطاس»[1].

فلا مجال للطعن في كون القرآن كله عربي بمثل هذه الشبهة، وهي وجود بعض الألفاظ غير عربية أو مشتركة، وأنه لو كانت مجالًا للطعن في القرآن لما تركها أسلاف هؤلاء من مشركي مكة ومن بعدهم، وهم أهل اللغة، ولم يتركوا مجالًا لأحدٍ للطعن في النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن إلا قالوه، ولو أنهم وجدوا هذه الشبهة قائمة لقالوها.

والمقصود أن القرآن كله عربي جملة وتفصيلًا، وأنه نزل بلسان العرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من مزية عربية القرآن وفضله على العرب أمران عظيمان، هما:

الأول: أن تعلم القرآن والنطق به على أصوله يُقَوِّمُ اللسان، ويفصح المنطق، ويصحح الكلام، ويساعد على فهم لغة العرب، فليس هناك شيء يشبه القرآن في تقويم الألسنة، حين تتأثر باللهجات العامية المختلفة.

الثاني: كان للقرآن الفضل الأكبر في الحفاظ على اللغة العربية في مسيرة القرون الأربعة عشر الغابرة، بما اشتملت عليه من فترات ضعف وتخلف.

ولعل التنويه بكون القرآن عربيًّا المقصود به بيان إعجاز القرآن الذي نزل بلغة العرب، وقد تحداهم بما هم بارعون فيه أن يأتوا بمثله فعجزوا، وهم أهل اللغة والفصاحة والبلاغة، وقد مضى من القرون والأحقاب ما يبلغ أربعة عشر قرنًا ولم يأت بما يناظره آتٍ، ولم يعارضه أحد بشيء إلا أخزى نفسه، وافتضح في أمره، وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور:

منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلا أن يأتوا بكلام مثله.

وإنما يقوم الكلام بأشياء ثلاثة:

١. لفظ حامل.

٢. ومعنى به قائم.

٣. ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١٥.

منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقديم في أبوابه، والرقي في أعلى درجاته.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، وأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباءً عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضيه في شكله، ثم صار المعاندون له يقولون مرة: إنه شعر لما رأوه منظومًا، ومرة إنه سحر لما رأوه معجوزًا عنه، غير مقدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعًا في القلب وقرعًا في النفس، يريبهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف؛ ولذلك قالوا: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥].

مع علمهم أن صاحبهم أمي، وليس بحضرته من يملي أو يكتب شيئًا، ونحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد، والجهل والعجز، وقد حكى الله عن بعض مردتهم -وهو الوليد بن المغيرة المخزومي- أنه لما طال فكره في القرآن، وكثر ضجره منه، وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس، فلم يقدر على أكثر من قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥][1] عنادًا وجهلاً به، وذهابًا عن الحجة، وانقطاعًا دونها.

وقد اقترن وصف القرآن الكريم بكونه عربيًّا كونه بيِّنًا غير ذي عوج.

قال تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ووصفت آياته بأنها مبينات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ [النور: ٣٤].

ولبيانه وصفه الله عز وجل بأنه ميسر للفهم والحفظ والاتعاظ، فقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٥٠، رقم ٣٨٧٢، والطبراني في الكبير، ١١/ ١٢٥، رقم ١١٢٥٠، وهو في صحيح السيرة النبوية ١/ ١٥٨.

١٧].

بل عد بعض العلماء من وجوه إعجاز القرآن يسر تناوله وسهولة حفظه وفهمه، وأنه قادر على مخاطبة جميع فئات الناس على مختلف ثقافاتهم وعصورهم؛ إذ إن معانيه مصوغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم، وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

ومعنى أنه ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان[1].

وهذا التعبير أبلغ من التعبير بـ(مستقيم)؛ لأن عوجًا نكرة، وقعت في سياق النفي؛ لما في ﴿غَيْرَ﴾ من معناه[2].

ولما كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فمن المؤكد أن يكون غير ذي عوج، واللغة العربية هي الأنسب لقرآن غير ذي عوج.

وأخبر الله تعالى بأن آياته قد فصلت، فقال: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٣].

أي: بينت آياته بالعربية حتى يفهم. ولا يرد على كونه مفصلًا مجيء بعض الحروف في أوائل السور، مثل: ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ وغيرها؛ فهذه الحروف التي في أوائل السور وإن كان الظاهر أنها غير معروفة المعنى، إلا أن الصواب أن هذه الحروف جاءت لمعنى وهو تحدي العرب، وكأنه يقول لهم: هذا القرآن مكون من حروف جاءت من جنس كلامكم الذي تتكلمون به، فكيف عجزتم عن الإتيان بمثل سورة منه؟! ولهذا غالب السور التي جاءت في مطلعها هذه الحروف المقطعة يعقبها ذكر القرآن، أو ما يدل على الوحي إلا في سورتين، وهاتان السورتان أيضًا قد تضمنتا ذكر القرآن.

والمقصود أن عروبة القرآن أحد أهم أوصافه التي ذكرها الله في مقام الثناء على كتابه، وبهذا اللسان العربي الفصيح ارتفع عن أن يكون أعجميًا، وأن يكون فيه عوج، بل هو في أعلى درجات البلاغة، وهي درجة الإعجاز التي اختص بها، ويشهد لذلك أن الله تعالى وصفه بأنه قرآن نزل بلسان عربي مبين، وكرر ذلك في مواضع كثيرة، وبين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميًا، وتحدى به البشر في أكثر من موضع على أن يأتوا بمثله.

ولما كان القرآن عربيًا تُوَجَّبَ على من يريد فهمه وتدبره أو تفسيره أن يعرف اللسان الذي نزل به، وأن يهتم بهذه اللغة كونها لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكونه جزءًا من الدين، بل لا يمكن أن يقوم الإسلام

(١) توفيق الرحمن، فيصل آل مبارك ٤/ ٢٣٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٣/ ٢٦١.

إلا به؛ إذ لا يصح أن يقرأ المسلم القرآن إلا بالعربية، وقراءة القرآن ركن من أركان الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام، كما أنه لا يتم فهم الكتاب العزيز إلا بمعرفة اللسان العربي؛ ولهذا ندرك حرص العلماء في العصور المتقدمة على التأليف في إعراب القرآن ومعانيه؛ بل إن بعض هذه الكتب منها ما يسمى بـ(معاني القرآن) مما يوحي بأهمية الإعراب في فهم المعاني.

فمن أراد الكلام على كتاب الله فعليه أولًا معرفة اللغة التي نزل بها وإلا لم يدرك مراد الله من كلامه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لابد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؟ فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهم البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك»[(١)].

وهناك أمثلة عديدة تدل على أن من جهل لسان القرآن وأراد أن يتكلم فيه وقع في الخطأ والضلال، فهذا أبو عمرو بن العلاء لما ناظر عمرو بن عبيد في مسألة خلود أهل الكبائر في النار، واحتج ابن عبيد أن هذا وعد الله، والله لا يخلف وعده -يشير إلى ما في القرآن من الوعيد على بعض الكبائر بالنار والخلود فيها-، فقال له ابن العلاء: من العجمة أتيت، هذا وعيد لا وعد[(٢)].

قال الشاعر[(٣)]:

وإني وإن أوعدته أو وعدته

لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وكذلك قول من زعم أنه يجوز للرجل نكاح تسع حرائر مستدلًا بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[النساء: ٣].

فالمجموع تسع نسوة، قال الشاطبي: «ولم يشعر بمعنى فعال ومفعل، وأن معنى الآية: فانكحوا إن شئتم اثنتين اثنتين، أو ثلاثًا ثلاثًا، أو أربعًا أربعًا»[(٤)].

ومن ذلك قول من قال: إن المحرم من الخنزير إنما هو اللحم وأما الشحم فحلال؛ لأن القرآن إنما حرم اللحم دون الشحم، ولو عرف أن اللحم يطلق على الشحم بخلاف الشحم فلا يطلق على اللحم لما قال ما قال[(٥)].

---

(١) الإيمان ص ١١١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٦٧.

(٣) البيت منسوب لعامر بن الطفيل، انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٣.

(٤) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٥٦.

(٥) انظر: الكشاف ١/ ١٥٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢/ ٢٧٦.

قال الشاطبي رحمه الله بعد أن ذكر الأمثلة السابقة: «فقد ظهر بهذه الأمثلة كيف يقع الخطأ في العربية في كلام الله سبحانه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه، والصحابة رضوان الله عليهم برآء من ذلك؛ لأنهم عرب لم يحتاجوا في فهم كلام الله تعالى إلى أدوات ولا تعلم، ثم من جاء بعدهم ممن هو ليس بعربي اللسان تكلف ذلك حتى علمه»[1].

ولهذا نجد أن العلماء اشترطوا فيمن أراد تفسير كتاب الله معرفته عدة أمور، منها:

١. معرفة أوجه اللغة.

وهو أمر ضروري في اختيار ما يناسب النص، وقصر المعنى على الوجه المراد، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

فإن لفظة: (الضلال) تقع على معان كثيرة، فتوقع البعض أنه أراد بالضلال الذي هو ضد الهدى، وزعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان على مذهب قومه أربعين سنة، وهذا خطأ فاحش؛ فقد طهره الله تعالى لنبوته، وارتضاه لرسالته، ومن سيرته صلى الله عليه وسلم ما يرد على مزاعمهم؛ إذ سمي في الجاهلية الأمين، وكانوا يرتضونه حكمًا لهم وعليهم، والله سبحانه وتعالى إنما أراد بالضلال: الغفلة، كما قال في موضع آخر: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

فالمراد: الغفلة[2] أي: لا يغفل سبحانه وتعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة، ثم رده إلى جده عبد المطلب، أو هو ضلاله من حليمة السعدية مرضعته، أو يكون المراد: أنه ضل في طريق الشام حين خرج به عمه أبو طالب»[3].

٢. معرفة الصيغ وما تدل عليه من معنى.

لئلا يؤدي ذلك إلى تفسير القرآن الكريم بما لا يليق، أو فهم المعنى غير المراد، ومن ذلك على سبيل المثال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وغير ذلك من الآيات التي ورد فيها نفي الظلم عن الله سبحانه وتعالى بصيغة (فعَّال)، ففي هذه الآية وما أشبهها وردت لفظة (ظلام) بصيغة المبالغة، ومعلوم أن نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصله، مثال ذلك قولك: زيد ليس بنحَّار للإبل، لا ينفي إلا مبالغته في النحر ولا ينفي أنه ربما نحر بعض الإبل، ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة في الآيات هو نفي الظلم من أصله عن الله سبحانه وتعالى.

(١) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٥٨.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٥٠.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٨٦.

وأجيب عن ذلك بناءً على فهم اللغة العربية وهو أن المراد نفي نسبة الظلم إليه سبحانه ؛ لأن صيغة (فعَّال) قد جاءت في اللغة العربية مرادًا بها النسبة، فأغنت عن ياء النسب، ومثاله في لغة العرب قول امرئ القيس[1]:

وليس بذي رمحٍ فيطعنني
وليس بذي سيفٍ وليس بنبال

أي: ليس بذي نبلٍ، وعلى هذا أجمع المحققون من المفسرين واللغويين[2].

٣. معرفة الأوجه الإعرابية.

فمما يجب معرفته للمفسر معرفة أوجه الإعراب؛ لأن المعنى يتغير بتغير الإعراب، ويختلف باختلافه، وعلى سبيل المثال لو أن قارئًا قرأ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

برفع (كفو) ونصب (أحد) لكان قد أثبت كفوًا لله، تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، بل إن الحركة لها دور في المعنى ولو لم تكن إعرابًا، ويدل على ذلك لزوم كسر الخاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

وكسر الواو في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر: ٢٤].

فإن فتحها يؤدي إلى معنى اعتقاده الكفر.

وكذلك فإن الإعراب له تأثير بَيِّنٌ في الأحكام الفقهية وتوجيهها؛ فالمعاني تختلف باختلاف وجوه الإعراب، ويختلف الحكم تبعًا لذلك، وعلى سبيل المثال لو قال شخص: فلان له عندي مائةٌ غير درهم، برفع (غير) لكان مقرًّا بالمائة كاملة؛ لأن غير هنا صفة للمائة، وصفتها لا تنقص شيئًا منها[3]، ولو قال: له عندي مائةٌ غير درهم، بنصب (غير) لكان مقرًّا بتسعة وتسعين درهمًا؛ لأنه استثناء، والاستثناء إخراج ما بعد حرف الاستثناء من أن يتناول ما قبله.

ولو قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار، بكسر همزة (إن) لم تطلق حتى تدخل الدار؛ لأن (إن) للشرط، ولو قال: أنت طالق أن دخلت الدار بفتح همزة (أن) وقع الطلاق في الحال؛ لأن معنى الكلام: أنت طالق لأنك دخلت الدار؛ أي: من أجل أنك دخلت الدار؛ فصار دخول الدار علة طلاقها، لا شرطًا في وقوع طلاقها[4].

بل إن الحكم يختلف باختلاف تصاريف الكلمة؛ فلو أن رجلًا حلف ألا يلبس مما غزلته فلانة، فلا يحنث إلا بما غزلته قبل اليمين، ولو قال: مما تغزله فلا يحنث إلا بالذي تغزله بعد اليمين، فلو قال: من غزلها

(١) انظر: ديوان امرئ القيس ص ٤٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٣١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٢١، روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٤٠.
(٣) شرح المفصل، ابن يعيش ص١١.
(٤) انظر: معاني الحروف، الرماني ص ١٧٤، شرح المفصل، ابن يعيش ص١٢.

دخل فيه الماضي والمستقبل[1].

٤. المعرفة بلغات العرب.

إذ من المعلوم أن لكل قبيلة لغتها، وأفصح اللغات لغة قريش، إلا أن هناك بعض الكلمات في القرآن جاءت على غير لغة قريش، فقد أشكل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧].

فقام في المسجد فسأل عنها، فقام إليه رجل من هذيل فقال معناها: «على تنقص»[2] أي: شيئًا فشيئًا.

بل إن تحديد الدلالة اللفظية قد يتوقف عليها تقرير الحكم الشرعي؛ لأن الأسلوب العربي في لغة القرآن الكريم يتميز بالتصرف في فنون القول، وتكثر فيه الألفاظ التي تمثل أكثر من معنى، ومن ذلك على سبيل المثال:

- لفظة (اللمس) الواردة في قوله تعالى: ﴿لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]. فمن الفقهاء من حدد معنى (اللمس) بالاتصال بالمرأة، ومنهم من حدده بمعنى المس فقط[3].
- ومن ذلك أيضًا ما ورد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا)[4]، قاله لنسائه، فحسبنه من الطول الذي هو ضد القصر، فظنت سودة إحدى زوجاته أنها المرادة، فلما ماتت زينب رضي الله عنها قبلها علمن حينئذٍ أن المراد بالطول هو الفضل والكرم، وكانت زينب أكثرهن صدقة، وهذا يوافق كلام العرب فهم يقولون: فلان أطول يدًا في حالة الكرم[5].

والمقصود أن القرآن قد وصف بأنه عربي؛ لأنه نزل بلغة العرب، وخوطب الناس بالعربية؛ لأن أمة العرب أفصح الأمم لسانًا، وأسرعهم أفهامًا، وأقدرهم بيانًا، وألمعهم ذكاءً، وأحسنهم استعدادًا لقبول الهدى والرشاد؛ ولأن اللسان العربي أفصح الألسنة، وأنفذها في نفوس السامعين، وأحب اللغات للناس، فإنها أشرف وأبلغ وأفصح من اللغة التي جاء بها كتاب موسى عليه السلام، ومن اللغة التي تكلم بها عيسى عليه السلام ودونها أتباعه أصحاب الأناجيل؛ ولأنها لسان سهل وبين؛ ولهذا جعلت وسيلة لتبليغ الخير للناس ودعوتهم إلى الله، وقد ذكر جل وعلا أنه يسر هذا

---

(١) الكوكب الدري، الإسنوي ص ٣٠٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩.
(٣) انظر: المجموع، النووي ٢/ ٢٨٢، المغني، ابن قدامة ١/ ٢١٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٢٤٥٢.
(٥) انظر: إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض ٧/ ٢٤٢.

القرآن بلسان هذا النبي العربي الكريم؛ ليبشر به المتقين، وينذر به الخصوم الألداء، وهم الكفرة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

فالله تعالى هنا يخبر عن نعمته وهي أنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ليحصل المقصود منه، والانتفاع به ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبشر به من الثواب العاجل والآجل[١].

وفي قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ إشارة إلى أهمية اللسان الذي هو لسان النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كذلك لسان قومه، يفهمون به ما يقوله لهم، ويحيط هو كذلك علمًا بما يقولون له، مما يفهم منه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد بلغ القمة في فصاحة الكلام، ووضوح الخطاب، وقوة الحجة.

ومعنى تيسير القرآن تيسير ألفاظه ومعانيه وفهمه دون كلفة على السامع ولا إغلاق، كما يقولون: يدخل للأذن بلا إذن، وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني؛ فأما من جانب الألفاظ فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها بحيث يَخِفُّ حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني فبوضوح انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، ويتولد معان من معان أخر، كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها، ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف[٢]. ومن أهمها إيجاز اللفظ؛ ليسرع تعلقه بالحفظ، وإجمال المدلولات؛ لتذهب نفوس السامعين في انتزاع المعاني منها كل مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام، ومنها الإطناب بالبيان، إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء، ويتأتى ذلك بتأليف نظم القرآن بلغة هي أفصح لغات البشر، وأسمح ألفاظًا وتراكيب، ووفرة المعاني، وبكون تراكيبه أقصى ما تسمح به تلك اللغة، فهو خيار من خيار من خيار.

ووصف الله القرآن بأنه أنزل حكمًا عربيًا، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].

أي: بلسان العرب؛ لتحكم به بينهم.

أو المراد بـ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: محكمًا متقنًا بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٠١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢٦.

يقع فيه شك واشتباه؛ وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من الأهواء[1].

ففي هذه الآية الكريمة ذكر فضيلتين للقرآن الكريم:

فضيلة من جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته، وهو المعبر عنها بكونه ﴿حُكْمًا﴾.

وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهي المعبر عنها بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأغناها وأجملها.

فحصل لهذا الكتاب كمالان؛ كمال من جهة معانيه ومقاصده، وهو كونه ﴿حُكْمًا﴾، وكمال من جهة ألفاظه، وهو المكنى عنه بكونه ﴿عَرَبِيًّا﴾، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله؛ لأن الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة[2].

ثم في كونه (عربيًا) امتنان على العرب المخاطبين به ابتداءً، حيث إنه نزل بلغتهم، فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه، فهو الكتاب الذي فيه شرفهم وعزهم.

وكأن في هذا تعريض بغباء مشركي العرب، حيث لم يشكروا الله تعالى على هذه النعمة، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان[3].

وإنما سمي القرآن حكمًا؛ لأن مشتمل على جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام، والنقض والإبرام؛ أو لأنه لما كان القرآن سببًا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، أو لأن الله تعالى لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن، والعمل بمقتضاه سماه حكمًا لذلك المعنى[4].

أو يكون الحكم هنا بمعنى: الحكمة، كما في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

وجعل نفس الحكم حالًا منه مبالغة، والمراد: أنه ذو حكم، أي: حكمة[5]. أي: يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة، مترجمًا بلسان العرب؛ ليسهل عليهم فهمه وحفظه. وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم[6].

أو المراد بـ﴿حُكْمًا﴾ أي: مفصحًا عن الأحكام، نحو: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: ٨].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤١٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٥٣.
(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣٩٤.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٩٥.
(٥) التحرير والتنوير ٦/ ٢٢٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٢٦.

أو: ناسخًا لما قبله من الأحكام[1] أي: إن القرآن مع أنه خوطب به العرب ونزل بلسانهم إلا أن حكمه لزم الثقلين كافة عربًا وعجمًا، فكل أهل دين قبله عليهم اتباع دينه، وكل حكم تبع لحكمه، وكل لسان تبع للسانه.

وفي وصف الحكم بأنه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أيضًا إشارة إلى أن الشريعة بأحكامها لا تفهم إلا إذا فهم اللسان العربي، والإخلال في ذلك قد يؤدي إلى انحراف الأحكام عن استقامتها إلى البدعة والضلال.

وكذلك في وصف الحكم بأنه ﴿عَرَبِيًّا﴾ تكريمًا وتشريفًا للسان العربي وأهله، وكيف لا يكون خطاب رب العالمين إلى كافة المكلفين -عربًا وعجمًا- شرفًا للعرب، وقد جاء بلغتهم دون سواهم؟! وعلى قدر التشريف يأتي التكليف؛ فمن قام بهذا التكليف استحق الذكر والتشريف، وبالمقابل من نبذ الرسالة وضيع الأمانة عاد عليه القعود عن التكليف بالتوبيخ والتعنيف، وكان معرضًا للوعيد والتهديد، فواجب على العرب أن ينهضوا بحضارتهم، وألا يغفلوا عن تبليغ رسالات ربهم، فمن ينهض بالتكليف يناله حظه من التشريف.

والمقصود أن الله تعالى جعل الحكم والدين عربيًا نسبة إلى العرب؛ لأنه منزل بلغتهم على محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربيٌّ، فنسب الدين إليه إذ عليه أنزل[2].

وجاءت رسالة الإسلام ونزل الوحي الأمين باللغة العربية؛ ليخاطب القرآن الكريم شعوب الأرض كلها بمختلف أجناسها وأعراقها ولغاتها بهذا اللسان العربي المبين، فانتقلت اللغة العربية مع أول آية نزل بها الوحي نقلة واسعة هائلة تملأ العصور والأقطار والشعوب.

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ١٠٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٧٥.

القرآن واللغة العربية

أولًا: الحكمة من اختيار العربية لغة القرآن:

اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرًا لوحيه، ومستودعًا لمراده، وأن يكون العرب هم المتلقين أولًا لشرعه، وإبلاغ مراده، لحكم علمها، منها:

١. كون لسانهم أفصح الألسن، وأسهلها انتشارًا، وأكثرها تحملًا للمعاني مع إيجاز لفظه.

ولما تتمتع به اللغة العربية من مقومات اللغات الحية، وعناصر قوتها واستمرارها؛ وذلك من حيث وفرة مفرداتها بالأصالة والاشتقاق، أو بالحقيقة والمجاز، أو من حيث قبولها للتطور والتقدم الحضاري، أو من حيث مرونة أساليبها، وصلاحيتها لكل ما يراد منها، أو من حيث فصاحة ألفاظها، وبلاغة تراكيبها.

أضف إلى ذلك أن خصائص اللغة العربية وقابليتها الحيوية، ومرونة تعبيراتها وسعتها، وما إليها من مميزات من حيث الاشتقاق الصرفي والإيجاز، والخصائص الصوتية، وإمكانية تعريب الألفاظ الواردة تجعل اختيارها لغة للقرآن الكريم هو الخيار الصحيح.

٢. ومن الحكم: أن الله أرسل كل نبي بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه.

فمثلًا: موسى عليه السلام جاء بمعجزة إبطال السحر؛ لأنهم كانوا بارعين في السحر، وعيسى عليه السلام جاء بالطب، وإحياء الموتى؛ لأنهم كانوا بارعين في الطب، وكذلك العرب هم أمهر الناس في اللغة من بين الأمم في وقتهم، فجاء القرآن إعجازًا لهم في معانيه وألفاظه وتشبيهاته وإحالاته وإعجامه وتصريفاته.

ومن هنا كانت معجزة الرسول الكبرى القرآن الكريم من جنس ما اشتهر به قومه من الفصاحة والبلاغة، فجاء يتحداهم في نفيس بضاعتهم، وأبرز أسباب شهرتهم وتفوقهم.

٣. أي كتاب سماوي ينبغي أن ينزل بلغة الرسول الذي ينزل عليه ذلك الكتاب.

ليتمكن من التعامل معه بصورة طبيعية، ومن هذا المنطلق كان من الطبعي اختيار اللغة العربية دون غيرها من اللغات، حيث إنها اللغة التي كان يتحدث بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن أي رسول لابد وأن يتحدث بلسان القوم المرسل إليهم أو المبعوث فيهم، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر، حيث قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾

[إبراهيم: ٤].

فكان من الطبعي أن يتم نزول القرآن باللغة العربية، التي هي لغة النبي محمد

صلى الله عليه وسلم، ولغة قومه الذين يعيش معهم؛ لكن اختيار لغة قوم الرسول لا يدل على انحصار الدعوة في من يتكلم بتلك اللغة، خاصة وأن الأدلة القاطعة تثبت خلاف ذلك.

٤. لو جاء القرآن بأي لغة أخرى لقالوا: لو كان عربيًا لتبعناه.

فهذه الشبهة كان يمكن طرحها لو جاء على أي لغة أخرى -غير العربية-، وحينئذٍ لقالوا: لماذا نزل القرآن بهذه اللغة؟ ومن أين تعلم اللغة وهو أمي لا يكتب؟ وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[فصلت: ٤٤].

٥. نزول القرآن عربيًا على النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك جاء بهذه البراعة هو أعجز في ذاته.

ولا شك أن اللسان العربي مختص بأنواع الفصاحة والجزالة التي لا توجد في سائر الألسنة[١].

٦. لو تنوع النظم المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب اختلاف ألسنة الأمم لأدى هذا إلى الاختلاف والتنازع.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٤٩.

ولتطرق التحريف إلى الكتاب المنزل، بل يقرب من المحال أن يتحد هذا المنزل مع تعدد اللغات، وتنوع اللهجات، وتعدد الخصائص والدلالات بالنسبة لاستنباط الأحكام، ورسم المنهج، ومعرفة الحدود، وإحكام جميع العبادات والتشريعات.

فيكون نزول القرآن باللسان العربي نعمة عظيمة، وآية حكيمة، فالحمد لله على إزالة هذا التناكر والتدابر باختيار اللغة العربية الراقية؛ لتنال شرف نزول الوحي الإلهي بها، ولترتقي وحدها إلى تحمل إعجازه الذي لا يتسع له غيرها، وإنها لمسئولية وفخار للأمة صاحبة اللغة واللسان، وقد حددها الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف: ٤٤].

وليس المراد من خطاب العرب بالقرآن أن يكون التشريع قاصرًا عليهم أو مراعيًا لخاصة أحوالهم، بل إن عموم الشريعة ودوامها وكون القرآن معجزة دائمة مستمرة على تعاقب السنين ينافي ذلك، نعم إن مقاصده تصفية نفوس العرب الذين اختارهم لتلقي شريعته وبثها ونشرها، فهم المخاطبون ابتداءً قبل بقية أمة الدعوة، فكانت أحوالهم مرعية لا محالة، وكان كثير من القرآن مقصودًا به خطابهم بخاصة، وإصلاح أحوالهم.

قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ

﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

وقال: ﴿أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧].

لكن ليس في ذلك دليل على الاقتصار على أحوالهم فقط[١].

والمقصود أننا لا نشك في أن نزول القرآن باللغة العربية دون غيرها من اللغات لم يكن عفويًّا، بل كان لأسباب دقيقة، وهو بكل تأكيد اختيار حكيم؛ لأنه من قبل رب العالمين، ونحن نؤمن بوجود الحكمة في هذا الاختيار، سواءً تبينت لنا أسبابه أم لم تتبين! وسواء علمنا الحكمة من اختيار الله للغة العربية لتكون هي لغة الإسلام الدين العالمي أم لم نعلمها، فلابد أن نجزم ونوقن أنها أفضل اللغات مطلقًا؛ ولهذا اختارها الله من بين اللغات؛ ليخاطب الله بها الناس جميعًا، فالقرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة في كل شيء حتى في اللغة التي أنزل بها.

ثانيًا: أثر القرآن على اللغة العربية:

لقد تأثرت اللغة العربية بالقرآن الكريم تأثرًا كثيرًا، ويمكن إجمال هذا الأثر في العناصر الآتية:

١. حفظ القرآن اللغة العربية حية في ألسنة المسلمين في بقاع الأرض كلها.

حفظ القرآن الكريم اللغة العربية من الضياع والاندثار كغيرها من اللغات الأخرى التي تفرقت، واختلفت بمرور الزمن، فالمتأمل للتاريخ يرى بوضوح لغات كثيرة قد اندثرت بموت أهلها، أو ضعفت بضعفهم، لكن ارتباط اللغة العربية بالقرآن جعلها محفوظة بحفظه، وباقية ببقائه، وسبحان الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والذي يدقق النظر في العربية المعاصرة يجد الكثير من الألفاظ التي هجرت، وظل بقاؤها حية على الألسنة، قاصرًا على الاستخدام الديني لها، وهو الاستخدام المرتبط بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

٢. حَوَّلَ القرآن اللغة العربية إلى لغة عالمية.

بنزول القرآن ودخول الناس في دين الإسلام أفواجًا من شتى بقاع الأرض اتجه المسلمون من غير العرب إلى تعلم العربية؛ رغبة في أداء العبادات والشعائر الدينية بها، وقراءة القرآن بالعربية؛ لأن قراءة القرآن الكريم تعبد لله تعالى لا يصلح إلا باللسان العربي، وبالتالي انتشرت اللغة العربية انتشارًا ما كان يتحقق لها بدون القرآن

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨.

الكريم.

فنزول القرآن باللسان العربي حَوَّلَها من لغة محلية إلى إنسانية، وذلك عن طريق الموجات البشرية التي خرجت من الجزيرة العربية إلى البلاد المجاورة؛ داعية للإسلام حاملة معها قرائنها وعقيدتها وأخلاقها، وبقيت معلقة بموطنها الأصلي مادي ومعنوي، وهو ما دعا سكان البلاد الأصليين إلى الإسلام واعتنائهم؛ لما رأوه من أخلاق المسلمين وعدلهم؛ ولما أسلموا كان عليهم أن يؤدوا الصلاة وهي عمود الدين، والصلاة لا تكون إلا بقراءة الفاتحة على الأقل، فأدى ذلك إلى تعلمهم اللغة العربية.

كما أن اعتناقهم لهذا الدين وقبولهم به يعني التزامهم بأخلاقه ومبادئه، وهذا دعاهم إلى ضرورة التفقه في الدين، ومعرفة أحكامه وقراءة القرآن؛ لنيل الأجر والثواب على قراءته؛ كل هذا دعا المسلمين من غير العرب إلى تعلم العربية ومعرفتها، إلا أن ما يلفت النظر هو أن هؤلاء لم يتعلموا العربية فقط، بل أتقنوها فألفوا فيها المؤلفات التي ما تزال من أمهات المصادر العربية حتى يومنا هذا، ككتاب سيبويه وهو فارسي الأصل، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

٣. استقرار اللغة العربية.

رغم أن التطور سنة جارية في كل اللغات، وأكثر مظاهره يكون في الدلالات، إلا أن العربية ظلت محتفظة بكل مستوياتها اللغوية (صوتية - صرفية - نحوية - دلالية)، وما تطور منها كان في إطار المعاني الأصلية وبسبب منها، والمحافظة على الأصل الدلالي للفظ على تطور الزمن له فائدة لا يستهان بها، فتواصل الفهم بين الأجيال للنصوص القديمة وتراث الأمة أمر من الأهمية بمكان، ويزداد إدراك أهمية الاستقرار اللغوي الذي تتميز به العربية إذا ما تأملنا التعبير السريع الذي يلحق اللغة الإنكليزية (لغة الحضارة المعاصرة)، فنصوص الإنجليزية القديمة (التي مر عليها قرابة ثلاثة قرون) أصبحت عصية على الفهم بالنسبة للإنجليزية المعاصرة.

ولعل هذا التغير السريع هو الذي دفع علماء هذه اللغة إلى إعادة صياغة النصوص الأدبية المهمة عندهم -مثل نصوص شكسبير- بإنجليزية حديثة يفهمها المعاصرون بدلًا من الإنجليزية القديمة.

فرغم مرور أربعة عشر قرنًا على وجود الإسلام إلا أن الإنسان العربي لا يكاد يجد صعوبة في فهم هذه النصوص، ولا تصادفه غرابة في الألفاظ، وما يصادفنا من ألفاظ صعبة، فإن أبسط المعاجم يمكن أن يبدد هذه الصعوبة، وهكذا الشأن مع باقي المستويات اللغوية (الصوتية، والصرفية،

والنحوية) وهذه مزية عظيمة أن تكون الأمة موصولة بتراثها الزاخر تفيد منه وتنتفع به.

٤. تهذيب اللغة العربية.

فقد نَحَّى القرآن الكريم عن اللغة التقعير في الكلام، والألفاظ الغريبة الثقيلة على السمع، وإن من يتأمل النثر أو الشعر الجاهلي يرى كثيرًا من هذه الكلمات، ومن ذلك: (جحيش): يقال للرجل: إذا كان يستبد برأيه ولا يشاور الناس[(١)]، و(البخصات): جمع بخصة وهي لحم باطن القدم، و(الملطاط): وهو كل شفير نهر أو وادٍ[(٢)]، وغير ذلك كثير.

كما نحّي القرآن الكريم أيضًا كثيرًا من الألفاظ التي تعبر عن معان لا يقرها الإسلام، ومن ذلك:

- المرباع: وهو ربع الغنيمة إلى الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.
- النشيطة: وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى القوم، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل بلوغ الموضع المقصود.
- المكس: وهو دراهم كانت تؤخذ كضريبة من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية.
- قولهم للملوك: (أبيت اللعن). ومثل ذلك كثير يرجع إليه في بطون كتب التراث.

ومن أثر القرآن بالعربية أيضًا:

- تقوية اللغة والرقي بها نحو الكمال.
- توحيد لهجات اللغة العربية، وتخليصها من اللهجات القبلية الكثيرة.
- تحويل اللغة العربية إلى لغة تعليمية ذات قواعد منضبطة.
- تهذيب ألفاظ اللغة العربية، ونشوء علم البلاغة.

ثانيًا: حكمة ورود ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم:

اتفق أهل العلم على أنه ليس في القرآن كلام مركب من أساليب أعجمية، كما اتفقوا على أن في القرآن أسماء أعلام أعجمية مثل: نوح، ولوط، وإسرائيل، وجبريل، قال القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره: «لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن في القرآن أسماء أعلامًا لمن لسانه غير لسان العرب، كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط»[(٣)].

واختلفوا: هل فيه ألفاظ أعجمية مفردة؟ فذهب الجمهور إلى عدم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن، وذهب آخرون

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ١٧٧، مختار الصحاح، الرازي ص ٥٣.

(٢) انظر: المزهر، السيوطي ٢/ ٤٣١، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٦٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٦٨.

إلى وجودها، وتوسط طرف ثالث فتأول وجودها على أنها مشتركة بين العرب وغيرهم، وعلى أن العرب استعملوها وعربوها، فصارت تنسب إليهم لا باعتبار أصلها، بل باعتبار استعمالها وتعريبها.

ومن نصر القول الأول -وهو عدم وجود ألفاظ أعجمية في القرآن- الإمامان الجليلان الشافعي(١) والطبري(٢) ووافقهما أبو عبيدة(٣) وابن فارس(٤) وأكثر أهل اللغة، وهو الذي نصره وأيده: بدر الدين الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) واستدلوا بالآيات القرآنية الكثيرة التي تدل على عربية القرآن الكريم، منها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

قال الإمام الشافعي -بعد أن ساق الآيات السابقة-: «فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه -جل ثناؤه- كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]»(٥).

وذهب الإمام المفسر ابن عطية إلى القول الثاني: وهو أن في القرآن بعض ألفاظ أعجمية(٦)، ووافقه بعض الفقهاء، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة(٧). وهو الذي نصره وأيده جلال الدين السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) وفي كتابه: (المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب) ومن أدلتهم: ما وجد من ألفاظ أعجمية كـ(إستبرق، وسندس) وغيرها، وقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث للناس كافة، فلا يمتنع وجود أكثر من لغة في القرآن، بل هو أبلغ في الإعجاز.

---

(١) الرسالة، الشافعي ص٤٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ١٥.
(٣) نقله عنه تلميذه القاسم بن سلام في غريب الحديث ٤/ ٢٤٢.
(٤) حيث قال: «كما سمي الديباج، وهو منقول من الفارسية، وقال غيره: هذه حروف عربية وقع فيها وفاق بين ألفاظها في العجمية والعربية، وهذا عندي هو الصواب».
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٣١٣.
(٥) الرسالة ص٤٦-٤٧.
(٦) وقد جمع بعض العلماء الكلمات المعربة المذكورة في القرآن، ومن هؤلاء تاج الدين السبكي حيث قام بذكر سبع وعشرين كلمة معربة في القرآن على شكل نظم، وأضاف إليها ابن حجر العسقلاني أربع وعشرين كلمة أخرى، ومن ثم قام السيوطي بإضافة ستين كلمة إلى هذه الكلمات. وهكذا فاق عددها المائة وخمس وعشرين كلمة.
(٧) انظر: حاشية الجمل على الجلالين ٢/ ٤٣٢.

وقد رد الإمام الشافعي رحمه الله بكلامه الفصيح، وحجته القوية على هذا الزعم، مبينًا أنه ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، مفندًا حجج هؤلاء الزاعمين، وأهمها اثنتان:

الأولى: أن في القرآن خاصًّا يجهل بعضه بعض العرب.

والثانية: أن في القرآن ما ينطق به غير العرب. فقام الشافعي بالرد على هاتين الشبهتين في كتابه الرسالة[1].

والمذهب الثالث هو لبعض الباحثين -وهو يجمع بين القولين- فهو يقول: إن وجود بعض الألفاظ الأعجمية لا يخرجه عن كونه عربيًّا؛ لأنها قليلة والعبرة للأكثر، كما أن من يعرف كتابة اسمه فقط لا يخرجه عن كونه أميًّا، وأن هذه الألفاظ هي أعجمية في الأصل عربية بالاستعمال والتعريب.

وبعد هذا التحقيق يتبين أنه لا مجال للطعن في كتاب الله تعالى بمثل هذه الشبهة، وأنه لو كانت مجالًا للطعن في القرآن لما تركها أسلاف هؤلاء من مشركي مكة ومن بعدهم، وهم أهل اللغة، وهم الذين لم يتركوا مجالًا لأحدٍ للطعن في النبي صلى الله عليه وسلم، وكتاب ربه إلا قالوه، ولو أنهم وجدوا هذه الشبهة قائمة لقالوها.

وقد يقول قائل: ما الحكمة من استعمال القرآن لهذه الكلمات الأجنبية مهما قلت مع وجود مرادفات في اللغة العربية؟!

وقد أبان السيوطي شيئًا من تلك الحكم بعد أن نقل بعض الآثار في كتابه المهذب عن أبي ميسرة قال: «في القرآن من كل لسان»، وعن بعضهم قال: «ليس لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن»، قائلًا: «فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن؛ لتتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالًا للعرب».

ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال في تفسيره: «من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير».

و أيضًا فالنبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤].

فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم، وإن كان أصله بلغة قومه

(١) انظر: الرسالة ص٤٢.



هو»[1].

ولعل من الحكم في ذلك؛ ليكون دلالة على عالمية القرآن، وكأنما يشير الله سبحانه وتعالى بهذه الكلمات إلى شعوب ودول على المسلمين أن يصلوا إليها؛ لنشر هداية القرآن، وتعاليم الإسلام، كأنما يقول: تذكروا فارس، والحبشة، والدولة الرومية وغيرها، وانشروا فيها علمكم، ونور دينكم ولغتكم؛ وهذا ما فعله المسلمون.

موضوعات ذات صلة

القرآن، القراءة، الكتابة، اللسان

(١) المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، السيوطي ص ٦١- ٦٢.



عناصر الموضوع

التعريف بلقمان

أولًا: اسمه ونسبه ولقبه:

اختلف المفسرون في اسم ونسب لقمان الحكيم على قولين كما يأتي:

القول الأول: هو: لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ، وهو آزر، وقيل: كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقيل: كان ابن خالته، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين، واعتمدوا في ذلك على ما ورد عن ابن إسحاق حيث قال: «وهو لقمان بن باعوراء ابن ناحور بن تارخ، وهو آزر أبو إبراهيم، وقال وهب: كان ابن أخت أيوب عليه السلام وقال مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب عليه السلام»[(١)].

وكذلك قال الإمام البيضاوي والخازن هو: «لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ، وهو آزر، وقيل: كان ابن أخت أيوب عليه السلام، وقيل: كان ابن خالته، وقيل: إنه عاش حتى أدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه»[(٢)].

القول الثاني: قال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية: «هو لقمان بن عنقاء بن سدون، ويقال: لقمان بن ثاران، حكاه السهيلي عن ابن جرير والقتيبي، قال السهيلي: وكان نوبيا من أهل أيلة، قلت: وكان رجلا صالحا ذا عبادة وعبارة، وحكمة عظيمة، ويقال كان قاضيًا في زمن داود عليه السلام، فالله أعلم»[(٣)].

وقال الإمام القرطبي: «وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نوبيًا من أهل أيلة، ذكره السهيلي»[(٤)].

واختلف المفسرون في اسم لقمان هل هو اسم عربي أم أعجمي؟ على قولين:

أحدهما: أنه اسم أعجمي، منع من الصرف للعجمة والعلمية، قال الفيروزآبادي: أنه اسم أعجمى ممنوع من الصرف، قيل: عبرانى، وقيل: سريانى[(٥)].

وثانيهما: أنه اسم عربي، قال الإمام ابن عاشور: «ولقمان: اسم علم مادته مادة عربية، مشتق من اللقم، والأظهر أن العرب عربوه بلفظ قريب من ألفاظ لغتهم على عادتهم كما

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٧.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢١٣.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٢٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٥٩.
(٥) بصائر ذوي التمييز ٦/ ٩٠.



عربوا شاول باسم طالوت وهو ممنوع من الصرف لزيادة الألف والنون لا للعجمة والأول أولى»[1].

أما لقبه: فأثبت كثير من المفسرين للقمان لقب(الحكيم)، فيقال: لقمان الحكيم ورووا ذلك عن مجاهد وسعيد بن المسيب وغيرهم، وهذا اللقب مستمدًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢][2]، وسيأتي تفصيل ذلك.

ثانيًا: زمانه ومكانه:

أما زمانه: فلم تذكر المصادر الصحيحة زمان لقمان الحكيم الذي عاش فيه، ولكن اختلف المفسرون في زمان لقمان على قولين كما يأتي:

القول الأول: ذهب جمهور المفسرين إلى أن لقمان الحكيم عاش في زمن داود عليه السلام[3]، قال الزمخشري: «وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آزر، وأدركه داود عليه السلام وأخذ عنه العلم»[4].

وذكر الإمام ابن كثير عن مجاهد: «أن لقمان كان قاضيًا في بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام، ولا يوجد ذكر ذلك في كتب الإسرائيليين»[5].

وقد ذكر أهل التاريخ: أن لقمان الحكيم كان في زمن داود عليه السلام[6]، وهذا يؤيد ما ذكره المفسرون.

القول الثاني: أنه كان فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام[7].

والقول الأول هو: الراجح الذي توافق عليه جمهور المفسرين والمؤرخين، وهذا ما

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥١.

(٢) انظر: تفسير مجاهد بن جبر المكي ص ٥٤٣، جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، تفسير السمعاني ٤/ ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٤٨.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢١٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٧، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٢، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٧٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٩٨.

(٦) انظر: المعارف، ابن قتيبة ١/ ٥٥، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٤٦.

(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٢، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٢.

تؤيده الأدلة الصحيحة، قال الإمام ابن حجر: «وفي المستدرك بإسناد صحيح عن أنس قال: كان لقمان عند داود عليه السلام وهو يسرد الدرع فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله عن فائدته فتمنعه حكمته أن يسأل، وهذا صريح في أنه عاصر داود عليه السلام، وقد ذكره بن الجوزي في التلقيح بعد إبراهيم قبل إسماعيل وإسحاق والصحيح أنه كان في زمن داود، وقد أخرج الطبري وغيره عن مجاهد أنه كان قاضيًا على بني إسرائيل زمن داود عليه السلام .

وأغرب الواقدي فزعم أنه كان بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام، وشبهته ما حكاه أبو عبيدة البكري أنه كان عبدا لبني الحسحاس بن الأزد»[(١)] .

وروى الحاكم عن أنس رضي الله عنه: (إن لقمان كان عند داود عليه السلام وهو يسرد الدرع فجعل يفتله هكذا بيده، فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله ويمنعه حكمته أن يسأله، فلما فرغ منها صبها على نفسه فقال: نعم درع الحرب هذه، فقال لقمان: الصمت من الحكمة، وقليل فاعله كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتني)[(٢)] .

وكذلك روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه: (أن لقمان كان عند داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، فجعل يفتله هكذا بيده، فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله فتمنعه حكمته أن يسأل، فلما فرغ منها ضمها على نفسه وقال: نعم درع الحرب هذه فقال لقمان: إن الصمت من الحكم، وقليل فاعله كنت أريد أن أسألك، فسكت حتى كفيتني)، هذا هو الصحيح عن أنس: (أن لقمان قال: الصمت حكم وقليل فاعله)[(٣)]، وبهذه الأدلة يترجح القول الأول.

وعلى هذا يمكن تقدير الزمن الذي عاش فيه لقمان عليه السلام بناءً على تقديرات المؤرخين وعلماء الآثار المعاصرين لزمن داود عليه السلام.

وعلى تلك التقديرات الحديثة لعلماء التاريخ والآثار المعاصرين: فإن لقمان الحكيم يمكن أن يكون عاش في القرن العاشر قبل الميلاد، وهذا بناء على ما تقدره المصادر الحديثة بأن داود عليه السلام عاش في القرن العاشر قبل الميلاد (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)[(٤)] .

---

(١) فتح الباري ٦/ ٤٦٦ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٥٨٢، ٢/ ٤٥٨ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٥٨٢، ٢/ ٤٥٨، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٤٦٧١، ٧/ ٧٣ .

قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ولم يتعقبه الذهبي، وصححه البيهقي في شعب الإيمان، وابن حجر في فتح الباري ٦/ ٤٦٦ .

(٤) انظر: سيرة مدينة القدس، خالد محمد غازي ص٢٨، القدس عربية إسلامية، سيد فرج راشد ص٥٤، القدس، هنري كتن، ترجمة إبراهيم الراهب ص ١٥، القدس عبر التاريخ، دراسة جغرافية تاريخية

وأما مكانه: فاختلف المفسرون في أصله، ومن أي البلاد هو؟ على ثلاثة أقول:

القول الأول: قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه وسعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر، أي: أنه كان من أهل النوبة من سودان مصر- وهي بلدة تقع في محافظة (أسوان) بمصر -[1].

وقد روى الإمام ابن جرير عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: «كان لقمان الحكيم أسود من سودان مصر»[2]، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم: «أن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر، ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة»[3].

القول الثاني: إنه كان عبدًا حبشيًا، قاله ابن عباس[4]، وروى الإمام ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: «كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين[5]، قاضيًا على بني إسرائيل»[6].

القول الثالث: إن لقمان الحكيم كان من أهل أيلة[7]، وهي: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام، وتعرف اليوم باسم «العقبة» وهي ميناء المملكة الأردنية الهاشمية حاليًا[8].

والراجح: أن لقمان الحكيم من النوبة من سودان مصر؛ لكثرة الروايات الواردة في ذلك عند المفسرين[9].

أثرية للمدينة المقدسة، ميخائيل مكسي إسكندر ص٢٢.

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٧.

(٤) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١.

(٥) مصفح القدمين: عريضهما.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٩٣، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٣، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٦.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥، تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٧.

(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٥٩، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٧٣.

(٨) انظر: معجم البلدان، الحموي ١/ ٢٩٢، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٣٥، المعالم الأثرية في السنة والسيرة، محمد شراب ص ٤٠.

(٩) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥، تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٩٧، الكشف والبيان الثعلبي ٧/ ٣١٣.

واختلف المفسرون في لقمان أكان حرًا أو عبدًا؟ والأكثرون على أنه كان عبدًا[(١)].

واختلفوا أيضًا في مهنته على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان خياطًا بمصر، قاله سعيد بن المسيب.

الثاني: أنه كان راعيًا فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال: ألست عبد بني فلان، الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني، قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[(٢)].

الثالث: أنه كان نجارًا، فقال له سيده: اذبح لي شاة وأتني بأطيبها مضغتين، فأتاه باللسان والقلب فقال له: ما كان فيها شيء أطيب من هذين فسكت، ثم أمره فذبح له شاة ثم قال: ألق أخبثها مضغتين، فألقى اللسان والقلب فقال له: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين، فأتيتني باللسان والقلب وأمرتك أن تلقي أخبثها مضغتين، فألقيت باللسان والقلب، فقال إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا، قاله خالد الربعي[(٣)].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، تفسير السمعاني ٤/ ٢٢٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٨، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٨.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣١.

ذكر لقمان في القرآن الكريم

لم يذكر ذكر لقمان الحكيم إلا مرتين، في سورةٍ سميت باسمه (سورة لقمان).

صفات لقمان الحكيم

أولًا: صفات لقمان الخَلْقية:

روى الإمام ابن جرير، عن مجاهد قال: كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين[1].

قال الإمام الثعلبي والسمعاني قال سعيد بن المسيب: كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين، متشقق القدمين[2].

وقال ابن كثير: «قال مجاهد: كان لقمان عبدًا أسود عظيم الشفتين، مشقق القدمين، وقال حكام بن سالم عن سعيد الزبيدي عن مجاهد: كان لقمان الحكيم عبدًا حبشيًا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين»[3].

ثانيًا: صفات لقمان الخُلُقية:

فقد كان رجلًا مؤمنًا بالله، عابدًا شاكرًا له، آتاه الله الحكمة والعلم والفهم، وكان داعية ناصحًا حكيمًا صالحًا، قال الإمام ابن عاشور: «ولقمان اسم رجل حكيم صالح، وأكثر الروايات في شأنه التي يعضد بعضها وإن كانت أسانيدها ضعيفة تقتضي أنه كان من السود، فقيل: هو من بلاد النوبة، وقيل:

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٥.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٣، تفسير السمعاني ٤/ ٢٢٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٩٨.

من الحبشة»[١].

وفي الحقيقة أن ما هو مصرح به في القرآن هو اسمه لقمان فقط، وأما ما جاء من اختلاف في اسمه ونسبه وصفاته فليس عليه دليل من الكتاب أو السنة، فينبغي التوقف في ذلك؛ لأنه من مبهمات القرآن التي لم يقم عليها دليل، قال الألوسي بعد أن ساق هذه الاختلافات: «ولا وثوق لي بشيء من هذه الأخبار، وإنما نقلتها تأسيًا بمن نقلها من المفسرين الأخيار عن أني أختار أنه كان رجلًا صالحًا حكيمًا، ولم يكن نبيًا»[٢].

ولم يفصل القرآن الحديث عن لقمان، وكل ما ذكره عنه أنه كان رجلًا مؤمنًا بالله، عابدًا شاكرًا له، آتاه الله الحكمة والعلم والفهم، وكان داعية ناصحًا، وكان له ولد، فقام بواجبه في نصحه وتوجيهه وتذكيره وتعليمه، وقال صلاح عبد الفتاح الخالدي: «ولم تضف مصادرنا الإسلامية اليقينية على ما ورد في القرآن عنه، ولذلك معظم ما يتعلق بقصته من مبهمات القرآن، التي لا نملك دليلًا على بيانها، فلا دليل على زمانه أو مكانه، ولا على القوم الذين كان يعيش معهم، ولا نعرف هل كان نبيًا أم مجرد مؤمن عالم حكيم، ولا نعرف من كلامه ومواعظه وحكمه إلا ما ورد في القرآن!.

وهذا معناه أن نتوقف في القول بما ورد عنه من أخبار وأقوال وحكم؛ لأنها من الإسرائيليات والروايات التي لم تثبت، فلا نصدقها ولا نكذبها ولا نرويها.

لم يصرح القرآن بنبوة لقمان، كما أنه لم ينف نبوته، وإنما سكت عنها، ولذلك لا نقول بنبوته؛ لأنه قد لا يكون نبيًا!! ولا ننفي عنه النبوة؛ لأنه قد يكون نبيًا، فالأسلم هو التوقف في هذا القول، والاعتراف بقصور العلم، فنحن لا نعلم إلا ما علمنا الله إياه، أو وفقنا إليه! »[٣].

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٨.
(٢) روح المعاني ١١/ ٨٢.
(٣) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ١/ ١٦٧.

مكانة لقمان الحكيم

كان لقمان الحكيم عليه السلام من الحكماء الذين خلد الله تعالى ذكرهم في القرآن، وهذه الصفة تدل على مكانته وعظمته وشرفه وارتفاع منزلته، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين بأن الله سبحانه وتعالى آتاه الحكمة وهي الفقه والعقل والإصابة في القول من غير نبوة [(١)].

بل قد حكى بعض العلماء الاتفاق على أن لقمان كان حكيمًا ووليًا وصالحًا، ولم يكن نبيًا، قال الإمام البغوي: «واتفق العلماء على أنه كان حكيما ولم يكن نبيًا إلا عكرمة فإنه قال كان لقمان نبيًا وتفرد بهذا القول» [(٢)].

كما ذكر بعض المفسرين أن لقمان الحكيم كان قاضيًا في بني إسرائيل [(٣)].

وقد سميت سورة القرآن الكريم باسمه، ووروده في كتاب الله، دليل على شرفه ومكانته ويرتبط اسمه بالحكمة في كل زمان ومكان، وبه تضرب الأمثال، قال الدكتور جواد علي: «ولقمان: شخصية ذكرت في القرآن، وفي القرآن الكريم سورة سميت باسمه، ووروده في كتاب الله دليل على وقوف الجاهليين بقصصه وشيوع خبره وأمره بينهم، ونجد في كتب التفسير والأدب والأخبار وكتب المعمرين قصصًا عنه، وقد عرف بـ لقمان الحكيم «وقد بحث عنه المستشرقون، وحاولوا تحليل القصص الوارد عنه وإرجاعه إلى أصوله، وقد بحث في ذلك المحدثون في مصر وفي غير مصر من البلاد العربية» [(٤)].

وإن دلالة تسمية سورة (لقمان) باسمه يدل على عظمة ومكانة لقمان في القرآن، وقد ذكر في السورة مرتين، ويدل كذلك على الشرف والمكانة والتكريم عند الله تعالى والناس، وهذا التكريم والتشريف والمكانة العالية خالد بخلود القرآن الكريم.

سميت سورة لقمان به؛ لاشتمالها على قصته التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسر معرفة الله تعالى وصفاته، وذم الشرك، والأمر بالأخلاق والأفعال الحميدة، والنهي عن الذميمة [(٥)].

قال الإمام ابن عاشور: «سميت هذه السورة بإضافتها إلى لقمان؛ لأن فيها ذكر لقمان وحكمته وجملًا من حكمته التي أدب

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٤، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٧.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢١٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٣١٢، غرائب القرآن، النيسابوري ٥/ ٤٢٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٥٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٧.
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٥/ ٣٤٣.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٤.

بها ابنه، وليس لها اسم غير هذا الاسم، وبهذا الاسم عرفت بين القراء والمفسرين، ولم أقف على تصريح به فيما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند مقبول»[1].

وقال الإمام ابن عاشور في تسمية السور: «واعلم أن أسماء السور إما أن تكون بأوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد، وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره نحو سورة لقمان وسورة يوسف وسورة البقرة»[2].

وسورة لقمان سورة مكية كلها في قول جمهور المفسرين، واستثنى بعض المفسرين ثلاث آيات قال ابن عباس أولهن: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان:٢٧- ٢٩].

ومنهم من استثنى آيتين قال قتادة أولهما: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان:٢٧-٢٨][3].

حكمة لقمان

إن حكمة لقمان عليه السلام مأثورة في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال والمقربة للخفيات بأحسن الأمثال، وقد عني بها أهل التربية وأهل الخير وتناقلها الحكماء والمؤرخون والعامة.

وذكر القرآن منها ما في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٩١.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٩٣، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٥.

﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان:١٢-١٩].

وقد ذكر الله الحكمة في مواضع كثيرة من كتابه مرادًا بها ما فيه صلاح النفوس، من النبوة والهدى والإرشاد، وقد كانت الحكمة تطلق عند العرب على الأقوال التي فيها إيقاظ للنفس ووصاية بالخير، وإخبار بتجارب السعادة والشقاوة، وكليات جامعة لجماع الآداب وذكر الله تعالى في كتابه حكمة لقمان ووصاياه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان:١٢]. الآيات[(١)].

وهناك حكم نسبت للقمان الحكيم غير ما ورد في القرآن ذكرها بعض المفسرين، والحكمة: المنطق الذي يتعظ به ويتنبه به، ويتناقله الناس لذلك»[(٢)].

وقال الإمام السمعاني: «ومن حكم لقمان سوى ما ذكرنا ما روي أنه قال: لا مال كصحة البدن، ولا نعيم كطيب النفس. ومن حكمه أيضا أنه قال: أدب الوالد لولده كالسماد للزرع»[(٣)].

وقال الألوسي: «ومن حكمته قوله لابنه: أي بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان وشراعها التوكل على الله تعالى؛ لعلك أن تنجو ولا أراك ناجيا، وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزًا، والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية.

وقوله: ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع. وقوله: يا بني إياك والدين فإنه ذل النهار وهم الليل. وقوله: يا بني ارج الله عز وجل رجاء لا يجرئك على معصيته تعالى، وخف الله سبحانه خوفا لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه.

وقوله: من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه، ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم. وقوله: يا بني حملت الجندل والحديد وكل شيء ثقيل، فلم أجمل شيئًا هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئًا هو أمر من الفقر، يا بني لا ترسل رسولك جاهلًا فإن لم تجد حكيمًا فكن رسول نفسك، يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه، يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا، يا بني لا تأكل شبعا على شبع فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله، يا بني لا تكن حلوًا فتبلع

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٦٣.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٢.
(٣) تفسير السمعاني ٤/ ٢٣٥.

ولا مرًا فتلفظ.

وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور في أمرك العلماء، وقوله: لا خير في أن تتعلم ما لم تعلم، ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك رجل احتطب حطبا فحمل حزمة، وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى.

وقوله: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلًا فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره، وقوله: لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطًا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

وقوله: يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بد لك منه، يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس، ولا يكسب ذمهم فنفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، وقوله: يا بني امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك، إلى غير ذلك مما لا يحصى»[(١)].

وقد أورد الإمام السيوطي كثيرًا من هذه الحكم في الدر المنثور في التفسير بالمأثور[(٢)]، وكذلك الإمام ابن عاشور في التحرير والتنوير[(٣)].

مواعظ لقمان لابنه

تمثل مواعظ لقمان لابنه منظومةً متكاملةً، تعالج جميع جوانب الحياة الإيمانية والعبادية والأخلاقية والسلوكية والإصلاحية، كما أنها تشتمل على معالم دعوية ترسم بعض ملامح منهج الدعوة التي يمكن أن يسير عليها الدعاة، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: أنواع المواعظ:

إن مواعظ لقمان لابنه تتنوع إلى مواعظ إيمانية وعبادية وأخلاقية وسلوكية وإصلاحية، وقد جمع لقمان عليه السلام في هذه الموعظة أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس[(٤)]، ويمكن بيان ذلك في الفقرات الآتية:

١ . المواعظ الإيمانية.

إن الوعظ هو نصح وتذكير الإنسان بالخير بما يلين قلبه من ثواب وعقاب، تقول: وعظته وعظا وعظة فاتعظ، أي قبل الموعظة، ويقال: السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره[(٥)]، والموعظة هي

(١) روح المعاني ١١/ ٨٣.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٥١٢.
(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٤.
(٥) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٣٣٣، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٢٨٩.

التذكرة للصواب والرشاد[1].

والوعظ زجر مقترن بتخويف.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣][2].

أي: وعظهم بالزجر والإنكار وبالغ في وعظهم بالتخويف والإنذار، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغًا، أي: مؤثرًا واصلًا إلى كنه المراد[3].

وتعتبر مواعظ لقمان لابنه مواعظ إيمانية في الجملة من حيث إنها تزيد في الإيمان، وتؤدي إلى التصديق المطلق بالله تعالى؛ ولأن الإيمان هو الأساس الذي تقوم عليه العبادات، فقد بدأ لقمان به لأنه المهم، وهو أول ما يبدأ به الواعظ الحكيم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركًا فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده[4].

ثم بين له أن الشرك ظلم عظيم عند الله؛ لأن الله هو المحيي المميت الرازق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به أحد غيره، فذلك أعظم الظلم؛ لأنه جعل النعمة لغير ربها.

وأصل الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه[5]، وسماه ظلمًا؛ لأنه قد ظلم به نفسه، وليس شيء من الذنوب أعظم من الشرك بالله[6].

والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، من أشرك مع الله غيره فقد وضع الشيء في غير موضعه[7]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس:١٠٦].

أي: ولا تدع من دون معبودك وخالقك شيئا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام. يقول: لا تعبدها راجيا نفعها أو خائفا ضرها، فإنها لا تنفع ولا تضر فإن فعلت ذلك، فدعوتها من دون الله فإنك إذا من الظالمين من المشركين بالله الظالمي أنفسهم[8].

ولأن الشرك تسوية بين من لا نعمة إلا

---

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٣٣.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٤.
(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٦٩، محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٩٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٤.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٩٦.
(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٣.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٣، تفسير السمعاني ٤/ ٢٣٠.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢١٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٧٤.

وهي منه ومن لا نعمة له أصلًا[1]، ولأن الشرك أعظم الذنوب الموجب للعذاب والخلود في الجحيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

ووجه كون الكفر والشرك ظلما، وهو أن الكافر والمشرك ظالم بذلك؛ لأن الظلم هو التعدي وتجاوز الحد، ونصر الباطل، ومجانبة الحق، وإخفاء الحقيقة، والمشرك ظالم بذلك، إن المشرك ظالم لنفسه لسيره في طريق الباطل والعذاب والنار وظالم للحقيقة لتجاوزه لها ومجانبته عنها، وظالم للمؤمنين؛ لأنه لم يكن معهم ناصر للحق محارب للباطل، وظالم للكافرين؛ لأنه كان قدوة لهم في الكفر، مساعدًا لهم على باطلهم، كل كفر ظلم وكل كافر مشرك ظالم، ولكن ليس كل ظلم كفرًا وشركًا؛ لأن القرآن قد يطلق الظلم على المعصية والذنب، فقد يكون المسلم ظالمًا لمعصيته وذنبه، ولكنه لا يكفر بمجرد ارتكاب المعصية والذنب[2].

واعتبرت الآية أن الشرك ظلم عظيم، وفسر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

فقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]. شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: (ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)[3].

ثم وعظه بمراقبة الله تعالى في أقواله وأعماله؛ لأنها وسيلة للإيمان وثمرة من ثمراته قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦].

وختم تلك الآية المصورة لعلم الله وقدرته باختيار اسمين من أسماء الله «إن

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٧١٤.

(٢) انظر: تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد آتينا لقمان الحكمة)، رقم ٣٤٢٩، ٤/ ١٦٣.

الله لطيف خبير ﴾وهو ختام يتناسق مع موضوع الآية، أي: إن الله لطيف، فعلمه شامل لكل لشيء، وهو نافذ في كل شيء، ولا يقف أمامه أي شيء، ولا يستعصي عليه أي شيء؛ لأنه علم لله المطلع على كل شيء وإن الله خبير، والخبير الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا تتحرك حركة إلا يعلم مستقرها ومستودعها.

والفرق بين العليم والخبير، أن الخبير بفيد العلم، ولكن العليم إذا كان للخفايا سمى خبيرًا .

ومن علم أن الله خبير بأحواله كان محترزًا في أقواله وأفعاله واثقًا أن ما قسم له يدركه، وما لم يقسم له لا يدركه فيرى جميع الحوادث من الله فتهون عليه الأمور[1].

كما وعظه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصائب وفي ذلك يظهر أثر الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٧-١٩].

ثم بين له أن المرجع والمآب هو لله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

أي: واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه- وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما في الدنيا- ثم إليَّ مرجعك ومرجعهما، فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، ويجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما: مراعاة حق الأبوة وتعظيمه، وما لهما من الواجب التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة[2]، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

أي: إن إلي مصيركم ومعادكم بعد مماتكم، فأخبركم بجميع ما كنتم في الدنيا تعملون من خير وشر، ثم أجازيكم على أعمالكم، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته[3].

٢. المواعظ العبادية:

لما كانت العبادة هي: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء

(١) انظر: تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص٣٥- ٣٦.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٩.

الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى»[1].

فإن وصايا لقمان لابنه تتضمن معظم هذه المعاني الواردة في معنى العبادة بمفهومها الشامل، وعلى وجه الخصوص مايأتي:

- فالشكر عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].
- والتوحيد بكل أنواعه عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].
- وطاعة الوالدين عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٤-١٥].
- ومراقبة الله تعالى عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦].
- وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل الأذى في سبيل ذلك عبادة لله تعالى. قال تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

وهذه الأمور كلها ذات أبعاد عبادية، فيصح أن تسمى عبادات، والمؤمن يعبد الله من خلال التزامه الأوامر مهما كان موضوعها، ويعبد الله من خلال اجتنابه المنهيات مهما كان موضوعها.

فإن أداء الأوامر عبادة لله، وإن ترك المحرمات عبادة لله؛ لأن العبادة شاملة لكل حياة المسلم في الشعائر التعبدية، وفي

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٤٩.

التشريعات والمعاملات، وفي الفضائل والأخلاق، وفي التعامل والصلات، وفي الخلق والسلوك إلى آخره[1].

٣. المواعظ الأخلاقية.

الخلق هو عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقًا سيئًا[2].

والآيات التي تمثل المواعظ الأخلاقية هي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان:١٨-١٩].

فقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان:١٨].

وقرأ الجمهور(ولا تصاعر)، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب (ولا تصعر)، يقال: صاعر وصعر، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتق من الصعر بالتحريك لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، فكأنه صيغ له صيغة تكلف بمعنى تكلف إظهار الصعر وهو تمثيل للاحتقار؛ لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال[3].

قال الإمام ابن جرير: «اختلفت القراء في قراءة قوله: (ولا تصعر) فقرأه بعض قراء الكوفة والمدنيين والكوفيين: (ولا تصعر) على مثال (تفعل). وقرأ ذلك بعض المكيين وعامة قراء المدينة والكوفة والبصرة (ولا تصاعر) على مثال (تفاعل)[4]..

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وتأويل الكلام: ولا تعرض بوجهك عمن كلمته تكبرًا واستحقارًا لمن تكلمه، وأصل (الصعر) داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رءوسها، فيشبه به الرجل المتكبر على الناس»[5].

والمعنى: لا تعرض عن الناس تكبرًا عليهم، قال ابن عباس: لا تتعظم على خلق الله، وقال قتادة: هو الإعراض عن الناس، يكلمك أخوك وأنت عنه معرض متكبر.

---

(١) انظر: تربية الأبناء من وصية لقمان، محمد زمري ص ٣٧.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٧٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٥٢.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤.
(٤) تحبير التيسير في القراءات العشر، ابن الجزري ص ٥٠٨.
(٥) جامع البيان ٢٠/ ١٤٣

أي: لا تحتقر الناس فالنهي عن الإعراض عنهم؛ احتقارًا لهم لا عن خصوص مصاعرة الخد فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك فهو قريب من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣] إلا أن هذا تمثيل كنائي والآخر كناية لا تمثيل فيها[1].

وبعبارة أخرى: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم، وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك التشديق في الكلام، والصواب القول الأول[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: خيلاء متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور أي: على غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧][3].

والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترًا واختيالًا ؛فلذلك يسمى ذلك المشي مرحًا كما في الآية، فانتصابه على الصفة لمفعول مطلق، أي: مشيًا مرحًا، وتقدم في سورة الإسراء (٣٧)[4].

والمختال: اسم فاعل من اختال بوزن الافتعال من فعل خال إذا كان ذا خيلاء، فهو خائل.

والخيلاء: الكبر والازدهاء، فصيغة الافتعال فيه للمبالغة في الوصف فوزن المختال مختيل فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفا، فقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ مقابل قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، وقوله: فخور مقابل قوله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

ومعنى إن الله لا يحب كل مختال فخور: أن الله لا يرضى عن أحد من المختالين الفخورين[5].

قال الإمام ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المتبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين، وقوله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي غاية من رفع صوته أنه يشبه

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٩، تفسير السمعاني ٤/ ٢٣٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٦٧
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٦٧
(٥) المصدر السابق ٢١/ ١٦٦.

بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه- في هذا -بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه)[1] »[2].

ولا ترفع صوتك رفعًا شديدًا لا فائدة منه، وأخفضه، فإن شدة الصوت تؤذي آلة السمع، وتدل على الغرور، والاعتزاز المفرط بالنفس، وعدم الاكتراث بالغير، وإن اعتدال الصوت أوقر للمتكلم، وأقرب لاستيعاب الكلام ووعيه وفهمه، وإن رفع الصوت أكثر من اللازم يشبه صوت الحمير، وإن أقبح الأصوات لصوت الحمير، وذلك مما يبغضه الله تعالى؛ لأن أوله زفير وآخره شهيق. وأنكر الأصوات، أي: أقبح وأوحش وأراد بكلمة: لصوت الحمير، الصوت: اسم جنس، ولذلك جاء مفردًا.

وفي ذلك دلالة على ذم رفع الصوت من غير حاجة؛ لأن التشبيه بصوت الحمار يقتضي غاية الذم، وأكد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا)[3].

ويلاحظ الحكمة في توجيه النصائح، فلما نهى لقمان ابنه عن الخلق الذميم، رسم له طريق الخلق الكريم الذي ينبغي له أن يستعمله من القصد في المشي وهو ألا يشتط في السرعة، ولا يرائي في الإبطاء، ولا يمشي مختالًا متبخترًا، ولا يرفع الصوت أكثر من المعتاد؛ لأن غض الصوت أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه[4].

وتصور الوصية قيمًا خلقية سامية، يتعامل بها مع المجتمع من حوله، فلا يؤذي مشاعرهم، فيصدر عنه ما يكرهونه، أو يفرق وحدتهم، ويفسد المودة بينهم؛ فتنفره من الكبر والخيلاء، والإعجاب بالنفس، وهتك الحرمات، والخوض في أعراض الناس، وتلويث البيئة بالأفعال القبيحة، والصور المنفرة، والأصوات المزعجة، وذلك في صور يهتز لها الوجدان، وينخلع منها القلب، وتتفق مع الفطرة والعقل جميعًا.

وتؤكد الوصية أن القيم الإنسانية والخلقية تتفق مع فطرة الإنسان في كل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم ٢٦٢٢، ٣/ ١٦٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، رقم ٣٣٠٣، ٤/ ١٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك، رقم ٢٧٢٩، ٤/ ٢٠٩٢.

(٤) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٠٢٧.

عصر، ولكل الأجيال؛ فما أوصى به لقمان في الماضي البعيد أقره الإسلام، ولا زال يقره ويحث عليه في الحياة الدنيا؛ لأنها قيم ثابتة وحية ترتبط بوجود الإنسان وحياته[1].

والتربية الإسلامية تهتم بالتركيز على التوازن بين إشباعات النفس، ومطالبها، وبين عفتها وقناعتها، وهذا وارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء:٢٩]فالوسطية الإسلامية هي التوازن في الفكر والسلوك والتطبيق.

والوصايا السابقة هي منهج الآداب السامية التي يؤدب الله عباده بها؛ لأن في امتثالها فلاحهم دنيا وآخرة من جهة، ومن جهة أخرى فإنهم يرون آثارها التربوية في توجيه وتهذيب سلوكهم، وتعمل على زيادة الألفة والمحبة بينهم كما يؤدي هذا إلى تماسك مجتمعهم[2].

٤ . المواعظ السلوكية.

تتمثل المواعظ السلوكية في وصايا لقمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصية لجميع العالم كأن المأمور الإنسان، وأناب معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين[3] والمؤمنين، كما يقول سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥][4].

واتباع سبيل من أناب هو الاقتداء بسيرة المنيبين لله، أي: الراجعين إليه، الذين رجعوا إلى الله بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص، والمقلعون عن الشرك وعن المنهيات التي منها عقوق الوالدين، وهم الذين يدعون إلى التوحيد ومن اتبعوهم في ذلك[5].

وتهدي الآية إلى وجوب اتباع سبيل المؤمنين من أهل السنة والجماعة، وحرمة اتباع سبيل أهل البدع والضلالة[6].

٥ . المواعظ الإصلاحية.

تتمثل المواعظ الإصلاحية في وصايا لقمان بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

---

(١) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ٢٠٠.
(٢) انظر: تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص٤٦-٤٩.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٩.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٥٦٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٦١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٢١.
(٦) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٢٠٦.

وذلك لما كانت وصايا لقمان لابنه في إصلاح نفسه من خلال التوحيد والصلاة في حق نفسه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

وقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

وإصلاح نفسه مع والديه بقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٤-١٥].

أمره بإصلاح المجتمع من حوله، وذلك لأنه الغرض من الأمر بالمعرف، ليبين له أن صلاح نفسه من خلال الصلاة وغيرها غير كافٍ، بل لا بد من السعي لأجل إصلاح المجتمع أيضًا، ووسيلة ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(١)].

والمعنى: أي: إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمل غيرك، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم[(٢)].

ثانيًا: معالم دعوية في مواعظ لقمان:

هناك معالم دعوية كثيرة في وصايا لقمان عليه السلام يمكن ذكر أهمها فيما يأتي:

١ . الدعوة الى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة

يشير إلى هذا المعلم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٢-١٣].

فالحكمة التي وهبها الله تعالى للقمان كانت ظاهرة في الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وذلك أمر من الله تعالى لنبيه الكريم والمؤمنين به باتباع هذا المنهج.

قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥].

والمعنى: ادع إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام بالحكمة، بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك، والموعظة الحسنة، أي: بالعبارة الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله، كالتي عدد

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٢١، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٤٤٩.

عليهم في هذه السورة من حججه، وذكرهم فيها ما ذكرهم من آلائه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك[1]، وهذ الآية كقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨].

قال الإمام الرازي: «واعلم أنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة وهي: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن»[2].

وقال أيضاً: «ومن لطائف هذه الآية أنه قال: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فقصر الدعوة على ذكر هذين القسمين؛ لأن الدعوة إذا كانت بالدلائل القطعية فهي الحكمة، وإن كانت بالدلائل الظنية فهي الموعظة الحسنة، أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة وهو الإلزام والإفحام؛ فلهذا السبب لم يقل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن، بل قطع الجدل عن باب الدعوة؛ تنبيها على أنه لا يحصل الدعوة، وإنما الغرض منه شيء آخر، والله أعلم»[3].

٢. التدرج بالدعوة.

حيث إن لقمان عليه السلام بدأ بالأهم وهو الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣].

ثم بعد ذلك المهم ومنه الدعوة إلى طاعة الوالدين والإحسان إليهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٥﴾ [لقمان:١٤-١٥].

وهكذا إلى نهاية الآيات.

فقد انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال؛ لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح.

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٢١.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٨٦.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٢٨٧.

وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها، وشمل الأمر بالمعروف الإتيان بالأعمال الصالحة كلها على وجه الإجمال؛ ليتطلب بيانه في تضاعيف وصايا أبيه، كما شمل النهي عن المنكر اجتناب الأعمال السيئة كذلك، والأمر بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إتيان الأمر وانتهاءه في نفسه؛ لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم[1].

٣. صبر الداعية على الأذى.

إن الداعية إلى الله تعالى يتعرض للأذى بكل صوره وأشكاله وعند ذلك يحب أن يصبر على الأذى، وهذا ما وصى به لقمان به ابنه قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان:١٧].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ [المزمل:١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل:١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف:١٢٧ - ١٢٨].

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًا على تغيير المنكر وإن نال ضررًا فهو إشعار بأن المُغَيِّرَ يؤذى أحيانًا، وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ يحتمل أن يريد مما عزمه الله وأمر به، قاله ابن جريج، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق، وعزائم أهل الحزم ،والسالكين طريق النجاة، والأول أصوب[2].

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر، وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى فيهما من حق عزم الأمور إلى الله بها، أي: هو الذي يعزم عليها لوجوبها[3].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٥١.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٢.

قال سيد قطب: «ثم يتابع لقمان وصيته لابنه بتكاليف العقيدة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما يستتبعه هذا وذلك من مواجهة المتاعب التي لا بد أن تواجه صاحب العقيدة، وهو يخطو بها الخطوة الطبيعية، فيتجاوز بها نفسه إلى غيره: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ومع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصاب الأدب الواجب،. أدب الداعي إلى الله ألا يتطاول على الناس، فيفسد بالقدرة ما يصلح بالكلام: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ والمؤثر النفسي بتحقير التصعير والنفخة ملحوظ في التعبير. وبه تنتهي هذه الجولة الثانية، وقد عالجت القضية ذاتها في مجالها المعهود، بمؤثرات جديدة وبأسلوب جديد.

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم، توحيد لله، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه، ثم انتقال إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر،بالزاد الأصيل، زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة،. ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها،. ومن الأذى تمتد به الألسنة وتمتد به الأيدي، ومن الابتلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وعزم الأمور: قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم»[(١)].

٤ . فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال القاضي ابن عطية: «والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولًا، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر، كالسلب والزنى ونحوه، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر، وإن ناله بعض الأذى، ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون بالله على ما أصابهم» فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي، كما

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٠.

هي في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير منكره، وقال بعض العلماء: «المعروف» التوحيد، والمنكر الكفر، والآية نزلت في الجهاد»[(١)].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون بحسب الطاقة والجهد[(٢)].

«ويشترط في الآمر بالمعروف أن يكون له علم، يعلم به أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر؛ لأنه إن كان جاهلًا بذلك فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهى عما ليس بمنكر، ولاسيما في هذا الزمن الذي عم فيه الجهل وصار فيه الحق منكرا، والمنكر معروفًا، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

فدل على أن الداعي إلى الله لا بد أن يكون على بصيرة، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة، وحسن الأسلوب، واللطافة مع إيضاح الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

فإن كانت دعوته إلى الله بقسوة وعنف وخرق، فإنها تضر أكثر مما تنفع، فلا ينبغي أن يسند الأمر بالمعروف إسنادًا مطلقًا، إلا لمن جمع بين العلم، والحكمة، والصبر على أذى الناس؛ لأن الأمر بالمعروف وظيفة الرسل وأتباعهم، وهو مستلزم للأذى من الناس؛ لأنهم مجبولون بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة، وأغراضهم الباطلة»[(٣)].

ولذا قال العبد الصالح لقمان الحكيم لولده، فيما قص الله عنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم لورقة بن نوفل: (أومخرجي هم؟!) يعني: قريشا، أخبره ورقة أن هذا الدين الذي جاء به لم يأت به أحد إلا عودي)[(٤)].

ولا يحكم على الأمر بأنه منكر، إلا إذا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٨٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٢.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٦٤.
(٤) خرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم ٦٩٨٢، ٩/ ٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١٦٠، ١/ ١٣٩.

قام على ذلك دليل من كتاب الله تعالى، أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم أو إجماع المسلمين.

وأما إن كان من مسائل الاجتهاد فيما لا نص، فلا يحكم على أحد المجتهدين المختلفين بأنه مرتكب منكرًا، فالمصيب منهم مأجور بإصابته، والمخطئ منهم معذور كما هو معروف في محله.

ويشترط في جواز الأمر بالمعروف ألا يؤدي إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر؛ لإجماع المسلمين على ارتكاب أخف الضررين»[1].

مضامين تربوية في مواعظ لقمان

لقد احتوت وصايا لقمان الحكيم على مجموعة من المضامين التربوية، نتناولها في النقاط الآتية:

أولًا: تربية النفس:

تكون تربية النفس من خلال غرس عقيدة التوحيد في نفس الطفل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

لأن أعظم المسائل على الإطلاق هي عقيدة التوحيد وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، فمن أجلها خلق الخلق وأنزل الكتب وأرسل الرسل وجعل الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وهي أساس كل شيء، فبدونها تحبط الأعمال، وبها تبدأ تربية النفس الإنسانية؛ لذا فإن أول واجب على الوالدين القيام به هو غرس عقيدة التوحيد في نفس الطفل دون كلل ولا ملل، وتوحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله؛ لأنه هو الواحد الأحد لا شريك له مالك كل شيء، هو الخالق المعطي والمانع النافع الضار، وأن يوجها عواطف ابنهما إلى حب الله تعالى.

فإن أدرك الطفل هذه الأمور تعلق بالله

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٦٤.



سبحانه وتعالى ولم يتخذ سواه إلها، بل يلجأ إليه في كل أموره، وإلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يحكم إلا بحكم الله تعالى وهو المخبر عنه، ويبتعد عن كل مظاهر الشرك الذي وصفه الله تعالى بأنه ظلم عظيم.

فالعقيدة لابد أن تنعكس على الإنسان وسلوكه، فإذا آمن إيمانا يقينيًا بالله سبحانه ويعلمه ومراقبته الدائمة لعبده، كان هذا الإيمان محددا لسلوك المسلم كفرد، وسلوك الجماعة كأمة مسلمة، فالعقيدة لابد أن تترجم في حياة الفرد الذي يعلم بأن الله يطلع على سره ونجواه، وأن أفعاله مكتوبة وهو محاسب عليها، ولابد أن تترجم في حياة الجماعة فتبني نظام حياتها وفق هذه العقيدة التي آمنت بها، فلا سعادة لهذه النفس الإنسانية، ولا استقامة لها إلا اذا ارتبطت كافة جوانبها بعقيدة التوحيد، ومن هنا يجب على المربي المسلم أن يربط كل جوانب التربية بهذا الأصل الاعتقادي؛ لما له من أهمية كبرى في حياة الإنسان النفسية وتوحد نوازعه وتفكيره وأهدافه، وتجعل كل عواطفه وسلوكه وعاداته قوى متضافرة متعاونة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله وحده.

ومن تربية النفس التربية على بر الوالدين.

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

ويجب أن نشير إلى أنه يجب على الوالدين إعانة ولدهما على برهما، بأن يكونا متحابين متفاهمين ومتعاونين على تربيته، يعلمه أبوه كيف يبر أمه، وتعلمه أمه كيف يبر أباه، وألا يفرقا بين الأبناء في المعاملة وفي العطية، وألا يفضلا أحد الأبناء على إخوته بسبب صغر سنه أو مرضه؛ لأن هذا من شأنه أن يولد الحقد والضغائن بين الإخوة مما ينعكس سلبًا على العلاقة بين الأباء والأبناء، وألا يثقلا عليه بالأوامر، بل يجب الحديث معه حال الصفاء فيكون أجدر بتقبل النصح، لا بعد اللوم والتوبيخ والضرب؛ لأنه يولد العناد لدى الابن(١).

إضافة إلى أن هذه الطاعة يجب ألا تتجاوز المباحات، فلا يطيع الولد أبويه في الكبائر والمحرمات والمنكرات؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، خاصة إذا كانا مشركين يأمرانه بالشرك، فلا طاعة لهما في ذلك، لكن لا يسقط حقهما في المعاملة الحسنة والصحبة الطيبة.

قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا

---

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٠، تفسير المراغي ٢١/ ٨٤.

﴿فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ [لقمان:١٥].

من كل هذا يتقرر أن من أول الواجبات التي يجب على الطفل المسلم تعلمها الشكر للوالدين، وأن يكون هذا بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى وحده والشكر له؛ ولهذا جعل لقمان الشكر للوالدين بعد شكر الله عز وجل والإيمان به اعترافًا بحقوقهما ووفاء بمعروفهما.

ومن تربية النفس كذلك التربية على اتباع طريق الصلاح، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

فقد أمر الله تعالى باتباع سبيل من أناب إليه، والمعنى: واسلك طريق من تاب من شركه، ورجع إلى الإسلام، واتبع محمدًا صلى الله عليه وسلم [(١)].

ويكون توجيه الطفل إلى مصاحبة ومجالسة كل شخص إن كان منيبًا إلى الله تعالى راجعًا إليه متبعًا طريقه وهديه، فهو أحق بأن يحترم ويحب ويتبع، فإن نشأ الولد على أن الميزان في اختيار الأصحاب والشيوخ أن يكونوا مطيعين لله منيبين إليه وإلا فليس لهم طاعة ولا احترام، إلا إذا أطاعوا الله ورجعوا إليه فإنه لا يتقبل ما يراه في محيطه إلا إذا كان موافقًا لأمر الله، حتى وإن أعجبه وأراد تقليده لا يفعل ذلك إلا إذا وزنه بميزان الشرع، فيصير لديه مناعة من الشر والباطل الكثير الذي انتشر في المجتمع خاصة في وقتنا هذا[(٢)].

ويدخل في تربية النفس التربية على مراقبة الله تعالى في كافة الأحوال والأعمال.

قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦﴾ [لقمان:١٦].

وفي هذه الآية يكشف لقمان لابنه عن علم الله، وبسطة سلطانه، حتى يعبده عن علم به، ومعرفة بما ينبغي له من كمال وجلال.

فالله سبحانه، الذي يستحق أن يعبد، وأن يفرد بالعبادة، هو المالك لهذا الوجود، العالم بكل صغيرة وكبيرة فيه حتى الحبة من الخردل، وهي من الصغر بحيث لا تكاد تمسك بها الأصابع هذه الحبة، إن تكن في أي مكان في هذا الوجود إن تكن في صخرة، أي: صخرة من صخور الأرض، أو تكن في السموات التي لا حدود لها، أو تكن في الأرض، على أي عمق منها، وفي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٩، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٠.

(٢) تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص١٨.

أي مكان فيها- هذه الحبة الضالة الغارقة في بحر هذا الوجود، يأتي بها الله، ويخرجها من هذه الأعماق السحيقة في أحشاء الكون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ينفذ نور لطفه إلى كل شيء، ﴿خَبِيرٌ﴾ متمكن من كل شيء، ويعلم كل شيء علمًا كاشفًا[١].

وهذه إشارة إلى أن الله يأتي بالحسنة والسيئة مهما كانت صغيرة مما يُوَلِّدُ لدينا الخوف منه تعالى ومراقبته في القول والعمل، وفي السر والعلن، كذلك الولد مهما حاولنا مراقبته، فإننا لا نستطيع مراقبته في كافة أحواله، لكن إن زرعنا فيه مراقبة الله تعالى، فأننا لا نحتاج إلى كثير متابعة ولا كثير تنبيه.

فإن استوعب الولد أن الله تعالى يعلم كل كبيرة وصغيرة في الجهر والخفاء فإنه سيراقب الله عز وجل في كل أقواله وأفعاله، فلا يعمل شيئا بدون إخلاص ولا يعمل شيئا لغير الله تعالى.

ومن تربية النفس التربية على أداء العبادات.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

وتعتبر الصلاة الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عماد الدين، أمر الله تعالى عباده بالمحافظة عليها حال السفر والحضر، حالة الصحة والسقم، والأمن والخوف، وإقامتها تعني أداءها في وقتها بأركانها وواجباتها بخشوع، على النحو المرضي، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء[٢].

فإن أداها المؤمن حق الأداء، فإنه يصل إلى قمة السمو الأخلاقي، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي غذاء الروح، تمد الإنسان بطاقة هائلة تعينه على مواجهة المشقات والمكاره في حياته ومقاومتها.

ثم بعد ذلك تأتي التربية على الصبر على الدعوة ومشاقها.

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان:١٧].

والصلاة هي رأس العبادات في كل شريعة، وهى عمود الدين في كل دين ولهذا كان مقامها هنا هو المقام الأول: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم جاء بعد ذلك، ما تعطيه الصلاة من ثمر، وهو إصلاح كيان الإنسان، وتنقيته من الشوائب والأدران، فيصبح رسولا كريمًا من رسل الهدى والخير في الناس، حيث ائتمر بالمعروف، وانتهى عن

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٥٧٠.

(٢) تفسير المراغي ٢١/ ٨٤.

المنكر، وهذا ما يدعوه إلى أن يكون داعيًا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، إن لم يكن بلسانه، فيعمله، وبما يجد الناس فيه، من الأسوة الطيبة والقدوة الصالحة!!

فمن ائتمر بالمعروف وانتهى عن المنكر، كان أشبه بالمرآة الصقيلة يرى الناس عليها وجه الخير والإحسان، فيتمثلونه ويتخذونه قدوة لهم[١].

ثانيًا: أسس التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان:

تعتبر وصايا لقمان لابنه دستورًا كاملًا في أصول التربية الإسلامية، فقائلها أب ومعلم صالح آتاه الله الحكمة، بالإضافة إلى أنها نابعة عن قناعة وصدق، ومبنية على التجربة والمعرفة، وهي تهدف أولًا وأخيرًا أن يحقق الإنسان المسلم العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى وحده في حياته الفردية والاجتماعية، وهذه هي غاية التربية الإسلامية.

ثالثًا: أساليب التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان:

إن وصايا لقمان الحكيم تضمنت الوسائل التربوية المهمة يمكن ذكر أهمها:

الأول: ضرورة جلوس الأب مع ابنه دائمًا للوعظ والتوجيه والتربية، وترسيخ عقيدة التوحيد في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم باستخدام كافة الوسائل والأساليب، مع مراعاة السن والنمو العقلي والإدراكي لهم.

الثاني: استخدام أسلوب الحب والشفقة وإشعار الولد بأن النصيحة نابعة من باب الخوف عليه والحرص على مصلحته ﴿يَبُنَيَّ﴾، وعدم استخدام الألفاظ الجارحة والكلمات التي من شأنها الإنقاص من قيمة الابن، فيزيد من تقبل الابن لنصح الأب.

ويلاحظ أن كلمة الوعظ في السياق بصيغة فعل المضارع للدلالة على تجدد الوعظ واستمراره، إننا لا نعرف شيئًا عن ابنه، لا نعرف اسمه ولا عمره عندما وعظه، ولا نعرف عقيدته، وهل كان مؤمنًا بالله أم مشركًا به؟ كما لا نعرف هل استجاب الابن لمواعظ أبيه أم لا.

وافتتاح الموعظة بنداء المخاطب الموعوظ مع أن توجيه الخطاب مغنٍ عن ندائه لحضوره بالخطاب، فالنداء مستعمل مجازًا في طلب حضور الذهن لوعي الكلام، وذلك من الاهتمام بالغرض المسوق له الكلام.

بالإضافة إلى ذلك كان الأسلوب الذي استعمله لقمان الحكيم ﴿يَبُنَيَّ﴾ محببًا للنفس، وإشعاره بأنه يحبه، وأنه لا

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١١/ ٥٧١.

ينصحه إلا من باب الخوف عليه وحرصه على مصلحته، فعلى المربين كذلك عدم استخدام ألفاظ جارحة منفرة بل عليهم أن يتفننوا في استعمال الكلمات الجميلة الراقية الدالة على الاحترام والإشفاق والمحبة، ولو كان الابن يفعل الأخطاء والجريمة، مقترنة ببيان السبب والمسبب الذي يترتب عليه لاحقا.

وهذا من أسباب نجاح الداعية والمربي الواعظ أن لا ينشغل بالنتائج فقط، بل يبذر البذور ويغرس الكلمات الطيبة والتوجيهات والنصائح التي أخلص فيه لله عز وجل، والنتائج والثمرات يتركها لله عز وجل؛ فنحن لا نملكها، وهذا ما نستفيده من قول لقمان لابنه كما حكى عنه المولى ﴿يَبُنَيَّ﴾.

الثالث: التربية بالقصة: يجب أن تكون أساليب التربية مستفادة من الوحي العظيم: الكتاب والسنة النبوية الشريفة. فهذه الشريعة جاءت بكل ما يصلح به البشر شؤونهم، ومن تلك الأساليب المستقاة منها تربية الأبناء بل المجتمع بالقصة، فالتربية بالقصة وتوصيل المعنى بالإحساس وتحقيق الهدف بالمثال من أفضل الأساليب وأنجعها نتيجة إن شاء الله تعالى.

فنحن نجد بأن الموعظة بالقصة تكون مؤثرة وبليغة في نفس الطفل، وكلما كان القاصُّ ذا أسلوب متميز جذاب؛ استطاع شد انتباه الطفل والتأثير فيه؛ وذلك لما للقصة من أثر في نفس قارئها أو سامعها، ولما تتميز به النفس البشرية من ميل إلى تتبع المواقف والأحداث رغبة في معرفة النهاية التي تختم بها- أي قصة-، وذلك في شوق ولهفة.

فمما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق السامع بشغف وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعًا وأكثر فائدة؛ فالقصة أمر محبب للناس وتترك أثرها في النفوس والمعهود حتى في حياة الطفولة أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية، ويصغي إلى رواية القصة[(١)].

هذه الظاهرة الفطرية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم خاصة، لنربط الولد بأنبياء الله عز وجل وهديهم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠] وتربيتهم على ما كان عليه صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والقصة خير وسيلة للوصول إلى ذلك؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يقص على أصحابه قصص السابقين

---

(١) تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص١٨.

للعظة والاعتبار، لقد كان ما يحكيه مقدمًا بقوله: (كان فيمن كان قبلكم)[1] ثم يقص صلى الله عليه وسلم على مسامعهم القصة وما انتهت إليه، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل منهجًا ربانيًا ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

ففي القصص عبرة لمن تفكر واعتبر، قال الإمام ابن عاشور: «ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها حتى يرعووا عن غلوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين.

قال تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وهذا في القصص التي يذكر فيها ما لقيه المكذبون للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرس وأصحاب الأيكة»[2].

وقصص القرآن تتميز بالواقعية والصدق وسمو الهدف؛ لأنها تهدف إلى تربية النفوس وتهذيبها، وليس لمجرد التسلية والإمتاع، حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يأخذون من كل قصة العظة والعبرة، كما يخرجون منها بدرس تربوي سلوكي مستفاد، ينفعه وينفع من بعدهم في الدنيا والآخرة.

ولكن هل الإعلام الموجه للطفل عمومًا استفاد من هذا الأسلوب التربية بالقصة لتحصيل أسباب تربوية أم أنه إعلام هدام أو سلبي على أقل وصف؟ للأسف كثير منه سلبي، فالقصص التي تعرض في أفلام الكرتون فيها محاذير ومنكرات عديدة، منها قصص تثير الفزع والرعب والرهبة في نفوس الأطفال.

وقصص تثير العطف على قوى الشر أو تمجيدها، وأحيانًا قصص شعبية التي تحتوي على مواقف منافية للأخلاق، وقصص تعيب الآخرين وتسخر منهم[3].

موضوعات ذات صلة

الحكمة، داود عليه السلام، سليمان عليه السلام

(١) مثل ما أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٤٦٣، ٤/ ١٧٠.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٦.

(٣) تربية الأبناء من وصايا لقمان، محمد زمري ص١٨.





عناصر الموضوع

المجلد التاسع والعشرون

مفهوم اللهو

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور كلمة لهو على معنى الانشغال عن شيءٍ بشيءٍ آخر، بما يؤدي إلى نسيانه، أو الإعراض عنه قصدًا أو بغير قصدٍ[1].

والملاهي: آلات اللهو[2].

ويأتي اللهو بمعنى: الإعراض عن الشيء، والدنو والاقتراب، ومحبة الشيء والتعلق به[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: اللَّهْوُ: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه[4].

وقال الجرجاني: اللهو: هو الشيء الذي يتلذَّذ به الإنسان فيلهيه، ثم ينقضي[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢١٣.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم ٤/ ٤٢٣.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٢٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٤/ ٤٢٣.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٤٨.
(٥) التعريفات ص١٩٤.

اللهو في الاستعمال القرآني

وردت مادة (لـهو) في القرآن الكريم (١٦) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ②﴾ [التكاثر:١-٢]
الفعل المضارع	٤	﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧]
المصدر	١٠	﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ [الجمعة:١١]
اسم الفاعل	١	﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء:٣]

وجاء اللهو في القرآن على وجهين[2]:

الأول: ما يتلهى به ويشغل، من زوج أو ولد أو مال أو غناء أو غير ذلك من الشواغل، على معناه اللغوي: ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]. يعني: زوجة، وقيل: ولدا.

الثاني: السخرية والاستهزاء: ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠]. يعني: باستهزائهم به.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٩٨-٦٠٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١٠١٤-١٠١٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٠٦-٤٠٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٣٤-٥٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبث:

العبث لغة:

يقول ابن فارس: (العبث، هو الفعل لا يفعل على استواءٍ وخلوص صوابٍ. تقول: عبث يعبث عبثًا، وهو عابثٌ بما لا يعنيه وليس من باله، وفي القرآن: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أي: لعبًا)[١].

وقد عبث يعبث عبثًا فهو عابث: لاعب بما لا يعنيه وليس من باله[٢].

العبث اصطلاحًا:

قال القشيري: (العبث: اللهو، واللعب والاشتغال بما يلهي عن الحق)[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحةٌ ولا منفعةٌ ولا فائدةٌ تعود على الفاعل)[٤].

الصلة بين العبث واللهو:

اللهو والعبث يشتركان في أن كل منهما يقصد من غير هدف، ومشغل عن أمور مهمة، ويخلوان عن النفع الديني، والدنيوي الجاد[٥].

٢ اللعب:

اللعب لغة:

اللعب واللعب: ضد الجد، لعب يلعب لعبًا ولعبًا، ولعب، وتلاعب، وتلعب مرة بعد أخرى[٦].

ويقال لكل من عمل عملًا لا يجدي عليه نفعًا: إنما أنت لاعبٌ[٧].

---

(١) مقاييس اللغة، ٤/ ٢٠٥.

(٢) العين، الفراهيدي، ٢/ ١١١، تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٩٩، تاج العروس، الزبيدي ٥/ ٢٩٥.

(٣) لطائف الإشارات، القشيري، ٢/ ٥٩١.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٩٠.

(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٥٤.

(٦) لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٧٣٩.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٧٣٩، تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٢٠٩.

اللعب اصطلاحًا:

اسمٌ لقولٍ أو فعلٍ يراد به المزح والهزل لتمضية الوقت أو إزالة وحشة الوحدة، أو السكون، أو السكوت، أو لجلب فرحٍ ومسرةٍ للنفس، أو يجلب مثل ذلك للحبيب، أو يجلب ضده للبغيض، كإعمال الأعضاء وتحريكها دفعًا لوحشة السكون، والهذيان المقصود لدفع وحشة السكوت، ومنه العبث، وكالمزح مع المرأة لاجتلاب إقبالها ومع الطفل تحببًا أو إرضاءً له[1].

الصلة بين اللعب واللهو:

اللعب تقديم شيء على غيره من غير إهمال للثاني إنما يأتي بعده، مثال ذلك من يقول: بعد هذا الشغل، أشتغل بالعبادة والآخرة.

وأما اللهو فالاشتغال بشيء إلى حد الاستغراق فيه والإعراض عن غيره، فالدنيا للبعض لهو يشتغل به، وينسى الآخرة بالكلية[2].

وكلاهما فيه انشغال عن المهمات من الأعمال بأخرى ليست ذات أهمية.

وكلاهما يخلو من مقصد يحقق منفعة حقيقيةً في الحياة.

وآثارهما لا تدوم؛ بل هي سريعة الزوال.

(١) المصدر السابق ٢٧/ ٤٠١.
(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٧٩٩.

تنزيه الله تعالى عن اللهو

إن من الأصول الواجب اعتقادها، أن الله تعالى منزه عن كل نقيصة، أو عيب في ذاته جل جلاله، وفيما يصدر عنه، سبحانه وتعالى، من خلق وأمر، وذلك ممكن الوصول إليه، والتعرف عليه نصًا وعقلًا؛ فأما النصوص الدالة على ذلك فهي كثيرة، وقد تعددت الأساليب المستعملة في هذه النصوص، فمنها مثبت للخلق الحق منها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ③﴾ [الأحقاف: ٣].

ومنها ما جاء نافيا للعبثية، واللعب من مقصد هذا الخلق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وتتعدد مقاصد الخلق التي من أجلها خلق الله تعالى هذا الكون العظيم، ويظهر لك من خلال الأمور الآتية:

أولًا: دلائل الخلق المبثوثة في أرجاء السماوات والأرض وما بينهما، والمقصد من خلقها، إنما هو تحفيز العقول، واستنفار لطاقاتها؛ من أجل أن تجول في أنحاء هذا الكون فتبحث عن خالقه، وتعظمه في جميل خلقه وبديعه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

«ومعنى ما خلقت هذا باطلًا أي: خلقًا باطلًا، أو ما خلقت هذا في حال أنه باطلٌ، فهي حالٌ لازمة الذكر في النفي وإن كانت فضلة في الإثبات، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

فالمقصود نفي عقائد من يفضي اعتقادهم إلى أن هذا الخلق باطلٌ أو خليٌّ عن الحكمة، والعرب تبني صيغة النفي على اعتبار سبق الإثبات كثيرًا»[(١)].

يقول رشيد رضا أيضًا، في بيان هذه الآية: «أما معنى كون هذا الخلق لا يكون باطلًا، فهو أن هذا الإبداع في الخلق، والإتقان للصنع لا يمكن أن يكون من العبث والباطل، ولا يمكن أن يفعله الحكيم العليم لهذه الحياة الفانية فقط، كما أن الإنسان الذي أوتي العقل الذي يفهم هذه الحكم، ودقائق هذا الصنع، وكلما ازداد علمًا حتى إنه لا حد يعرف لفهمه وعلمه، لا يمكن أن

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٩٨.

يكون وجد ليعيش قليلًا، ثم يذهب سدًى، ويتلاشى فيكون باطلًا، بل لا بد أن يكون باستعداده الذي لا نهاية له قد خلق ليحيا حياةً لا نهاية لها، وهي الحياة الآخرة التي يرى كل عامل فيها جزاء عمله»[(١)].

والتفكر من أعظم الأسباب الموصلة الدالة إلى أن منشئ هذه المصنوعات البديعة له القدرة التامة، والعلم، والأحدية، إلى سائر الصفات العلية.

ثانيًا: النواميس والقوانين التي خلقها الله لتنظيم أمور هذا الكون بجميع مكوناته، آية دالة على قدرته، وحكمته، سبحانه وتعالى، فكل شيء خلقه الله بقدر كما قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

«والمراد: أن خلق الله الأشياء مصاحبٌ لقوانين جاريةٍ على الحكمة»[(٢)].

وقد أسهب سيد قطب رحمه الله في ذكر كثير من الأمثلة الدالة على بديع خلق الله تعالى، ودقة صنعه، فذكر دقة التناسق بين أبعاد النجوم والأجرام السماوية، وأحجامها، وكتلها، وجاذبيتها لبعض، ما مكن العلماء من تحديد مواقع نجوم أخرى بناء على ذلك، وذكر التناسق البديع بين القوانين الأرضية؛ لتكون صالحة لحياة جميع المخلوقات على ظهرها دون اختلال لأي منها أو طغيان على آخر، يقول سيد: «كل شيء»، كل صغير وكل كبير. كل ناطق وكل صامت. كل متحرك وكل ساكن. كل ماض وكل حاضر. كل معلوم وكل مجهول. كل شيء خلقناه بقدر قدر يحدد حقيقته. ويحدد صفته. ويحدد مقداره. ويحدد زمانه. ويحدد مكانه. ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء. وتأثيره في كيان هذا الوجود. وإن هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة، مصداقها هذا الوجود كله، حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود، ويتجاوب معه، ويتلقى عنه، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقًا دقيقًا. كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود»[(٣)].

ثالثًا: تكرر ذكر ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ في الآيات التي ذكرت خلق السماوات والأرض، وهذا يقصد به في المقام الأول، أشرف المخلوقات على الأرض وهو الإنسان؛ لأنه المخاطب بالعبادة والإعمار[(٤)]، فخلقه ليس عبثا، ووجوده ليس سدًا، إنما هو خاضع للقوانين الإلهية التي تسير الكون، وتضبط

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٢٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢١٧.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٣٦، ٣٤٣٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٣٢.

حركته، فيجازى أو يعاقب بحسب حاله وليس هناك ثمة محاباة لأحد، فقد يمهل الظالمون برحمة من الله تعالى لحكمة استبقاء عمران جزء من الأرض زمانًا، ويهلكون حين يستوفون شروط الإهلاك والعذاب إحقاق لحكمة أخرى وهي العدل والاقتصاص من الظالم. لذا يكثر تعقيب نظام خلق السماوات والأرض بذكر الجزاء العاجل المتمثل بإهلاك الأمم الظالمة بعذاب إلهي فوري كالإهلاك بالطوفان والصيحة والريح الصرصر، أو متدرج كالأمراض الفتاكة والخلافات المفضية إلى الاقتتال الدامي. أو يعقب بذكر البعث والجزاء يوم القيامة تذكيرا بأنه لن يفلت أحد من الجزاء العدل عند الله سبحانه وتعالى[1].

رابعًا: الأحكام والقواعد التي شرعها الله تعالى لتسيير مصالح عباده فيما فيه نفعهم وصلاحهم، من خلال إرسال الرسل وإنزال الكتب[2]، فمن عدل الله تعالى وحكمته أن لا يترك الناس سدى يسيرون أمورهم وفق أهوائهم وشهواتهم، ذلك أن عقل الإنسان قاصر في كثير من الأحيان عن إدراك الأحكام والقوانين التي تحقق له المصالح الدنيوية والأخروية، فضلا عن أن اتجاهات التفكير لدى الناس متفاوتة نظرا لتفوات مداركهم، وطرق تفكيرهم واختلاف الظروف المحيطة بهم[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٧٥.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٠٧
(٣) تهذيب معاني القرآن، الزجاج ٣/ ١٥.

ضوابط اللهو

أولًا: ضوابط اللهو:

بعد الوقوف أمام حقيقة اللهو في اللغة والاصطلاح، لا بد لنا، من التعرف على القواعد التي تضبط التصرفات والسلوكيات فيتميز من خلالها اللهو عن الجد، وقد سعى العلماء إلى تأصيل القواعد الواضحة الدالة على ذلك، مستندين إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وبعد البحث والتقصي، وجدت أن عمدتهم في ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦].

وأربعة من الأحاديث النبوية، وكان السبق في التقعيد للإمام البخاري رحمه الله وضع القاعدة الأولى وهي: أن لا يشغل السلوك أو التصرف عن طاعة وذلك واضح في ترجمته لأحد الأبواب بقوله: باب كل لهوٍ باطل إذا شغله عن طاعة [١] وتبعه في ذلك الإمام ابن بطال في شرحه للصحيح وزاد ضابطا آخر وهو: أن يكون اللهو قليلًا وليس بكثير! [٢].

ويستدل لذلك بحديث عائشة في نظرها إلى الأحباش وهم يتلاعبون في المسجد، وغناء الجاريتين في بيتها يوم العيد[٣]، وحضورها زفاف امرأة إلى رجل من الأنصار[٤].

ثم جاء الإمام الخطابي وأضاف ضابطا آخر، وهو: أن يكون التصرف أو السلوك معينًا على الحق أو ذريعة إليه، فإن لم يكن كذلك كان من اللهو [٥].

وقد استنبط هذا الضابط من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(كل ما يلهو به المرء المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق)**[٦].

وذهب ابن تيمية إلى أن اللهو له ضابطان، الأول: ليس فيه منفعة، والآخر: لا يكون محرمًا[٧].

كذلك قعد الشاطبي قاعدتين

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.
(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٧١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب العيدين، باب الحراب والدراق يوم العيد، رقم ٩٤٩، ٩٥٠، ومسلم في صحيحه، صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد، رقم ٨٩٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الدعاء للنساء اللاتي يهدين للعروس والعريس، رقم ٩٤٩، ٩٥٠.
(٥) معالم السنن ٢/ ٢٤٢.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم ١٦٣٧، وابن ماجه في الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم ٢٨١١.
قال الترمذي: حديث حسن.
(٧) الاستقامة، ابن تيمية ص ٢٢٧.

استخرجهما من حديث عامر بن عقبة هما: أن يكون الأمر مباحًا يخدم أمرًا ضروريًا كالنسل، والآخر: أن يكون مباحًا ويخدم أصلًا تكميليًا كاللعب بالسهام وتأديب الفرس[1]، فإن لم يتوفر أحد هذين الشرطين كان الأمر لهوًا.

وبذلك تتلخص الضوابط التي تحكم أن هذا الأمر لهوٌ أو جدٌّ بالنقاط الآتية:

- أن يكون مباحًا، وليس فيه تعلق بحرام.
- أن يكون قليلًا، ولا يستغرق وقت الإنسان، ومعيار القلة يضبط من خلال المناسبات كالأعياد.
- ألا يشغل الأمر عن طاعة، بل يكون معينًا على الحق أو ذريعة إليه.

ثانيًا: حكم اللهو:

بعد استعراض القواعد الدالة على اللهو، لا بد من التعريج على حكمه؛ ليكون المسلم على بينة من أمره، فيجتنبه، ويبتعد عنه، وبعد البحث في الآيات التي تناولت موضوع اللهو لم أجد فيها ما ينص بصراحة على حكم محدد للهو، وغاية ما في الأمر، إشارات دلت عليها آية قرآنية، فهم منها العلماء حكم اللهو، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦].

فلقد علق عليها ابن عاشور، بقوله: فلم يكن قصده مجرد اللهو بل تجاوزه إلى الصد عن سبيل الله[2]. في حين، نجد الإمام البخاري، يستعمل هذه الآية في ترجمته: «باب كل لهو باطل» مستنبطًا ذلك من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**وكل ما يلهو به المرء المسلم باطلٌ، إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق**)[3].

فقال: باب كل لهو باطل إذا شغله عن طاعة وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾. ولما لم يكن هذا الحديث على شرطه استعمله لفظ ترجمةٍ واستنبط من المعنى ما قيد به الحكم المذكور[4].

فدل الأمر على أن اللهو لا يسري عليه حكم واحد إنما في الأمر تفصيل؛ فاتفق العلماء، على أن اللهو يكون محظورًا إذا كان فيه نص محدد بالتحريم في حين إذا لم يكن محرمًا، وليس فيه منفعة، فيرى بعض العلماء، مثل: ابن بطال، والخطابي، وابن تيمية، أن على أصحاب الهمم العالية اجتنابه؛ لأنه يحد من نشاطهم الإيماني، وتعلقهم بالله، ويرخص فيه للنفوس التي

(١) الموافقات ١/ ٢٠٦.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٣.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.

لا تصبر على ما ينفع، والترخيص مقيدٌ بالأوقات التي تقتضي ذلك؛ كالأعياد، والأعراس، وقدوم الغائب، ونحو ذلك[١].

وعندما وقف ابن تيمية أمام الحديث، وفسر معنى الباطل، ذهب إلى أنه ما كان ضد الحق[٢]، في حين، قال ابن العربي: إن معنى الباطل ما كان خاليًا من الثواب لتعلقه بالدنيا المحضة لا تعلق له بالآخرة والمباح منه باقي[٣].

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٧١، معالم السنن، الخطابي ٢/ ٢٤٢.
(٢) انظر: جامع رسائل ابن تيمية ١/ ٢٠.
(٣) انظر: عارضة الأحوذي، ابن العربي ٧/ ١٣٦.

الملهيات الدنيوية

شاءت حكمة الله عز وجل أن يخلق على هذه الأرض أمورا حببها للإنسان بفطرته؛ لتكون دافعا على إعمار الأرض ومساعدًا على تطويرها، وبعضها يجملها الشيطان في نفس الإنسان ليغويه عن الصراط المستقيم، كل ذلك يشكل اختبارًا للإنسان التي جبلت فطرته على هذه المحبوبات.

وفيما يأتي أهم الملهيات الدنيوية:

أولًا: زخرف الدنيا وزينتها:

واستعمل لفظ الزخرف في القرآن الكريم أربع مرات، جاءت في موضعين، في معرض الذم:

أولهما: يذكر الوسائل التي يستعملها شياطين الإنس والجن في تزيين قبيحهم، وتمويه باطلهم، بطرق خفية دقيقة، ليسهل على النفوس قبوله، والإقبال عليه[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وثانيهما: يصور حال الكفار المنهمكين في لذائذ الدنيا ومتعها، الغارقين في وهم استمرارية هذه المتع واللذائذ[٥]، كما في

(٤) انظر: الموافقات، الشاطبي ٤/ ٣٣٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٤٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

أما الموضعان الآخران، فقد جاء الموضع الأول منهما، في سياق طلبات قريش من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيه الله تعالى بيتًا من زخرف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣].

وجاء الموضع الآخر، في بيان حكمة الله من تفاوت الناس في معاشهم، وأرزاقهم في الدنيا، وأن ذلك جميعه، عرض زائل سريع الفناء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٥].

وفيما سبق، دلالة واضحة؛ وهي أن النفس البشرية تنجذب لكل ما هو مزخرف سواء كان ماديًا أم معنويًا، وتغتر به، فيشغلها اللمعان والتزويق عن حقيقة الشيء المزخرف حتى وإن كان سريع الزوال، أو قبيحًا في الباطن، فالواجب على المؤمن ألا ينخدع بكل ما له بريق ولمعان، فلربما كانت شركا من أشراك إبليس.

دلالة مصطلح الزينة:

تقول لنا، معاجم اللغة العربية: إن الزاء والياء والنون أصل صحيح يدل على حسن الشيء وتحسينه[(١)]، والزين الصبيح الجميل، وضده الشين أي: القبيح[(٢)]، وحقيقة الزينة أنها زيادة محببة تعلق بظاهر الشيء ناشئة عما يزخر به باطنه، ومن ذلك الأصل جاء المعنى الشائع للتزين؛ وهو التحلي بحلية مجتلبة تقليدًا لما هو ناشئ من البدن كالتجمل بالأصباغ ونحوها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١][(٣)].

وورد ذكر الزينة في القرآن الكريم خمسًا وأربعين مرة، ويظهر من استقراء الآيات أن الزينة نوعان: زينة داخلية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

وزينة خارجية كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩][(٤)].

والمدقق في الآيات التي وردت فيها

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١٧٥.
(٣) المعجم الاشتقاقي، محمد حسن ص ٩٢٣.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٨.

مصطلح التزيين، يلاحظ تعدد الحالات التي وردت فيها صور التزيين، وهي على النحو الآتي:

١. إن التزيين نسب للشيطان.

وذلك حين يتسلط على الكفار والضالين، فيحسن لهم كل ما يؤدي إلى الحرام، ويستر لهم قبح أعمالهم، فيواصلون غيهم، ويصدون عن سبيل الله القويم، وقد ورد ذلك، في عدة مواضع منها: قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣].

وقد قال تعالى في شأن قوم بلقيس، لما عبدوا الشمس من دون الله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٤]

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

٢. إن الله تعالى نسب التزيين إلى نفسه.

ويأتي هذا التزيين على ضربين:

الأول: يتعلق بأعمال الإنسان وكسبه، وقد ورد ذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقوله أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ [النمل: ٤]

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧].

والمقصود بالتزيين في الآيتين الأوليين: أن الله تعالى خلق في النفوس البشرية من المحبة للخير أو الشر والاتباع لطرقه[1].

«والبشر يستحسنون ما يجرون عليه ويتعودونه مما كان عليه آباؤهم أو مما استحدثوه بأنفسهم، فسبب التزيين في الأول أنسهم به كونه من شئون أمتهم، التي يعد مدحها مدحًا لها ولهم، وذمها عارًا عليها وعليهم، وزد على ذلك في الثاني ما يعطيه العلم من كون ذلك حقًا وخيرًا في نفسه يترتب عليه فضلهم على غيرهم فيه وفي الجزاء عليه، فيظهر بذلك أن التزيين أثرٌ لأعمال اختيارية لا جبر فيها ولا إكراه»[2].

وتزيين الله تعالى للإيمان في الآية الثالثة، يقصد به توفيقه لعباده المؤمنين لقبولهم الحق بما أودعه في قلوبهم من محبة القلب وإيثاره، وما رافق الحق من حجج قاطعة تدل عليه، فيستقيم في القلب

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٦١٢، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٢٨.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٥٥٧.

راسخًا لا يتزحزح[1].

الآخر: يتعلق بخلق الله تعالى، وبديع صنعه، والمتبع لهذه الآيات يلحظ أن التزيين خصت به السماء في معظم الآيات، وهي على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥].

ويبدو أن سبب التركيز على عرض زينة السماء، يعود إلى كون البروج العظيمة الدائرة فيها، لا تغيب عن ناظر أحد، فجعلت أشكالًا تقع موقع الحسن في الأنظار؛ للدلالة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه، وانفراده بالخلق، ولو صدق الكفار في دعواهم المستمرة بطلب المعجزات من أجل الإيمان، لكفتهم هذه المعجزة السماوية في تحقيق مطلبهم[2].

٣. ذكر التزيين غير مسمى إلى فاعله.

وقد ورد هذا، في تسعة مواضع؛ اختصت ثمانية منها للحديث عن تزيين الأعمال للكفار أو المنافقين، واختلفت أقوال المفسرين في إسناد فعل التزيين على عدة أوجه؛ فمنهم من قال: إن فعل التزيين منسوب إلى الله تعالى. وقال آخرون: إن إسناد الفعل للشيطان. في حين ذهب آخرون إلى أن المزين هم الرؤساء للمرؤوسين[3].

المقصود الإلهي من تزيين الدنيا وزخرفتها:

قبل الحديث عن الحكمة الإلهية من تزيين الدنيا وزخرفتها، لا بد من تقرير قاعدة مهمة، وهي أن أصل الزينة في الحياة الدنيا أمرٌ ليس بمذموم في نفسه وذاته إذا روعي فيه ما أوصى الله برعيه، دليل ذلك من المنقول، قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

أما دليله من المعقول، فإن الناظر يرى، أن الله تعالى أودع في جنس البشر حبًا للعلم والمعرفة، وميلًا للشهوات الحسية والعقلية، والزينة الصورية والمعنوية، فانطلقوا تلبية لذلك نحو استكشاف كل مجهول يواجهونه في حياتهم، «فكانت غريزة حب الزينة وغريزة حب الطيبات من

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٢٥.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٩.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٢٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٤٥.

الرزق سببًا لتوسع البشر في أعمال الفلاحة والزراعة وما يرقيها من فنون الصناعة وسائر وسائل العمران، وإظهار عجائب علم الله وحكمته وقدرته في العالم ورحمته وإحسانه بالخلق»[1]، فكانت بذلك سببًا من أسباب التقدم والرقي؛ لذا فهي غير مذمومة في ذاتها، إنما تقترن بها أشياء تذم لأجلها؛ كالإسراف فيها، بحيث تشغل عن عبادة الله تعالى، أو عن معالي الأمور، وإضاعة الوقت الطويل في التلذذ بها، وسلوك سبل غير قويمة للحصول عليها، واستعمالها وسيلة للصد عن طاعة الله وعبادته.

والأدلة على ذلك كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

أما عن تزيين الدنيا، وما عليها من موجودات، فله حكم إلهية عديدة، جاءت في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقد فصل رشيد رضا، وابن عاشور، في تعداد هذه الحكم أثناء تفسيرهما هذه الآية، نجملها فيما يأتي[2]:

- إن الإخبار عن خلق ما على الأرض زينة، يجمع الامتنان على الناس، والتذكير ببديع صنع الله تعالى، إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبه النفوس من الزخرف والزينة.
- إن التأمل في زينة الدنيا، يحث العقول على النظر في وجود منشئ هذه الموجودات، ومقياس مدى الإيمان الداخلي الدافع لشكر الخالق سبحانه وتعالى، فيظهر حينئذ الجاحد لنفسه، والظالم لها، والمقتصد بالخيرات والسابق فيها.
- امتحان الإنسان واختباره في كيفية استقباله لهذه الزينة وتعامله معها في الواقع، فإن الابتلاء والاختبار يقع بكل من حصولهما والحرمان منهما، وإن المالك لهما أقدر على شكر الله وتزكية نفسه ونفع غيره من الفاقد لهما[3].

خطورة الانجرار وراء الدنيا:

حب الدنيا والغرور بزينتها، يصرفان جميع قوى النفس إلى التفاني في طلبها،

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٦.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٢٥٧.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٢٦، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٤٧.

والسعي في تحصيل متعها، وبذلك تنصرف عن النظر الصحيح في آيات الحق وبيناته، وتعمى عن سبيل الله وصراطه، فشهوة الزعامة تصرف صاحبها إلى المسارعة في حب الظهور، والامتياز، والشهرة، والاستعلاء على أقرانه، وشهوة المال تصرف صاحبها إلى تخطي كل الحدود لتكديس المزيد من الأموال في خزائنه، وهكذا في شأن كل متع الدنيا وزخرفها.

لذا جاءت آيات عديدة تحذر من الاغترار بالدنيا، والتنبيه على سرعة انقضائها، وزوال نعيمها وملذاتها، وقد استعمل القرآن في سبيل ذلك، منبهات توقظ القلوب، فمن ذلك استعمال مصطلح «متاع» ثلاث عشرة مرة، في وصف الدنيا تنبيهًا أن لكل إنسان في الدنيا تمتعًا لمدة معلومة،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[آل عمران: ١٨٥].

وها هو ذا، رشيد رضا يقول في تفسيره لهذه الآية: «وهي على كل حالٍ متاع الغرور؛ لأن صاحبها دائمًا مغرورٌ مخدوعٌ لها تشغله كل حينٍ بجلب لذاتها ودفع آلامها، فهو يتعب لما لا يستحق التعب، ويشقى لتوهم السعادة، ويتعب نقدًا ليستريح نسيئةً»[2].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٩٥، المعجم الاشتقاقي، محمد حسن ص ٢٢٥.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٢٢٣.

ثانيًا: المال والبنون.

محبوبات النفس البشرية:

يعد المال والبنون، من أخطر الأشياء على النفس البشرية، وأشدها تأثيرًا على سلوك الإنسان، وتصرفاته، «وجعل القرآن الكريم نفس «الأموال والأولاد» فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما مبالغةً في التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها، فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة»[3].

فقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾[الأنفال: ٢٨].

وقال أيضًا ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[التغابن: ١٥].

كما عدهما القرآن الكريم، من أكثر المحبوبات إلى النفس البشرية، فقال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف: ٤٦].

وإنما ذكرهما دون غيرهما من الزينة؛ لأنهما الجالب لها، والحافظ عليها، ففي المال جمالٌ ونفعٌ، وفي البنين قوةٌ ودفعٌ[4]، وقد بين مدى تغلغل حب المال في قلب الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[الفجر: ٢٠].

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٢٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤١٣.

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

لذلك فإن المال يستعمل كوسيلة إغراء، تستمال من خلالها القلوب، وتروض الأفكار، فتطوع الأجساد، وتخضع الإرادات، وهذا ما فعلته ملكة سبأ حين أرسلت وفدًا إلى نبي الله سليمان ؛ وفدًا محملًا بالهدايا لاختباره، فإن كان ملكًا قبلها، وعرفت أن علاجه في بعض الخراج، والأموال تساق إليه كل عام، وإن كان نبيًا فلن يقبل منها شيئًا حتى تدخل هي وقومها في دينه[1] فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ٣٥﴾ [النمل: ٣٥].

والإمداد بالمال ليس دائما علامة رضا من الله تعالى، فالله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، وقد يوسع الله على العاصي ويضيق على الطائع، فإذا اقترن الإمداد بحال الغفلة والعصيان، كان ذلك دلالة على الاستدراج إلى المعاصي، واستجرار إلى زيادة الإثم[2].

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

فها هو ذا، قتادة يقول: «مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، فلا تعتبروا الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح»[3]

تقديم المال على الأولاد:

ورد ذكر المال والأولاد في القرآن الكريم على صور مختلفة؛ فجاء ذكر المال مفردًا في ستة وأربعين موضعًا، واقترن مع ذكر الأولاد في ستة وعشرين موضعًا، أما الاقتران بالأنفس، فجاء في خمسة عشر موضعًا، وانفرد بموضع واحد مقترنًا بالأهل والديار لكل منهما على حدة.

وبالتدقيق في المواضع القرآنية المشتملة على ذكر المال والأولاد تلاحظ الأمور الآتية:

١. التركيز على التنبيه على خطورة الافتتان بالمال والأولاد، وتأثيراته على سلوكيات الإنسان، وتصرفاته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وكانت هذه الآية قد نزلت في حق أبي لبابة رضي الله عنه حين مال إلى اطلاع بني قريظة على حكم سعد؛ لأن ماله وولده كانت فيهم[4]؛ بل إن الافتتان بالمال والأولاد، يدفع الإنسان ليعتقد أن الله راض عنه،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٥٥.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٥٦٧.
(٣) الدر المنثور، السيوطي ٦/ ١٠٤.
(٤) الوجيز، الواحدي ١/ ٤٣٧.

وليس بمعذبه، فيطغى ويتجبر، كما جاء على لسان الكفار، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]. وقوله تعالى على لسان صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

٢. تقدم ذكر المال على الولد في جميع المواضع، باستثناء موضعين اثنين، هما؛ قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ [التوبة: ٢٤].

ويظهر لنا، أن الحكمة من التقديم والتأخير بين الأموال والأولاد، هو السياق الذي وردت فيه الآيات؛ فإذا كان السياق في معرض ذكر الفتنة، والإغراء، والزينة، والإعجاب- قدم المال. في حين إذا كان السياق في معرض ذكر المحبوبات إلى القلب، قدم الولد على المال، وهذه بعض التفسيرات التي تبين سبب التقديم والتأخير:

- قدم الأموال من باب السبب، فإنه إنما شرع النكاح عند قدرته على مؤونته، فهو سببٌ. والتزويج سببٌ للتناسل، ولأن المال سببٌ للتنعيم بالولد وفقده سببٌ لشقائه[1].
- الأموال لا تكاد تفارقها الفتنة، وليست الأولاد في استلزام الفتنة مثلها[2].
- إن إعجاب الناس يسبق إلى المال قبل الإعجاب بالولد.
- إن المال فيه صفة الزينة، والإمداد لكلٍ من الآباء والأبناء في جميع الأوقات، أما البنون فزينتهم وإمدادهم إنما يكون بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الأبوة، ثم إن المال أقدم وجودا من البنين، و المال مناطٌ لبقاء النفس، والبنين لبقاء النوع، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم[3].
- أما عن تقديم البنين على المال، في الموضعين (آل عمران والتوبة) فيرجع ذلك، إلى أن شهوة حب الولد الجبلية،أقوى في القلب من شهوة المال، فالمال يبذل في سبيل تحصيل الزواج المسبب للولد، فكان التقديم ترتيب للمحبوبات[4]. قلت: ومما يقوي هذا، أن كثيرًا من الناس، ممن

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٢٤٨.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٦١.
(٣) إرشاد العقل السليم، السعود ٥/ ٢٢٥.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٢٦١.

حرم الولد يبذل الغالي والنفيس في سبيل الإنجاب.

حب المال مدعاة لارتكاب المحرمات وتربية الخصال السيئة في القلب:

إن بريق الأموال وزينتها الأخاذة، تدفع النفس البشرية إلى السعي للحصول عليها، حتى لو اضطر بعض الناس إلى تخطي كثير من الحدود والمحرمات، وحب جمع المال يربي في النفس الكثير من الخصال السيئة ذات التأثير الخطير على شخصية محب المال والمجتمع من حوله، وقد ذكرت الآيات القرآنية صورًا عديدة لتلك المحرمات، والخصال السيئة، وهي على النحو الآتي:

١. الاعتداء على أموال الضعفاء؛ كالأيتام، والنساء.

فجاء الأمر الإلهي بإرجاع الحقوق إلى أصحابها كاملة، من غير نقصان، ولا استبدال، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾[النساء: ٢].

وقال أيضا: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء: ٤].

ونهى عن استخدام أساليب تكره المرأة على التنازل عن مالها أو جزء منه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾[النساء: ١٩].

وجاء الوعيد الإلهي شديدًا، وقاسيًا، لكل من تعدى على مال اليتيم ظلمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء: ١٠].

٢. أكل حقوق الآخرين في الخصومات، ودفع الرشوة إلى الحكام للتغلب بأكل هذه الأموال[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

٣. الصد عن سبيل الله.

لأن لذة جمع المال تطغى على العقل، حتى إنها تدفع صاحبها لمحاربة كل القيم والأخلاق الحميدة التي تقف حائلًا دون جمع المال الموصل إلى السيادة، والزعامة، واستمراريتها، وهذا ديدن الكافرين والظالمين في كل زمان، كما أخبر الله تعالى، عن ذلك في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال على لسان موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا

(١) التحرير والتنوير ٢/ ١٩١.

﴿اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وكما يستعمل المال للصد عن سبيل الله، كذلك، فإن الأولاد يستعملون لإرهاب الناس، وتخويفهم من اتباع الحق، وقد بين هذا المنهج نبي الله نوح ؛ في شكواه إلى الله[١]، فقال: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

٤. التلاعب بالأحكام الشرعية بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وكتمان الحق؛ تلبية لرغبة أصحاب الأهواء، والشهوات، مقابل الحصول على مكافآت مالية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤].

٥. التكبر على خلق الله، والتعالي عليهم. المصحوب بخلق الغرور والعجب بما جمع من الأموال مع نسيان المنعم، وجحود نعمته، كل ذلك يفضي إلى طغيان يغمر النفسية البشرية، ويتخلل في كل أجزائها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [العلق: ٦ - ٧].

وقد ضرب القرآن الكريم لذلك مثلين:

الأول: في قوله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

والآخر: قارون صاحب خزائن المال الذي جحد نعمة الله عليه، فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]؛وخرج خرجة، مليئة بالزهو والصلف، كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩].

٦. الركون للدنيا والخلود إليها.

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢-٣].

ذلك أن جمع المال يورث في الإنسان طول الأماني، فيعمل على تشييد البنيان، وغرس الأشجار، وجري الأنهار، ونحو ذلك عمل من يظن أن ماله أبقاه حيًا، ويمكن أن يحمل المعنى على الحقيقة، فمن أشرب قلبه حب المال وجمعه، أصيب بفرط الغرور، واشتغل بالجمع والتكاثر عما أمامه من قوارع الآخرة[٢].

خطورة إغراق القلب بحب المال:

حذر الله تعالى عباده المؤمنين من التلبس بما تلبست الأقوام السابقة من الانصراف إلى تكثير الأموال والأولاد، فينشغلوا عن مصيرهم وآخرتهم،[٣] فقال

---

(١) انظر: المصدر السابق ٢٩/ ٢٠٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٥/ ٤٦١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[التكاثر: ١ - ٢].

ووصف الله تعالى، أن كل ما من شأنه الزينة لا ديمومة له، فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم المتكسر، فقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفصل سبحانه وتعالى، في أكثر من موضع في القرآن الكريم، أن المال ليس هو السبيل النافع والمــنجي يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١].

ويوم القيامة يخاطب أهل النار بالقول: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأعراف: ٤٨].

وذكر جل جلاله، أن العمدة في النجاح والفلاح يوم القيامة، والقربة منه سبحانه وتعالى، قائم على الإيمان، والعمل الصالح المستقر في القلب السليم، وليس كثرة الأموال والأولاد[١].

فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩].

وقال أيضا: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

وسيلة النجاة من فتنة المال وتبعاته الدنيوية والأخروية:

بعد استقراء الآيات التي تناولت الحديث عن الجانب المالي في حياة الإنسان، ومعاملاته اليومية، تبين، أن شهوة المال، يمكن أن تطغى على القلب البشري فتودي به إلى المهالك، لكن القرآن الكريم، كما وصف لنا المشكلة، وحذرنا منها، فإنه كذلك يقدم الحلول الواقعية، والأدوية الناجعة، لمنع حدوث المرض، بل حتى علاجه إذا وقع، ومن خلال النظر في الآيات القرآنية ذات العلاقة، يتجلى بوضوح أن البلسم الشافي لعلاج شهوة حب المال، وإطفاء نارها من القلب، هو الإنفاق والصدقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فالصدقة بعمومها -واجبها ونفلها- مطهرة من دنس البخل، والطمع، والدناءة، والقسوة على الفقراء البائسين، وما يتصل بذلك من الرذائل[٢]، وتربي في النفس قيمة الشعور والمسؤولية تجاه الآخرين،

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٣٢٢. ١٠/ ٤١٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٠.

ومشاركتهم بما من الله عليه من مال هو بالأصل مالكه، امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

بمعنى آخر، فإن الصدقة تصحح بوصلة القلب نحو الآخرة، والتعلق بما هو باق، وتخلصه من رق كنز المال الذي هو فان.

وقد استعمل القرآن الكريم، الأساليب التشجيعية للحث على الصدقة؛ لأن إخراج المال ليس بالشيء السهل على النفس البشرية، وهذه الوسائل هي:

- الوقاية من عذاب النار، لقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨].
- مغفرة الذنوب ورفع الدرجات، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].
- مضاعفة الأجر والثواب، لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].
- ضمان دخول الجنة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].
- الأمان من الخوف، والحزن في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

ثالثًا: الأمل:

لقد ورد ذكر الأمل في القرآن الكريم مرتين اثنتين، هما:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وفسر الأمل في هذه الآية على أوجه عدة، هي[1]:

١. الطمع بهلاك النبي صلى الله عليه وسلم، وتمني هلاك ملكه وأمره.
٢. تقديرهم بامتداد حياتهم؛ ليبقى لهم الرياسة، والشرف، وذلك الذي كان يمنعهم من الإجابة عنه، والانقياد له.
٣. الطمع أن المشركين وآباءهم قد أصابوا الحق، فمنعهم ذلك الإجابة عن الآيات والحجج، والنظر فيها.

وجاء الأمل في موضع الذم مع تعقيب بالتهديد والوعيد؛ لأنه شغلهم عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ونسوا واجباتهم ومصائرهم الآخرة[2].

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٤٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن زمنين ٢/ ٣٧٩،

والتعبير القرآني، يصور الأمل بالمتحكم، بالقرارات والمسيطر على الأفعال، والحاجب عن رؤية الحق، حتى كأنه يحول صاحبه لمخلوق، همه الأكل، والتلذذ والتمتع، ويقول: هل من مزيد؟ يؤمل نفسه طول البقاء؛ ليزداد متعة، ولذة، فشابه الأنعام في أفعالها، ويمكن أن يطلق عليه، الأمل الكاذب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

الآخر: في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

في هذه الآية تعقد مقارنة بين ما هو باق، وما هو فان، بين الأمل الصادق، والأمل الكاذب، فيبين منطوق الآية أن المال والبنون وما سواهما من المتع، زينة للحياة الدنيا التي هي في النهاية فانية، ويعقبه بذكر الأمل الصادق الذي يفضي إلى منفعة حقيقة، ومصلحة متحققة في الدنيا والآخرة، موعود بها من صادق الوعد جل جلاله، وذكر الباقيات بعد الزينة دل على أنها ليست باقية[1].

وذهب كثير من العلماء، إلى أن المراد بالباقيات الصالحات، جميع أعمال الخير؛ لأنها تبقى لصاحبها يوم القيامة[2]، ففي الآية، توجيه إلهي لعباده المؤمنين، بضرورة الإكثار من أعمال الخير؛ لأنها الباقية الدائمة، متعددة النفع في الدنيا والآخرة.

رابعًا: التجارة والبيع:

أمر الله تعالى عباده بالسعي في الأرض، طلبا للرزق، والانتفاع مما هو مخلوق على وجه هذه الأرض، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويأتي هذا التوجيه الإلهي في إطار الحفاظ على عجلة الحياة في حركة دائمة منتجة، وتعد التجارة أبرز الأنشطة البشرية وقمتها في حركة الحياة؛ فهي قائمة على التبادلية بين منتج زارعٍ أو صانع، ومستهلك، وهي وسيلة عظيمة يستطيع الإنسان أن يحقق من خلالها الغنى والثراء، كما أنها تعد أحد أوجه القوة الفعالة المؤثرة في السياسات والقرارات الدولية.

ولما كان للتجارة هذا القدر من الأهمية، نبه الله تعالى إلى ضرورة الموازنة بين متطلباتها من مال، ووقت، وجهد، ومتابعة مستمرة، وبين الواجبات العبادية، فلا يطغى الجانب المادي على الجانب الروحي، ولا تهمل المعاملة مع الخالق في سبيل المعاملة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٣٣، تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٢٧. التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٣٧٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٣٤.

مع المخلوق. وذكر أن من صفات عباده المؤمنين عدم انشغالهم بمتطلبات التجارة عن الواجبات العبادية.

فقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[النور: ٣٧].

ولعل تخصيص التجارة بذلك، يعود إلى أنها أقوى الصوارف للإنسان، وأشدها عن الواجبات العبادية؛ فكثرة الحديث عن حال السوق، والبضائع، وأسعار العملات، وغيرها من متعلقات التجارة، تصرف عن طاعة الله وذكره حتى يخلو القلب من ذلك، كما أن أمور البيع مما يشغل التاجر عن صلاته، فيؤخرها عن وقتها أو يضيعها أو لا يؤديها حقها؛ بإقامة أركانها، وتحقيق آثارها، وهي مانعة عن إخراج الزكاة، لأنه ينظر إليها على أنها تنقص من ماله[(١)].

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل: لما كان البيع داخلًا تحت جنس التجارة، فلم أعيد ذكره في الآية؟

والجواب كما ذكر أهل التفسير: إن أثر البيع في الإلهاء أقوى وأعظم؛ لأن ربحه متيقن ناجز، وربح ما عداه متوقع[(٢)].

لذلك نجد التوجيه الإلهي، يوصي المؤمنين ترك البيع حال النداء لصلاة الجمعة، والسعي إلى حضور الخطبة، والصلاة التي تذكر بالله تعالى، فتملؤ القلب بتعظيمه، وإجلاله.

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[الجمعة: ٩].

«وأمر جل جلاله نبيه عليه السلام بأن يعظهم أن ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خيرٌ من فائدة التجارة ولذة اللهو. وكذلك ما أعد الله من الرزق للذين يؤثرون طاعة الله على ما يشغل عنها من وسائل الارتزاق جزاءً لهم على إيثارهم جزاءً في الدنيا قبل جزاء الآخرة، فرب رزقٍ لم ينتفع به الحريص عليه وإن كان كثيرًا، ورب رزقٍ قليلٍ ينتفع به صاحبه ويعود عليه بصلاح»[(٣)].

فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة: ١١].

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ٣٦٩، تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٨١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٢٩.

خامسًا: الانشغال بالمفضول عن الفاضل.

من صور اللهو الخفية التي تغيب عن بال الكثير من المكلفين، الانشغال بالمفضول من الأعمال الصالحة والطاعات على فاضلها، وهي حيلة يقصدها الشيطان إذا عجز عن جر ابن آدم إلى دوامة الدنيا ليغرقه في شهواتها وملذاتها، ويسعى بذلك إلى التشويش على المؤمن بإنقاص الأجر والثواب الذي يسعى إليه لنيل رضا الله تعالى[(١)].

ويعد الانشغال بالمفضول من الأعمال عن الفاضل، من اللهو الباطل، كما ذكر ابن حجر، تحت ترجمة كل لهو باطل فقال: «إذا شغله أي شغل اللاهي به عن طاعة الله أي كمن التهى بشيءٍ من الأشياء مطلقًا سواءٌ كان مأذونًا في فعله أو منهيًا عنه كمن اشتغل بصلاة نافلةٍ أو بتلاوةٍ أو ذكرٍ أو تفكرٍ في معاني القرآن مثلًا حتى خرج وقت الصلاة المفروضة عمدًا فإنه يدخل تحت هذا الضابط[(٢)].

وحتى يتجنب المؤمن الوقوع في مثل هذه الشراك الخفية،كان لا بد له أولًا، من السؤال الدائم لله سبحانه وتعالى، أن يرزقه البصيرة الدالة على الخير، وهذا لا يتأتى إلا بمتابعة النبي، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالى، ولرسوله، ولكتابه، ولعباده المؤمنين[(٣)].

سادسًا: الانشغال بما لا فائدة حقيقة فيه:

تتعدد صور الملهيات في الحياة الدنيا، والمحيطة بالصراط المستقيم تتخطف الناس ذات اليمين وذات الشمال، وإن كانت جميعها تشترك في الهدف، إلا أنها مختلفة في نتائجها؛ فبعضها يقصده الإنسان من أجل فائدة يحسبها دائمة، لكنها حقيقة سرعان ما تزول وتنتهي، إما عاجلًا أو آجلا، فعلى سبيل المثال، من يشتغل بجمع المال، ويفني عمره في سبيل ذلك، فإنه يتلذذ ببريقه، ومنافعه إلى حين أن يموت، وعندئذ تنتهي تلك اللذة، وتنقطع تلك المتعة، لكن، هناك من الملهيات ما لا فائدة تجنى من السعي خلفه، وهذه هي المصيبة الكبرى، والطامة العظمى؛ لأن هذا يدل على مستوى الانحطاط الفكري الذي وصل إليه هذا اللاهي.

وقد عرض القرآن الكريم، صورًا للهو الذي لا فائدة منه، من باب ضرب المثال لا الحصر، وهي الآتي:

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٦١.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٩١.
(٣) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٦١.

١. الانشغال بأساطير، وقصص الأمم السابقة.

وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

ويلاحظ أن القرآن الكريم يبين قبيح فعل الكفار، وسوء صنيعهم، حيث إنهم تركوا الكتاب الحكيم، وانشغلوا بما لا فائدة فيه، وهذه أقبح من الأولى[(١)].

ويندرج تحت هذا الباب، في هذا الزمان، كثير من المواد الإعلامية المرئية؛ كمسلسلات الدراما، والأفلام السينمائية، والمسابقات الغنائية، وغيرها، وفي هذا دلالة على خطر الإعلام في نشر الملاهي غير النافعة في المجتمع.

٢. الضحك والسخرية من المؤمنين.

وهذا منهج أهل النفاق والكفر على مر الأزمنة، لا يكاد يختلف إلا بالوسائل والآليات المستخدمة في سبيل ذلك، فيخبرنا القرآن الكريم عن ذلك، حين يقرع الكفار يوم القيامة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١٠].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣].

قال ابن عاشور: «كانوا يضحكون» يدل على أن ذلك صفةٌ ملازمةٌ لهم في الماضي، وصوغ يضحكون بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم وأنه ديدنٌ لهم[(٢)].

والمتدبر لآيات سورة المؤمنون يعقد مقارنة بين فريقين:

فريق أول: انشغل بعمل يرجو منه فائدة حقيقة، وهو تعبيد النفس لله، وتعلقها به.

وفريق آخر: أشغل نفسه بعمل لا طائل منه، ولا نفع، وهو السخرية والاستهزاء بالفريق الأول.

وأي فائدة تجنى من إطلاق سهام السخرية والاستهزاء نحو إنسان يسعى لهدف نبيل، لذلك يعقب الله تعالى بقوله عن نتيجة سخرية الكافرين: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

والجذر (ل غ و) يدل على أصلين:

الأول: ما لا يعتد به.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١١٥.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢١٠

والآخر: اللهج بالشيء[1].

فعلى الأول، يطلق اللغو على السقط، وعلى كل ما لا يحصل منه على فائدة أو نفع، سواء كان كلامًا أو غيره. يقال: شاة لغو أي لا يعتد بها في المعاملة[2].

وقد وضح البيهقي: مفهوم اللغو مع ضرب الأمثلة التي تزيد في بيانه وتفصيله، فعرفه بأنه: الباطل الذي لا يتصل بقيدٍ صحيحٍ، ولا يكون لقائله فيه فائدةٌ، وربما يكون وبالًا عليه[3].

وقسمه إلى عدة أقسام وهي[4]:

- أن يتكلم الرجل بما لا يعنيه من أمور الناس؛ فيفشي سرائرهم، ويهتك أستارهم، ويذكر أموالهم وأحوالهم من غير حاجةٍ به إلى شيءٍ من ذلك، عادة سوءٍ ألفها فلا يريد النزوح عنها.
- الخوض فيما لا يحل من ذكر الفجار، والفجور، والملاهي.
- الافتخار بالآباء الجاهلين، والتمدح بهم، والذكر للمعاملات المبنية على الاستطالة، ويكون فيه خوض المبطلين في القصائد فيما عندهم، وتفضيلهم إياه على ما عند غيرهم بالدعاوي، والتوسع في المقال في غير حاجةٍ.
- إنشاد الأشعار المقولة في ضروب الأكاذيب فيما لا يجدي على أهلها نفعًا في العاجل، ولا في الآجل والاشتغال بها تضييعٌ للزمان.

وقد امتدح الله عباده المؤمنين ببعدهم عن اللهو، واجتنابهم إياه، وعد ذلك سببًا من أسباب الفلاح، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١ - ٣].

كما أن الله تعالى جعله من صفات عباد الرحمن، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢].

في المقابل، فقد أخبر الله تعالى، أن الخوض في اللغو من صفات الجاهلين، كما ذكر على لسان عباده المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٥٥.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٦١.
(٣) شعب الإيمان ١٣/ ٢٦٧.
(٤) المصدر السابق.

اللهو بالدين

إن من الوسائل التي يتبعها أهل الباطل في حربهم على الحق، التعرض لثوابته بالسخرية والاستهزاء، واتخاذها لهوا ولعبًا، وما ذلك إلا لأجل هز صورة الدين في داخل قلوب المسلمين وزعزعتها، وتشكيكهم بثوابته وأصوله، فإذا ظفروا بذلك، سهل عليهم الولوج إلى الداخل؛ لتخريب هذا البناء وتشويهه، ومن ثم السيطرة على صاحبه، ليصبح أداة طيعة، ومسخًا مشوهًا ينفذ ما يملى عليه. والثوابت التي يتعرض لها أهل الباطل، هي:

١. القرآن الكريم؛ مصدر النصوص الشرعية.
٢. النبي صلى الله عليه وسلم مبلغ الدين، وشارح نصوصه، ومن قام مقامه من العلماء والصالحين.
٣. الشعائر والأحكام الدينية.

أولًا: اللهو بالآيات القرآنية:

القرآن الكريم حجة الله على عباده، فيه من الحجج والبراهين الدالة على ألوهيته وربوبيته ما لا ينكره كل ذي لب، وفيه من الأحكام والقواعد، ما ينظم مسيرة الحياة الإنسانية بيسر وسلاسة، لذلك يعده أهل الباطل خصمهم اللدود، وعدوهم الأول؛ لأنه يقوض مصالحهم وسياساتهم التي تحقق لهم الكثير من المنافع، وتجلب لهم الكثير من المتع وتضمن لهم الاستمرارية في التحكم بمصائر البلاد والعباد.

ولما كانت عقولهم وقواهم قاصرة عن الانتصار على هذا القرآن، ودحض حججه وبراهينه بالعقل والمنطق، فإنهم سلكوا سبلًا أخرى لمواجهته والصد عنه، ومنها:

- حمل الآية على غير معناها، ومرادها استهزاءً، كقول أبي جهلٍ لما سمع ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤]. تجاهل بإظهار أن الزقوم اسم لمجموع الزبد والتمر فقال: «زقمونا»، وقوله: لما سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر: ٣٠]: أنا ألقاهم وحدي[1]، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف: ٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩﴾ [الجاثية: ٩].
- وصف القرآن بأوصاف غير لائقة؛ كعدم صلاحيته للحكم، أو جور أحكامه وتشريعاته، أو نسبته إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم دون الله، لذلك جاء النهي الإلهي صارمًا وحازمًا للمؤمنين بعدم حضور المجالس

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٢.

التي يستهزأ فيها بآيات الله، وإلا عد الحاضر من المشاركين، وكان عليه من الوزر والإثم ما على المباشرين للفعل، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء: ١٤٠].

وذكر أهل العلم أن النهي عن القعود مطلقًا؛ بسبب ما تقتضيه المجالسة من المؤانسة، والمشاركة فيما يجرى من المحادثة في الغالب، وفي هذا تشجيع لأمثال هؤلاء بالدوام على هذا الأمر، وانتشار الظاهرة في المجتمع، لذا كان لا بد لمن حضر مجلسًا وقع فيه تحقير أو استهزاء بآيات الله ودينه؛ أن ينكر عليهم، ويقوم من فوره، حتى لا يكون مثلهم، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه[(١)].

ثانيًا: اللهو بالشعائر الدينية:

تعد الشعائر الدينية، التطبيق العملي للنصوص الشرعية، وتتمثل أهميتها في أنها تعكس مستوى الإيمان المخزون في القلب لدى الإنسان؛ فإذا ما شاب هذه التطبيقات خلل ما، ظهر أن هناك مشكلة حقيقية في الإيمان، ويتفاوت هذا الخلل بطبيعة المشكلة وحقيقتها، بمعنى؛ إن كانت طارئة أم دائمة، أم تمس أصل الإيمان أم لا.

وعند استقراء الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، ظهر أن اللهو بالدين يكون من أربعة أطراف رئيسة هي:

١. مؤمن نقص مستوى الإيمان في قلبه.
٢. منافق ادعى الإيمان باللسان، وقلبه فارغ منه.
٣. كتابيٌّ ادعى الإيمان، وفعله مخالف له.
٤. كافرٌ انتفى الإيمان من قلبه بالكلية.

فالطرف الأول وجه إليه الخطاب الإلهي مضمنا بالتهديد والوعيد في سياق بيان حكم الطلاق حثا للمسلمين على احترام صلة الزوجية، وعدم الاستقواء على النساء لضعفهن، والحذر من اتخاذ مسألة الطلاق لهوا ولعبا كما كان عليه أهل الجاهلية[(٢)].

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١].

والآية الكريمة، وإن تناولت حكمًا شرعيًا إلا أن النهي ينسحب على جميع الأحكام الشرعية، واللهو المنهي عنه يتخذ صورتين، هما:

- المعصية للأمر وترك العمل به، وتفصيل ذلك أن من رضي بالله ربًا وبمحمد نبيًا

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ١٥٥.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣١٥.

وجب عليه طاعة أمرهما وما يصدر عنهما من توجيهات وأحكام، فإذا ظهر منه خلاف ذلك كان كالمستهزئ بها، إذ كيف يدعي الطاعة ثم لا ينفذ؟![1].

- التسامح في أداء التكاليف، كما يتسامح فيما يكون من باب الهزل والعبث، جريًا على عادةٍ منتشرةٍ في المجتمع، أو مصلحةٍ توافق الهوى، أو شهوةٍ متمكنةٍ من القلب، فهو يعامل تكاليف الله معاملة تكاليف البشر[2].

ويمكن استخلاص أمر مهم من هذه الآية، وهو أن الموجه الفعلي للتصرفات والسلوكيات، إنما هو الإيمان الذي وقر في القلب، وليس الأهواء، والشهوات، أو العادات التي تلبسها المرء في زمنٍ ما من حياته. كما أن صدق الإيمان من ضعفه، يظهر عند تطبيق الأحكام الشرعية، وبخاصة إذا كانت فيما يتعلق بحقوق العباد.

أما بقية الأطراف، من منافقين، وأهل كتاب وكفار، فقد وجه الخطاب الإلهي للمؤمنين بالنهي عن اتخاذهم أولياء للهوهم في الدين، واستهزائهم به، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ۝٥٨﴾ [المائدة: ٥٨].

ويمكن حصر صور اللهو في التشريعات الدينية، بما يأتي:

- إظهار المودة والاحترام للإسلام باللسان، واستبطان الكفر[3]، كقول الله تعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٤﴾ [البقرة: ١٤]. فكانوا يقولون: لعبنا بعقولهم، وضحكنا عليهم[4]، أو أداء الشعيرة على سبيل اللهو واللعب، كما كان المنافقون يتضاحكون، ويلعبون عند القيام إلى الصلاة تنفيرًا للناس عنها[5].

- تكذيبهم واستخفافهم بالإسلام، وأحكامه كاستهزاء الكفار، وأهل الكتاب بالصلاة أو النداء، فبعضهم ينعت الأذان بصياح العير، وآخرون يتندرون إذا رأوا صلاة المسلمين[6].

- اعتقادهم أن لا فائدة في التشريعات الدينية، ولا منفعة منها في الدنيا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٥٣.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣١٥.

(٣) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٤٤٠.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٠٢.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨.

(٦) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ٤٤٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨.

والآخرة، فيزعمون أن مصدرها البيئة المحيطة، أو الأعراف السائدة في الزمن الغابر، فيجب إلغاؤها، واستبدالها بما هو أنسب وأفضل[1].

ثالثًا: اللهو بالشخصيات الاعتبارية:

التعرض للشخصيات المهمة بالأذى والسخرية منهج قديم حديث، يسلكه أهل الباطل في مواجهة أهل الحق والصلاح؛ لصرف الناس عنهم، وتنفيرهم من دعوتهم، ولا يلجأ أهل الباطل إلى هذا الأسلوب، إلا لعجزهم عن دفع الحق وحججه الدامغة، فقال تعالى مسليًا نبيه عليه السلام: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

ولأنهم اتخذوه منهجًا، فقد صار جزءًا من حياتهم لا يفارقهم، حتى إنهم نسوا مقابل ذلك المقصد من خلقهم، فما عادوا يتفكرون ولو للحظة عل عقولهم تتنبه، وقلوبهم تستيقظ.

فقال تعالى واصفًا ذلك: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠﴾ [المؤمنون: ١٠٩-١١٠].

وتنوعت صور اللهو والسخرية الموجه نحو شخوص الأنبياء؛ فاتهموهم بالجنون، والكذب، والضعف[2].

فقالوا عن نوح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥﴾ [المؤمنون: ٢٥].

وقالوا عن هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

وغير ذلك من الأمثلة كثير.

ولم يختلف الأمر بشأن النبي صلى الله عليه وسلم فقد واجه الاستهزاء والسخرية من كل الأطراف التي عايشها في مكة والمدينة، من أهل الشرك، والكتاب، والنفاق؛ ففي مكة كان يتعمد كفارها إظهار السخرية من شخصه الكريم، فقد كان يقول بعضهم لبعض: أهذا الذي يذكر آلهتكم؟ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وسبب نزول هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على أبي سفيان، وأبي جهل، وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل، ضحك. وقال لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف، فغضب أبو سفيان، فقال: ما تنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي، فسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فرجع إلى أبي جهل،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨٨.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٧٣.

فوقع به، وخوفه، وقال: (ما أراك منتهيًا حتى يصيبك ما أصاب عمك)، وقال لأبي سفيان: (أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية)[1] .

والظاهر أن المشركين يرمون من اتخاذهم النبي صلى الله عليه وسلم مادة للعبث، واللهو، بصورة علنية لهدفين: الأول ضرب الروح المعنوية للنبي لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣][2]، الآخر: إدخال الشك في قلوب الناس حول صواب ما يدعو إليه.

وفي المدينة المنورة كان اللهو من جماعة المنافقين بمحاولة إظهار النبي عليه السلام -وحاشاه- بصورة الغر الساذج الذي يتلقف المعلومة دون تمحيص، أو اختبار، فيقبلها، ويصدقها. فقالوا هو أذن[3] .

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١].

قال ابن عباس: نزلت الآية في جماعة من المنافقين، منهم: جلاس بن سويد، ومحشر بن خويلد، وأبو ياسر بن قيس، وذلك أنهم كانوا ينالون من رسول الله عليه السلام، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه الخبر. فقال الجلاس: نقول ما نشاء، فإنما هو أذنٌ سامعة ثم نأتيه فيصدقنا[4].

ويسعى المنافقون من وراء هذا الاتهام، إلى تحقيق هدف خبيث، وهو النيل من ثقة النبي عليه السلام والطعن فيما ينقله ويبلغه، فلربما نقل أخبارًا زعم أنها من القرآن، وهي ليست كذلك، وعندئذ تتضعضع ثقة الناس به، فلا يستجيبون له، وهذا يوضح لنا حقيقة مهمة، وهي تبادلية الأدوار بين أهل الكفر والنفاق، وتنوع الأساليب المستخدمة في الهجوم على أهل الصلاح والعلم، ومحاولة زعزعة ثقة الناس بهم، وضرب مصداقيتهم.

ولم يتوقف منهج اللهو والاستهزاء عند الأنبياء، بل شمل أتباعهم من المؤمنين، وعادة ما يلجأ أهل الكفر والنفاق إلى التركيز في استهزائهم على أمور دنيوية لا يملك المؤمن شأنًا من أمرها؛ كالفقر، واللون، والمرض، وقد وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[البقرة: ٢١٢].

وذكر الرازي أسبابًا متعددة لنزول الآية، تشترك كلها في استهزاء أهل الكفر والنفاق من فقراء المسلمين وضعفائهم[5]، كذلك نجد المنافقين يستهزؤون من تسابق المسلمين للطاعات، ويشككون

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٥١٨.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٦.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٦٧.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٦/ ٣٦٧.



في نواياهم، ودوافعهم لفعلها، فينعتونهم بالرياء، أو طلب الشهرة، أو الغباء، وغير ذلك من الأوصاف.[1] كما قال تعالى، واصفا حال المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة: ٧٩].

وسبب نزول هذه الآية، كما أخرج مسلمٌ، عن أبي مسعود الذي قال: أمرنا بالصدقة- قال: كنا نحامل، في رواية: على ظهورنا- قال: فتصدق أبو عقيل بنصف صاعٍ. قال: وجاء إنسانٌ بشيءٍ أكثر منه فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياء.[2]

والظاهر أن الدافع لذلك يكون شعور الكفار والمنافقين بالغيرة والحسد من المسلمين، أو نقص داخلي ومرض قلبي لا يستطيع المنافق الانفكاك عنه فيعبر عنه برمي الآخرين بالنقائص والسيئات.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١١١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحمل بأجرة يتصدق بها، والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل، رقم ١٠١٨.

الملهى عنه

اللهو عبارة عن عملية تفاعلية يشترك فيها طرفان: قلب الإنسان ملك الحواس والجوارح، وأحد الملهيات، تؤدي إلى الانشغال عن مقاصد مهمة خلق الإنسان من أجل تحقيقها، فتكون النتيجة انحراف الإنسان عن صراط الله تعالى المستقيم إلى سبل الشيطان، مما يؤدي إلى ظهور الكثير من الآثار السلبية التي تنعكس على حياة الفرد والمجتمع.

وبعد استقراء للآيات القرآنية نستخلص أن الملهى عنه لا يخرج عن أحد المقصدين:

الأول: مقصد عاجل في الدنيا، والذي من أجله خلق الخلق، وهو العبادة لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الآخر: مقصد آجل في الآخرة والذي يرتبط به المصير النهائي لكل مخلوق، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

أولًا: اللهو عن العبادة:

وصف الله سبحانه وتعالى ذاته العلية، في أكثر من موطن في القرآن الكريم، بالحكمة، وتجلت هذه الحكمة في مقصده من خلق المخلوقات جميعًا، وما أوكل من وظائف لكل صنف منها، فما خلقها سدى

ولا عبثًا، بل خلقها بالحق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الحجر: ٨٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الدخان: ٣٨].

ومن أجل هذه المخلوقات وأشرفها، الإنسان الذي حصر الله مهمة وجوده بالعبادة، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وذلك إنما يدل على أهميتها، ومنزلتها العظيمة، فهي العهد القديم الذي أخذه الله من الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهي النداء الأول في كل رسالة بعثها الله لبني البشر، فما خاطب نبيٌّ قومه إلا ابتدأهم بقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③﴾ [نوح: ٣][1].

وهي الأمر المؤكد عليه في القرآن الكريم لبني البشر في مواطن كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ⑨⑨﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال أيضًا: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[يس: ٦١].

والمراد بالعبادة التي أمر بها الإنس والجن، أنها «اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار، والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة»[2]

إذن فالعبادة بهذا التصور، أفقٌ رحبٌ، ودائرة واسعةٌ تشمل الشعائر الدينية الواجبة والتطوعية، ومنظومة الأخلاق والفضائل الإنسانية، وكذلك العلاقات الاجتماعية القريبة والبعيدة، وتشمل كذلك الأخذ بالأسباب كما قال ابن تيمية: «فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة»[3].

فالنتيجة هي أن العبادة عبارة عن حركة الفرد والمجتمع بثبات واتزان، نحو هدف واضح المعالم مصحوبة بأفق واسع، يسودها المشاركة والتعاون في البناء والإعمار، لتحقق الصلاح العاجل، والآجل[4].

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص٢٠-٢٣.

(٢) العبودية، ابن تيمية ص٤٤.

(٣) المصدر السابق ٧٠.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٨٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٧.

صور اللهو عن العبادة:

تعددت المواضع القرآنية التي وردت فيها التحذيرات الإلهية، والتوجيهات الربانية، من الانزلاق في دوامة اللهو على حساب مقصد الخلق، وهو العبادة، وتنوعت الآيات الدالة على ذلك ما بين توجيه للمؤمنين إلى ضرورة المضي قدمًا لتحقيق مقصد وجودهم، وتهديد ووعيد للكافرين الذين انصرفوا يلهثون خلف شهواتهم، ونزواتهم متشاغلين لاهين عن سبب خلقهم ووجودهم، فوصفهم الله تعالى قائلًا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾[محمد: ١٢].

وانحصرت صور الملهى عنه، بالأمور الآتية:

١. اللهو عن ذكر الله تعالى.

وجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى المحافظة على الصلة به، وطريق ذلك دوام ذكره سبحانه وتعالى، في كل الأحوال، والهيئات، واستحضار عظمته، وقدرته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

[المنافقون: ٩].

وذكر الله تعالى، عام في كل ما يذكر الإنسان بربه، ويبقيه على صلة به، سواء كان الصلوات الخمس أم قراءة القرآن وتدبر آياته، أم الدعاء، أم الجهاد في سبيل الله[1]، فهو يعين على الخضوع الكامل، والاستسلام التام لأمر الله تعالى المصاحب بالتعظيم، والامتنان والافتقار إليه سبحانه وتعالى، وذلك له أثر مهم على الإنسان في تصحيح مساره دائمًا، نحو تحقيق مراد الله تعالى من الاستخلاف في هذه الأرض.

وقد امتدح الله تعالى، عباده المؤمنين بالثبات على الصراط المستقيم، دون أن يشغلهم شيء من متع الدنيا عن طاعته، وعبادته، فقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[النور: ٣٧].

ووجههم إلى ديمومة ذكره، والإكثار منه، والاحتراس من الانصباب، في أشغال الدنيا انصبابًا ينسي ذكر الله، أو يشغل عن الصلوات؛ لأن الفلاح يكون في الإقبال على مرضاة الله، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الجمعة: ١٠].

والانشغال عن ذكر الله تعالى، بعمومه هو حال أهل الكفر والضلال، فقلوبهم لاهية عن تعظيم الله وشكره على نعمه، منصرفة عن تنفيذ أمره، غارقة في متع

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٥٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٥٠.

الدنيا وملذاتها، فصار مقصد حياتهم إشباع رغباتهم، والتلذذ بمتع الدنيا، وليس لهم همٌّ سوى ذلك، فجعلهم الله تعالى في مصاف البهائم والأنعام، وتوعدهم بعذاب أليم يوم القيامة[1] فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقال أيضًا: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

٢. اللهو عن الصلاة.

الصلاة هي الرباط المتين الذي يربط العبد بربه، وهي أرفع صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر؛ لأنها تعبر عن حالة الذل، والخضوع، والافتقار التي يتلبسها الإنسان ظاهرًا وباطنًا تعظيمًا لله تعالى الذي منحه من النعم ما لا يعد ولا يحصى[2]، فقال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وهي الناهية للإنسان عن فواحش الأمور ومنكراتها، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إذن هي المقومة لأفعاله وأقواله، الموجهة له نحو الخير والفضيلة.

واللهو عن الصلاة، تضييع لجميع ما سبق ذكره من الخير، ويكون على الصور الآتية:

- تضييع الجماعات أو تأخير الصلوات عن أوقاتها[3].
- الإخلال بشروطها وأركانها[4].
- الإنشغال عن خطبة الجمعة، وما فيها من تذكير بالنعم، وحثًا على استدامتها[5].

٣. اللهو عن الزكاة.

تمثل الزكاة إحدى وسائل التطهير القلبية، والتزكية النفسية للعبد من الأمراض المنضوية على حب المال، والتعلق به، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وتعد الوقاية من الشح، سببًا من أسباب الفلاح، كما أخبر تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وحب المال والتعلق به، من أمات الخطايا التي تدعو صاحبها إلى الشح المهلك الباعث على حفظ المال وجمعه وازدياده وصيانته عن ذهابه في النفقات، وفي سبيل ذلك يتولد اللهو عن الإنفاق بالمعنى العام، والزكاة بالمعنى الخاص، وبهذا يكون قد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٦٤.
(٢) انظر: محاسن الشريعة، القفال ١/ ٢١٩، حجة الله البالغة، الدهلوي ١/ ١٣٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٤٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٧.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٢٢٢.

شغل بجمع المال، والاستزادة منه وكنزه، على حساب الواجب العبادي المفضي إلى المحافظة على التآلف الاجتماعي.

٤ . اللهو عن القرآن الكريم.

القرآن كتاب الله الهادي إلى الصراط المستقيم، والدال على السبل الموصولة إلى الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، العاصم من الزلل والزيغ، الحافظ من الضلال، ولا يكون ذلك إلا باتباع هديه، وتطبيق توجيهاته، دلت على ذلك نصوص كثيرة من القرآن والسنة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

واللهو عن القرآن الكريم، عبر عنه (بالهجر) لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله مبينا معاني الهجر الواردة في هذه الآية: هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء و التداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به[1].

والتركيز على الأمور سالفة الذكر، لا يعني حصر اللهو فيها إنما فيه إشارات مهمة أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر المؤمنين إليها، وهي على النحو الآتي:

- من انشغل عن حقوق الله، ولهى عنها كان عن غيرها أشغل.
- الأمور المذكورة، هي لب الأمور ورأسها، وهي شرائع تعلم العبد ترتيب الأولويات، والانضباط نحو تحقيق الهدف، فإذا شغل عنها كان إلى تضييع تحقيق المراد أقرب.

ثانيًا: اللهو عن الحساب وتبعاته:

من الحقائق المهمة التي تغيب عن قلب الإنسان وعقله، أن وجوده في هذه الحياة، إنما هو مؤقت بزمن محدد ومهمة معلومة، فإذا انتهى هذا الزمن انتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، للحساب على ما أنجز

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٨٢.

في حياته الأولى، لذلك ينبه القرآن في مواطن كثيرة إلى ضرورة التنبه إلى هذه الحقيقة، وعدم الغفلة عنها، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾[فاطر: ٥].

لكن الواقع في حياة الكثيرين، يدل على الغفلة عن ذلك اليوم، وعدم الاستعداد الحقيقي لما بعد الموت، يصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ ﴾[التكاثر: ١ - ٢].

والآية وإن نزلت في حق أهل مكة حين أشغلهم تكاثرهم بالمال والعدد حتى صاروا من أصحاب القبور، فإن هذا حال الكثيرين ممن هم على ظهر هذه الأرض[(١)].

وسبب غفلة الإنسان عن يوم المعاد يرجع إلى أمرين مترابطين ارتباطًا وثيقًا كلما ارتفعت وتيرة الأول ازدادت وتيرة الآخر، وهما: الغفلة عن ذكر الموت وأحواله، والاغترار بالحياة الدنيا وطول الأمل.

وتتمثل خطورة الغفلة عن ذكر الموت والحياة الآخرة، أنها تؤثر في حياة الإنسان الفكرية، والنفسية، والخلقية، سلبًا؛ فتدفعه إلى التمتع بملذات الحياة الدنيا، والإغراق فيها، بل يتعدى الأمر للخروج عن المتع المألوفة للفطرة السليمة السوية، إلى تناول قبائح المحرمات والجرأة عليها، لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤ ﴾[المؤمنون: ٧٤].

كما أنها تربي في قلب صاحبها صفة الكبر الذي ينكر كل ما يخالف هواه، ويرفض ما لا تهواه نفسه، لقوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾[النحل: ٢٢].

ومرد ذلك سببه الاعتقاد، عدم وجود حساب عن كل هذه الأفعال أو مساءلة، فإنما هي حياة، ثم موت، وفناء، هذا هو تفكير الكفار، ويبدو جليًا في الآية الكريمة: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾[المؤمنون: ٣٧].

فهذه الآية جاءت على لسان الكافرين، فأمثال هؤلاء متوعدين بالجزاء من جنس عملهم، وهو نسيانهم في نار جهنم، لقوله جل جلاله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١ ﴾[الأعراف: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٠].

(١) جامع البيان، الطبري ٣٤/ ٥٧٩.

علاج اللهو

لا بد لكل مرض علاج، ولكل داء دواء، فما أنزل الله من داء إلا أنزل معه شفاء!وأعظم دواء في العلاج، وأنجعه، وأكثره فعالية ما تنزل به القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ويتميز المنهج القرآني في علاج الإنسان؛ بقوته وفعاليته، فهو يقوم على انتزاع حب الدنيا المتجذر في القلب، مع تحجيم اندفاع الإنسان نحوها للاستزادة من لذائذها، ومتعها بما يؤدي إلى إلغاء طول الأمل لديه.

ويقوم العلاج القرآني على ركيزتين رئيسيتين، هما:

الأولى: علاج نفسي تربوي.

الثانية: علاج تطبيقي عملي.

أولًا: العلاج النفسي التربوي:

والمقصود بذلك، معالجة سلوكيات الأفراد المصابين بمرض اللهو من خلال إبطال المعتقدات الخاطئة الراسخة في عقولهم عن حقيقة الدنيا، وزيف متاعها وملذاتها، وعقوبة المخدوع بها، في المقابل يؤصل لمفاهيم جديدة، حول الحياة الأخرى، ودوام نعيمها، وجزاء العامل لها، مثال ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

واتبع القرآن الكريم، في هذا الشق العلاجي، مخاطبة العقل؛ لكونه محل إدراك ماهية الأمور، والقادر على التمييز بين صحيحها وسقيمها، ونافعها وضارها، والموجه إلى الصراط المستقيم، والمصحح حال الزيغ والضلال، وقد استعمل القرآن في مخاطبة العقل، الأمور الآتية:

١ـ المقارنة بين الحياة الدنيا، والحياة الآخرة.

فقد وردت هذه المقارنة في القرآن الكريم، ثلاث مرات:

الأولى: قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وتركز هذه الآية، على مفهوم الحياة الحقيقية، وذلك من خلال استعمال لفظة «الحيوان»، بمعنى الحياة الباقية التي لا حياة سواها، وهذا منبه مهم وفعال يساعد على لفت انتباه الإنسان نحو هذه الحياة، وتنفيره من الحياة الدنيا الزائلة، ومنع الاستغراق فيها[(١)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٧٥.

الثانية: قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

ويلاحظ أن المقابلة في هذه الآية، هو بين نعيم الدنيا والآخرة، فنعيم الدنيا لعب ولهو يتشاغل به المتشاغلون عن الأكدار والهموم، وهو في نهاية المطاف فانٍ، في حين يكون نعيم الآخرة زمنه مديد ونعيمه مستمر[١].

الأخيرة: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ [محمد: ٣٦].

والسياق الذي وردت فيه هذا الآية ينضوي على تنبيه مهم للإنسان، وهو الحذر من أن تكون الحياة الدنيا صارفة عن الواجبات المفروضة، ويراد بالواجب هنا الجهاد في سبيل الله، وفي السياق أيضًا، إشارة إلى الحياة الدنيا إذا عمرت بالإيمان والتقوى، حملت خيرًا كثيرًا[٢].

والفهم الخاطئ لهذه الآيات، يتسبب بإشكال ينتج عنه فكرين متضادين:

أحدهما: الدعوة للزهد في الدنيا، والانصراف عن الانتفاع بخيراتها، مما ينتج عنه معاداة لكل المظاهر الدنيوية، ويصل الأمر إلى محاربة الحاجات الفطرية عند الإنسان، فيؤدي إلى التخلف، والجمود، والجهل، ولعل أبرز مثال على ذلك، ما أورده القرآن الكريم، وهو الرهبانية التي ابتدعها النصارى، فقد قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾[الحديد: ٢٧].

والثاني: يهاجم الدين ويعاديه ويتهمه بالتحجر والتسبب بالتخلف والرجعية، وينتج عن هذا الاستغراق في متع الدنيا ولذائذها، وهجر كل ما له صلة بالدين، وخير مثال على ذلك من الزمن الماضي الثورة على الكنيسة في أوروبا والتحلل من كل القيم والمعتقدات الدينية.

والخلل كما أسلفت، إنما هو في الفهم والسلوك الذي يترتب عليه، وقد قدم القرآن المنهجية الواضحة الصحيحة في كيفية التعامل مع الدنيا، وجاء ذلك على لسان الصالحين من قوم قارون حين قدموا له النصح قائلين: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وعلق سيد قطب على هذه الآية قال: والقرآن لا يعني بهذا أن يحض على الزهد في متاع الحياة الدنيا والفرار منه وإلقائه بعيدا. إن هذا ليس روح الإسلام ولا اتجاهه.

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٠٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٣٣.

إنما يعني مراعاة الآخرة في هذا المتاع، والوقوف فيه عند حدود الله. كما يقصد الاستعلاء عليه فلا تصبح النفس أسيرة له، يكلفها ما يكلفها فلا تتأبى عليه! والمسألة مسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح. فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها، مالكا لحريته معتدلا في نظرته: الدنيا لهو ولعب، والآخرة حياة مليئة بالحياة[1].

٢. ضرب الأمثلة القرآنية.

من ذلك تشبيه الحياة الدنيا بالزرع الذي لا يفتأ أن يكبر ويخضر، وتزهو ألوانه، حتى يصفر ويتحطم، وقد ورد هذا النوع من الأمثال التشبيهية، في أربعة مواضع من القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[يونس: ٢٤].

وتكمن أهمية هذا المثل القرآني، في أنه يصور الحياة الدنيا تصويرًا حسيًا واقعيًا، قريبا إلى العقول والقلوب، يراه الناس في كل مكان من هذه الأرض، وقد بينا ابن القيم وجه التمثيل في هذا المثل القرآني، فقال: شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر، فتروقه بزينتها وتعجبه، فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها، قادر عليها، سلبها بغتة، أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها[2].

ثانيًا: العلاج التطبيقي العملي:

تظهر نجاعة العلاج القرآني، في معالجة الأخطاء والسلوكيات السلبية في التكامل التام، والانسجام الكامل في الخطط المقدمة لعلاجها، فهو يردفها بالتطبيقات العملية المساعدة على التخلص من كل ما من شأنه أن يؤثر سلبا في مقصد وجود الإنسان على هذه الأرض، وتقوم الخطط العلاجية العملية على ثلاثة محاور:

١. الإنفاق.

أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإنفاق، وحثهم عليه قبل مداهمة الموت لهم، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾

[المنافقون: ١٠].

ويعد الإنفاق من أنجع وسائل التربية إذ يقوم على ركيزتين مهمتين، هما: التطهير

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٥١.

(٢) الأمثال في القرآن، ابن القيم ص١٢.

والتزكية، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فالتطهير يزيل من النفس مرض الأنانية والذي يتجسد بجمع المال وكنزه، واحتكاره لصالح أفراد معينين، ثم صرفه في وجوه العبث، واللهو بلا هدف نافع.

والتزكية ترسخ مبدأ التعاونية، والشعور بالآخر من خلال توجيه استعمال المال في منفعة البشر ودوام تطورهم، واستخدم القرآن في سبيل تعزيز الإنفاق الأساليب الآتية:

- التذكير بأن المال هو ملك لله وعاريته وهبه الله لبني البشر من أجل استعماله في تحقيق مقصد العبادة، ورد ذلك في مواضع متعددة في القرآن الكريم، فمن ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]. وقوله أيضًا: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠]. فها هو ذا يقول أبو السعود: إضافة المال إليه تعالى ووصفه بإيتائه إياهم للحث على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به فإن ملاحظة وصول المال إليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقي له من أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. وفي هذه الآية تنبيه الغافلين بأن ما يجري في أيديهم من أموال، إنما هو لله تعالى، جعل الناس خلائف عنه في التصرف فيه مدة ما، فلما أمرهم بالإنفاق منها على عباده، كان حقا عليهم أن يمتثلوا لذلك[(٢)].

- التحذير من عواقب كنز المال، وخزنه على الفرد في الدنيا والآخرة، فخازن المال تقتله الحسرة والندامة على تقصيره في الإنفاق، فيتمنى الرجعة حتى ينفق لما يرى من الثواب الذي فاته: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]. ويوم القيامة يذوق ألم الكي بالأموال المكنوزة التي كان يتلذذ بجمعها، ويحرم الفقراء من التمتع بشيء منها، فقال جل جلاله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

٢. **مصاحبة الصالحين، والابتعاد عن اللاهين، ومقاطعة مجالسهم.**

فالإنسان بطبعه مدني، فطره الله تعالى

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٧٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٦٩.

على حب المخالطة والنفور من الوحدة، والبيئة التي ينشأ فيها الإنسان تؤثر فيه سلبًا أو إيجابًا، لذلك،كان للصحبة أثر مهم جدًا في حياة الإنسان؛ فهي إما أن تكون عائقةً عن الخير مثبطةً عنه، داعمةً للشر، ومحفزة عليه، لذلك جاءت التوصيات الإلهية للنبي عليه السلام والمؤمنين من بعده بلزوم الرفقة الصالحة المقبلة على الله دومًا، الذاكرة له في كل الأوقات، لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٢٨].

كما تعددت التوصيات الآمرة بالابتعاد عن الغافلين اللاهين، لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[النساء: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله أيضا: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

وها هو ذا الإمام الغزالي، يقول: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد ومخالته تزهد في الدنيا؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدرى»[(١)].

٣. **التذكير الدائم بعاقبة اللهو الدنيوي والأخروي.**

وفي ذلك فوائد منها إقامة الحجة على المعرضين، الثاني: إيقاظ النفس من غفلتها وسباتها، والأخير: تقوية الإيمان وزيادته في القلب.

لقد اتخذ التذكير في القرآن الكريم، صورًا عديدةً، هي:

- السير في الأرض، للاعتبار من مصير اللاهين.

قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٦٩﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾[الروم: ٩].

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري ٨/ ٣١٤٢.

والسير في الأرض يترك أثرا كبيرًا في القلب؛ لأنه يقرب المشاهد الواقعية من الإنسان، فيرى بأم العين ما حل بالأمم التي استغرقت في ملذاتها وشهواتها، مما يجعله يعيد حساباته من جديد حول أسلوب حياته وطريقتها[1].

- التذكير بالموت وما بعده.

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [الأنعام: ٧٠].

وهذا له الأثر البالغ على النفس حين يعلم أنه سيغادر هذه الدنيا صفر اليدين كما دخلها، ويعزز هذا الشعور إذا شيع جنازة أو زار قبرًا، كما أن التذكير بيوم الحساب يردع النفس عن غيها، وإغراقها في المتع والملذات؛ لإدراك الإنسان أنه محاسب على أقواله وأفعاله.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٠.

عاقبة اللهو

اللهو داء خطير، ذو عواقب سيئة، تمتد آثارها السلبية، لتشمل الإنسان في حياته الدنيا وفي الآخرة، وذلك على النحو الآتي:

أولًا: عاقبة اللهو في الدنيا.

تتعدد صور الخسران الدنيوي الذي يلحق باللاهي، سواء كان فردا أو جماعة، ومن ذلك:

١. اللهو يؤدي إلى سلب صفة التكريم الإلهي التي وهبها الله تعالى للإنسان، بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

بيان ذلك أن هم اللاهي في الحياة الدنيا، ينصب نحو التمتع والتلذذ بما خلق الله، وأوجد على الأرض من غير أن يصاحب ذلك تحقيق أهداف ذات أثر جيد على الأرض، فيصبح شأنه شأن أي حيوان موجود على هذه الأرض، وقد وصف الله تعالى الكفار، ومن خطا خطاهم، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] بل عدهم الله تعالى أقل درجة من الحيوانات، وأدنى رتبة منها، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

يقول سيد قطب: «إن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة، المتلقاة من الله خالق الحياة، فإذا فقد هذا كله، فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله»[1] .

٢. اللهو يؤدي إلى اندثار الأمم وزوالها.

وليس بالضرورة أن يكون ذلك بسنة كونية كزلزال، أو بركان، أو غيرها من الظواهر الطبيعية التي خلقها الله تعالى إنما المراد بذلك أن أي تجمع بشري لا يضع نصب عينيه المضي نحو أهداف حقيقية نافعة تقود نحو الرفعة والرقي، وينشغل بسفاسف الأمور، وأرذلها، فإنه حتما سيسقط في القاع ويهلك، وكم أخبرنا القرآن الكريم عن أمم خلت، قد هلكت، واندثرت لسلوكها سبيل اللهو؛ فعلى سبيل المثال، أخبرنا الله تعالى،عن قوم هود الذين كان همهم بناء الأبنية الشاهقة، والقصور الفارهة، لا لهدف سوى العبث، فقادهم ذلك إلى فساد أحوالهم، فأهلكهم الله تعالى، وقال عنهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

وقد عاب الله تعالى على من ترك خطبة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وما تحمله في طياتها، من علوم عظيمة نافعة، في سبيل اللهو والتجارة[2] .

فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ١١].

٣. اللهو بالأحكام، والقواعد، والتعاليم، بحسب الأهواء، والشهوات، يؤدي إلى فوضى عارمة، تقود المجتمع إلى حياة الغاب.

وبالتالي غياب الأمان والاطمئنان، واندثار معاني الإنسانية من نفوس البشر، وبيان ذلك من وجهين: الأول: أن اللهو بالأحكام والتشريعات، نابع من توجهات بشرية، تسعى لتحقيق منافع شخصية، وهذا يؤدي إلى انتشار الأنانية، وضيق الأفق، وانعدام الرؤية الواضحة، واختلال البوصلة التي توجه نحو الهدف المقصود فتكون النتائج كارثية على الفرد والمجتمع؛ لأن معنى ذلك فوضى عارمة تجتاح حياة الإنسان، والمجتمع من حوله، والآخر: اللهو بالأحكام معناه فوضى تبدأ من تخلي

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٢٩.

الإنسان عن الخضوع لربه، وتنتهي بتحلله من كل القيم الأخلاقية، والفضائل الإنسانية وقيمها، فتقوده بذلك إلى هاوية الهلاك والدمار في الدنيا بالتشتت والاضمحلال، والانطوائية والعداوة والبغضاء، كما أخبرنا تعالى عن حال اليهود والنصارى، بعد تحريفهم لتعاليم دينهم، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

٤. التبعية والخضوع لإرادات الأمم الناجحة والقوية.

فالأمة التي تعيش لتحقيق هدف حقيقي ما، تبذل كل ما في وسعها، وتسعى بكل جهدها للوصول إليه، وهذا يعني تحقيق كثير من الإنجازات خلال تلك المسيرة، في حين تكون الأمة اللاهية أمة بلا هدف حقيقي؛ لأن الحركة -التدافع- من السنن الإلهية التي تحكم هذا الكون فالضعيف يتبع القوي، والأمة اللاهية أمة ضعيفة لا بد لها أن تتبع الأمة القوية.

٥. اللهو يضيع البركة والثواب من حياة اللاهي.

فالأعمال النافعة تلقي بظلالها الوارفة على حياة الأفراد والمجتمعات، في حين يؤدي الانشغال بتوافه الأمور وسفاسفها على حساب العبادة إلى الخسران الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن ما عنده خير من كل متاع الدنيا، فقال: ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

ثانيًا: عاقبة اللهو في الآخرة:

لا تتوقف عقوبة اللهو على حدود الحياة الدنيا، بل تمتد إلى الحياة الأخرى وتنتقل إليها، وسبب ذلك أن الحياتين مرتبطتان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا؛ فالأولى دار عمل، والأخرى دار حساب، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

فمن لها عن وظيفته الموكلة إليه في الدنيا، وقصر فيها، ناله ما يناسبه من العقاب يوم القيامة من الحكيم العليم، وجاءت صور الخسران الأخروي، على النحو الآتي:

١. الترك في النار من غير رحمة، ولا إجابة دعوة[1].

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٥٣.

﴿دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

وهذا العذاب من باب المعاملة بالمثل؛ فكما أنهم تناسوا هذا اليوم، ولم يفتقدوه بالاستعداد له، لا يفتقدهم أحد، ولا يسأل عنهم، تحقيرًا لشأنهم[١]، وليس هناك أشد وقعا على نفس الإنسان من إهماله، وعدم الاستجابة لطلباته، إذ يعد هذا من أشد أنواع العذاب النفسي.

٢. العذاب المتعدد الصور والأشكال.

فقد تعددت الأوصاف التي وصف بها العذاب الذي توعد الله تعالى به اللاهين عن أحكامه وأوامره:

فتارة يصفه بالعذاب الشديد، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وهذا يتناسب مع من انهمك في لذاتها، وانغمس في متعها دون استعداد لما ينتظره في حياته الأخرى.[٢]

وتارة أخرى يصفه بالعذاب المهين؛ لأن اللاهي استهان بأمر الله، فهو يهان يوم القيامة، ويحقر فيها، لقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان: ٦].

وفي آية أخرى يصفه بالعذاب الأليم ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [الأنعام: ٧٠].

موضوعات ذات صلة:

الاستهزاء، العزم، الغفلة، اللعب

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩٢.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٤/ ١٨٥.



لوط عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بلوط عليه السلام

لوط عليه السلام نبي من الأنبياء، الذين بعثهم الله عز وجل لهداية الناس وإصلاحهم، ولقد عاش في زمن الخليل إبراهيم عليه السلام، وذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى أن لوطا عليه السلام: ابن أخي إبراهيم عليه السلام آمن به وهاجر معه فكان غراسا طيبا لدعوة إبراهيم عليه السلام[1].

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤].

فبعد الحديث عن رعاية الله لنبيه إبراهيم عليه السلام ومنحه له جاء الحديث عن لوط عليه السلام وما وهبه الله من نعم وما حباه من رعاية، فقد آتاه آلة الحكم وهو الفصل بين الناس والتمييز بين الأمور والحكم عليها والعلم النافع الذي ينير لصاحبه ويرشده، فقد وهبه الله عقلا راجحا وفطرة نقية وبصيرةً نافذةً وميزانا قويما، وفي تنكير ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ مع التنوين تعظيمٌ وتفخيمٌ لهذه المنحة الربانية، فهو ثمرةٌ طيبةٌ لدعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ونتاجٌ طيب لغرسه المبارك، ولا أدل على حكمته وعلمه من عيشه وسط أولئك الغوغاء الشذاذ ينهاهم ويزجرهم عن فسوقهم وتماجنهم ويعظهم فلا يجد آذانا صاغيةً.

وقد جاء الحديث عن لوط في شجرة الأنبياء الواردة في سورة الأنعام تلك الشجرة المباركة التي تمتد إلى أرومة واحدة قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٤-٩٠].

فلقد هداهم الله واجتباهم وجعلهم ذرية طيبة بعضها من بعض، وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، وجعلهم مصابيح هدى، تقتدي بها الإنسانية .

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣.

لوط مع إبراهيم عليهما السلام

يظل الأنبياء عليهم السلام على الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها، يحفظهم ربهم ويهديهم ويتعهدهم بالرعاية والتربية، فهذا لوطٌ عليه السلام ينشأ في مجتمع يسوده الكفر ويعمه الضلال، لكن الله تعالى يعصمه ويحفظه، فينشأ على التوحيد، في كنف عمه إبراهيم عليه السلام، ويعاين الآية الكبرى حين ألقوا به عليه السلام في النار فنجاه الله تعالى وجعلها بردا وسلاما فيزداد إيمانا وتسليما .

قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال تعالى في سياق الحديث عن إبراهيم: ﴿ وَنَجَّيۡنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

والآية الأولى تبين انقياده واستجابته لعمه عليه السلام، آمن له أي: انقاد واستجاب عن إيمان ويقين، كذلك تعني الآية أنه آمن بنبوته واستجاب لدعوته وصدق برسالته مع إيمانه الفطري بالله تعالى وحده لا شريك له، وفي الآية الثانية بيان لنعمة الله عليه إذ أنجاه إلى الأرض المباركة، كما آمن به فقد هاجر معه من العراق إلى أرض الشام المباركة، وهي بيت المقدس وما حوله، فهي بركة للعالمين بما فيها من كنوز وخيرات، وبما فيها من عيون وأنهار، وزروع وثمار، مع خصب تربتها، ونقاء هوائها، وطيب العيش فيها، وبما سطع فيها من أنوار النبوات، مباركة بمن عاش على ثراها ودفن في تربتها من الأنبياء والصالحين، مباركة بشعبها الحر الأبي الذي ضرب ولا يزال أروع الأمثلة في الصبر والثبات والتضحية والفداء، والتصدي والتحدي للطغاة المستبدين .

هاجر لوط عليه السلام مع عمه إبراهيم إلى الشام، وهى الأرض المباركة، وظل لوطٌ في صحبة عمه إبراهيم - عليهما السلام - حتى استقر به المقام في قرية سدوم بالأردن، حيث أرسله الله إلى أهل هذه القرية[1] .

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣ .

لوط عليه السلام مع قومه

أولًا: دعوته لقومه:

أرسل الله تعالى لوطا عليه السلام إلى قرية سدوم وما حولها، وقد راعه ما هم عليه من شذوذ وانحراف وجهالة وإسراف، فدعاهم إلى الله تعالى، وبدأ بالعقيدة، ثم عرج إلى الأخلاق والآداب.

ولقد جاء الحديث عن رسالة لوط عليه السلام في مواضع متفرقة.

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦].

بدأت الآيات ببيان تكذيب قوم لوط عليه السلام للمرسلين، كذبوا لوطا عليه السلام كما كذبوا بمن سبقه من الرسل فالتكذيب فيهم متأصلٌ، وبعض المفسرين يكتفي بقوله هنا مراعاة للفاصلة وتلك إجابةٌ صائبةٌ لكنها ليست كافية، وأقول: إن من كفر برسول فقد كفر بسائر الرسل، لأنها دعوة واحدة ورسالة واحدة، وإن كثر حملتها من الأنبياء والرسل، ولقد كذبوا بدعوات الرسل التي بلغتهم قبل إرسال لوطٍ إليهم، وحين جاءهم لوطٌ بادروا إلى تكذيبه.

حثهم عليه السلام على تقوى الله عز وجل فهي سبيل كل خير والعصمة من كل شرٍ، وبين لهم أنه مرسل من عند الله عز وجل، أمين في دعوته.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ لوط من بلاد العراق وهم في بلاد الشام والأخوة هنا هي أخوة المصاهرة، أو أخوة المواطنة لأنه عاش فيهم وتزوج منهم.

حث لوطٌ على تقوى الله تعالى، بهذا الأسلوب الرائع الذي ينم عن حرصه على هدايتهم، وإشفاقه عليهم، وترفقه بهم، كلماتٌ تنسل من قلبٍ يذوب كمدا ويتفطر ألما على حال قومه.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أكد لهم رسالته وأمانته، فهو أمين في دعوته، أمين في نصحه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لخص دعوته في هذين الأصلين العظيمين تقوى الله تعالى بالخوف منه واجتناب محارمه وامتثال أوامره، وطاعة النبي فيما يدعوهم إليه من الخير والصلاح في دينهم ودنياهم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ لا أنتظر منكم أجرا على دعوتي، لأن أجري على من أرسلني وهو رب العالمين، وفي هذا إعلان التجرد والإخلاص في هذه الدعوة، فهذه المهمة

الجليلة الثقيلة لم يتقاض عليها الأنبياء أجرا من البشر وإنما الأجر كله من الله الذي بعثهم.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦]: يتركون نساء الدنيا كلها، ويضيقون على أنفسهم وقد وسع الله عليهم ؛ ففي الحلال الطيب ما يسع الجميع، ودائرة الحلال واسعةٌ، بينما اختاروا طريق الغواية والشذوذ.

أنكر عليهم هذا الفعل القبيح وتلك العادة المستهجنة المخالفة للفطرة السليمة وللطبائع المستقيمة، تلك العادة التي شذوا بها عن سائر الخلق، وكانوا أول من فعلها، فتجاوزوا بذلك الحد في الفساد والإجرام والضلال والانحلال وسنوا سنة سيئةً قبحهم الله.

قال ابن كثير: «بعث الله لوطا عليه السلام إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها ؛ فلم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم - عليهم لعائن الله - قال الوليد بن عبد الملك - الخليفة الأموي، باني جامع دمشق -: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا»[1].

وفي سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

أنكر عليهم إتيانهم لتلك الرذيلة المنكرة، التي لم يسبقهم إليها أحد والتي تدل على إسرافهم في الفساد وتماديهم في الفجور والانحلال، والتعبير بالفاحشة، لقبحها واستهجانها وكونها من أفحش الكبائر وأشنع الذنوب إذ هي خروجٌ عن الفطرة ومجافاةٌ للطبيعة وشذوذٌ وانحرافٌ، مع ما فيها من إفسادٍ وأضرار، ونعى عليهم كونهم أول من ابتدعها.

قال أبو حيان الأندلسي: «والفاحشة هنا :إتيان ذكران الآدميين في أدبارهم، ولما كان هذا الفعل معهودا قبحه ومركوزا في العقول فحشه أتى معرفا بالألف واللام[2]، أو تكون (أل) فيه للجنس على سبيل المبالغة كأنه لشدة قبحه جعل جميع الفواحش»[3].

قال صاحب الظلال: «والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو الإسراف في تجاوز

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣.
(٢) وعلى هذا تكون ال للعهد الذهني.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٣٣٢.

منهج الله الممثل في الفطرة السوية، والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب . فهي مجرد ﴿شَهْوَةً﴾ شاذ، لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري، قبل أن يكون فساد الأخلاق ولا فرق في الحقيقة ؛ فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية، بلا انحراف ولا فساد . إن التكوين العضوي للأنثى - كالتكوين النفسي - هو الذي يحقق لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء، الذي لا يقصد به مجرد﴿شَهْوَةً﴾ إنما هذه اللذة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة، إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة، مصحوبا بلذة تعادل مشقة التكليف ! فأما التكوين العضوي للذكر - بالنسبة للذكر - فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة، بل إن شعور الاستقذار ليسبق، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة»[1] .

وفي سورة النمل يقول عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٥].

أنكر عليهم لوط عليه السلام فعلهم لتلك الفاحشة مع علمهم بقبحها وشناعتها ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ أي: تعلمون بقبحها، تبصرون ذلك بعقولكم وبصائركم، بل وحواسكم، وقيل : ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يبصر بعضكم بعضا أي: ينظر إليه تلذذا واستمتاعا حيث كانوا يرتكبون الفاحشة في العلن، وقيل: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ آثار العصاة المتهكين للحرمات ممن قبلكم فاعتبروا بهم.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٥].

وصفهم بالجهل، والمقصود به هنا الجهل: ضد الحلم، وهو الطيش والسفه الذي يدفع صاحبه إلى ارتكاب هذا المنكر، دون إدراكٍ لأخطاره أو تحسبٍ لأضراره، كذلك الجهل المنافي للعلم ؛ إذ لا يفعل هذه الموبقات إلا الجهال بخطرها وعاقبتها، أو نفي العلم عنهم وإن علموا بقبحها وسوء عاقبتها لأن علمهم لم ينفعهم ولم يدفعهم عن هذا الجرم، فأضحى لا قيمة له، فهو بمثابة الجهل.

وفي سورة العنكبوت يقول عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٥ .

﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨ - ٢٩].

أنكر عليه السلام على قومه تلك الفعلة المنكرة القبيحة التي لم يسبقهم إليها أحد، وهذا مما يزيد في شناعتها وقبحها كونهم أول من قارفها، وأول من سنها، كما أنكر عليهم قطعهم للسبيل على السابلة والمسافرين وترويعهم وسلب أموالهم وسفك دمائهم، ومجاهرتهم بالمنكرات في المجالس والنوادي دون خجل أو وجل، ودعاهم عليه السلام إلى عبادة الله عز وجل، والامتثال لما أمر به واجتناب كل ما نهى عنه، وحذرهم من سخط الله تعالى، وأليم عقابه، فقابلوا تلك الدعوة الصادقة بالتكذيب والإعراض والسخرية والاضطهاد والعداء والإيذاء، والتهديد والوعيد.

وقال الإمام ابن كثير: «وكانوا مع ذلك - أي: مع إتيانهم الفاحشة - يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسيهم، وربما وقعت منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ، ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا وبيلا»[1].

قال عبد الكريم الخطيب: «كانوا من الفجور وجفاف ماء الحياء من وجوههم، بحيث لا يجدون حرجا في أن يأتوا هذا المنكر علانية، وهم في مجتمعهم الذي يجتمعون فيه وهذا غاية ما يتردى فيه الإنسان، في طريق الانحدار إلى عالم الحيوان»[2].

وقد وصف قوم لوطٍ بأوصافٍ ذميمةٍ منها:

١. التكذيب.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وفي سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾، وفي سورة ص: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝ إِن كُلٌّ

(١) قصص الأنبياء ص ١٩٢.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٤/ ١٨٦.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

وفي سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٣-٤٠].

كذبوا بنبي الله لوطٍ عليه السلام وصدوا عن دعوته وجاهروا بالمعاصي مستحلين لها، واجتمعت كلمتهم على إخراج لوطٍ وبناته لأنهم متطهرون، وكأن التطهر جرمٌ يعاقب صاحبه بالطرد والإبعاد، دون أن يلقوا بالًا بما عاينوه من آياتٍ وقرع مسامعهم من نذر، ولا عجب فهذا منطق أهل الكفر والضلال في كل زمان.

٢. الإسراف.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

[الأعراف: ٨٠ - ٨١].

«أي: متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه»[(١)] وإسرافهم بإتيان تلك الفاحشة من مجاوزة الحد وإهدار الطاقات وتبديد الأوقات، وإذا كان الإسراف في المباح مذموم فما بالك بمن يسرف في الحرام ! والتعبير باسم الفاعل ؛ لبيان ملازمتهم للإسراف فهو طبعهم وحالهم لا ينفك عنهم.

٣. الجهل.

قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥].

قال الرازي رحمه الله: «تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها»[(٢)].

وقال عبد الكريم الخطيب: «وانظر كيف تبلغ السفاهة بالقوم إنهم ليأتون الفاحشة في غير مبالاة، ولا ستر من حياء ! يأتونها جهرة وفى صورة جماعية، دون أن يجد أحدهم حرجا أو استحياء! وهذا غاية التدلي والإسفاف في عالم الإنسان، إلى درجة لا ينزل إليها كثير من عالم الحيوان حيث تأبى على بعض الحيوان طبيعته أن يتصل بأنثاه على مرأى من بني جنسه! بله اتصاله بذكر! الأمر الذي لم تعرفه الكائنات الحية، إلا في هذا الصنف الرذل الخسيس من الناس!»[(٣)].

والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، فالأيام والآيات لا تزيدهم إلا سفاهة وجهالة، وهم مصرون على جهلهم مقيمون عليه .

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٦.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٣٢٩

٤. الفسق.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤].

فتلك الفعلة القبيحة هي أشد ألوان الفسق، ففيها خروج عن الطاعة، خروجٌ عن الشريعة، خروجٌ على العرف المستقيم، تمردٌ على الفطرة فليس هناك أسوأ مما كانوا عليه، فقد أضيفوا إلى السوء إضافة تدل على ملازمة، ورجل السوء هو الذي يسوء ويفسد كل من يخالطه، ووصفوا بالفسق صفة ملازمة لهم لا تنفك عنهم، وأصل الفسق من فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها التي تصونها وتحفظها، كذلك قوم لوط خرجوا عن منهج الله الذي يصونهم ويحميهم، وقد جلبوا الخزي والعار لأنفسهم واستوجبوا سخط الله وأليم عقابه

٥. الفساد.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وأي إفساد أشد مما كانوا عليه من الكفر والفسوق، والتحلل والعري، وفساد الأمزجة وانتكاس الفطرة، وقطع السبيل، والخلل الاجتماعي، والانقلاب على الحق، وإخراج أهل الطهر، فساد روحي وفساد اجتماعي وفساد سياسي واقتصادي، فالفساد داء عضال يستشري في أبدانهم ومنتدياتهم ويلوث مجالسهم، صفةٌ من صفاتهم التي لا تنفك عنهم، والفساد باض وأفرخ فيهم وتغلغل في مجتمعاتهم وبيوتهم، وهم إلى جانب فسادهم مفسدون أشد الإفساد، يسعون جاهدين لإفساد كل ما حولهم، ولا يقع إفسادهم عند حدٍ.

وحين دعا لوطٌ ربه استحثه على الإجابة ببيان ما هم عليهم من إفسادٍ قال ابن عجيبة: «وصفهم بذلك ؛ مبالغة استنزال العذاب، وإشعارًا بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب»[(١)].

وقال ابن عادل: «ثم إن لوطًا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (فإن الله لا يحب المفسدين) حتى ينجز النصر»[(٢)].

٦. العدوان.

قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٤ - ١٦٦].

فقد اعتدوا على حرمات الله وانتهكوا

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٧.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٣٤٣.

محارم الله وتجاوزوا الحد، واعتدوا على الغير، فإن من وضع الشهوة في غير موضعها عادٍ آثم.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

٧. السبق إلى السوء.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾ [الأعراف: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٨﴾ [العنكبوت: ٢٨].

لقد حازوا قصب السبق لا في الخيرات ولا إلى المغفرة والرحمات، بل سبقوا في الفجور والشذوذ، فكانوا أول من ابتدع هذه الفاحشة التي انتشرت فيهم انتشار النار في الهشيم.

٨. الإجرام.

قال تعالى في بيان ما حل بهم من عقاب: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩].

وأي جريمة أشد مما كانوا عليه من فاحشة، فوق أنهم كانوا يقطعون السبيل على المارة والمسافرين ويتعرضون لهم بالأذى ويتحرشون بهم مع عزمهم على إخراج لوط وأهله المؤمنين الطاهرين من القرية بدون جريرة أو ذنب سوى أنهم مؤمنون طاهرون، ومن قبل هددوا لوطا عليه السلام بالرجم إن لم يكف عن دعوته.

٩. الامتراء.

فلقد جمعوا مع كفرهم وتكذيبهم الامتراء وهو التشكيك واللغط والاستخفاف والاستبعاد، والجدل المذموم، تشغيبا على لوطٍ وتشويشا على دعوته، وسعيا لقلب الحقائق وتزيين الأباطيل وتحسين القبائح.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾ [الحجر: ٦٣].

ومن ذلك المراء قولهم كما أخبر القرآن: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

١٠. الظلم.

فقد وضعوا الأمور في غير موضعها، وعاثوا في الأرض ظلما يقطعون الطريق وينتهكون المحارم، وبلغ بهم الظلم إلى أن هددوا لوطا وافتروا عليه وأخرجوه من القرية، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت: ٣١].

فلقد بلغوا من الظلم هذا المبلغ فاستحقوا العذاب.

١١. السكرة والعمه.

فلقد كانوا في غفلة سادرين، وفي عمه عن الحق لا يبصرون قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

فما تجدي الموعظة مع من غرق في بحار السكر، فهو في عمى وحيرة يتخبط خبط عشواء ويتردد بلا وعيٍ، والله تعالى يلتفت لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم مقسما بحياته العامرة، ليرى صورة من صور الانحراف الإنساني عن سنن الهدى، وصفاء الفطرة، وارتكاسها إلى مستنقعات الرذيلة ومزالق الهوى، وركوبها متن النزق متوغلة في أوحال الفاحشة لا تلوي على موعظةٍ ولا تستجيب لنصح ولا تلتفت لنداء الحق،كيف وقد استبدت بهم النزوات واستعرت في نفوسهم الغلمة والشهوات.

قال السعدي: وهذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم[1].

وقد وصفت تلك الفعلة بثلاثة أوصاف:

١. الفاحشة: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل: ٥٤].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨].

فهي من أكبر الفواحش وأفحش الكبائر، وفيها ما فيها من فحش وبذاءة وفجورٍ وخلاعةٍ.

٢. الخبائث: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وهي جميع خبيثة فتدخل فيها اللواط دخولا أوليا، وتشمل سائر ما كانوا عليه من فحش وبذاء وخلاعة ومجون وعري، والتعبير بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ لبيان سبب هلاك تلك القرية، وهو استمرارهم في عمل الخبائث، أي: ممارستها وابتداعها وامتهانها، وهل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٣.

هناك أخبث من إتيان الرجل للرجل ! ومن خباثتهم إتيانهم المنكرات في نواديهم دون تورع ولا حياء، ومنها قطعهم للطريق، ومنها إهانتهم للأضياف، ومنها التعري، إضافة إلى كفرهم وتكذيبهم.

٣. عمل السيئات: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ٧٨].

فجرائمهم كثيرة ومن أفظعها وأشنعها جريمة اللواط، قال ابن عاشور: «فقد صارت لهم دأبا لا يسعون إلا لأجله »[(١)].

وقال عبد الكريم الخطيب: «عرض لسيرة هؤلاء القوم، وفضح لمخازيهم، وأن هذا الذي جاءوا إليه ليس ابن يومه، وإنما هو داء تعاطاه القوم من قبل، فكان طبيعة غلبت عليهم، حتى لقد صار عادة مألوفة عندهم، وأمرا مستقرا فيهم، ليس فيه ما يثير أي إحساس عندهم بالخزي أو الاستحياء»[(٢)].

وجمع السيئات في مقابلة جمع من يعملها، ولتكرارها وتشنيعها لأنها ليست سيئةً واحدة بل سيئات شتى، فقد اعتادوا المنكرات وألفوها بلا حياءٍ يمنعهم ولا ضميرٍ يردعهم، فهرعوا من منكر إلى منكر ومن سيءٍ إلى أسوء.

ثانيًا: جواب قوم لوط:

ماذا كان موقف قوم لوط عليه السلام من دعوته كيف أجابوه ؟ هل كان لمواعظه أثرٌ في نفوسهم ؟ كلا والله بل لجوا في طغيانهم وتمادوا في غيهم، وأصروا على مقارفة جرائمهم، وكان ردهم عنيفا قاسيًا ينم عن مراءٍ وتشغيبٍ.

وفي سورة الشعراء يقول عز وجل: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾ [الشعراء: ١٦٧].

هددوه أولًا بالإخراج إن لم يكف عن إنكاره عليهم ومواعظه، ثم قرروا إخراجه من قريتهم، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف: ٨٢].

كذبوا بالنذر، واستخفوا بها بل وتعجلوها، قال عز وجل: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾ [القمر: ٣٣].

وقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ومن جملة هذه الآيات يتضح لنا موقف قوم لوط من دعوته، فلقد كذبوا به وأعرضوا عنه وسخروا منه، وتعجلوا وقوع العذاب، وهددوا بإخراجه ومن آمن به من آله من قريتهم لأنهم أطهارٌ أعفاء، وكأن الطهر

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٣.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٣٢٩.

والعفاف ظلم وإجحاف وجرم وانحراف وكأن الشذوذ والخنا هو العادة والإلف الذي ينكر على من يهجره وينتزع حق العيش ممن آثر الطهر والعفاف فلا مقام له بين ظهراني الملوثين بأخبث الأقذار، ولا يخفى ما في هذا القول من سخريةٍ وتهكم بالفضائل وكراهيةٍ لها، وتضييق على أهلها.

يقول صاحب الظلال: «ويتجلى لنا انحراف قوم لوط في جوابهم لنبيهم، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ [الأعراف: ٨٢].

يا عجبا !! أومن يتطهر يخرج من القرية إخراجا ليبقى فيها الملوثون المدنسون ؟ ! ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون، فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية، وتسميه تقدمية وتحطيما للأغلال عن المرأة وغير المرأة، أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك، ولا تطيق أن تراهم يتطهرون، لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين الأقذار، إنه منطق الجاهلية في كل حين !!»[1].

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾ [العنكبوت: ٢٩ - ٣٠].

لقد مكث لوط عليه السلام في قومه مدة طويلة، يدعوهم إلى العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة والشريعة القويمة الحكيمة، التي جاء بها من عند الله تعالى، ولكنهم صموا آذانهم وعموا أبصارهم عن الحق، وقابلوا الحجج الساطعة والأدلة القاطعة بالجحود والإنكار وأصروا على كفرهم وتمادوا في غيهم وضلالهم، بل وتعجلوا العذاب حتى يئس لوط من إيمانهم، فدعا الله عز وجل أن ينجيه هو ومن آمن معه ويخلصهم من أولئك المفسدين الذين دنسوا الأرض ولوثوا العرض.

وقال سبحانه: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨﴾ [الشعراء: ١٦٧ - ١٦٨].

بين لهم بغضه لعملهم القبيح وتبرأه منه، قال صاحب الكشاف: «(ومن القالين) أبلغ من أن يقول: إني لعملكم قالٍ، كما تقول: فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم ؛ لأنك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم، ومعروفة مساهمته لهم في العلم، والقِلَى: البغض الشديد ؛ كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد، وفى هذا دليل على عظم معصيتهم، والمراد: القلى من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همة الدين حتى تقرب

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٦.

كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية »[(١)].

كذلك التعبير بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ كأنه عليه السلام يشير إلى أنه ليس وحده قاليا لهذا العمل فكل عاقل لبيب سوي النفس مستقيم الفطرة لا بد وأن يقلى هذا العمل ويبرأ منه.

هكذا كان رد فعلهم، وموقفهم المعاند من دعوة لوط عليه السلام هددوه إن لم يتوقف عن مواعظه البليغة أن يخرجوه من القرية، وكان منطقهم في ذلك كما أخبر القرآن ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ كأن الطهر في عرفهم السقيم صار جريمة تستوجب العقوبة، أما الشذوذ والمجون فهو حقٌّ لهم يدافعون عنه ويسعون إلى إسكات كل من يعارضهم وينفرهم شأن الشذاذ في عصرنا هذا، فقد كافحوا من أجل الدفاع عن فسادهم وانحرافهم وحققوا نجاحا في بلاد الغرب، حيث ارتفعت أصواتهم المنكرة، وكثرت تجمعاتهم الفاجرة، وانتشرت منتدياتهم المستهترة، وروجوا لتلك الفاحشة بتسميتها بغير اسمها المعهود على مر العهود، فسمي من يفعلون ذلك بالمثليين، حتى يهدموا الأسوار ويحطموا الحواجز أمام ذلك المرض الخبيث، بينما كان لوط عليه السلام محقًا وكان صريحا في مناصحته وإنكاره، فوصفهم بالإسراف والجهل والفسق والفساد والعدوان، ووصفت تلك الفعلة بثلاثة أوصاف: الفاحشة، الخبائث، والسيئات، فينبغي أن ينتبه العقلاء إلى ما يرمي إليه الشواذ من ترويج لفاحشتهم وتمرير لها وكسر القيود أمامها.

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٣١.بتصرف.

لوط عليه السلام مع زوجه

قال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: ١٠].

والخيانة هنا هي: خيانة كفر لا خيانة زنا، خيانة في الدين لا في العرض؛ إذ نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في خيانة العرض.

قال ابن كثير: «﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقتاهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئا ولا دفع عنهما محذورًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لكفرهما ﴿وَقِيلَ﴾ للمرأتين ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾.

وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما بغت امرأة نبي قط، كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحدا أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء» [(١)].

لقد كذبت امرأة لوط بزوجها، وكان الأولى بها أن تكون أول من آمن به وأن تكون عونا له على دعوته؛ لأنها أعلم الناس بأحواله، وأقرب الناس منه، ولكنها آثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال؛ فكان عاقبتها الخسران والنكال.

ولم ينفعها زواجها من نبي الله لوط عليه السلام، وما أجمل قول القشيري في اللطائف: «إن الجسارة على الزلة وخيمة العاقبة، ولو بعد حين، ولا ينفع المرء اتصاله بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء» [(٢)].

وسيأتي الحديث عن هلاكها.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩٣ بتصرف.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٤٩.

لوط عليه السلام مع بناته

ورد الحديث عن بنات لوط عليه السلام حين جاءه قومه يهرعون إليه، ليراودوه عن ضيفه المكرمين، فتزاحموا على بابه، ولم تكن لديه القوة على دفعهم وحماية ضيفه فعرض عليهم بناته للزواج، ردًا لهم إلى الفطرة النقية وإلى الغريزة الطبيعية، وصرفا لهم عن الشذوذ والانحراف الذي استهواهم، لكنهم عزفوا عن الزواج بل وتبجحوا ولمحوا ببغيتهم الخبيثة.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٧٨-٨٠].

وقد وصف لوط ما عليه بناته من طهر وعفاف، كما مدح الله جل وعلا لوطا ومن آمن به من آل بيته بكونهم شاكرين لله تعالى.

قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾، نجى الله تعالى لوطا ومن آمن به من أهل بيته ويظهر لي والله أعلم أنه لم يؤمن به إلا بناته ولقد جاء الحديث عن نجاتهن معه عليه السلام في سورة هود والحجر والذاريات، قال تعالى في سورة هود: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

وفى سورة الحجر يقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وقال تعالى في سورة الذاريات يقول عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فجمعوا بين الإيمان والإسلام، الإيمان بكل ما يعنيه من معانٍ وصفاتٍ، والإسلام الانقياد التام لله تعالى.

لوط عليه السلام مع الملائكة

أولًا: الملائكة في طريقها إلى قوم لوط:

في صورة من أبهى وأجمل الصور البشرية جاءت الملائكة الكرام إلى إبراهيم عليه السلام وبادروه بالتحية فحياهم بأحسن منها.

قال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

وقال سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥١ - ٦٠].

وفي سورة الذاريات يقول جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٣٢].

وفي هذه الآيات الكريمة يخبر المولى عز وجل عن نزول الملائكة في صورة بشرية ومجيئهم إلى الخليل إبراهيم عليه السلام حيث حياهم عليه السلام بأفضل مما حيوه، وبادر عليه السلام إلى إعداد الطعام لضيوفه وقربه إليهم إثر فراغه من إعداده، فلم يمدوا إليه يدا ؛ فأنكر ذلك منهم ووجده على غير ما يعهد من الضيف، فإن الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة، أو قصد سيئ، وأحس في نفسه خيفة منهم، فلما رأوا منه ذلك بادروا إلى تهدئة روعه وطمأنة قلبه، فأظهروا حقيقتهم وكشفوا عن مهمتهم التي من أجلها جاءوا، وهى إهلاك قوم لوط وقطع دابرهم بعد أن تمادوا في الكفر والطغيان وأصروا على الفسوق والعصيان، وهنا يتجلى موقف الزوجة المؤمنة سارة

رضي الله عنها حيث فرحت واستبشرت بهذه البشارة قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

كانت قائمة من وراء الستر من أجل خدمة الضيفان، وقيل كانت قائمة تخدمهم بنفسها، وهي عجوز لا يخشى عليها ولا منها الفتنة .

والضحك هنا على حقيقته، وسببه الفرح والتعجب، فرحت حين سمعت الملائكة الكرام يخبرون إبراهيم عليه السلام بأمر نجاة لوط عليه السلام ومن آمن معه وهلاك المكذبين به المعرضين عن دعوته وتعجبت من حال الهالكين، كيف يتمادون في الضلال ويصرون على الانحلال مع قرب هلاكهم ؛ فالأولى بهم أن يتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان.

وهذا يدل على قوة إيمانها وحبها وولائها للإيمان وأهله، وبغضها وبرائها من الكفر وأهله .

قال ابن كثير: «(فضحكت) استبشارا بهلاكهم لكثرة فسادهم وكفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس »[1].

وفي غمرة هذه المشاعر الإيمانية جاءتها البشارة بالذرية الصالحة لتكتمل فرحتها وتتم سعادتها، جاءتها البشارة وهي في هذا الموقف المحمود، كما جاءت البشارة لزكريا عليه السلام بالولد بعد طول انتظار -جاءته البشارة وهو قائم يصلى في المحراب - وكما أن الصلاة هي من أسمى العبادات: فموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه، من أعظم القربات، وفي مجيء الملائكة بالبشارة أعظم تكريم لها عليها السلام.

ثانيًا: الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام:

حق على قوم لوط العذاب، وجاءت الملائكة الكرام إليه في صورة بشرية، كما جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام، وظن لوط عليه السلام أنهم بشر كما وقع في ظن إبراهيم عليه السلام ؛ فخاف لوط عليهم من تحرش قومه بهم وتعرضهم لهم بالإيذاء، ولولا حق الضيافة وآدابها لطلب منهم عليه السلام أن يغادروا القرية في الحال، ولكنه استحيا من مواجهتهم بالواقع المرير.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧].

قال ابن كثير: «قال المفسرون: لما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٥٢ بتصرف.

فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان، اختبارا من الله تعالى لقوم لوط، وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشرا من الناس، ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: شديد بلاؤه، وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدًا »[1].

والظاهر أنه قاله مع نفسه تخوفا مما يترقبه من طيش قومه وعدوانهم على ضيفه مع قلة حيلته أمام قوتهم وكثرتهم واندفاعهم الذي يتوقعه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧٢].

«وهذه عادة أهل الغفلة، إن جاءهم من يجدون فيه موافقة هواهم، هرعوا إليه مستبشرين، وإن جاء من ينصحهم ويأمرهم بالخروج عن أهوائهم أدبروا عنه، ومقتوه، وربما أخرجوه من بلدهم »[2]، وقوم لوط جاءوا يطيرون فرحا واهمين أنهم سينالون مرادهم الخبيث ويحققون بغيتهم الدنيئة على عادتهم الرديئة.

ثالثًا: موقف قوم لوط عليه السلام من ضيفه:

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ [هود: ٧٨ - ٨٠].

لما سمع قوم لوط بقدوم ضيف عليه جاءوا مهرولين إلى بيته، يحث بعضهم بعضا، ويتدافعون صوب بيته . ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فسجلهم حافل بالذنوب والآثام التي صارت لهم ديدنا حتى أدمنوها وهو عليه السلام يعرف ذلك منهم، فهم لا يتورعون عن معصية ولا يتحرجون من منكرٍ ؛ مما زاد من خوف لوطٍ عليه السلام وقلقه على ضيفه، فكانت هذه البادرة القبيحة مما ينضاف إلى رصيدهم السابق في الذنوب والعصيان بما جعلها

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ١٩٣، ١٩٤ باختصار.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٥٧.

القاصمة وعجل بهلاكهم .

قال ابن كثير: «أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة » [1] .

رابعًا: حوار بين لوط وقومه

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨].

أدرك عليه السلام الغرض الخبيث الذي جاء من أجله القوم، ورأى أنهم عازمون على هذا الأمر فعرض بناته على قومه لكي يتزوج بعض رجال القوم بهن حلالا طيبا، ويهجروا عادتهم القبيحة المنكرة وهي إتيان الرجال في أدبارهم، فإذا تزوج بعض الرجال بهن فسوف يسير جميع القوم على هذا السنن القويم والنهج المستقيم .

أدرك عليه السلام ذلك فأراد أن يوقظ فيهم داعي الفطرة قبل فوات الأوان، ويبعث فيهم روح النخوة والمروءة والطهارة والكرامة، ويحيي ضمائرهم الميتة ويعمر قلوبهم الخربة، يعمرها بتقوى الله عز وجل التي هي جماع كل خير وأساس كل بر وهي العصمة من كل سوء فقال لهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨].

عودوا إلى الفطرة السليمة، وأقبلوا على الزواج وانشدوا الحلال الطيب، وأنا أول من يعرض بناته عليكم للزواج .

عرض عليهم أن يتزوجوا ببناته، ولكنهم أبوا وآثروا الفاحشة المنكرة على الحلال الطيب، آثروا الشذوذ والانحراف على الطهر والعفاف، وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود: ٧٩].

قال الإمام الألوسي: «عنوا به قضاء الشهوة: أي ما لنا حاجة في بناتك، يجوز أن يكون المعنى: ما لنا في بناتك نكاح حق؛ لأنك لا ترى جواز نكاحنا للمسلمات وقيل: إنما نفوا أن يكون لهم الحق في بناته؛ لأنهم كانوا قد خطبوهن فردهم وكان من سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبدا، وقيل: إنهم لما اتخذوا إتيان الذكور مذهبا كان عندهم هو الحق وأن نكاح الإناث من الباطل فقالوا ما قالوا » [2]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي:تعلم أن بغيتنا ونهمتنا في الرجال لا في النساء .

خامسًا: تمني القوة والمنعة والاعتذار للضيف الكرام

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: ٨٠].

ماذا يصنع نبي الله لوط عليه السلام في

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص ١٩٤ .

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٠ .

هذا الموقف العصيب؟ ماذا يفعل؟ ومنطق الحق وحلاوة الإيمان لم تجد الطريق إلى تلك القلوب القاسية والعقول المتحجرة والنفوس الداعية للرذيلة؟ كيف يحمي ضيفه من ذلك الهجوم الغاشم؟ كيف يحفظ كرامتهم؟ ويحميهم من قومه الذين عدموا المروءة والكرامة وانغمسوا في أوحال الشذوذ والانحلال؟

أين يلقى القوة التي تردهم والمنعة التي تصدهم! وهم وراء الباب يتزاحمون عليه ويرومون فتحه بالدفع أو بالكسر؟

ولم يكن عليه السلام يعلم أن هؤلاء الضيوف الذين يذود عنهم بشتى الطرق هم الذين جاءوا ليدافعوا عنه وينزلوا بقومه أشد صنوف العذاب والنكال!

لقد استفرغ لوط عليه السلام ما في وسعه وبذل أقصى جهده في دفع قومه، وصرفهم عن هدفهم الخبيث، ولم يعد في وسعه عليه السلام إلا أن يعتذر لضيفه الكرام ويقول لهم (﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾).

وفي هذه اللحظة العصيبة تكشف الملائكة عن حقيقتها ومهمتها، قال الإمام القُشيري: «لما ضاق به الأمر كشف الله عنه الضر، فعرف إليه الملائكة»[1].

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بَشَّروه عليه السلام وطمأنوه.

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٤٩.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي بجزء من الليل وهو آخره ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ لا يلتفت أحد منكم حتى يرى العذاب المروع الذي ينزل بالمكذبين، وقيل: حتى لا يتعلق قلبه بتلك البلدة، وربما حدثته نفسه بالرجوع إليها والبقاء فيها فيهلك مع الهالكين، وقيل: ليسرعوا في السير؛ لأن من يكثر الالتفات لا يسرع في سيره.

وقال تعالى في سورة الحجر ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أمره عليه السلام بأن يسير خلفهم، وأن يمضوا جميعا في الطريق الذي أمروا بالسير فيه وبذلك أخبرت الملائكة لوطا بزمان السير ومكانه وكيفيته ومن يسير معه، وعاقبة المكذبين من قومه وعاقبة امرأته التي تهلك كما يهلك جميع المكذبين ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وفي الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم (ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد)[2].

والآية تفيد أنه تمنى وجود القوة والمنعة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (ونبئهم عن ضيف إبراهيم)، رقم ٣٣٧٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بابزيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم ١٥١.

التي تمكنه من الدفاع عن الحق ومحاربة الباطل والقضاء على الانحراف والذود عن الأضياف .

أما الحديث فإنه يدل على أنه عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد، وهذا هو المناسب لحال الأنبياء - عليهم السلام - الذين وصلوا إلى أعلى درجات المعرفة و أسمى مقامات التوكل واليقين برب العالمين، وطلبه عليه السلام للقوة والمنعة لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب؛ لأنه لا بد للحق من قوة تحميه.

يقول ابن حزم الظاهري في الفصل «ولا جناح على لوط عليه السلام في طلب قوة من الناس فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ولقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المنعة من الأنصار حتى يبلغ كلام ربه[1] .

وإنما أخبر صلى الله عليه وسلم أن لوطا كان يأوي إلى ركن شديد، يعنى الملائكة الكرام الذين أرسلهم الله تعالى لحمايته ونصرته ولم يكن لوط عليه السلام يعلم بذلك، ومن اعتقد أن لوطا كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد فقد كفر ؛ إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر، وهذا أيضا ظن سخيف ؛ إذ من الممتنع أن يَظُنّ برب أراه المعجزات وهو دائب يدعو إليه هذا الظن»[2] .

وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: «وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ويرحم الله لوطا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد) فالمراد بالركن الشديد هو الله سبحانه وتعالى، فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث - والله أعلم - أن لوطا عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم يكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في ذلك الحال: لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي، أو آوي أي: إلى عشيرة تمنع لمنعتكم، وقصد لوط عليه

---

(١) روى الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٢٢، رقم ٣٢٩، من حديث جابر بن عبد الله في بيعة العقبة الثانية، وفيه قال جابر قلنا يا رسول الله على ما نبايعك ؟ قال على السمع والطاعة في النشاط والكسل.....وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم...

قال ابن كثير في السيرة النبوية ٢/ ١٩٦: هذا إسناد جيد على شرط مسلم.

(٢) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم ٤/ ٩.

السلام إظهار العذر عند أضيافه، وأنه لو استطاع دفع المكروه عنهم بطريق ما لفعله، وأنه بذل ما في وسعه في إكرامهم والمدافعة عنهم ولم يكن ذلك إعراضا منه عليه السلام عن الاعتماد على الله تعالى، وإنما كان لِما ذكرناه من تطييب قلوب الأضياف .

ويقال: إن قوم لوط لم يكن منهم أحد يجتمع معه في نسب لأنهم من سدوم، وهو من الشام، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر معه لوط فبعث الله لوطا إلى أهل سدوم فقال: لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدفعوا عن ضيفاني»[1].

نجاة لوط وبناته وهلاك امراته

كشفت الملائكة الكرام للوط عليه السلام عن حقيقتهم ومهمتهم التي أرسلوا من أجلها فقالوا للوط - عليه السلام كما أخبر القرآن الكريم في سورة هود: ﴿قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾.

وفى سورة الحجر يقول تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾.

بَشَّروه عليه السلام بنجاته هو ومن آمن به من أهل بيته وهلاك قومه الذين كذبوا به وأعرضوا عنه، وخرج لوط عليه السلام في جنح الظلام مع أهل بيته، وسار من ورائهم حتى لا يتخلفَ منهم أحد فينالَه العذاب، وسار الجميعُ في الطريق الذي أمروا بالسير فيه، ولم يتلفت منهم أحدٌ إلا امرأة لوط التي التفتت نحو القرية فأصابها ما أصاب قومها من العذاب.

قال عز وجل: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا

---

[1] شرح صحيح مسلم ٦/ ٤٧٨.

﴿ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾ [الأعراف: ٨٣].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ [الحجر: ٥٨ - ٦٠].

﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١﴾ [الشعراء: ١٧٠ - ١٧١].

أي: في الهالكين، لما كانت منهم نالت مصيرهم الذي قدره الله تعالى لها.

وفي سورة الأنبياء في سياق الحديث عن مِنَنِ الله على أنبيائه ورعايته لهم قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

عصمه الله تعالى بما آتاه من حِكَم وعلم وثبته أمام هذا الابتلاء العظيم، ثم خلصه من تلك القرية التي غلب عليها الخبث وطغى عليها الفساق، وأدخله الله في رحمته لينال جزاء صبره وثباته سعادةً وفلاحًا في الدنيا وصلاح بال وقرة عين وعيش هنيء.

قال الرازي: إنه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فُتِحت عليه أبواب المكاشفات، وتجلت له أنوار الإلهية وهي بحر لا ساحل له وهي الرحمة في الحقيقة[(١)].

وقال البقاعي: «﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ﴾أي دونهم بعظمتنا﴿فِي رَحۡمَتِنَآ﴾ أي في الأحوال السنية، والأقوال العلية، والأفعال الزكية، التي هي سبب الرحمة العظمى ومسببة عنها، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: لما جلبناه عليه من الخير»[(٢)].

وقال القشيري: «أكمل له الأنعام بعصمته من مثل ما امتحن به قومه، ثم بخلاصه منهم بإخراجه إياه من بينهم، فميزه عنهم ظاهرا وباطنا»[(٣)].

وقال السعدي: «﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآ﴾ التي من دخلها كان من الآمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر، وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحا الأنبياء عليهم السلام[(٤)].

وفي سورة الذاريات يقول عز وجل: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ هو بيت لوط عليه السلام، قال مجاهد: لوط وابنتاه،

(١) مفاتيح الغيب ١/ ٣١٥٤.
(٢) نظم الدرر ٥/ ٩٩.
(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٥١..
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٧.

وصفوا بالإيمان والإسلام لتصديقهم الباطني والتزامهم وانقيادهم الظاهري، فجمع الله تعالى لهم بين الإيمان والإسلام، وعلى هذا فإنه لم يؤمن بلوط عليه السلام سوى بناته وقد نجاهن الله مع أبيهن نبي الله عليه السلام.

صنوف العذاب التي حلت بقوم لوط

تحدث القرآن الكريم حديثا مفصلا عن صنوف العذاب التي حلت بقوم لوط عليه السلام، فلقد طَمِسَتْ أعينُهم حين راودوا لوطا عليه السلام عن ضيفه، وقُلِّبت قراهم فجعل عاليها سافلها، وأمطروا بحجارة من سجيل منضود، وأخذتهم الصيحة فهلكوا جميعًا.

يقول المولى عز وجل في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٩﴾ [القمر: ٣٧ - ٣٩].

قال القرطبي في تفسيره: «قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسور الجدران، أو كسر الباب أو دفعه بالقوة، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم»[1].

قلبت قراهم فصار عاليها سافلها كما قال

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٧٨، ٨. بتصرف.

عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨١].

قال الحافظ ابن حجر: «أهلكهم الله عز وجل على يد جبريل فقلب مدائنهم بعد أن خرج عنهم لوط بأهل بيته إلا امرأته فإنها تأخرت مع قومها، أو خرجت مع لوط فأدركها العذاب فقلب جبريل المدائن بطرف جناحه، فصار عاليها سافلها، وصار مكانها بحيرة منتنة لا يُنتفع بمائها ولا بشيء مما حولها»[(١)].

ويقول عز وجل: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ [النجم:٥٣-٥٤].

والمؤتفكة هي: قرى قوم لوط، سدوم وما حولها: وسميت بالمؤتفكة؛ لأنها انقلبت رأسا على عقب، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه، ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾: قيل دفعها جبريل بيده بعد أن اقتلعها ثم أهواها إلى الأرض: أي أسقطها ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ تهويل وتعظيم لما أصابها وعمَّها وغمرها من عذاب مهين أليم.

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة: ٩- ١٠].

أي: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ قرى قوم لوط ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ أي بالخطايا الشنيعة، ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ أخذة شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح، يقال: ربا الشيء يربو: إذا ازداد ومن بدائع اللطائف القرآنية قوله تعالى ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ فهُم قد عصوا رسلا كثيرا، ولكن لما كانت دعوة الرسل واحدة ومصدرهم واحد وهو الوحي وغايتهم واحدة كانوا جميعا كرسول واحد يمثل حقيقة واحدة.

ويقول المولى عز وجل عن عذاب قوم لوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٣٥﴾ [العنكبوت:٣٤-٣٥].

والرجز هو العذاب من قولهم: ارتجز إذا اضطرب، وذلك لِما يلحق المعذب من قلق واضطراب وجزع وهلع، وفى هذه الآية إشارة إلى الحالة النفسية التي لازمت قوم لوط حين عاينوا العذاب وحل بهم ؛ بسبب ما كانوا عليه من الفسق، فالعذاب الذي حاق بهم عذاب حسي ومعنوى.

ويقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣].

والسجيل: الحجارة الصلبة، قال قتادة

(١) فتح البارى ٦/ ٤٧٨.

وعكرمة: السجيل: الطين بدليل قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ فهو الطين الذي جف وأصبح صلبا شديد الصلابة، وقال الحسن: والسجيل عند العرب كل شديد صلب[(١)].

(والمنضود) هو المتواصل المتابع كطلقات المدافع، قد أعد لعذابهم، والمسومة: هي مالها علامة مميزة، وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من يرمى به، فهي مصوبةٌ موجهةٌ بدقةٍ متناهية.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر:٣٤].

وقال القرطبي: «أي: ريحا ترميهم بالحصباء وهي الحصى»[(٢)].

ويحتمل أن تكون الحصباء هي الحجارة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ وهذه الحجارة قذفتها الملائكة وحملتها الرياح حتى بلغت أهدافها، والرياح جند من جنود الله عز وجل، ويحتمل أن تكون الحصباء غير الحجارة المشار إليها، وبهذا يكون قد اجتمع على قوم لوط صنفان من العذاب: إرسال الحصباء عليهم بواسطة الرياح التي تثيرها وتحملها، وإمطار السماء عليهم بحجارة من سجيل منضود سريعة متتابعة مسومة لا تخطئ أهدافها.

ويقول عز وجل في سياق الحديث عن عذابهم في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي: وقت الشروق، وفي ذلك مباغتةٌ لهم، بين المولى عز وجل صنفا آخر من صنوف العذاب التي حقت بهم وهي صيحة مدوية مزعجة كالرعد القاصف.

وخلاصة ما سبق ذكره: أن قوم لوط عذبوا بأنواع شتى من العذاب طمست أعينهم، وقلبت قراهم وأمطروا بحجارة من سجيل منضود، كما أخذوا بالصيحة المخيفة المرعبة التي تدوي في الآذان فيهتز منها الكيان ويشيب من هولها الولدان.

قال الإمام ابن تيمية «وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب الديار بأن جعل عاليها سافلها»[(٣)].

وقال الإمام ابن القيم «جمع الله أنواع العقوبات بين الإهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء فنكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها حين

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٨١.
(٢) المصدر السابق ١٧/ ١٤٣.
وانظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٨١، روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ٩.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٢٥.

تعمل عليها»[١].

لقد صموا آذانهم وأعموا أبصارهم عن صوت الحق ونوره، واختلطت مفاهيمهم وانقلبت موازينهم واستباحوا اللواط وهو أشنع وأفحش من الزنا وأعظم منه جرما وإثما، فعاقبهم الله بطمس أبصارهم التي عمت عن نور الحق، وأخذتهم الصيحة تدوي في آذانهم التي صمت عن الحق، وقلبت قراهم فجعل عاليها سافلها ؛ فلقد انقلبت موازينهم واختلطت مفاهيمهم، فاقترفوا تلك الفاحشة وهى إتيانهم الرجال من دون النساء، وفى هذا انقلاب في ميزان الفطرة، واعتبروا الطهر والعفاف إثما وجرما يستحق صاحبه العقاب والطرد ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل:٥٦].

أما الشذوذ والانحراف فهو حق لهم يجاهرون به ويتباهون بفعله ويطالبون به كما يطالب الإنسان بحقه المشروع ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧﴾ [القمر: ٣٧].

واستعجلوا وقوع العذاب وكان واجبهم طلب الهداية والنجاة، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فكان حالهم في استعجال العذاب كحال كفار قريش حين قالوا كما أخبر القرآن الكريم ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢].

وكان الأولى بكفار قريش أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه وحببنا فيه وثبتنا عليه .

ومن مظاهر انقلاب موازين قوم لوط أنهم اعتبروا واجب الضيافة أمرا منكرا يجب اجتنابه فقالوا للوط عليه السلام ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هو ينهاهم عن الفحشاء والمنكر وما فيها من إهانةٍ وهم ينهونه عن البر والخير وإكرام الضيف .

لم يراعوا حق الضيافة ولا حرمة الضيف بل هرعوا إلى بيت لوط وراودوه عن ضيفه، وبسبب هذه الأفعال المنكرة التي تدل على انقلاب موازينهم واختلاط المفاهيم عندهم استحقوا العذاب الأليم المهين، حيث قلبت قراهم فأصبح عاليها سافلها، ورجموا بالحجارة وأخذوا بالصيحة، أصناف مختلفة

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ٢٥١.

من العذاب لتنوع جرائمهم وكثرة مفاسدهم وذنوبهم.

لقد حل بقوم لوط أشد وأنكى صنوف العذاب بسبب كفرهم وفسقهم وفي ذلك عبرة لمن يعتبر قال تعالى بعد أن ذكر ما حل بقوم لوط من العذاب الشديد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٥-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]. وقال عز وجل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٧].

بينت الآيات الكريمة مجيء الملائكة لإبراهيم أولاً وإبلاغه بمهمتهم التي وكلوا بها وهي إهلاك قوم لوط، ونجاة لوط ومن آمن به من أهل بيته، وهلاك امرأته مع الهالكين، وتحرج لوط من مجيء الملائكة في صورة بشرية ؛ خوفا عليهم من قومه وحين اشتد عليه الأمر أخبروه بحقيقتهم ومهمتهم، حيث حل العذاب على أولئك الفساق، وجعلهم الله عبرة واضحة وموعظة بليغة لكل عاقل .

فوائد وعبر من قصة لوط عليه السلام

في قصة لوط عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم الكثير من الدروس المستفادة نذكر منها ما يأتي:

١. جعل الله تعالى قوم لوط عبرة لمن يعتبر، عبرة لكل مكذبٍ عبرة لكل ظالم وفاسق، عبرة لكل مسرف عادٍ، فهذا شعيب عليه السلام يحذر قومه من مصير من سبقهم على طريق الكفر والضلال فيقول كما أخبر القرآن: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: ٨٩]. وقد ضرب الله بهم المثل في أمم هالكة وقرون غابرة قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق: ١٢-١٤]. وقال جل وعلا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٢-٤٦]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [الحجر: ٧٣-٧٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٩].

٢. درسٌ في التربية والدعوة: إعداد الله تعالى لأنبيائه هؤلاء الأنبياء وهم أعلم الخلق بربهم وأعظمهم خشية له وهم المثل العليا في الأخلاق والآداب والسلوك والتعامل: كيف تربوا ؟ وفي أي مدارس تخرجوا ؟ إنها تربيةٌ خاصةٌ وإعدادٌ رشيد، فالله تعالى يعده لهذه المهمة الجليلة التي لا يقوم بها ولا ينهض لها إلا رجالٌ من طراز خاصٍ. فهذا لوطٌ عليه السلام يتربى في كنف عمه إبراهيم ويعاين تلك الآية الكبرى كيف ألقي في النار فكانت له بردا وسلامًا.

٣. التوحيد هو أساس دعوة جميع الأنبياء، ولقد استهل لوط عليه السلام دعوته بعرض العقيدة الصحيحة الخالصة، عقيدة التوحيد .

٤. العقيدة أولًا: بدأ بها لوط لأنها الأساس الذي تقوم عليه المكارم والفضائل، الأصل الذي تقوم عليه القيم والأخلاق. بدأ بالعقيدة قبل أن ينكر على قومه ما هم فيه من الفاحشة والمنكرات، وذلك لأن الطريق إلى الإصلاح المنشود، الإصلاح الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، لا بد أن يبدأ من إصلاح العقيدة وإخلاص العبادة، فإذا صحت العقيدة ورسخت في قلوب المؤمنين، وخلصت العبادة لله رب العالمين كان الطريق إلى الإصلاح والتغيير طريقا سهلا ممهدا، وبدون العقيدة الصحيحة لن تفلح أي محاولة للإصلاح أو التغيير. فالعقيدة هي الحصن الحصين والأساس المتين والنبراس المبين للدعاة والمصلحين، وفي قول لوط عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الشعراء:١٦٢] بيان لأهمية الأمانة للدعاة، أمانة الكلمة، أمانة النصيحة، أمانة التبليغ.

٥. تجرد الأنبياء وإخلاصهم في الدعوة إذ لم يتقاضوا عليها أجرا من البشر، وإنما الأجر كله من الله الذي بعثهم .

٦. ضرب لوط عليه السلام أروع الأمثلة في الصبر والثبات على الحق، والحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل والثقة بالله تعالى واليقين بوعده سبحانه الذي لا يتخلف، كما ضرب عليه السلام أروع الأمثلة في إكرام الضيف ورعاية حقوقهم والترحيب بهم حتى في أصعب الأحوال، فلقد استضافهم عليه السلام رغم أن قومه نهوه عن ضيافة الغرباء وحذروه من عاقبة ذلك، وحين هرع قومه إلى بيته وراودوه عن ضيفه نجده يدافع عن ضيفه، ويذود عنهم بكل ما يملك حتى وصل به الأمر إلى عرض بناته على قومه - ليتزوجوا بهن - في مقابل عدم تعرضهم للضيف الكرام وفى هذا درس هام في إكرام الضيف، ولنا في أنبياء الله الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة .

٧. في موقف لوط عليه السلام من قومه حين هرعوا إلى بيته وراودوه عن ضيفه، وحاول بكل السبل منعهم، وصدهم حتى ضاقت به السبل فالتفت إلى ضيفه واعتذر لهم، ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ في هذا الموقف إشارة إلى أهمية القوة في نصرة الحق وفي نشر الدعوة وفي مواجهة أهل

الباطل، فالحق لا بد له من قوة تحميه . ولذلك كان الجهاد في سبيل الله للقضاء على النظم الجاهلية التي تحول دون وصول الحق وتكره الإنسان على عبادة غير الله وتقف للمسلمين بالمرصاد فلا بد إذا من الجهاد لإزالة وإزاحة هذه النظم المتسلطة الجائرة، حتى يكون الطريق ممهدا لدعوة الله، لتجد طريقها إلى القلوب الصادقة والنفوس المتشوقة والعقول المتعطشة لدين الله، دين الحق والرشاد . ولا بد من الجهاد لحماية المؤمنين المستضعفين المضطهدين . قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال:٣٩]. ولقد حثنا الإسلام على إعداد القوة في مواجهة أعداء الله الذين يصدون عن سبيله ويبغونها عوجا قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فالقوة في الإسلام وسيلة لا غاية، وسيلة نبيلة إلى غاية سامية هي إرهاب أعداء الله؛ لأنهم متى استهانوا بالمؤمنين قهروهم . قال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الممتحنة:٢].

٨. ويستفاد من هذه القصة أن الكافر يعاقب على كفره ولا تنفعه قرابته من أهل الإيمان في النسب أو المصاهرة، كما أن المؤمن يثاب على إيمانه ولا يضره قرابته من الكافرين في النسب أو المصاهرة. قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم:١٠]. وامرأة لوط رغم أنها أقرب الناس إليه وأعلمهم بأحواله وأفعاله إلا أنها كذبت به وآثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال على ما جاء به لوط عليه السلام من الإيمان والهدى والفلاح والصلاح، فلم تنفعها قرابتها له وقربها منه. قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٣]. وقال تعالى ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر: ٦٠]. نجا الله لوط عليه السلام ومن آمن به من أهل بيته وأهلك زوجته، تلك العجوز التي شبت على الكفر وشابت عليه، وكان الأولى بها

وقد أصابها الكبر فبدل قوتها ضعفا وهوانا وشبابها شيبا، فكان بلوغها الكبر: من أبلغ النذر، ومن أعظم العبر. ومنطق الحق يقول: إن الإنسان كلما كبر سنه كلما نضج عقله وصفا ذهنه وجادت قريحته وزادت خبرته وفراسته، ولكن امرأة لوط تلك العجوز على النقيض من ذلك فهي ما زادتها أحداث الليالي وتتابع الأعوام إلا غفلة على غفلة وضلالا على ضلال.

٩. كما يعاقب الكافر على جميع جرائمه، وفي مقدمتها الكفر وهو أكبر الذنوب، فإنه يعاقب على سائر الذنوب كبيرها وصغيرها. التناسب بين الجريمة والعقاب ؛ فقوم لوط كانوا يحذفون عابري السبيل بالحجارة فأيهم أصابه استأثر به واعتدى عليه، وقد انقلبوا وتمردوا على الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة، فصار الشذوذ عندهم معروفا ومألوفا وصارت الفاحشة عندهم حقًا مشروعًا، وصار الطهر والعفاف جريمةً يؤاخذ بها أصحابها، فكان الجزاء من جنس العمل، قلب الله قراهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من جهنم، وسلط عليهم الريح، ترجمهم بالحجارة، وأخذتهم الصيحة وغير ذلك من ألوان العذاب التي كثرت لكثرة جرائمهم.

١٠. وصف الله لوطا ومن آمن به من أهل بيته بالشكر. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ وقد يتساءل البعض ويقول: أي شكرٍ وقد ابتلوا بأرذل قوم، قوم لوطٍ الذين جمعوا بين الكفر والفسوق والعصيان والانحلال والتبجح والدناءة وسائر ما يعد من مساوئ الأخلاق ؟ لكن أقول: إن أمر المؤمن كله خير فهو بين الصبر والشكر، يحمد الله تعالى على الضراء، كما يحمده على السراء، يشكره تعالى في زمان الفتن وأوقات المحن كما يشكره في سائر الأوقات، يستنشق نسيم النعم ويتذوق حلاوة الهداية ويعتز بالحق ويستعصم بالعفاف والطهر، سيما إذا رأى المجتمع من حوله يتردى في ظلمات الكفر، أو يتمرغ في أوحال الرذيلة، أو يكتوي بلهيب المعاصي، ويتقلب على جمرها الحار، فيحمد الله تعالى على أن هداه وعصمه وطهره ونجاه من حمأة الرذيلة، فيشعر ببجنة الرضا وبرد اليقين وحلاوة الإيمان، ولذة الطاعات، فهلاك الظالمين ونجاة المتقين نعمة من الله تعالى تستوجب

الشكر.

١١. سنن الله تعالى ثابتة لا تتغير فهؤلاء قوم لوط توعدوه بإخراجه من قريته؛ لأنه كان ينكر عليهم عبثهم ومجونهم وقد جاءهم بالحق ولكنهم كانوا كارهين له، ونبينا صلى الله عليه وسلم أخرجه قومه؛ لأنه جاءهم بالتوحيد ومكارم الأخلاق ونقض ما كان عليه أهل الجاهلية من كفر وطغيان، وقد روت عائشة رضي الله عنها في حديث كيف كان بدء الوحي ؟: (فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو مخرجي هم)، قال: نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[1].

١٢. ذم اللواط وعقوبة فاعله: اللواط من أكبر الفواحش، ومن أفحش الكبائر، وهو مرض خطير وشر مستطير وجرم كبير، عاقبته وخيمة ونهايته مفزعة مفجعة أليمة، وهو شذوذ وانحراف، وفسوق وإسراف وضلال وانحلال، ومذلة للرجال ؛ لأنه يقتل فيهم الرجولة والمروءة والشهامة، ويصيروا بارتكابه مخنثين معقدين أذلاء صاغرين، في حالة قلق واضطراب . واللواط مفسدة للنساء ؛ إذ ينصرف الرجال عنهن، وقد تلجأ المرأة إلى الزنا لإشباع رغبتها وقد تلجأ إلى السحاق، كما روي أن نساء قوم لوط فعلن ذلك حين انشغل الرجال عنهن بالرجال، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (إنما حق القول على قوم لوط حين اشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء)[2]. واللواط جناية على الفطرة السليمة ومفسدة للشباب، حيث ينصرفون عن الزواج الحلال وينغمسون في أوحال تلك الفاحشة، كما يترتب على اللواط قلة النسل بسبب الانصراف عن الزواج، وبذلك تتقوض أركان الأسرة وينفرط عقد المجتمع وتنهار الحضارات، فاللواط عامل كبير من عوامل الفساد، ومعول ثقيل من معاول الهدم للنفس والمجتمع، وهو سبب أساسي في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٩، رقم ٢٥٢.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢١/ ٢٤.

انتشار كثير من الأمراض الفتاكة المزمنة كالزهري والسيلان والهربس، ومرض الايدز الذي لم يعرف إلا سنة ١٩٨١م، ومن ذلك الحين وحتى وقتنا هذا لم يعرف له علاج رغم التقدم العلمي الكبير.

١٣. في استئصال قرى قوم لوط إشارة إلى أن المريض بهذا الشذوذ إن لم يتب فلا بديل عن استئصاله من المجتمع .

١٤. ربط العلماء بين جعل قرى قوم لوط عاليها سافلها ليطمروا في التراب، وبين ضرورة دفن المصابين بالإيدز بعد موتهم، حيث يوصى بحرق الجثة وطمرها في التراب على أعماق بعيدة لأن مرض الإيدز ينتقل عن طريق دم المريض ولعابه ومنيه. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: (يا معشر المهاجرين ! خصالٌ خمسٌ إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم ويأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بينهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)[1]. فالأمراض الجنسية السالفة الذكر عقوبة إلهية للزناة واللوطيين الذين تعدوا حدود الله وانتهكوا محارمه. انتشار اللواط في المجتمعات الكافرة: وما يؤسف له أن اللواط قد انتشر انتشارًا واسعًا في المجتمعات الكافرة، مع كثرة النساء وانتشار البغاء، ففي الدول الغربية قوانين وتشريعات تبيح اللواط وتشجع عليه طالما كان بين بالغين دون إكراه. وفى دائرة المعارف البريطانية [2] أن الشواذ جنسيا خرجوا من دائرة السرية إلى العلنية وأصبح لهم منتدياتهم - نوادي العرى - وحدائقهم، ومراحيضهم الخاصة بهم، وتعرف الشرطة هذه الأماكن وتقوم على حمايتها ورعايتها. وهناك آلاف الجمعيات في الغرب ترعى شئون الشواذ جنسيًا وتطالب لهم بمزيد من الحقوق، ولقد أصبحوا

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم ٤٠١٩، ٢/ ١٣٣٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢١، رقم ٧٩٧٨.

(٢) دائرة المعارف البريطانية ١٢/ ٦.

قوة لا يستهان بها، وورقة رابحة ناجحة في الانتخابات العامة والرئاسية، ولقد وجدنا كبار الساسة والقادة يخطبون ود الشواذ ويغرقونهم بالوعود إن هم وقفوا بجانبهم في حملاتهم الانتخابية، فإذا حقق هؤلاء الساسة والقادة بغيتهم وفازوا بالمناصب فإنهم يسارعون إلى تحقيق ما وعدوا به من تنازلات للشواذ جنسيًا، ولو نظرنا على سبيل المثال للحملات الانتخابية لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية لوجدنا كيف يتبارى المرشحون ويتنافسون على كسب أصوات الشواذ، بل إن نسبة كبيرة من الشواذ تتبوأ مقاعد حساسة ومناصب هامة في الحكومات الغربية بل وفى الجيوش، وفى أمريكا وأوروبا كنائس مخصصة للشواذ يباح فيها للرجل أن يتزوج بالرجل، وللمرأة أن تتزوج من المرأة، بل إن بعض الجامعات في الولايات المتحدة تخصص منحا دراسية للشواذ فقط، ومن هذه الجامعات جامعة سير جورج وليامز، ولا يمكن للطالب أن يحصل على منحة بتلك الجامعات إلا إذا ثبت أنه شاذ جنسيا. وفي إحدى المجلات الصادرة في انجلترا والخاصة باللوطيين نجد هجوما متتابعا على موقف الكنيسة من الشذوذ ولقد قام أحد الكرادلة بالرد على هذا الهجوم فقال: إن الكنيسة البروتستانتية هي في حالة مخاض الآن، وأنه عما قريب ستعترف الكنيسة بالشذوذ الجنسي وأنه شخصيا يرى أنه أمر عادى مألوف، ولا مانع في نظره من أن يصبح الشاذ قسيسًا. وفي اجتماع مجلس الكنائس الإنجليزية وافق المجلس بأغلبية الأصوات على إباحة الشذوذ الجنسي بشرط حدوثه بين بالغين مختارين، وكان كبير الأساقفة في كانتربري هو الذي قاد الحملة التي تهدف إلى إباحة الشذوذ، ولقد صرح قائلًا: «إنه يشعر بالقلق لما يصيب الشخص المصاب بالشذوذ الجنسي من ظلم القانون، في حين يستطيع أي شخص آخر أن يدمر أسرة ويشردها بدون عقاب يوقع عليه» . فأي منطق هذا وأي عدالة يسعى إليها كبير الأساقفة !! إن كلامه هذا يعنى أنه يجب إباحة كل الجرائم وعدم توقيع العقاب على مرتكبيها طالما أن هناك من يتمكنون من الإفلات بجرائمهم! ولقد ذكرت إحدى الإحصائيات أن نسبة كبيرة من القساوسة في انجلترا شواذ جنسيًا[(١)]. ومجمل القول فيما

(١) انظر: مجلة المجتمع الكويتية، سنة ١٣ عدد

سبق: أن الزنا واللواط قد انتشر في المجتمعات الغربية المنحلة كانتشار النار في الهشيم وما ذلك إلا بسبب بعدهم وضلالهم عن الحق، وترفهم وإسرافهم، واستغلالهم التقدم العلمي الهائل والغنى المادي الفاحش في إشباع الشهوات والنزوات. يقول الأستاذ فتحي يكن: «إن انحراف التربية وانعدام الحس الديني، وفساد الأخلاق من شأنها جميعا أن تهيئ الأجواء والمناخات المناسبة للانحراف والشذوذ، وإن الفراغ والترف وتميع مواقف القوانين الوضعية من الجرائم الأخلاقية والجنسية من الأسباب الرئيسية الكامنة وراء ظاهرة الشذوذ الجنسي»[1].

١٥. الحلال هو الطيب الذي يتلاءم مع الفطرة بينما الحرام هو الخبيث الذي يجافي الفطرة وينافي الذوق وتعافه النفوس السوية وتأباه القلوب السليمة، وأبواب الحلال كثيرة وواسعة وميسورة، والزواج حصن للشباب وعصمة من الانحراف، هذا لوط عليه السلام عرض بناته على قومه عرضًا حقيقيًا، ومقصده من ذلك أن يرغبهم في الحلال الطيب ويصرفهم عن الفاحشة، وأن يردهم إلى الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة ويبعدهم عن الشذوذ والانحراف، وأن ينقلهم من مستنقعات الرذائل ودنس الفواحش، ويأخذ بأيديهم إلى واحة الطهر والعفاف، والزواج هو الحصن الحصين من جميع الانحرافات الجنسية، فإذا قبلوا وتزوجوا من بنات لوط عليه السلام كان الزواج الحلال الطيب سنة ماضية في سائر القوم وبذلك ينصرف الجميع عن الفاحشة.

١٦. تعاطي المحرمات عدوانٌ وانحرافٌ وجهلٌ وإسراف.

١٧. ذم المراء بالباطل، بل يجدر بالمؤمن ترك المراء ولو كان محقا.

١٨. أسلوب لوط عليه السلام في دعوة قومه يجلو لنا حكمته وفطانته وأدبه وبلاغته، حيث براعة الاستهلال، والإيجاز والبيان، والبساطة والوضوح، وتقديم الأهم، وحسن التشويق ودقة الوصف، وبلاغة الإنكار والتنفير.

١٩. أثنى الله تعالى على من آمن بلوط عليه السلام ولم يؤمن به إلا أهل بيته ولم يذكر القرآن سوى بناته، ولقد وصف الله أهل بيته بالإسلام والإيمان، وأثنى على شكرهم ووصفهن لوط بالطهر بل

(١) الإسلام والجنس ص ٤٩.

وصف قوم لوطٍ آل بيته بالطهر، وفي جمعهم بين الإيمان والإسلام والطهر والشكر أبلغ رد على مفتريات اليهود في العهد القديم واتهامهم لبنات لوط بأبشع التهم وهن المؤمنات الطاهرات الشاكرات الناجيات. قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣١-٣٦]. وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦]. وقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥]. قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه «إغاثة اللهفان»: قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه، دون سائر الذنوب، وإن كان مشتملًا على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

٢٠. وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤]. وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. فأقروا مع شركهم وكفرهم، أنهم هم الأخباث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له. وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]. وأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة. فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، فإن الله عز وجل لا يغفر أن يشرك به، والمخففة: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، و التصنع للمخلوقات والحلف به، وخوفه ورجائه. ثم قال: ونجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جدًا. ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركًا، فكلما كان الشرك في العبد أغلب، كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصًا، كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

أحكام متعلقة بالقصة

أولًا: عقوبة اللواط في الشريعة الإسلامية:

اختلف الفقهاء في عقوبة اللوطي، وذلك على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: وهو مذهب الإمام مالك والإمام أحمد وقول للشافعي وهو أن حد اللوطي القتل فاعلا كان أو مفعولا، محصنا كان أو غير محصن، وهذا القول مروى عن أبي بكر وعمر وعلي وابن عباس رضي الله عنهم ونقل بعض الحنابلة إجماع الصحابة على ذلك[(١)].

واستدل أصحاب هذا الرأي بما يلي:

١- الحديث الذي رواه الخمسة إلا النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول)**[(٢)].

٢- كما استدل أصحاب هذا المذهب بما روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: المغني، ابن قدامة ٨/ ١٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم ٤٤٣٨، والترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوط، رقم ١٤٥٦، ٤/ ٤٧. قال الترمذي: حديث حسن. وصححه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٢٩.

فسألهم عن رجل ينكح كما تنكح النساء فكان أشدهم يومئذ قولا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم، نرى أن نحرقه بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرق بالنار من فعل هذا الفعل[(٣)].

قال ابن القيم في زاد المعاد: «ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قضى في اللواط بشيء؛ لأن هذا لم يكن معروفا عند العرب ولم يرفع إليه صلى الله عليه وسلم ولكنه ثبت عنه أنه قال: **(اقتلوا الفاعل والمفعول به)** رواه أهل السنة الأربعة و إسناده صحيح وقال الترمذي: حديث حسن، وحكم به أبو بكر الصديق وكتب به إلى خالد بن الوليد بعد مشاورة الصحابة وكان علي رضي الله عنه أشدهم في ذلك . وقال ابن القصار وشيخنا: أجمعت الصحابة على قتله، وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يرمى من شاهق. وقال علي رضي الله عنه: يهدم عليه حائط. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يقتلان بالحجارة. فهذا اتفاق منهم علي قتله وإن اختلفوا في كيفيته»[(٤)].

أقول وورد عن علي كما ذكرنا آنفا أنه

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي ٨/ ٢٣٢.

(٤) زاد المعاد ٣/ ٢٩.

أمر بحرق من فعل هذا الفعل، وإنما ذكر الصحابة الكرام هذه الكيفيات المختلفة؛ لأن الله تعالى عذب قوم لوط بصنوف مختلفة من العذاب.

المذهب الثاني: أن اللواط في حكم الزنا، يرجم المحصن ويجلد غير المحصن فاعلا كان أو مفعولا، وهذا هو مذهب الشافعية، وقد استدلوا على مذهبهم بالنص والمعقول.

أما النص: فالحديث الذي رواه البيهقي في السنن والطبراني في الكبير عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان**)[1].

وأما المعقول: فلقد قالوا إن الزنا عبارة عن إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم شرعا، والدبر أيضا فرج لأن القبل إنما سمي فرجا لما فيه من الانفراج، وهذا المعنى حاصل في الدبر فيكون حكم اللواط كحكم الزنا[2].

المذهب الثالث: وهو مذهب الأحناف[3]: الذين قالوا بأن في اللواط التعزير، إذ أن اللواط غير الزنا، فاللواط يقع بين الرجل والرجل، أما الزنا فهو اسم لوطء الرجل للمرأة التي لا تحل له، والزنا تشتهيه النفس ويميل إليه الطبع، أما اللواط فإن الطباع السليمة والفطرة المستقيمة تأباه وتستهجنه وتستقذره، والزنا أعظم ضررا لما يترتب عليه من فساد الأنساب.

والذي أرجحه في هذه المسألة أن اللوطي يقتل محصنا كان أو غير محصن، فاعلا كان أو مفعولا به، وهذا هو مذهب الإمام مالك وأحمد وقول للشافعي وهو المروي عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحديث الذي استندوا إليه (**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول**) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن القيم: حديث صحيح، وقال الترمذي: حديث حسن، وقال الشوكاني معلقا على روايات الحديث: وهى بمجموعها تنهض للاحتجاج بها، أما الحديث الذي استدل به الشافعية (**إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وإذا أتت المرأة**

(١) أخرجه البيهقي فى السنن الكبرى، كتاب الحدود باب ما جاء في اللوطي، ٨/ ٢٣٣. قال الحفاظ ابن حجر فى التلخيص الحبير ٤/ ٥٥ بعد أن عزاه للبيهقي: وفيه محمد بن عبد الرحمن القشيري، كذبه أبو حاتم، وأخرجه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء، والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبى موسى وفيه بشر بن الفضل البجلي وهو مجهول.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازى ٢٣/ ١٣٢، آيات الأحكام، السايس ٣/ ١١٤، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٤٣.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٤٥.

المرأة فهما زانيتان) فهو حديث ضعيف الإسناد كما ذكرنا في تخريجنا له، وعلى فرض صحته فإنه لا يصرح بأن حكم اللواط هو حكم الزنا، وإنما يفيد الترهيب من اللواط وأنه محرم وكبيرة من الكبائر كالزنا.

يقول الإمام الشوكاني: «واحتجوا بأن اللواط نوع من أنواع الزنا، إيلاج فرج في فرج؛ فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحصن والبكر، ويؤيد ذلك حديث (إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان) وعلى فرض عدم شمول الأدلة المذكورة لهما فهما لاحقان بالزاني بالقياس، ويجاب عن ذلك بأن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والثيب على فرض شمولها للوطي ومبطلة للقياس المذكور على فرض عدم الشمول ؛ لأنه يصير فاسد الاعتبار كما تقرر في علم الأصول، وما أحق مرتكب هذه الجريمة ومقارف هذه الرذيلة أن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ويعذب تعذيبا يكسر شهوة الفسقة المتمردين، فحقيق بمن أتى فاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم، وقد خسف الله بهم واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم»[(١)].

ثانيًا: حرمة إتيان النساء في أدبارهن:

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وفى هذه الآية بيان لحرمة إتيان النساء في أدبارهن ؛ لما في ذلك من الأذى والضرر وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال: «كانت اليهود تقول: من أتى امرأته في قبلها من دبرها كان الولد أحول فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾»[(٢)].

فإتيان المرأة في دبرها فإنه أمر تنفر منه النفوس وتأباه العقول، وهو مخالف للطبيعة السليمة والفطرة المستقيمة، ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي: موضع حرث، وفى هذا إشارة إلى أن موضع الجماع هو الحرث وهو الفرج؛ لأنه موضع الولد كما أن الأرض موضع الزرع.

فالمرأة كالأرض والنطفة كالبذرة والولد كالنبات ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم، يباح لكم الاستمتاع بالنساء، وإتيانهن

(١) نيل الأوطار ٧/ ١١٨ بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم)، رقم ٤٥٢٨.

في موضع الحرث مقبلات كن أو مدبرات.

ومن الأضرار الناتجة عن إتيان النساء في أدبارهن: تهتك الشرج والمستقيم وعدم التحكم في الغائط، لذلك فإنه معرض للنزول بصورة لا إرادية، هذا إلى جانب ماينتج عن هذا الفعل القبيح من عقد نفسية للرجل والمرأة ومن تنافر وتباغض بينهما، بالإضافة إلى الانصراف عن موضع الحرث كما أنه لا يشبع الرغبة الجنسية للمرأة والرجل، ويفتح الباب إلى الزنا، وهذا الفعل القبيح يساعد على نقل الأمراض الجنسية التي سبق الإشارة إليها[١].

موضوعات ذات صلة:

إبراهيم عليه السلام، العذاب، الفواحش، النبوة، النساء

(١) انظر: مع الطب في القرآن الكريم، عبدالحميد دياب، وأحمد قرقوز ص ٤٧.







عناصر الموضوع

المجلد التاسع والعشرون

مفهوم الليل

أولًا: المعنى اللغوي:

يطلق الليل اسمًا على الزمن، وهو أشهرها، ولذلك يقولون: هو ضد النهار وخلافه[(١)]. وهو الظلام الذي يحل فيه[(٢)]. والليل: واحدٌ بمعنى جمع، وواحده ليلةٌ كـ تمرةٌ وتمرٌ[(٣)]، والجمع: ليالٍ وليائل وليالي[(٤)]، والليل اسمٌ لكل ليلة[(٥)]، وعليه: يكون القصد منه الزمن.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

حد الليل عند المفسرين والفقهاء يختلف عنه عند أهل اللغة، وبناءً على ما سبق من تعريف الليل عند أهل اللغة، يتضح ارتباط المعنى اللغوي والاصطلاحي في كونه مدة زمنية، لها وقت ابتداء وانتهاء؛ فاتفقوا في وقت الابتداء وهو غروب الشمس، ووقع الاختلاف في تحديد مدة انتهاء الليل، فأهل اللغة حدوه إلى طلوع الشمس، والفقهاء حدوه إلى طلوع الفجر الصادق الثاني، وهو الموافق لنص القرآن الكريم كما جاء في آية الصيام.

ومن هنا فإن الليل هو عبارة عن: ظلام يحل كل يومٍ عقب النهار، مبدؤه من غروب الشمس، إلى طلوع الفجر الثاني الصادق[(٦)].

وعليه؛ ففي التعريف قيدان:

الأول: حلول الظلام وذهاب الضياء، وهذا يتم تدريجيًا بدخول أحدهما وذهاب الثاني، كما قال الإمام ابن جرير الطبري (رحمه الله ٣١٠هـ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦]. «إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا»[(٧)].

الثاني: مدة زمن ابتداء الليلة وانتهائها، وهو من طلوع الشمس إلى طلوع الفجر الثاني.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٣١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٢٥، لسان لعرب، ابن منظور، ٨/ ١٧٨.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣١٨، لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.
(٣) لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٥٨٩، لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ١٤٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٩٣، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٠٧، نظم الدرر، البقاعي ٩/ ٧٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٩٣.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤.



الليل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ليل) في القرآن الكريم (٩٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٨٨	﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:٥]
الجمع	٤	﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[الحاقة:٧]

وجاء الليل في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الذي: هو ما يعقب النهار من الظلام؛ من غروب الشمس إلى طلوعها أو إلى طلوع الفجر[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٥٦-٦٥٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص١١٦١-١١٦٢.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٢٨٧، عمدة الحفاظ، الحلبي ٤/ ٦٠-٦١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٤٧١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظلمة:

الظلمة لغة:

والظلمة: ضد النور، وضم اللام لغةٌ، وجمع الظلمة (ظلمٌ) و(ظلماتٌ) و(ظلماتٌ) و(ظلماتٌ) بضم اللام وفتحها وسكونها، وقد (أظلم) الليل، و(الظلام) أول الليل، و(الظلماء) الظلمة، وربما وصف بها، يقال: ليلةٌ ظلماء، أي: (مظلمةٌ) و(ظَلِمَ) الليل بالكسر (ظلامًا) بمعنى (أظلم) وأظلم القوم دخلوا في الظلام[(١)].

الظلمة اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الظلمة: عدم الضوء فيما من شأنه أن يكون مضيئًا»[(٢)].

الصلة بين الظلمة والليل:

هناك علاقة اقتران بين الظلمة والليل، فالظلام مقترن بالليل، كالضياء مقترن بالنهار.

٢ النهار:

النهار لغة:

هو الضياء الواسع ممتد ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والنهار ضد الليل، يقال: طرفي النهار: أي أوله وآخره[(٣)].

النهار اصطلاحًا:

قال الألوسي النهار هو: «ما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس»[(٤)].

وقال ابن باديس النهار: «هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيؤه بنورها»[(٥)].

الصلة بين النهار والليل:

النهار من الألفاظ المقابلة للفظة الليل، وغالب آيات الليل جاءت مقرونة بلفظ النهار.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٨، مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٩٧.

(٢) التعريفات ص١٤٤.

(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١٤/ ٣١٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٢٩٢، معجم وتفسير لغوي لألفاظ القرآن، محمد حسن الجمل ٥/ ١٢٢.

(٤) روح البيان، ٦/ ٢٢٢.

(٥) انظر: تفسير ابن باديس، ص٤٥.

٣ النور:

النور لغةً:

قال ابن فارس: «النون والواو والراء أصلٌ صحيح يدل على إضاءةٍ واضطراب وقلة ثبات. منه النور والنار، سُمِّيا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأن ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة»[١].

النور اصطلاحًا:

قال الراغب: «النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار»[٢].

الصلة بين النور والليل:

النور من الألفاظ المقابلة للفظة الظلام، فالنور عكس الظلمة، وأتي به هنا؛ لأنه خاصية للنهار كما أن الظلمة خاصية الليل.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٤.
(٢) المفردات ص٨٢٧.

الليل آية كونية

أولًا: الليل نعمة إلهية:

إن من رحمة الله عز وجل بخلقه أن سَيَّرَ ونَظَّمَ لهم أمور حياتهم، وجعل الليل والنهار شاهدين على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

«ووجه تسخير هذه الأشياء لنا: هو أن الله خلقها، وجعل فيها منافع للخلق؛ فجعل في النهار معاشًا للخلق وتقلبًا فيه يتعيشون، وجعل الليل راحةً لهم وسكنًا، ينتفعون بهما، وكذلك ما جعل في الشمس والقمر والنجوم من المنافع: من إنضاج الفواكه والثمرات، وإدراك الزروع وبلوغها، ومعرفة الحساب والسنين والأشهر، ومعرفة الطرق والسلوك بها، وغير ذلك من المنافع ما ليس في وسع الخلق إدراكه»(١).

ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

فجعل الليل من ضمن النعم المحكية.

ولليل فوائد عظيمة ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم، ومن هذه الفوائد:

١. أنه جعل الليل سكنًا ولباسًا، والنوم فيه سباتًا.

وهذه منة عظيمة من الله تعالى؛ إذ السكون راحة لكل متحرك بالنهار، فتهدأ به النفوس من التعب وتستقر الأبدان(٢).

قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

كما أنه سبحانه وتعالى جعل النوم سباتًا، أي: راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال.

قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وأصل السبات من التمدد. وقيل: للنوم سبات؛ لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة(٣).

وفي الآية «إشارة إلى أن النوم ظاهرة غير ظاهرة الراحة والسكون، فقد يستريح الإنسان ويسكن، ولكن وجوده كله حركة عن طريق العقل، الذي لا يكف عن العمل والتفكير، إلا بالنوم المستغرق، الذي يسكن فيه العقل، كما تسكن الجوارح، فالسبات

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٤٨٣ بتصرف.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٥٧، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٣/ ٢١١٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٨ بتصرف.

هو السكون التام»[1].

ووصف سبحانه في الآية السابقة الليل بأنه كاللباس الذي يستر البدن ويواريه عن الأنظار، فكأن الليل إذا دخل بظلامه غطى كل شيء وستره لكي ترتاح معه خلايا الكائنات الحية وتستعد لمزاولة عملها بنشاط في النهار[2].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

وتكرر جعل الليل للسكن في سورة يونس (٦٧)، وسورة القصص (٧٣)، وسورة غافر (٦١).

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ «أي: فيه ظلامٌ تسكن بسببه حركاتهم، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم»[3].

٢. المصالح الدنيوية المترتبة على تعاقب الليل والنهار واختلافهما.

وهذه المصالح مسخرة للإنسان لكي تستمر دورة الحياة لديه.

ولذلك حث الله تعالى أولي الألباب على التفكر في اختلاف الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

قال السمين الحلبي (رحمه الله ٧٥٦هـ): «والمراد باختلاف الليل والنهار: تعاقبهما، وذهاب هذا ومجيء الآخر، كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]»[4].

وفائدة تعاقب الليل والنهار وزيادة ساعات أحدهما على الآخر في فصول السنة الأربع: اختلاف الثمار وتنوعها بحسب الفصل التي هي فيه، فهناك ثمار لا تأتي إلا في الصيف، وأخرى في الشتاء، وهكذا.

ولذلك قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[آل عمران: ٢٧].

«أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة: ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاءً»[5].

وقال سيد قطب: «وجعل حاجتهم إلى النشاط والعمل يلبيها الضوء والنهار، وحاجتهم إلى النوم والراحة يلبيها الليل والظلام، مثلهم مثل جميع الأحياء على ظهر هذا الكوكب على نسب متفاوتة في هذا ودرجات، وكلها تجد في نظام الكون العام

(١) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٩٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢١٥.
(٤) القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، تحقيق سورة آل عمران، ص ٣٧٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩.

ما يلبي طبيعتها ويسمح لها بالحياة»[1].

٣. تجدد دورة الحياة واستمرارها.

فلو كانت الحياة ليلًا لتعطلت مصالح الخلق، ولو كانت نهارًا لما وجد النوم والسكن والسبات، وكذلك الأمر في الكائنات الحية الأخرى كالنبات، فهي تحتاج للظلام كما تحتاج للنور، فتبارك الله أحسن الخالقين، وقد جاءت الإشارة في ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

فوجود الليل أو النهار للأبد بمفرده يترتب عليه حصول الضرر بالخلق، وحصول السآمة والملل والتعب[2]، فكان من حكمة الله وقضائه أن جعلهما متعاقبين.

٤. معرفة الأزمنة والأوقات، والاستدلال بها على الطرقات.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

ولا شك في أن لمعرفة الزمن والوقت فائدة عظمى للمسلم وهي تنظيم وقته، وتحديد أهدافه وأعماله في اليوم والليلة.

قال ابن كثير: «يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك»[3].

ثانيًا: التفكر في آية الليل:

إن المتأمل في كتاب الله عز وجل يجد أنه حث على التدبر والتفكر في خلق الليل والنهار، وامتدح المتدبرين بأنهم أصحاب العقول والألباب، وتارة وصفهم بالمتقين، وما ذلك إلا لأهمية التفكر في خلقهما.

وقد ورد الحث على التفكر في اختلاف الليل والنهار الذي هو بمعنى التعاقب في خمسة مواطن في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩.

﴿فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ لتدل بالدليل القاطع على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة، بعد ذكر صورٍ من مخلوقات الله وقدرته فيها وتسخيرها للخلق.

ويتكرر المشهد مرة أخرى في القرآن عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أنزلت عليه الآية: (ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر)[١].

وقد «جعل الله آية الليل والنهار للتدبر والنظر المؤديين إلى الاستدلال على قدرة صانعها، المدبر لأمرها»[٢].

وسئل الأوزاعي (رحمه الله ١٥٧هـ): ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن وهو يعقلهن[٣].

وكذلك الأمر في آية سورة يونس، بعدما ذكر الحكمة في التفريق بين وصف الشمس بالضياء، وبين وصف القمر بالنور.

والتفكر في آية الليل والنهار يزداد روعةً حينما يربط القرآن بينهما وبين الحياة والممات، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

«ثم إنه سبحانه حذر من ترك النظر في هذه الأمور فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ لأن ذلك دلالة الزجر والتهديد»[٤].

وبيَّنَ سبحانه وتعالى أنه يلبس الليل النهار بظلامه، ويلبس النهار الليل بضيائه، وجعلها من الآيات التي من تفكر فيها دلت عليه، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

كما أخبر سبحانه بأن نعمة الليل والنهار تستوجب الشكر والتذكر، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وجعل الاتعاظ بتعاقب الليل والنهار من خصال ذوي البصيرة.

قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٢/ ٣٨٦، رقم ٦٢٠، باب التوبة، وأبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب ١/ ٣٨٧.

(٢) القول الوجيز، الحلبي ص ٢٧٤.

(٣) الفتح السماوي، المناوي ١/ ٢٠٥.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٨٩.

والخلاصة: أن القرآن مليء بالآيات التي حثت على التفكر والتدبر في آية الليل والنهار، والنظر فيها بعين البصيرة والبصر؛ لتقود المرء إلى تقوية إيمانه بالله تعالى، وشكر نعمته فيهما.

ثالثًا: علاقة الليل بالنهار:

إن علاقة الليل بالنهار والنهار بالليل تدور بين التلازم من ناحية، وبين التضاد من ناحية أخرى.

١. علاقة التلازم.

ومن خلال ما سبق يظهر بأن الليل والنهار آيتان متلازمتان يكمل كل منهما الآخر، كما أنهما لا ينفكان عن بعضهما البعض، إذا ذهب هذا جاء الآخر، والعكس كذلك، وهذا ما يشير إليه لفظ القرآن في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

أي: يورد الليل على النهار فيلبسه إياه حتى يذهب بنوره، وكل ذلك يكون بسرعة كبيرة[(١)].

قال ابن كثير: «كل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

قال ابن جرير: «يعقب الله بين الليل والنهار ويصرفهما، إذا أذهب هذا جاء هذا، وإذا أذهب هذا جاء هذا، وفي تقليبه الليل والنهار لعبرة لمن اعتبر به، وعظةً لمن اتعظ به، ممن له فهم وعقل»[(٣)].

وقد سبق التنويه بأن لفظ الليل في غالب القرآن الكريم وأكثره جاء مقرونًا بالنهار، وهو من الدلائل الدالة على التلازم، فالتلازم اللفظي بينهما في القرآن يحرك المشاعر والعقول لإيجاد الحكمة من كثرة ذكرهما متعاقبين، ليصل إلى حقيقة سبب جعلهما آيتين: وهي العظة والعبرة والتفكر والتأمل في خلقهما، وشكر الباري سبحانه على نعمته فيهما، ومعرفة عظمة الله الخالق جل جلاله، وأنه المستحق للعبادة والخضوع والتذلل.

٢. علاقة التضاد.

ومع كون العلاقة بين الليل والنهار متلازمة من حيث التتابع والتعاقب؛ إلا أنهما متضادان يختلف كل منها عن الآخر من ناحيتين:

الأولى: من حيث الوصف بالظلمة والضياء، فالليل يأتي معه الظلام، والنهار يأتي معه الضياء، وشتان بينهما، ولكلٍّ

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٨٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٣.

فوائد.

الثانية: أنهما لا يجتمعان في وقت واحد[1]، فهو من المحال الكوني وقوعه في سنن الله تعالى، وهذا ما يشهد له الواقع، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال الحسن: «لكل واحدٍ منهما سلطان، للشمس سلطانٌ بالنهار، وللقمر سلطانٌ بالليل»[2].

ومن هنا يستشعر المرء عظمة الله جل جلاله وحكمته في تدبير الخلق، فمع هذا الاختلاف الواضح بينهما يكونا متلازمين بتلازم حركة الأفلاك الدائرية، وتوالي أحدهما على الآخر، من غير اختلالٍ في النظام الكوني الفسيح، فسبحان الله رب العالمين، وأحكم الحاكمين.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٦٠.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٩٦.

أوصاف الليل

إن الوصف يزيد الموصوف ظهورًا ووضوحًا، ويبين ماهيته، ويضيف فوائد من جراء ذلك الوصف.

ولقد وصف الله تعالى الليل بأوصافٍ عديدة في القرآن الكريم، بيانها في التقسيم التالي:

١ . السُّبات.

والسُّبات: هو الراحة والسكون؛ ولذلك سمي السبت سبتًا، لأنه يوم راحةٍ ودعة[3].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ [النبأ: ٩].

والملاحظ في الآيتين السابقتين أن السبات وصفٌ للنوم لا لليل، وللإجابة عليه يرد احتمالان:

الاحتمال الأول: أنه عطف النوم على الليل، والعطف متعلق بالجملة الفعلية، وهذا الملاحظ من آية الفرقان.

الاحتمال الثاني: الإشارة والتنبيه على أن الراحة والسكون والنوم يكون بالليل، وهذا هو الأصل، ولذا كان من رحمة الله وحكمته أن جعل الراحة والنوم بالليل، فقد اكتشف

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٥١.

العلماء أن في الدماغ غددًا صنوبرية تقوم بإفراز مادة هرمونية تسمى الميلاتونين التي تؤثر وتساعد في عملية النوم، ويزداد إفرازها أكثر في الظلام[1].

وقد «أظهرت دراسة حديثة أن استخدام الكومبيوتر أو ألعاب الفيديو ليلًا قد يحرم صاحبه النوم أثناء تلك الليلة، ويعود السبب في ذلك إلى أن الضوء الساطع لشاشة الكومبيوتر يمكن أن يغير موعد النوم من الناحية البيولوجية ويثبط الإفراز الطبيعي لهرمون الميلاتونين التي يعتبر مهمًا لدورة النوم والاستيقاظ لدى الناس. ويقول الباحثون: إن التعرض للضوء يؤثر على كمية الميلاتونين التي ينتجها الجسم، والذي يؤدي بدوره إلى اضطراب النوم وخاصةً بين كبار السن»[2].

كما أن العلماء اكتشفوا أن النوم بالنهار يؤثر على الجهاز العصبي بعكس الليل؛ كل هذا له حكمة في دورة حياة الإنسان، فسبحان الله أحكم الحاكمين.

وفي آية الفرقان يأتي تساؤل من جراء خلق الليل لباسًا والنوم سباتًا وكلاهما وجدا للراحة والسكون، فهل هناك من فائدة زائدة؟!

لا شك في أن الليل والنوم يشتركان في كونهما محطةً زمنية لراحة الأبدان والأجساد؛ ولكن النوم يزيد على ما ذكر في أنه راحة للعقل، إذ إن العقل هو المحرك للبدن، ولا بد له من راحة حتى يستعيد نشاطه، وهذ ما يجعل لذكر النوم بعد الليل فائدة، والله سبحانه أعلم بمراده فيها.

٢. السجو.

السين والجيم والواو أصل يدل على سكون وإطباق، يقال سجا الليل، إذا اِدْلَهَمَّ وسكن[3].

وهذا الوصف ورد مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢].

وجاء في معنى الآية ثلاثة أقوال:

القول الأول: والليل إذا أقبل، وبه قال سعيد ابن جبير[4].

القول الثاني: والليل إذا ذهب، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما.

القول الثالث: والليل إذا استوى وسكن، وبه قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد. وهو اختيار الطبري[5]، وابن قتيبة[6].

---

(١) انظر: مقالة لـ د.جابر بن سالم القحطاني في جريدة الرياض، نشرت في يوم الاثنين ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ، ١٦أبريل ٢٠٠٧م، العدد ١٤١٧٥.

(٢) مقالة من موقع د.جمال عبد العظيم، نشرت في ٨ ديسمبر ٢٠١٠م.

(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٣٧.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٤٤٢.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٢-٤٨٤.

(٦) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٤٥٩.

فيكون المعنى: والليل إذا سكن واستوى بظلامه، أو عبارة عن استكنان المخلوقات فيه.

وقد سبق الحديث عن هذه الآية من منحى آخر في آيات القسم.

٣. السكن.

والسكن: هو الراحة والهدوء، خلاف الاضطراب والحركة[١].

وقد ورد ذكره في القرآن في سبعة مواضع، منها:

قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وهذه الآيات تدل دلالة واحدة على أن الحكمة من خلق الليل وإيجاده هو السكن والراحة وقطع الأشغال والأعمال - إلا من عبادة وضرورة -، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها[٢].

وفي الآية الأولى إشارة إلى امتلاكه سبحانه لكل ساكنٍ في الليل والنهار، وجعل ذلك تمهيدًا لسعة علمه وإحاطته بكل شيء في جميع الأوقات.

وإنما خص الليل بالذكر لأن الساكن في ذلك الوقت يزداد خفاءً، وعطف النهار عليه لتحقيق تمام الإحاطة والعلم[٣].

وقيل: لأنه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد، ولأن كل متحرك يصير إلى السكون[٤].

«وقد جاء قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ كالنتيجة للمقدمة؛ لأن المقصود من الإخبار بأن الله يملك الساكنات التمهيد لإثبات عموم علمه، وإلا فإن ملك المتحركات المتصرفات أقوى من ملك الساكنات التي لا تبدي حراكًا، فظهر حسن وقع قوله: وهو السميع العليم عقب هذا»[٥].

وفي الآيات أيضًا امتنانٌ من الله تعالى على خلقه، بأن جعل الليل رحمة لهم، ونعمة تستوجب الشكر؛ ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

وبين سبحانه لعباده أن آية الليل هي محض فضلٍ منه تعالى لا عن استحقاق منهم، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٦١].

كما أن الآيات الكريمة كانت في سورٍ مكية لتدلنا على حقيقة تلك التعبيرات القرآنية المليئة بالقوة والجزالة، والمحاجة

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٨٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب وقت العصر، ١/ ١١٤، رقم ٥٤٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٥٥.
(٤) معترك الأقران، السيوطي ١/ ٢٤٢.
(٥) التحرير والتنوير ٧/ ١٥٥ - ١٥٦.

بالبراهين الكونية والعقلية التي توصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن لهذا الكون إلاهًا ومدبرًا واحدًا يستحق العبادة والتوحيد.

٤ . الغشي.

الغين والشين والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدل على تغطية شيء بشيء[١].

وهذا المعنى هو المقصود من قوله ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١][٢].

وقيل: إذا غشي الخليقة بظلامه[٣].

وعلى أي تفسير كان عليه هذا اللفظ، فإن المقصود منه الوصف الحاصل كل يوم بغشيان ظلام الليل وتغطيته لضوء النهار[٤].

ومن ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

قال السمرقندي: «يعني: إن الليل يأتي على النهار فيغطيه، ولم يقل يغشي النهار الليل؛ لأن في الكلام دليلًا عليه. وقد بين في آية أخرى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥].

فكذلك هاهنا معناه يغشي النهار الليل ويغشي الليل النهار؛ يعني: إذا جاء النهار يذهب بظلمة الليل، وإذا جاء الليل يذهب بنور النهار»[٥].

وجاء في قراءة عاصم من رواية أبى بكر، وقراءة حمزة، والكسائي[٦]: (يغشي) بالتشديد احتجاجًا بقوله تعالى ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤].

فالتشديد يوجب التكرير، وكذلك هو فعلٌ يتكرر ويتردد؛ وذلك أن كل ليلة غير ليل اليوم الآخرِ، فالتغشية مكررة لمجيئها يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة[٧]؛ ولذلك كانت أبلغ من قراءة التخفيف مع أن معناهما واحد[٨].

وفي آية الأعراف، عقب ذكر غشيان الليل النهار بالطلب الحثيث، وهو السريع، «لأن سرعة تعاقب الليل والنهار تجعل كل واحد منهما كالطالب لصاحبه»[٩].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٢٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٨٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٧.
(٤) انظر: النكت والعيون ٢/ ٢٣٠.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ٥٢١.
(٦) السبعة، ابن مجاهد ص٢٨٢.
(٧) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٢٣٩٧.
(٨) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٥٦.
(٩) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٠.



وفي آية الرعد، عقب ذكر غشيان الليل النهار بالتدبر والتفكر في آية الله فيهما، وقد ضمن ذلك المدح للمتفكرين عن غيرهم ممن عطل هذه العبادة القلبية العظيمة.

٥. اللباس.

إن اللباس في الأصل جعله الله تعالى صفة لبني آدم.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولكن اللباس استعير لوصف الليل بجامع الستر والتغطية، فكما أن اللباس يستر عورة بني آدم، فكذلك الليل يستر الخلائق بظلامه؛ لكي يرتاح من المشقة التي كانت في نهاره، «ولما في هذا الستر من فوائد كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها»[(١)]؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النبأ: ١٠].

وقد ذكر الرازي بعض وجوه النعم من كون الليل ساترًا ولباسًا، فقال: «وأما وجه النعمة في ذلك، فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هربا من عدو، أو بياتًا له، أو إخفاء ما لا يحب الإنسان إطلاع غيره عليه.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٤٥.

قال المتنبي:

وكم لظلام الليل عندي من يدٍ
تخبر أن المانوية تكذب

وأيضًا فكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته، ويندفع عنه أذى الحر والبرد، فكذا لباس الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد في جمال الإنسان، وفي طراوة أعضائه، وفي تكامل قواه الحسية والحركية، ويندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية، فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة»[(٢)].

٦. النشوء.

النون والشين والهمزة أصلٌ صحيحٌ يدل على ارتفاع في شيء، وأنشأه الله: رفعه. ومنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

يراد بها والله أعلم القيام والانتصاب للصلاة[(٣)].

جاء عن ابن أبي مليكة قال: سألت ابن عباس وابن الزبير عن ناشئة الليل قالا: قيام الليل. وعن ابن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال: هي بالحبشية قيام الليل[(٤)].

وقيل: إن الناشئة ما بين المغرب والعشاء،

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٠.
(٣) مقايس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٢٨.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٨٠.

قاله أنس بن مالك. وقيل: ما بعد العشاء الآخرة، قاله الحسن ومجاهد. وقيل: إنها ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة، قاله ابن قتيبة. وقيل: أنه بدء الليل، قاله عطاء وعكرمة. وقيل: أن الليل كله ناشئة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[1].

ولا تعارض يظهر -والله أعلم- بين هذه الأقوال؛ لأنها من باب اختلاف التنوع لا التضاد، فسواءٌ أكان الليل كله، أو ساعة منه، أو بدايته، أو بعد العشاء؛ كل ذلك يشمله قيام الليل.

ومن هنا تأتي الحكمة في سر اختيار الله تعالى الليل على النهار في القيام بالعبادة، فالقلب يكون فيه أكثر خشوعًا، والبال والبدن أكثر هدوءًا، ولا يمكن حدوث ذلك مع النهار الذي يصحبه الصخب والتعب؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

وقال تعالى لنبيه في آية أخرى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧ - ٨].

قال ابن جرير الطبري: «ناشئة الليل أشد ثباتًا من النهار وأثبت في القلب، وذلك أن العمل بالليل أثبت منه بالنهار»[2].

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ قراءتان:

الأولى: (وطئًا) مقصورة، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي.

الثانية: (وطاء) ممدودة، وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر[3].

قال الماتريدي: «فمن قرأ: (وطاء) بالمد، فتأويله من المواطأة، وهي الموافقة، أي: موافق للسمع، والبصر، والفؤاد؛ لأن القلب يكون أفرغ بالليالي عن الأشغال التي تحول المرء عن الوصول إلى حقيقة درك معاني الأشياء، وكذلك السمع والبصر يكون أحفظ للقرآن، وأشد استدراكًا لمعانيه.

ومن قرأه: (وطئًا)، فهو من الوطء بالأقدام؛ فتأويله: أنه أشد على البدن وأصعب؛ لأن المرء قد اعتاد التقلب والانتشار في الأرض بالنهار، ولم يعتد ذلك بالليل، بل اعتاد الراحة فيه، فإذا كلف القيام والانتصاب برجليه في الوقت الذي لم يعتد فيه القيام، كان ذلك أشد عليه وأصعب على بدنه»[4].

والخلاصة في أوصاف الليل المذكورة في القرآن: أنها صرحت وألمحت بأهمية الليل في استمرارية الحياة، وذكرت فوائده على الخلق والإنسان، وحثت على حسن استغلاله.

(١) المصدر السابق.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨٤.
(٣) السبعة، ابن مجاهد ص ٦٥٨.
(٤) تأويلات أهل السنة ١٠/ ٢٧٣.

أجزاء الليل

وقد ورد في القرآن الكريم ألفاظ تدل على أجزاء من الليل، ولكنها ترجع إلى ثلاثة أجزاء موزعة بين أوله وأوسطه وآخره، سأذكرها في المطالب الآتية:

أولًا: الغروب.

وهو أول الليل، والغروب: غياب الشمس، ولذلك يقال: غربت الشمس، أي: غابت في الغرب[1].

وقد ورد ذكر الغروب في القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

وقوله عز وجل: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩].

والتسبيح هنا المقصود به الصلاة عند الجمهور[2]، والصلاة التي قبل الغروب اختلف في تحديدها على قولين:

القول الأول: أنها صلاة الظهر والعصر، قاله ابن عباس رضي الله عنه.

القول الثاني: أنها صلاة العصر، قاله قتادة[3].

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٣٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٧٦.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٦٥.

وعلى كلٍّ؛ فإن في الآية لفت الانتباه إلى فضيلة هذين الوقتين المذكورين، والتقوي بالصلاة والذكر فيهما على مواجهة أمور الدنيا نهارًا، وشكر نعمة الله ليلًا.

وأول أجزاء الليل يشمل الشفق، والزلفة، وكلاهما ذكرا في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ [الانشقاق: ١٦].

والشفق: هو الحمرة في الأفق من ناحية الغرب ،وهي ضياءٌ من شعاع الشمس، وتكون من بعد غروب الشمس إلى صلاة العتمة (العشاء)[4]، هذا على أرجح الأقوال[5]. وهو إيذانٌ بدخول الليل؛ ولهذا جاء الليل معطوفًا على الشفق ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق: ١٦ – ١٧][6].

والقسم بالشفق يدل على أهمية هذا الوقت، وأن له منزلة في اليوم والليلة؛ لكي يؤدي المسلم فيه صلاته، ويلتفت إلى ذكر الله بقلبه ولسانه، فيكون دائم الصلة به جل جلاله.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٥٠٧.
(٥) وممن رجح ذلك الطبري في تفسيره ٢٤/ ٣١٨، والبغوي في تفسيره ٨/ ٣٧٥ ونسبه إلى ابن عباس وأكثر المفسرين.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٧٧ – ١٧٩.

والشفق هو الوقت الخاشع - الساكن - المرهوب بعد الغروب، يحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسىً صامت وشجىً عميق، كما يحس برهبة الليل القادم، ووحشة الظلام الزاحف. ويلفه في النهاية خشوعٌ وخوفٌ خفي وسكون![1]

والزلفة: هي بضع ساعاتٍ من الليل، وقيل: المنزلة، ومنه سميت مزدلفة؛ لأنها منزلة بعد عرفة، وقيل: القربة[2].

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، الخطاب يتناول أمته؛ لأن المأمور به من الواجبات- في هذه الآية بإقامة الصلاة في طرفي النهار وطائفة من الليل، والأمر يقتضي الوجوب، ولا يكون ذلك إلا للصلوات المفروضة[3].

والمقصود بها في الآية الكريمة: صلاة العتمة (العشاء)[4]؛ لأنها تصلى بعد مضي زلفٍ من الليل[5].

وعلى أي تفسيرٍ فسرت به الآية الكريمة، فإن المعنى المستفاد منها: أن أداء الصلاة المفروضة وإقامتها على الوجه الأكمل سببٌ في تحصيل الحسنات وتكفير السيئات؛ سواءٌ أكان المقصود منها الصلوات الخمس أم بعضها.

ويظهر ذلك من خلال التعبير عن الصلاة بالحسنات -على وجه الخصوص لا العموم-.

ثانيًا: الغسق.

والغسق أنه أول ظلمة الليل، وقد غسق الليل يغسق، أي: أظلم. والمقصود بالظلمة هنا اشتدادها؛ ولذلك عرف الغاسق بأنه: الليل المظلم إذا غاب الشفق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣][6]، أي: من شر ظلام الليل إذا دخل وهجم على الخليقة[7].

واشتملت سورة الفلق على ثلاثة أصول: الاستعاذة، والمستعاذ به، والمستعاذ منه.

فالاستعاذة تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه.

والمستعاذ به وهو الله وحده رب الفلق الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٥، مقاييس اللغة ٣/ ٢١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٢/ ١٧٧ - ١٧٩.

(٤) هذا على القول الراجح، وهو قول ابن عباس ومجاهد.
أما القول الآخر: فهو أن المقصود بها صلاة المغرب والعشاء.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٦.

(٥) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٦ ورجح أنها صلاة العتمة للعلة المذكورة.

(٦) انظر: تأويلات أهل السنة ١٠/ ٦٥٦، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥٣٧.

(٧) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٧٠٢ ورجح أن المقصود بدخول المظلم: الليل، لا أنه كوكب الثريا، أو القمر.

يستعاذ بأحدٍ من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره[1].

والمستعاذ منه الظلام أو الليل إذا دخل.

والظلمة ليست شرًّا ليستعاذ منها - وكذلك الليل -؛ وإنما للشرور والأضرار المتوقع حصولها فيها، «فأمر بالتعوذ مما يكون فيها، لا أن يكون منها»[2].

وذكر التعوذ من الغاسق بعد الاستعاذة من شر المخلوقات هو من ذكر الخاص بعد العام.

ومن آيات الغسق في القرآن، قوله تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

ثالثًا: السحر.

السحر: هو الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وهو ثلث الليل الآخر، ومنه السحور، وهو الطعام المأكول في وقت السحر[3].

وقال الزجاج: «السحر أول إدبار الليل إلى أن يطلع الفجر الظاهر البين»[4].

وقد وردت أقوال كثيرة في تقسيم وقت الليل، وأظهرها ما جاء في السنة المطهرة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[5]. فدل على أن الليل ثلاثة أقسام من حيث المدة الزمنية.

وهذا الوقت من الأوقات الفاضلة التي خصها الله بالصلاة والذكر والدعاء، لبيان فضل العبادة فيها.

قال تعالى: ﴿الصَّـٰبِرِينَ وَالصَّـٰدِقِينَ وَالْقَـٰنِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وقال عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

والمقصود من هاتين الآيتين مدح المتعبدين بالليل، والحث على قضاء الليل بالعبادة سواءٌ أكانت ذكرًا واستغفارًا، أم صلاةً، وقراءة للقرآن، وتفكرًا وتدبرًا، والأفضل: الجمع بين العبادات قدر المستطاع، فصلاة الليل فيها قراءةٌ للقرآن ودعاء، ومن ثم تفكرٌ واستغفار ومناجاة.

فينبغي للمؤمن أن يجعل لنفسه وقتًا في اليوم والليلة لكي يراجع نفسه، وأن يخصص ليله ببعض العبادات القلبية والعملية؛ لكي يزداد قلبه إيمانًا ويقينًا، وجسده قوة واستعدادًا لمواجهة الأشغال صباحًا.

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٠٠- ٢٠٣ مختصرًا.
(٢) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ١٠/ ٦٥٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٧.
(٤) معاني القرآن، الزجاج ١/ ٣٨٥.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، ٢/ ٥٣، رقم ١١٤٥.

الليل والعبادة

إن الله تعالى هو الأعلم بما يصلح عباده ويصلح لهم، فهو الحكيم في أمره ونهيه؛ ولذلك فرض عليهم أمورًا، وخصص أوقاتًا لها لحصول المنفعة لهم، وكان من ذلك: جعله سبحانه الليل ظرفًا زمنيًا أوفر حظًّا من النهار في فعل العبادة بجميع أنواعها، وبين فضل ذلك وحث المؤمنين عليه.

ولهذا كان شعار النبي صلى الله عليه وسلم حين قالت له عائشة رضي الله عنها، وقد كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه - لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا)[1].

وعلى طريق القدوة مشى الصحابة والتابعون ومن تبعهم من الصالحين، فعرفوا فضل هذه المدة الزمنية من بين ساعات اليوم، فشمروا عن ساعد الجد، وأخذوا يهتبلون الفرصة فيه بفعل الطاعات والأنس بالله جل جلاله.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن عباداتٍ كثيرة تفعل بالليل، ومن ذلك: القيام، والتهجد، والذكر، والتفكر، وقراءة القرآن.

أولًا: قيام الليل:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجدها تأمر بقيام الليل وتحث عليه، وقد «كان قيام الليل واجبًا على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أمته حولًا، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات»[2].

قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٢ - ٦].

والناشئة هي القيام، وسبق شرح هذه الآية في معنى النشوء، ويفاد من قوله تعالى في ختام الآية السابقة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾: التحريض على قيام الليل لكثرة الأجر فيه[3].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ففي هذه الآية أمرٌ خاصٌّ للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتهجد بقراءة القرآن في صلاة الليل من باب الزيادة على المفروضات التي فرضها الله عليه، وهو لأمته ندبًا. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومةٍ من الليل[4].

والضمير في «به» عائدٌ على القرآن؛ لأنه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، ٦/ ١٣٥، رقم ٤٨٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٠٩.

(٣) معترك الأقران، السيوطي ٢/ ٤٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٢٣.

روح الصلاة وقوامها[1].

فـ«قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن؛ هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل»[2].

ولذلك عرف السلف رحمهم الله ما لصلاة الليل والمصلين من فضلٍ، فتجد جنوبهم مرتفعة بعيدة عن مواضع الاضطجاع، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

فنومهم بالليل قليل بسبب مكابدتهم للقيام وتلاوة القرآن والذكر؛ خوفًا منه سبحانه ومحبة وأنسًا؛ فهم يستحقون نعت المحسنين.

ووصفهم الله وصف تشريفٍ بأنهم عباد الرحمن أي: الصفوة من عباده بسبب عدة صفات اتصفوا بها، ومنها: أنهم يقضون ليلهم قائمين ساجدين وخائفين.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وبين سبحانه وتعالى أن غاية كمال المرء تكون بالعلم والعمل، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وبدأ بالعمل لأنه الأهم، مع كون العمل لا يصدر إلا عن علم صحيح وَقَرَّ قلب صاحبه.

وفي هذه الآية ربط عجيبٌ بين القنوت في الليل والعلم، فالعلم الصحيح لا بد وأن يدل صاحبه على العمل والخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

كما أن المرء مهما امتلأ قلبه من العلم فإنه يحتاج إلى ساعاتٍ من القيام والمناجاة والتذلل بين يدي الله تعالى؛ شكرانًا لنعمه العظيمة، وتلذذًا بالعبودية له سبحانه.

والقرآن الكريم لم ينزل إلا للعمل به، وقيام الليل من العمل بالقرآن، فهو أشد وطئًا للقلب وأقوم قيلًا، وأنفع لحال المرء مع ربه خاصة مع سكون الليل بظلامه وخلود الخلق إلى النوم، فلا عين تلاحظ، ولا أذن تسمع، ولا شيء هناك إلا مناجاة العظيم، والإخلاص له.

وأشارت الآية السابقة إلى أن «الانتفاع

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٧.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧٤٥.

بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظبًا عليه»[1].

ثانيًا: ذكر الله:

وجاء في آيات الذكر الحكيم مدح المؤمنين الذين يشغلون ليلهم بذكر الله سبحانه وتعالى من تسبيح واستغفار.

قال عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وأمر الله نبيه بالتسبيح في أي وقتٍ من الليل - على قول بعض المفسرين أن الأمر للتسبيح[2] - ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

وجمع الله عز وجل بين الأمر بالصلاة والتسبيح ليلًا في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

طويلًا: أي في أكثر الليل[3].

إن توجيه القرآن الحكيم لاستغلال الليل بذكر الله تعالى جاء لكي يحقق للقلب راحته وطمأنينته التي لا تكون بالليل، فمن المعلوم أن بذكر الله تطمئن القلوب، ولكن ثمة استعدادٌ للقلب والبدن لا يكون في أعلى درجاته من الخشوع والتدبر وصفاء الذهن وإخلاص العبادة لله فيها؛ إلا بالليل.

فحريٌّ بنا - نحن المسلمين - أن نلتزم منهج السلف الصالح في قضاء الليل بالمحبب من العبادات؛ لأنها زاد المؤمن الحقيقي لمواجهة الحياة بمغرياتها وفتنها، واستعدادًا لعمل الصالحات فيها.

ثالثًا: التدبر والتفكر:

التدبر والتفكر في ملكوت الله تعالى من أعظم العبادات القلبية، وبما أن الليل والنهار من آيات الله تعالى، فالتفكر فيهما من المهمات؛ ولذلك حث الله الخلق على التفكر في خلق الليل والنهار وتعاقبهما، وجعل فيهما عظةً للمتعظين، وحمدًا للشاكرين ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

كما أن القرآن الكريم امتدح المتفكرين والمتدبرين في خلق السماوات والأرض، وتعاقب الليل والنهار بأنهم أصحاب العقول السليمة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وجعل من أسباب تحصيل التقوى: التفكر في خلق الليل والنهار، قال تعالى

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٤٢٨.

(٢) نسب القول بأن الأمر للتسبيح على حقيقته إلى أبي الأحوص.
انظر: النكت والعيون ٥/ ٣٥٧، و ٥/ ٣٨٧.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٦.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو صراحة إلى التفكر في خلقهما، واستغلال العمر في تدبر آيات الله تعالى الكونية؛ لتقود المرء إلى توحيد الله، وتقوية الإيمان به، والخشية منه، وتحقيق تقواه.

وقد عرف السلف فضل التفكر فقال بعضهم: «الفكرة تذهب الغفلة، وتحدث للقلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النبات، وما خلت القلوب بمثل الأحزان، وما استنارت بمثل الفكرة»[١].

رابعًا: تلاوة القرآن الكريم:

سبق الحديث عن التفكر في آية الليل والنهار الكونية، وهنا الحديث يختص بالآيات المقروءة المتلوة من كتاب الله تعالى.

حيث جاء القرآن الكريم ممتدحًا من الناس من صفتهم أنهم قائمون بالليل يتلون آيات القرآن في صلواتهم، ويكثرون التهجد[٢]، قال تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وأصل نزول الآية كان لعمل مقارنةٍ بين من أسلم من أهل الكتاب ومن لم يسلم[٣]، وجعل من الموازين التي تقتضي المفاضلة تلاوة القرآن في الليل، سواءٌ أكانت في صلاة أم بدونها.

وآناء الليل: يعني: ساعاته[٤]، وعبر عن بالسجود بدلًا من التهجد والقيام؛ لأنه يدل على صورة فعلهم، فهو أبلغ وأبين[٥].

كما جاء في آيةٍ أخرى مدح الذين يقرؤون كتاب الله تعالى، ووعدهم الله على ذلك: توفية الأجور، والزيادة من فضله، فقال عز من قائل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

ورد في معنى التلاوة قولان[٦]:

القول الأول: أنها القراءة.

القول الثاني: أن المقصود منها الاتباع؛

---

(١) هذا الكلام منسوبٌ لابن عونٍ، وهو في: الكشف والبيان ٣/ ٢٣١، ومعالم التنزيل ٢/ ١٥٢، والكشاف ١/ ٤٥٤، ومفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٦١، والقول الوجيز، للسمين الحلبي، سورة آل عمران ٣٨٨ واللفظ منه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١١٨.

(٤) التصاريف، يحيى بن سلام ص١٩٩.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٥٨.

(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥١٠.

أي أنهم متبعون لآيات القرآن علمًا وعملًا.

وفي هذه الآية ملمحٌ يختص بأهل القرآن وحفظته والمهتمين به، بأنهم يداومون على قراءة القرآن، فالفعل المضارع يدل على الاستمرار؛ أي أنهم تلوا ويتلون، فهم دائمي التلاوة.

وهذا ما ينبغي أن يكون ديدنًا لمن أكرمه الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، أو التعلق بحب تلاوته آناء الليل وأطراف النهار؛ أداء لتزكيته، وعملا بما فيه، نسأل الله من فضله العظيم.

الليل والعذاب

لقد ارتبط الليل - فيما سبق - بأصنافٍ من العبادة كالقيام والذكر والتدبر وتلاوة القرآن، وفي هذا المبحث سيتم الحديث عن كون الليل آية وجند من جنود الله سبحانه وتعالى في هذا الكون؛ شأنه شأن جميع المخلوقات من حيث الانقياد لأوامر خالقها سبحانه وتعالى.

حديث القرآن الكريم عن الليل ارتبط بتنزيل العذاب على الأمم السابقة، كقوم عاد، وقوم لوط، وقوم فرعون.

لذا كان الأمر لأنبيائهم بالخروج مع من آمن من قومهم ليلًا؛ لكيلا يُدْرَكوا، وما ذاك إلا لحكم عظيمة، منها ما هو مخفيٌ، ومنها ما هو ظاهرٌ للخلق.

ولاشك أن لليل خاصية على النهار في الأمور الحربية التي فيها فرٌّ وكرٌّ، تظهر في كون الليل لباسًا، أي: ساترًا عن الأعين عمومًا، والملاحقة المتربصة خصوصًا، ومن هنا أمر موسى عليه السلام بأن يسري بأهله وقومه ليلًا لكيلا يدركوا، قال سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

فالسرى: هو السير بالليل[1]، أمرهم الله به وأكده بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ زيادة للبيان، «وأن

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٥٤.

يكون له من سعة الوقت ما يبلغون به إلى شاطئ البحر الأحمر قبل أن يدركهم فرعون بجنوده»[1].

وكان خروج موسى عليه السلام مع أتباعه من بين أظهر أعدائهم ليلًا آية من آيات الله، تدل على قدرته سبحانه في تدبير الأمور، ومع ذلك أمر بالخروج والسير ليلًا من باب أخذ الحيطة والحذر، والتخفي عن أعين العدو الأكثر عدة وعتادًا.

وتكرر الأمر مع نبي الله لوط عليه السلام حينما أمرته الملائكة أن يسري بأهله في بقيةٍ من الليل قبل طلوع الصبح - وهو وقت السحر -، وأخبروه أن موعد نزول العذاب عليهم صباحًا.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

والعلة في المشي ليلًا هنا من أجل عدم حصول الممانعة والرفض من قومه وزوجته فيشق عليه دفاعهم، بدليل إخبار الملائكة له بأنهم لن يصلوا إليه ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾، فكانت الجملة مطمئنة لنبي الله لوط عليه السلام بأنهم لن يدركوا[2].

ومن الآيات التي اجتمع فيها الليل والعذاب قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٧].

حيث بين سبحانه وقوع العذاب في الليل واليوم على قوم عاد الظالمين المكذبين لنبيهم هود عليه السلام، فكان معنى اليوم بمعنى النهار المقابل لليل.

وعليه: فقد اختار بعض العلماء أن النهار يسبق الليل من خلال هذه الآية، فقد كان النهار أكثر من الليل في العدد.

والملاحظ من خلال الآيات السابقة: أن الليل جعل سببًا ووسيلةً لنجاة المؤمنين من الطغاة الكافرين، كما أنه جعل ظرفًا زمنيًّا لنزول العذاب، بحكم أن اليوم متكونٌ منه ومن النهار.

(١) التحرير والتنوير، ابن فارس ٢٥/ ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق ١٢/ ١٣٢.

ليال فاضلة ذكرت في القرآن

تحدث القرآن الكريم عن ليالٍ مخصوصةٍ، وبين فضلها والأحداث التي حصلت فيها؛ ليدل على أهميتها وشرفها عن غيرها.

وسوف يتم الحديث عن هذه الليالي في النقاط الآتية:

أولًا: ليلة القدر:

ليلة القدر هي الليلة الشريفة التي أمرنا بتحريها في ليالي شهر رمضان المبارك، وبالأخص في العشر الأواخر منه، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجالًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر)[1].

كما أن الله تعالى زاد من تشريف هذه الليلة بإنزال كلامه فيها.

قال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣][2].

وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

ويزيد القرآن الكريم الوضوح حول هذه الليلة عندما أخبر أنها في شهر رمضان، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

كل هذه الآيات مع الأحاديث الشريفة مجتمعة تدل على أن ليلة القدر ليلةٌ شريفةٌ؛ فيها نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملةً واحدة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم يرتله ترتيلًا»[3].

قال الحافظ ابن حجر: «وما تقدم من أنه نزل جملةً واحدةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك مفرقًا هو الصحيح المعتمد»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر، ٣/ ٤٦، رقم ٢٠١٥.

(٢) وهو اختيار الجمهور من المفسرين والعلماء، بأن الليلة المباركة هنا ليلة القدر، وهناك قول آخر: أنها ليلة النصف من شعبان.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٧، ٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٥٢.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب كم بين نزول أول القرآن وبين آخره، ٧/ ٢٤٧، رقم ٧٩٣٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ٦/ ١٤٤، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٤٢، رقم ٢٨٨١ وصحح إسناده، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) فتح الباري ٩/ ٤.

وخص الله تعالى هذه الليلة الشريفة بالبركة؛ لكثرة نزول الخيرات والرحمات والبركات من السماء فيها، فالله عز وجل جعلها في ميزان الأعمال خيرٌ من ألف شهر، قال تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

ورجح الإمام الطبري أن المقصود من الآية معنى آخر، وهو أن ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر[١].

وعلى كلٍّ، فإن الآية فيها شحذ الهمم لتحري ليلة القدر والاهتمام بها، والحرص على عمل الصالحات فيها، وبالخصوص القيام وتلاوة القرآن.

قال الرازي: «والمقصود الأصلي من الكل جر المكلف إلى الطاعة وصرفه عن الاشتغال بالدنيا، فتارةً يرجح البيت وزمزم على سائر البلاد، وتارةً يفضل رمضان على سائر الشهور، وتارةً يفضل الجمعة على سائر الأيام، وتارةً يفضل ليلة القدر على سائر الليالي»[٢].

وليلة القدر هي ليلة كتابة الأقدار والأرزاق والآجال.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٣ - ٤].

قال ابن كثير: «أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحدٍ من السلف»[٣].

ولما «كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها؛ وصفت بكونها حكيمة»[٤]. وجاء التنكير في قوله: ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتعظيم، ووصفها بـ(المباركة) تنويهًا بها وتشويقًا لمعرفتها[٥].

وخلاصة القول: أن ليلة القدر ليلة شريفة مباركة من وجهين:

الوجه الأول: تصريح القرآن بذلك، وكذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الكثيرة.

الوجه الثاني: نزول القرآن الكريم إلى بيت العزة جملة واحدة في تلك الليلة، وابتداء نزوله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيها.

ثانيًا: ليلة الإسراء والمعراج:

ليلة الإسراء: هي الليلة التي سار فيها النبي صلى الله عليه وسلم على ظهر الدابة (البراق) من المسجد الحرام بمكة إلى

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٣٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٣٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٥٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٧٧.

المسجد الأقصى بالشام، وهي من آيات النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ففي الآية دعوة للتعجب مما أسداه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من النعمة[١].

وكانت آيةً في ذلك الوقت؛ لأن المدة المتعارف عليها للسير من مكة للشام هي شهر؛ ولكن الله قضى أن يكون ذلك السير في ليلةٍ واحدة آيةً لحبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، وامتحانًا لقلوب عباده عمومًا، فكان منهم المصدق ومنهم المكذب.

وكان الإسراء بروحه وجسده على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: (بروح عبده)، والأصل ألا يعدل عن الحقيقة والظاهر إلى التأويل إلا عند الاستحالة، كما أنه لو كان منامًا لما كانت فيه آية ومعجزة للخلق، ولما قال الله تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٧ - ١٨][٢].

وأما المعراج: فهو العروج والصعود بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد الانتهاء من الإسراء إلى السماء بصحبة أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وكل ذلك كان على الحقيقة كما هو ظاهر نص القرآن، ولذلك قال الله تعالى بعد ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾. فرؤية الآيات، والصلاة إمامًا بالأنبياء، وحديثه مع موسى عليه السلام، وقصة فرض الصلاة؛ كل ذلك كان من الآيات العظيمة التي سخرها الله تعالى لنبيه وأكرمه بها.

ويزيد تلك الليلة شرفًا - مع حدوث تلك الأحداث العظام - ما حدث من تغيرٍ في مجرى التاريخ بفرض الصلوات الخمس، ومراجعة النبي صلى الله عليه وسلم ربه فيها بعد أن كانت خمسين صلاة، كما دل عليه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في الصحيح[٣].

لقد كانت ليلة الإسراء والمعراج شريفةً لاحتوائها الشرف من كل صنفٍ، ففي الآيات حَوَتْ أعظم الآيات من صعود لسدرة المنتهى ومقابلة الله تعالى إلخ، وفي البشر حَوَتْ على أفضلهم وخيرتهم، فوجود النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيها والأنبياء عليهم السلام في الأرض وفي

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، ١/ ٧٨، رقم ٣٤٩.

السماء، كما حوت شرف المكان من خلال الإسراء من مكة لبيت المقدس، والعروج إلى السماء؛ فهي من أشرف ليالي التاريخ.

ثالثًا: الليالي العشر:

امتدح الله تعالى عشر ليالٍ في كتابه الكريم فقال ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١ – ٢].

والفجر هنا هل يقصد به النهار أم صلاة الصبح؟ قولان. والأهم: أن الله تعالى أقسم به وبالليالي العشر ليبين أهميتهما وفضلها. واختلف في معناها على أقوال ثلاثة[١]:

القول الأول: أنها عشر ذي الحجة إلى يوم النحر، وهو قول ابن عباس، وابن الزبير، وغيرهما.

القول الثاني: أنها العشر الأول من المحرم.

القول الثالث: أنها العشر الأواخر من رمضان. وصوب الطبري القول الأول ونسبه للإجماع[٢].

ولاشك أن الليالي العشر التي هي عشر ذي الحجة كانت عظيمة مباركة؛ لاشتمالها على أعظم الأعمال والطاعات؛ كالإحرام، والطواف بالبيت، والمبيت بمنى ومزدلفة، ويوم عرفة، والأضحية، وذكر الله تعالى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٩٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٣٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٩٧.

فيها. وعدل عن تعريفها مع أنها معروفة؛ ليتوصل بترك التعريف إلى تنوينها المفيد للتعظيم[٣].

وكان السلف يستغلون تلك الليالي بكثرة قراءة القرآن وذكر الله تعالى والعبادة، ذكر محمد بن نصر المروزي: «عن أبي عثمان – النهدي – كانوا يعظمون ثلاث عشراتٍ؛ العشر الأول من المحرم، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأواخر من رمضان»[٤].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما العمل في أيام أفضل منها في هذه؟) قالوا: ولا الجهاد؟ قال: (ولا الجهاد، إلا رجلٌ خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء)[٥].

رابعًا: ليالي موسى عليه السلام مع ربه عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣١٣.
(٤) مختصر قيام الليل، المقريزي ٢٤٧.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، ٢/ ٢٠، رقم ٩٦٩.

﴿قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ذكر في الآيتين السابقتين نبأ موسى عليه السلام مع قومه بعد النجاة من فرعون وجنوده، وكان قد وعدهم موسى عليه السلام بأن يأتيهم بكتابٍ من عند الله تعالى، فواعده الله أربعين ليلة[١].

واقتصر على ذكر الليالي دون الأيام، وإن كانت الأيام تبعًا معها؛ لأن أول الشهور الليالي، فصارت الأيام لها تبعًا[٢].

وسبب بركة هذه الليالي هو مقابلة الله تعالى لموسى عليه السلام بجانب الطور، وأخذه الألواح وفي نسختها هدى ورحمة.

واختار أكثر المفسرين إنها كانت في ذي القعدة وعشر ذي الحجة، وقال بعضهم: أنها ذي الحجة وعشرٌ من المحرم[٣].

وبهذا نكون قد انتهينا من مبحث الليالي المخصوصة بالذكر في القرآن الكريم، مع بيان فضائلها، وسبب خصوصيتها، نسأل الله تعالى أن يشملنا برحمته.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥١١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٩٥، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٢.

لمسات اعجازية في الليل

من خلال ما سبق من عرضٍ لموضوع الليل وآياته في القرآن الكريم، نجد أنها تضمنت الإعجاز العلمي والبياني، ومن أجل ذلك دعا الله جل جلاله العباد إلى التفكر في آية الليل وكذلك آية النهار، وامتدحهم بذلك.

وسوف أذكر في هذا المبحث بعضًا من اللمسات الإعجازية المستنبطة من آيات الليل في مطلبين اثنين:

أولًا: الإعجاز العلمي في آيات الليل:

إن المتدبر لآيات الليل والنهار في القرآن الكريم، يجدها دعت صراحةً للتدبر والتفكر فيهما؛ وما ذلك إلا لوجود حقائق كونية علمية تتعلق بخلقهما، فالتفكر وإعمال العقل البشري في خلقهما يوصل إلى نتيجة واحدة وهي قدرة الله الصانع وعظمته في الكون.

ومن هذا المنطلق تفانى العلماء والفلكيون في إبراز تلك الحقائق العلمية من خلال دراساتهم وأبحاثهم.

وفي هذه العجالة سأتطرق للإعجاز العلمي في آيات الليل من خلال محورين:

المحور الأول: تعاقب الليل والنهار.

إن الليل والنهار مرتبطٌ بالشمس والقمر، وفي القرآن إشارة إلى ذلك إما بالعطف أو

بدونه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقال جل جلاله: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

إن هذه الآيات -وغيرها- مجتمعة تدل على وجود علاقة بين الليل والقمر من جهة، وبين النهار والشمس من جهة أخرى، فالليل مظلمٌ والقمر معتم، والنهار منيرٌ والشمس ضياء.

والذي يعنينا هنا هو كيفية تعاقب الليل والنهار، وعلاقة ذلك بالشمس التي هي أساس النظام المجري، والقمر الذي هو نور.

وبيان ذلك: أن الأرض كوكبٌ منطفئ يدور أمام منبعٍ ضوئي كبيرٍ ملتهبٍ وهو الشمس، ولولا أن الأرض تدور حول محورها غير المتوازي لمستوى دورانها أمام الشمس؛ لما كان هناك ليلٌ ولا نهار.

لأن هذا هو التصور العقلي الذي يوصل إلى نتيجة تعاقب الليل والنهار، فدوران الأرض حول محورها، ودورانها حول الشمس، وميلان محورها؛ كل هذه معًا كنظام تولد منه اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما طبقًا للوصف القرآني، وهنا يكمن الإعجاز القرآني.

فكلٌّ له مسارٌ يسبح فيه ويتحرك، ولا مجال لإدراك أحدهما على الآخر، ولا يسبق الليل النهار، وفق نظامٍ كونيٍّ دقيق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ويلاحظ أن هناك وقتين يتداخل فيهما الليل والنهار بحكم دخول أحدهما على الآخر، وسبب هذا التداخل كون الأرض كروية فلا بد من نقطة التقاء بين ظلام الليل وضياء النهار، وهذا ما يظهر من إيلاج الليل في النهار والعكس.

قال ابن عاشور: «وحقيقة ﴿تُولِجُ﴾ تدخل وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النهار وظلمة الليل، فكأن أحدهما يدخل في الآخر، ولازدياد مدة النهار على مدة الليل وعكسه في الأيام والفصول عدا أيام الاعتدال، وهي في الحقيقة لحظات قليلة ثم يزيد أحدهما، لكن الزيادة لا تدرك في أولها فلا يعرفها إلا العلماء»[1].

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢١٤.

ويتضح ذلك جليًّا «عندما تصعد الشمس شمالًا في الصيف، يزداد طول النهار تدريجيًّا، بينما يحدث العكس في النصف الجنوبي، إذ يتقلص طول النهار تدريجيًّا»[1].

وهناك عاملان رئيسان يتسببان في طول النهار والليل أو قصرهما، وهما ميل الشمس عن خط الاستواء والعرض الجغرافي، فالشمس عندما تكون على خط الاستواء فإن الليل والنهار يتساويان في جميع أنحاء المعمورة، وكذلك فإن الموقع الجغرافي الذي يقع على خط عرض صفر أي على خط الاستواء فإن الليل والنهار يتساويان فيه طول السنة، وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء زاد الفرق في طول النهار أو الليل وفي قصرهما، وفي الواقع إن طول النهار في حال الانقلاب الخريفي أو الربيعي أطول بدقائق[2].

كما أن التعبير بتقليب الليل والنهار فيه معنى اختلاف الليل والنهار، فـ«تقليب الليل والنهار هو تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء، ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض؛ ولكن لما كانت حالة ظلمة الجو تسمى ليلًا، وحالة نوره تسمى نهارًا: عبر عن الجو في حالتيه بهما، وعدي التقليب إليهما بهذا الاعتبار»[3].

ويلحق بمسألة تعاقب الليل والنهار مسألة أخرى تتعلق بالظلمة وهي ما ذكره العلماء من أن الأصل في الخلق الظلمة، واستدلوا بقوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

فظاهر النص يفيد أن الأصل في الكون الظلمة، بدلالة التعبير بلفظ (الانسلاخ) الذي جاء الفعل فيه مضارعًا إشارة لتكرره، فالسلخ يكون للنهار ثم يعود على الأصل وهو الظلمة. قال الألوسي:

المحور الثاني: أثر وجود الليل في حياة الإنسان والحيوان والنباتات.

سبق ذكر شيءٍ من ذلك الأثر عبر موضوعين، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أن الله تعالى جعل الليل والنهار متلازمين ومكملين لبعضهما، وجميع الكائنات الحية تفيد من هذا التلازم، فالإنسان كائنٌ حيٌّ له طاقةٌ محدودة يحتاج معها إلى راحة وطمأنينة وسكينة، ومن أجل ذلك وجد الليل.

فالنهار جعل لقضاء المعاشات والأعمال والسعي في الأرض؛ فكان من حكمة الله أن يخلق الليل لهذه الحكمة.

(١) الأرض في القرآن، شاهر جمال ص٧١.

(٢) من مقال للدكتور: خالد الزعاق، منشور في جريد سبق بتاريخ: ٢٠/ ١١/ ١٤٣٤.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٦٤.

ففي الليل تتجدد خلايا الإنسان ويرتاح جسده بسبب النوم أو الراحة؛ لكي يستعيد نشاطه وقوته فيستعين بها في النهار.

ثانيًا: اكتشف العلماء مؤخرًا أن النوم بالنهار له تأثيرٌ على الجهاز العصبي بسبب قلة إفراز مادة الميلاتونين من قبل الغدة الصنوبرية في الدماغ، وقد سبق شرح ذلك.

وهذا ما يفسر حالة القلق والكآبة الحاصلة لبعض الناس، والتي من أهم أسبابها السهر بالليل وعدم النوم، فمخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها في ذلك يوصل القلق خاصةً في ظل قضاء الليل بالملهيات والبعد عن عبادة الله تعالى.

ثالثًا: أن باجتماع ظلام الليل وضوء النهار حياة للنباتات، وسببٌ في دوام استمرارها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وفي الآية إشارةٌ إلى أن تتابع الليل والنهار له علاقة مهمةٌ في حياة النباتات وإنتاج الثمار، ويظهر الإعجاز في ذلك من خلال عملية البناء الضوئي، «ففي النهار يقوم النبات بعملية البناء الضوئي، وبها يستطيع النبات تحويل الطاقة الضوئية للنهار إلى طاقة كيماوية مخزنة في الروابط بين جزيئات المواد الغذائية الناتجة في النبات، وتخزينها في مخازن الطاقة في النبات في جزيئات، أي: الادينوزين ثلاثي الفوسفات، والادينوزين ثنائي الفوسفات.

وفي البناء الضوئي يثبت النبات ثاني أكسيد الكربون الجوي على هيئة ذرات كربون في المواد الغذائية النباتية مثل السكريات والدهون.

يلي تفاعلات الضوء تفاعلات الظلام في دورة منتظمة، وتكون المحصلة النهائية لتفاعلات الضوء وتفاعلات الظلام تكوين المواد الكربوهيدراتية التي منها ينتج باقي المواد والمركبات النباتية»[١].

ثانيًا: الإعجاز البياني في آيات الليل:

لاشك أن القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍ مبين، وقد تحدى الله تعالى الناس قاطبةً بأن يأتوا بآيةٍ على نفس بيانه ونظامه، فلم ولن يستطيعوا فعل ذلك، وما ذلك إلا لأنه كلام الله المعجز البليغ الفصيح.

وكانت آيات الليل في القرآن الكريم ذات نصيبٍ وافرٍ من تلك الوجوه البيانية، ومن ذلك:

أولًا: استخدام أسلوب الاقتران، وهو الأكثر في القرآن كما سبق، بأن يذكر الليل

---

(١) مقال لـ أ.د نظمي خليل أبو العطا موسى بعنوان: (يغشي الليل النهار) معجزة قرآنية، في موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

والنهار مع بعضهما البعض في آيةٍ واحدة، بفاصل أو بدونه وهو الأغلب[1].

وكثرة الاقتران بينهما في القرآن جاء ليرشدنا إلى أهمية التفكر والتدبر في هاتين الآيتين العظيمتين، مع ما جاء من الحث الصريح على التفكر فيهما.

ثانيًا: إفراد أحدهما على الآخر في الذكر، وقد كان لليل قصب السبق هنا، لتعدد الليالي المخصوصة المذكورة في القرآن، ولأهميته وخصوصيته ببعض العبادات والتفرغ عن الأشغال، بخلاف النهار الذي لم يفرد بالذكر إلا في ثلاثة مواضع[2].

ومن هذه الليالي المذكورة: ليلة القدر، وليلة الإسراء، والليالي العشر، وليلة الصيام، وليالي موسى عليه السلام، والليلة التي أمر الله تعالى فيها موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل ابتعادًا من عدو الله فرعون، وكذا ليلة لوط عليه السلام.

كما انفرد الليل بالقيام والتهجد عن النهار، وذلك بيانًا لفضل صلاة الليل، وحثًا على استغلال تلك الدقائق والساعات كل ليلة، كما قال تعالى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

ثالثًا: استخدام أسلوب التقديم والتأخير، وهو «ظاهرةٌ لطيفةٌ، وفقهٌ بلاغيٌّ رفيع في التعبير القرآني، يعتبر دليلًا واضحًا على الإعجاز البياني في القرآن.

ومن المعلوم في صياغة الجملة في اللغة العربية: أن كلَّ كلمةٍ فيها لها ترتيبٌ خاصٌّ فيها بحسب وضعها، المبتدأ مقدمٌ على الخبر، والفعل مقدمٌ على الفاعل هذا هو الأصل في صياغة الجملة.

وقد تدعو بعض الأسباب والمقتضيات إلى العدول عن هذا الأصل، ونقل بعض الكلمات من مواضعها الأصلية في الجملة إلى مواضع أخرى، بتقديمها أو تأخيرها، وذلك لتحقيق غرضٍ بلاغيٍّ مراد، والتركيز على معنى بيانيٍ ملحوظ.

واستخدم القرآن أسلوب التقديم والتأخير على أرفع صورةٍ بيانيةٍ، وبدقةٍ عجيبةٍ معجزة، ورصف الألفاظ في الجملة بجنب بعض، بطريقة متناسقةٍ رائعةٍ»[3].

وقد جاء هذا الأسلوب في اثنين وخمسين موضعًا بتقديم الليل على النهار، والحكمة من ذلك هي السبق الزماني، وقد بينها السيوطي بقوله: «السبق، وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد، كتقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، وآدم على نوح، ونوح على إبراهيم.الخ»[4].

(١) وقد تقدم ذكر الليل على النهار في القرآن أكثر من خمسين مرة.

(٢) وهذه المواضع هي: الأحقاف: ٣٥، ويونس: ٤٥، وآل عمران: ٧٢.

(٣) إعجاز القرآن البياني، صلاح الخالدي ص٢٦١.

(٤) معترك الأقران، السيوطي، ١/ ١٣٣.

رابعًا: استخدام أسلوب الاستعارة، وهي: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوضعي، أو قل: هو تشبيهٌ حذف أحد طرفيه[1].

وقد جاءت الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

«استعارة محسوس لمحسوس بوجهٍ عقلي»[2]، وإجراء الاستعارة: «شبه كشف الضوء عن الليل، بكشط الجلد عن نحو الشاة، بجامع ترتب ظهور شيءٍ على شيءٍ في كلٍّ، واستعير لفظ المشبه به وهو «السلخ» للمشبه، وهو كشف الضوء، واشتق منه «نسلخ» بمعنى نكشف، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية»[3].

خامسًا: استخدام أسلوب التوشيح، وهو نوعٌ من أنواع البديع، عرف بأنه: ما دلَّ أول الكلام على آخره.

وجاء هذا الأسوب في قوله تعالى ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

«فإن من كان حافظًا لهذه السورة متفطنًا إلى أن مقاطع آيها النون المردفة، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة «مظلمون »، لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم، أي دخل في الظلمة، ولذلك سمي توشيحا، لأن الكلام لما دل أوله على آخره نزل المعنى منزلة الوشاح، ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح»[4].

سادسًا: استخدام أسلوب اللف والنشر، وهو أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكلٍ من أفراده شائعًا من غير تعيين، اعتمادًا على تصرف السامع في تمييز ما لكلٍّ واحدٍ منها، ورده إلى ما هو له.

وقد جاء هذا الأسلوب في حديث القرآن عن الليل بنوعيه:

الأول: أن يكون الترتيب في النشر على ترتيب اللف أو الطي، قال تعالى ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

فالسكون راجعٌ إلى الليل، والابتغاء إلى النهار، والأمر على الترتيب.

الثاني: أن يكون الترتيب في النشر على خلاف ترتيب اللف أو الطي، قال تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن

(١) انظر: تلخيص المفتاح ص١٥١ بتصرف.
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ١٥١.
(٣) جواهر البلاغة، الهاشمي ص٢٦٩ حاشية رقم ١.
(٤) معترك الأقران، السيوطي ١/ ٣٩.

﴿رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

حيث ذكر ابتغاء الفضل للثاني، وعلم الحساب للأول، على خلاف الترتيب[١].

سابعًا: استخدام أسلوب الطباق أو المطابقة، وهو الجمع بين المتضادين في الجملة[٢]، وقد ورد ذلك كثيرًا فيما يختص بآيات الليل والنهار مجتمعان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

ثامنًا: إطلاق اسم الجزء على الكل، وهو من علم المعاني، ومن ذلك قوله تعالى ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [الطور: ٤٩][٣]، أي: ومن الليل، أي: زمنا هو بعض الليل[٤].

تاسعًا: إطلاق اسم الحال على المحل، وهو من علم المعاني أيضًا، ومثاله: قال تعالى ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣][٥]، فالليل والنهار لا يصدر منهما المكر، ولكن المعنى وقوع مكرهم في الليل والنهار.

عاشرًا: استخدام أسلوب التعريف والتنكير، وقد وردت لفظة الليل مفردة معرفة كما في قوله تعالى ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[آل عمران: ٢٧].

وكقوله تعالى ﴿۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وجاءت مفردة منكرة (ظرف زمان) كما في قوله تعالى ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وقوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الشمس، الظلمات، القمر، النهار، الوقت

(١) انظر: معترك الأقران ١/ ٣١١، جواهر البلاغة، الهاشمي ص ٣١٠.
(٢) معترك الأقران ١/ ٣١٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٨٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٨٥.
(٥) معترك الأقران ١/ ١٩٠.



عناصر الموضوع

مفهوم الماء

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الميم والواو والهاء أصلٌ صحيح واحد، ومنه يتفرع كلمه، وهي الموه أصل بناء الماء، وتصغيره مويه، قالوا: وهذا دليلٌ على أن الهمزة في الماء بدل من هاء. يقال: موهت الشيء، كأنك سقيته الماء، وموهت الشيء: طليته بفضةٍ أو ذهب، كأنهم يجعلون ذلك بمنزلة ما يسقاه. وقالوا: ما أحسن موهة وجهه، أي ترقرق ماء الشباب فيه يقال: ماهت السفينة تموه وتماه. دخل فيها الماء. وأماهت الأرض: ظهر فيها نزٌّ، وأماه الفحل: ألقى ماءه في رحم الأنثى، ورجلٌ ماه القلب، أي: كثير ماء القلب»[(١)]، وأصله موه بالتحريك؛ لأنه يجمع على أمواه في القلة ومياه في الكثرة[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الماء-هو «جوهر سيال يضاد النار برطوبته وبرودته، وقيل: الماء جسم لطيف بسيط شفاف يبرد غلة العطش، به حياة كل نامٍ»[(٣)].

وعرف الماء أيضًا بأنه: «سائل عليه عماد الحياة، يتركب من اتحاد الهيدروجين والأكسجين بنسبة حجمين من الأول إلى حجم من الثاني، وهو في نقائه شفاف لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، ومنه: العذب، والملح المعدني، والمقطر»[(٤)].

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، فالماء هو الماء.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٢٨٦.
(٢) انظر: الصحاح ٦/ ٢٢٥٠.
(٣) التوقيف على مهمات التعريف، المناوي ص٢٩٤.
(٤) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية القاهرة ص٥٩٥.



الماء في الاستعمال القرآني

وردت كلمة (ماء) في القرآن الكريم(٦٣) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم غير مضافة	٥٩	﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[البقرة:٢٢]
اسم مضافة	٤	﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾[الملك:٣٠]

وجاء الماء في الاستعمال القرآني على وجهين[2]:

الأول: الماء المعروف: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنفال:١١].

والثاني: النطفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]. **يعني: من نطفة.**

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٦٨٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٣٠١-١٣٠٢.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤١٨، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص١٨٩-١٩٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٥٥٠-٥٥١.

الألفاظ ذات الصلة

١ المطر:

المطر لغةً:

الميم والطاء والراء أصلٌ صحيحٌ فيه معنيان: أحدهما -وهو المقصود-: الغيث النازل من السماء، يقال: مطرنا مطرًا[(١)].

المطر اصطلاحًا:

قال الراغب: «المطر: الماء المنسكب»[(٢)].

الصلة بين المطر والماء:

هو نوع من أنواع الماء الموجودة على الكرة الأرضية، لكن المطر مختص بالماء النازل من السماء.

٢ النار:

النار لغةً:

هي النار المعروفة، وهي مؤنث، وهي من الواو؛ لأن تصغيرها نويرةٌ[(٣)].

النار اصطلاحًا:

قال الراغب: «والنار تقال للهيب الذي يبدو للحاسة»[(٤)].

الصلة بين الماء والنار:

الماء تطفئ النار، فهما نقيضان لا يجتمعان.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٢٦.
(٢) المفردات ص٧٧٠.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٤٢.
(٤) المفردات ص٨٢٨.

٣ اليبس:

اليبس لغةً:

يبس ييبس فهو يابسٌ ويبسٌ وييبسٌ ويبْسٌ: إذا كان رطبًا فجف، وأصله: اليبوسة وهو المكان الذي لم يعهد رطبًا، فيبسٌ[١].

اليبس اصطلاحًا:

هو «المكان يكون فيه ماء فيذهب»[٢].

الصلة بين الماء واليبس:

إن وجود الماء في المكان يجعله رطبًا، فإذا فقد أصبح يابسًا، فالعلاقة بينهما عكسية، فوجود أحدهما يعني عدم وجود الآخر.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٨٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٨٩.

مكانة الماء

تحدث القرآن الكريم عن الماء كأصل لخلق الأحياء، وكأساس لاستمرار الحياة نوضح ذلك فيما يأتي:

أولًا: الماء كان قبل الكون:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

عن سعيد بن جبيرٍ قال: «سئل ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، على أي شيءٍ كان الماء؟ قال: على متن الريح[١] وعن مجاهدٍ رحمه الله، في قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: قبل أن يخلق شيئًا»[٢].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن عمران بن حصينٍ، قال: (إني عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قومٌ من بني تميم، فقال: (اقبلوا البشرى يا بني تميم)، قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناسٌ من أهل اليمن، فقال: (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن؛ إذ لم يقبلها بنو تميم)، قالوا: قبلنا، جئناك؛ لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان، قال: (كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيءٍ.)[٣].

أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم؛ لكونهما خلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء[٤].

وأكد القرآن الكريم على أن الحياة منذ نشأتها الأولى احتاجت إلى الماء كعامل أساسي لظهورها، حيث ذكر أن الطين كان أول مراحل خلق الكائنات الحية والطين هو التراب المعجون بالماء، فقال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وقد ثبت علميًا أن الماء خلق قبل خلق الحياة، قال الدكتور زغلول النجار حفظه الله: «كوكب الأرض هو أغنى كواكب مجموعتنا الشمسية في المياه، ولذلك يطلق عليه اسم (الكوكب المائي) أو (الكوكب الأزرق)، وتغطي المياه نحو ٧١٪ من مساحة الأرض، بينما تشغل اليابسة نحو ٢٩٪ فقط من مساحة سطحها، وتقدر كمية المياه علي سطح الأرض بنحو ١٣٦٠ مليون كيلومتر مكعب (١. ٣٦×١٠٩)، وقد حار العلماء منذ القدم في تفسير كيفية تجمع هذا الكم الهائل من المياه علي سطح الأرض؟

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٣٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، رقم ٧٤١٨.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٢٨٩.

والشواهد العديدة التي تجمعت لدى العلماء تؤكد أن كل ماء الأرض قد أخرج أصلًا من جوفها، ولايزال خروجه مستمرا من داخل الأرض عبر الثورات البركانية»[1].

ثانيًا: الماء والكائنات الحية:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

قال بعض العلماء: «الماء الذي خلق منه كل شيءٍ هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطف، وعلى هذا فهو من العام المخصوص».

وقال بعض العلماء: «هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرةً كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرةٍ؛ لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلها ناشئةٌ عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهرٌ، وكذلك هو في اللحوم، والألبان، والأسمان ونحوها؛ لأنه كله ناشئٌ بسبب الماء».

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوانٍ من ماءٍ أنه كأنما خلقه من الماء؛ لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه[2].

(١) موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة باختصار.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ١٤٣.

ثالثًا: الماء أصل خلق البشر:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

أي: خلق الإنسان من نطفةٍ ضعيفةٍ فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكرا وأنثى، كما يشاء، فجعله نسبًا وصهرًا، فهو في ابتداء أمره ولدٌ نسيبٌ، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهارٌ وأختانٌ وقراباتٌ، وكل ذلك من ماءٍ مهينٍ[3].

وقد شملت آية سورة القمر الأطوار المختلفة لخلق الإنسان.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٣٩].

وقد وصف الله هذا الماء الذي هو أصل البشر بوصفين:

الأول: الماء المهين: قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٨].

والمهين: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به[4].

الثاني: الماء الدافق: قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٧.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢١٦.

ماءٌ دافقٌ: أي: مصبوبٌ في الرحم[١].

يعني: من ماء مدفوق[٢]. خارج بقوة وسرعة[٣].

والنظرة العلمية تتطابق مع القرآن في تلك التسمية؛ حيث إن سبب تدفقه هو تقلصات جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني مع تقلصات عضلات العجان[٤] فتدفع بالسائل المنوي بمحتوياته من ملايين الحيوانات المنوية عبر الإحليل إلى المهبل[٥].

رابعًا: الماء أصل حياة الكائن الحي:

«يقرر العلماء: أن الماء يدخل في بناء أي جسم حي؛ إذ هو في الحقيقة قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية الحية. والخلية هي وحدة البناء في كل شيء حي، نباتًا كان أو حيوانًا، كما أن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة، أثبت أن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الأجسام، فهو إما وسط، أو عامل مساعد، أو داخل في هذا التفاعل، أو ناتج عنه، إذن الماء هو السائل الوحيد الذي لا غنى عنه لأي كائن حي، مهما كان شكله، أو حجمه، تضاءل أم تضخم. ابتداء من الميكروبات الدقيقة- التي لا يمكن للعين المجردة أن تراها- وانتهاء بالفيلة والحيتان أضخم الكائنات الحية الموجودة على الأرض وفي البحار[٦].

ويشكل الماء ٩٠ ٪ من وزن بعض الكائنات الحية، أما في الإنسان فيشكل الماء أكثر من ٦٠ ٪ من وزن جسمه، إن الدماغ البشري يحوي ٧٠ ٪ من وزنه ماءً، الرئتان تحويان نسبة ٩٠ بالمئة ماء، ونسبة الماء في الدم ٨٣ ٪، ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع العيش بصحة جيدة من دون ماء أكثر من يوم واحد.

خامسًا: الماء أصل حياة النبات:

أهمية الماء للنباتات لا تقل عن أهميتها للكائنات الحية، فالنباتات تمتص الماء من التربة، وبه الغذاء اللازم لنموه.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٠٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٥٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٦٢.
(٤) العجان: الدبر، وقيل: هو ما بين القبل والدبر. انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٧٨.
(٥) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد على البار ص ٥١.
(٦) خواطر علمية بين الدين والعلم، محمد عبد القادر الفقي، من مقال منشور بمجلة منار الإسلام عدد فبراير سنة ١٩٨٥م.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

أي: فإذا أنزل الله عليها المطر، اهتزت أي: تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها، وربت أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومه وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح[1].

ومما كشفه العلم أن النباتات والأشجار إذا أحست بالعطش، أو بنقص الماء طلبته وألحت في النداء عليه، كما يصنع الأطفال من بني البشر، فقد قام فريق من العلماء في جامعة إنجليز بولاية ويلز الأسترالية بإجراء تجربة على النباتات التي تعاني من العطش، وسجلوا الذبذبات الصغيرة التي تصدر من أوراقها وسيقانها آنئذ، وقد استخدمت في هذه التجارب أجهزة دقيقة جدًا؛ لتسجيل ذبذبات الصوت، وقارنوها بالذبذبات الناتجة عن النبات في حال توافر الماء، وجدوا أن الذبذبات في الحالة الأولى أشد وأقوى، وكأن النبات يصيح ويصرخ؛ لكي يحصل على احتياجاته من الماء[2].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٠/ ٣٥٠.

(٢) الإعجاز العلمي في الإسلام، محمد عبدالصمد ص ١٨٤.

سادسًا: الماء والدواب:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥].

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماءٍ واحدٍ، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات[3].

وكل ما يدب على الأرض ذات أصل واحد. ثم هي- كما ترى العين- متنوعة الأشكال. منها الزواحف تمشي على بطنها، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين. ومنها الحيوان يدب على أربع. كل أولئك وفق سنة الله ومشيته، لا عن فلتة ولا مصادفة، ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ غير مقيد بشكل ولا هيئة.

فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهي بهذا التنوع في الأشكال والأحجام، والأصول والأنواع، والشيات والألوان. وهي خارجة من أصل واحد؛ ليوحي بالتدبير المقصود، والمشيئة العامدة. وينفي فكرة الفلتة والمصادفة.

وإلا فأي فلتة تلك التي تتضمن كل

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٣.

هذا التدبير وأية مصادفة تلك التي تتضمن كل هذا التقدير؟ إنما هو صنع الله العزيز الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى[1].

قال الرازي رحمه الله: «لما كان الغالب جدًا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء، إما لأنها متولدةٌ من النطفة، وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكل تنزيلًا للغالب منزلة الكل»[2].

وتنوع المخلوقات مع وحدة المنشأ من دلائل التوحيد وإثبات الذات الإلهية.

يقوم الماء بوظائف عديدة مهمة وحيوية للمحافظة على استمرار الحياة، وتتلخص فيما يلي:

يعتبر الماء هو الوسط الذي يذوب فيه وتنتقل بواسطته جميع عناصر الغذاء من عضو لآخر حيث تؤدي وظائفها.

يسهل عمليات الهضم والامتصاص والإخراج، فوجود الماء داخل القناة الهضمية يسهل عملية الإخراج وتخلص الجسم من الفضلات.

يحافظ على مستوى الضغط الأسموزي بداخل وخارج الخلايا عند الحد الطبيعي، ويقوم بعملية التوازن الإلكتروني داخل الجسم.

يقوم بدور هام في المحافظة على ثبوت درجة حرارة الجسم عند حدها الطبيعي، ففي الأجواء الحارة وعند شعور الشخص بارتفاع درجة الحرارة لإصابته بحمى مثلًا، يحدث عملية التعرق التي ترطب الجلد وتوازن درجة حرارته وتؤدي إلى انخفاضها.

يحمل الماء المواد الضارة أو السامة للجسم والناتجة عن التمثيل الغذائي عن طريق الكليتين؛ ليتخلص منها على هيئة بول مثل البولينا والحامض البولي وغيرها.

يقوم الماء بدور الملين للمواد الغذائية، فيسهل عملية مضغها؛ لوجوده باللعاب وبالتالي بلعها وهضمها.

يعتبر الماء عنصرًا مهما في عملية بناء الخلايا، ويساعد على سرعة التئام الأنسجة عند إصابتها بالجروح أو الأمراض، والماء في الجسم يوجد على شكلين؛ أحدهما خارج الأنسجة ويمثل الجزء الأكبر، والآخر داخل الأنسجة، والماء خارج الأنسجة يمثل السوائل الموجودة بالدم واللمف وسائل النخاع الشوكي والافرازات الأخرى؛ مثل الإفرازات المعدية، والصفراء والبنكرياس وغيرها، أما الماء داخل الأنسجة فيمثل السوائل المحيطة بالخلايا في المساقات البينية والسوائل المكونة للبروتوبلازم داخل الخلايا نفسها[3].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٠٦.
(٣) موسوعة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة.

مصادر المياه

للماء مصادر تحدث عنها القرآن الكريم نبينها فيما يأتي:

أولًا: السماء:

إنزال الماء من السماء يتردد في مواضع شتى من القرآن في معرض التذكير بقدرة الله، والتذكير بنعمته كذلك، فهو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعًا:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «واعلم أن كون الماء نازلًا من السماء هو أن تكونه يكون في طبقات الجو من آثار البخار الذي في الجو، فإن الجو ممتلئ دائمًا بالأبخرة الصاعدة إليه بواسطة حرارة الشمس من مياه البحار والأنهار ومن نداوة الأرض ومن النبات»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٣٣.

أي: فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

أي: فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء من غذاء الأنعام والبهائم والطير والوحش، وأرزاق بني آدم وأقواتهم ما يتغذون به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم، ونحن الخازنون لهذا الماء، ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا[(٤)].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

أي: لكم منه شرابٌ أي: جعله عذبًا زلالًا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحًا أجاجًا، وأخرج لكم منه شجرًا ترعون فيه

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٤٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٨.

أنعامكم[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

أي: خضراء بعد يباسها ومحولها.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليةً له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى[2].

ثانيًا: الأرض:

قال تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١].

عن الضحاك رحمه الله: «ماءها: ما فجر فيها من الأنهار»[3]. ونسب الماء والمرعى إلى الأرض؛ حيث هما يظهران فيها[4]، «وقدم الماء على المرعى؛ لأنه سبب في وجود المرعى»[5].

وقال الرازي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: ماؤها: عيونها المتفجرة بالماء ومرعاها: رعيها، وهو في الأصل موضع الرعي.

فإن قيل: هلا أدخل حرف العطف على أخرج؟ قلنا: لوجهين:

الأول: أن يكون معنى دحاها بسطها ومهدها؛ للسكنى، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من تسوية أمر المشارب والمآكل، وإمكان القرار عليها بإخراج الماء والمرعى وإرساء الجبال وإثباتها أوتادا لها حتى تستقر ويستقر عليها.

والثاني: أن يكون أخرج حالا، والتقدير: والأرض بعد ذلك دحاها حال ما أخرج منها ماءها ومرعاها.

المسألة الثانية: أراد بمرعاها ما يأكل الناس والأنعام، ونظيره قوله في النحل: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وقال في سورة أخرى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥ - ٣٢].

فكذا في هذه الآية واستعير الرعي للإنسان كما استعير الرتع في قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢].

وقرئ: (نرتع) من الرعي، ثم قال ابن قتيبة قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨١.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٤١٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٦.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٤.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٤٠٠.

﴿حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فانظر كيف دل بقوله: ماءها ومرعاها على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر، والحب والثمر والعصف والحطب، واللباس والدواء حتى النار والملح، أما النار فلا شك أنها من العيدان قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢].

وأما الملح فلا شك أنه متولد من الماء، وأنت إذا تأملت علمت أن جميع ما يتنزه به الناس في الدنيا ويتلذذون به، فأصله الماء والنبات»[١]. والماء الذي يخرج من الأرض، هو من هذا الماء الملح، الذي سخرته القدرة الإلهية؛ ليكون بخارا، فسحابا، فمطرا، فماء عذبا تفيض به الأنهار، وتتفجر منه العيون[٢].

وقد دل بذكر الماء والمرعى على جميع ما تخرجه الأرض قوتا للناس وللحيوان حتى ما تعالج به الأطعمة من حطب للطبخ فإنه مما تنبت الأرض، وحتى الملح فإنه من الماء الذي على الأرض[٣].

فالقدرة الإلهية تتصرف بحكمة عالية؛ لتحقيق مصالح ومنافع المخلوقات، والتي منها تيسير الحصول على الماء.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٤٧.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٤٤٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٨٧.

أوصاف الماء

لقد وصف القرآن الكريم الماء بعدة أوصاف، منها:

أولًا: الطهارة:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١].

أي: يطهر من الحدث والخبث ويطهر من الغش والأدناس[٤].

يقول ابن عاشور رحمه الله: «وماء المطر بالغٌ منتهى الطهارة؛ إذ لم يختلط به شيءٌ يكدره أو يقذره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه؛ لخلوه عن جميع الجراثيم، فهو الصافي حقًا. والمعنى: أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه، ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مطهرٌ لغيره؛ إذ العدول عن صيغة فاعلٍ إلى صيغة فعولٍ لزيادة معنًى في الوصف، فاقتضاؤه في هذه الآية أنه مطهرٌ لغيره اقتضاءٌ التزاميٌّ؛ ليكون مستكملًا وصف الطهارة القاصرة والمتعدية»[٥].

يقول عبد الدائم الكحيل: «الماء النازل

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.
(٥) التحرير والتنوير ١٩/ ٤٨.

من السماء هو ماء مقطر يمتلك خصائص التعقيم والتطهير وليس له طعم! لذلك وصفه البيان الإلهي بكلمة(طهورًا)»[(١)].

ثانيًا: الغدق:

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «الغدق: الماء الطاهر الكثير»[(٢)]، وعن مجاهدٍ رحمه الله: «قال: لأعطيناهم مالًا كثيرًا»[(٣)].

والآية كناية عن التوسعة في الرزق؛ لأنه أصل المعاش.

ومن الحقائق التي تبرزها الآية: «الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله، وبين إغداق الرخاء وأسبابه، وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه، وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة، وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء، ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية.

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة، وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف، حتى استقاموا على الطريقة، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء، وتتدفق فيها الأرزاق. ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلابا، وما يزالون في نكد وشظف، حتى يفيئوا إلى الطريقة، فيتحقق فيهم وعد الله»[(٤)].

ومثل ذلك من الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

ثالثًا: العذب الفرات:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ [المرسلات: ٢٧].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾: عذبًا[(٥)].

تساهم الجبال العالية في تشكل البحيرات العذبة، فإن مياه الأمطار التي تسيل من الجبال تتجمع في الوديان، لتشكل أنهارًا وبحيرات، وتساعد الجبال أيضًا على تشكل الغيوم وهطول الأمطار، وتمر المياه

(١) موقع الدكتور عبدالدايم الكحيل.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٣٥.
(٣) المصدر السابق ٢٣/ ٣٣٦.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٩٩.



النازلة من الجبال على العديد من الطبقات التي تساعد في تنقية المياه وتنظيفها.

رابعًا: الملح الأجاج:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

عن قتادة رحمه الله: الأجاج: المر[(١)].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: مالحٌ مرٌّ زعاقٌ لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق، وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم، وبحر الخزر، وما شاكلها وما شابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مدٌّ وجزرٌ، ففي أول كل شهرٍ يحصل منها مدٌّ وفيضٌ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله -سبحانه وتعالى، وهو ذو القدرة التامة- العادة بذلك، فكل هذه البحار الساكنة، خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة؛ لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها مالحا، كان هواؤها صحيحًا وميتتها طيبةً»[(٢)].

والبرزخ: الحائل بين شيئين. والمراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح مما يدفع تخلل الماء العذب فيه بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر ويبقى كلاهما حافظًا لطعمه عند المصب[(٣)].

يقول العلماء: ما عرف الإنسان أن البحار المالحة بحار مختلفة إلا في الثلاثينات من هذا القرن، بعد أن أقام الدارسون آلاف المحطات البحرية؛ لتحليل عينات من مياه البحار، وقاسوا في كل منها الفروق في درجات الحرارة، ونسبة الملوحة، ومقدار الكثافة، ومقدار ذوبان الأوكسجين في مياه البحار في كل المحطات فأدركوا بعدئذٍ أن البحار المالحة متنوعة.

وما عرف الإنسان البرزخ الذي يفصل بين البحار المالحة، إلا بعد أن أقام محطات

(١) المصدر السابق ١٩/ ٣٤٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٠٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٥٤.

الدراسة البحرية المشار إليها، وبعد أن قضى وقتًا طويلًا في تتبع وجود هذه البرازخ المتعرجة المتحركة، والتي تتغير في موقعها الجغرافي بتغير فصول العام.

وما عرف الإنسان أن مائي البحرين منفصلان عن بعضهما بالحاجز المائي، ومختلطان في نفس الوقت إلا بعد أن عكف يدرس بأجهزته وسفنه حركة المياه في مناطق الالتقاء بين البحار، وقام بتحليل تلك الكتل المائية في تلك المناطق.

وما قرر الإنسان هذه القاعدة على كل البحار التي تلتقي إلا بعد استقصاء ومسح علمي واسع لهذه الظاهرة التي تحدث بين كل بحرين في كل بحار الأرض.

تلك المحطات البحرية، وأجهزة تحليل كتل المياه، والقدرة على تتبع حركة الكتل المائية المتنوعة[1].

خامسًا: الثجاج:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

والثجاج: المنصب بقوة. ووصف الماء هنا بالثجاج؛ للامتنان[2].

سادسًا: المعين:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

ومعنى معين: جارٍ من العيون[3].

والاستفهام في قوله: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ﴾: استفهام إنكاري، أي: لا يأتيكم أحد بماء معين، أي: غير الله وأكتفي عن ذكره؛ لظهوره من سياق الكلام ومن قوله قبله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠][4].

سابعًا: المبارك:

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩].

أي: كثير البركة[5].

والبركة: الخير النافع لما يتسبب عليه من إنبات الحبوب والأعناب والنخيل[6].

وهذه الصفات من باب امتنان الله على عباده؛ ليعظموه، ويشكروه.

(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد الله المصلح، ص ٢٤٤- ٢٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٦.
(٣) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٠١.
(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ٥٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٦.
(٦) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٢.

فوائد الماء

للماء فوائد كثيرة منها:

أولًا: الإرواء:

يمتن سبحانه وتعالى على عباده بأن جعل لهم الماء صالحًا يفي بحاجتهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

أي: أنزل مطرًا لكم من ذلك الماء شرابٌ تشربونه، ومنه شراب أشجاركم وحياة غروسكم ونباتها[١].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

أي: جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم. ومن البلاغة: قيل: إن أسقيناكموه أبلغ من سقيناكموه؛ لأن سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي، وأسقيته نهرًا، أي: جعلته شربًا له، وقيل: سقى وأسقى بمعنًى واحدٍ[٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

ثانيًا: إنبات الزرع:

أخبر تعالى أن من نعمه على خلقه، إنزال المطر؛ لإخراج النبات المتعدد الأشكال والألوان والطعوم والروائح والمنافع الصالحة للإنسان وللحيوان، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]. أي: أصنافًا من النبات المختلفة الأزواج والألوان[٣]، والأشكال والطعوم والروائح والمنافع[٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [النبأ: ١٤-١٥].

ثالثًا: التطهر للعبادات:

من العبادات التي يستخدم فيها المسلم الماء:

أولًا: الوضوء:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

(١) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٨١.
(٢) فتح القدير ٣/ ١٥٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٠٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣٩.

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وجه المناسبة بين آية الوضوء و ما قبلها:

يرى صاحب المنار رحمه الله: «أن وجه المناسبة بين آية الوضوء وما قبلها هو أن الحدثين اللذين هما سبب الطهارتين هما أثر الطعام والنكاح، ولولا الطعام لما كان الغائط الموجب للوضوء، ولولا النكاح لما كانت ملامسة النساء الموجبة للغسل»[(١)].

قال أبو حيان رحمه الله: «وظاهر الآية يدل على أن الوضوء واجب على كل من قام إلى الصلاة، متطهرًا كان أو محدثًا، وكأنه قيل: إن كنتم محدثين الحدث الأصغر فاغسلوا هذه الأعضاء وامسحوا هذين العضوين، وإن كنتم محدثين الحدث الأكبر فاغسلوا جميع الجسم»[(٢)].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله:

- اشتراط الطهارة لصحة الصلاة؛ لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.
- أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.
- أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.
- الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولا. ومن الأذن إلى الأذن عرضا، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه. إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها.
- الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين و «إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»؛ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.
- الأمر بمسح الرأس، وأنه يجب مسح جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعيض،

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٢٠.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٤٤٩.

وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

- أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.
- أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف؛ لأنه لم يأت بما أمر الله به.
- الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.
- الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأن الله تعالى ذكرها مرتبة؛ ولأنه أدخل ممسوحا -وهو الرأس- بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.
- أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.
- الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة؛ لتوجد صورة المأمور به.
- الأمر بالغسل من الجنابة.
- أنه يجب تعميم الغسل للبدن؛ لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء.
- الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.
- أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه؛ لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.
- أن الجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو مناما، أو جامع ولو لم ينزل.
- أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا فإنه لا غسل عليه؛ لأنه لم تتحقق منه الجنابة.
- أن مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم؛ لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء[1].

ثانيًا: الغسل:

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦].

من منطوق هاتين الآيتين الكريمتين أخذ الفقهاء مشروعية وجوب الغسل للجنب.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٢.

رابعًا: النظافة:

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

قال السعدي رحمه الله: «يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات، والمنقصات من شر ورياء، ونفاق، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته. ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصا في الصلاة، قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصا في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأمورا بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن»[1].

الانعام والانتقام

خلق سبحانه وتعالى الماء نعمة لحياة الكائنات الحية، فكان شرابًا لهم وكان سببًا في إنبات الزرع، وجعله سبحانه في الدنيا إنعامًا على أقوام، وإهلاكًا لآخرين، وجعله في الآخرة عذابًا لأهل النار، ونعيمًا لأهل الجنة.

أولًا: الماء نعيم في الدنيا:

الماء عصب الحياة ونعيمها، فبدونه لا حياة على كوكب الأرض، فهو وسيلة لطهارة المسلم، وجعل الله كل الكائنات محتاجةً إليه؛ لشربها وسقيها، فأنبت الله بها الجنات، والحب والنوى.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ١٤١].

والماء علاج لكثير من الأمراض، الجلدية والمسالك البولية والمعدة والأمعاء والقولون والعضلات من خلال الشرب والاغتسال بالساخن منه أو البارد.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤١-٤٢].

أي: اضرب الأرض بها؛ لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك

(١) المصدر السابق ص ٨٩٥.

الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى [1].

وسخر الله ماء البحر؛ لنأكل مما نصطاد من سمكه لحمًا طريًا، ونستخرج منه زينة نلبسها كاللؤلؤ والمرجان، وتتحرك فيه السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، وتركب؛ لطلب رزق الله بالتجارة والربح فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقد تجمعت حضارات البشرية جميعها حول الماء.

ثانيًا: الماء جزاء وعقاب في الدنيا:

عاقب الله بالماء أقوامًا لم يؤمنوا به، ولم يخضعوا رقابهم لجلاله، منهم:

١. قوم نوح.

دعا نوح قومه لعبادة الله، قال تعالى على لسان نبيه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣].

فأعرضوا عن دعوته، وآذوه ومن معه من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ٥-١٣].

ولما أعرضوا عن دعوته دعا عليهم بعد إعلام الله له أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

فاستجاب له ربه فأخذهم الطوفان.

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١-١٢].

أي: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمرٍ قد قدره الله وقضاه [2]. عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

٢. فرعون وقومه.

أرسل الله سبحانه وتعالى موسى وهارون إلى دعوة فرعون وقومه فأعرضوا، وادعى فرعون الألوهية.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢٢.

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وادعى الربوبية فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

فكان هو وقومه من المغرقين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

فانتقم الله منهم بعاجل العذاب، «وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك»[(١)].

٣. سبأ.

أنعم الله على سبأ بنعم كثيرة، وحثهم على شكره عليها، لكنهم أعرضوا، فأرسل الله عليهم سيل العرم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

قال السعدي رحمه الله: «كان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدا محكما، يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة، منها:

هاتان الجنتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

- أن الله جعل بلدهم، بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.
- أن الله تعالى وعدهم -إن شكروه- أن يغفر لهم ويرحمهم.
- أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: سيرا مقدرا يعرفونه، ويحكمون عليه،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٣١.

بحيث لا يتيهون عنه ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرا. فأرسل عليها السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم»[1].

ثالثًا: الماء نعيم في الآخرة:

قرن سبحانه وتعالى بين الجنات والعيون والأنهار في مواضع من كتابه:

قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[الإنسان: ٦].

أي: عين يشرب منها عباد الله، يتصرفون فيها، ويجرونها حيث شاءوا.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٧.

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «آسنٍ: غير متغير»، وعن قتادة رحمه الله: من ماءٍ غير متنٍ[2].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦].

أي: فوارتان بالماء[3]، لا تنقطعان.

وقال تعالى في وصف الماء في الجنة: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١].

قال الثوري رحمه الله: يجري في غير أخدودٍ[4].

وقال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

ومن طهره أنه لا يصير بولًا نجسًا، ولكنه يصير رشحًا من أبدانهم كرشح المسك[5]، وأسند سقيه إلى ربهم؛ إظهارًا لكرامتهم[6].

ومن عيون الماء في الجنة: سلسبيل.

قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨].

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٠٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٨٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٦٩.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤٠٠.

قال قتادة رحمه الله: هي عينٌ تنبع من تحت العرش من جنة عدنٍ إلى الجنان، وقال عكرمة رحمه الله: عينٌ سلسٌ ماؤها. وقال مجاهد رحمه الله: عين جديرة الجرية سلسلةٌ سهلة المساغ، وقال مقاتلٌ: عينٌ يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاءوا[1].

رابعًا: الماء عقاب في الآخرة:

لعقاب أهل النار ماء وصفه الله سبحانه وتعالى بعدة صفات منها:

١. الحميم.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

أي: حارا شديد الغليان، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رءوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[2].

٢. الغساق.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٥].

الغساق: سائلٌ يسيل في جهنم[3].

٣. الصديد.

قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦].

عن مجاهدٍ رحمه الله قال: «قيحٌ ودمٌ»[4]، واشتقاقه من الصد؛ لأنه يصد الناظرين عن رؤيته[5].

٤. المهل.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته[6].

ولما شرب أهل النار الماء بصفاته السابقة طلبوا من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء الذي أنعم الله به عليهم.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك[7].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣٦٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٣٧.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٨٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦١٩.
(٥) تفسير فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٢٠.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٠.

الماء في المثل القرآني

تحدث القرآن الكريم عن الماء كمثل يقرب به المعاني لعباده، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الدنيا ونضارتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

لما كان سبب ما ذكر من البغي في الأرض وإفساد العمران، هو الإفراط في حب التمتع بما في الدنيا من الزينة واللذات، ضرب لها مثلًا بليغًا يصرف العاقل عن الغرور بها، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها، واجتناب التوسل إليها بالبغي والظلم، وحب العلو والفساد في الأرض، وهو عبارةٌ عن تشبيه زينتها ونعيمها في افتتان الناس بهما وسرعة زوالهما بعد تمكنهم من الاستمتاع بها، بحال الأرض يسوق الله إليها المطر فتنبت أنواع النبات الذي يسر الناظرين ببهجته، فلا يلبث أن تنزل به جائحةٌ تحسه وتستأصله قبيل بدو صلاحه والانتفاع به[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالكٌ لها قادرٌ عليها سلبها بغتةً أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادرٌ عليها، مالكٌ لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتةً، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها، فكذا حال الدنيا والواثق بها سواءً؛ وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»[٢].

وقال سيد قطب رحمه الله: «ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها، حين يرضون بها، ويقفون عندها، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى. هذا هو الماء ينزل من السماء، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر، وها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج، وأهلها مزهوون بها، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت، وبإرادتهم تزينت، وأنهم أصحاب الأمر فيها، لا يغيرها عليهم مغير، ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب الممرع، وفي نشوة هذا الفرح الملعلع، وفي غمرة هذا الاطمئنان

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٢٨٤.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ١١٨.

الواثق، ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ في ومضة، وفي جملة، وفي خطفة. . وذلك مقصود في التعبير بعد الإطالة في عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان، وهذه هي الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس، ويضيعون الآخرة كلها؛ لينالوا منها بعض المتاع، هذه هي، لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها ولا استقرار، ولا يملك الناس من أمرها شيئًا إلا بمقدار»(١).

ثانيًا: الوحي:

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا عظيمًا كوادٍ كبير يسع ماء كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، كما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت غثاء وزبدا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات؛ ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فتكرب عنه بها شاربه وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها؛ ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يساكنها وهكذا ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾»(٢).

وقال سيد قطب رحمه الله: «إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء، فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان، هذا الزبد نافش رابٍ متنفخ. ولكنه بعد غثاء، والماء من تحته سارب ساكن هادئ ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة. . كذلك يقع في المعادن التي تذاب؛ لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل، ولكنه بعد خبثٌ يذهب ويبقى المعدن في نقاء. ذلك مثل الحق والباطل في هذا الحياة؛ فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيًا طافيًا ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحًا لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئًا ساكنًا، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٥.

(٢) الأمثال في القرآن ص١٢.

غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح، ينفع الناس»[1].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضًا، فكان منها طائفةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ[2] والعشب الكثير، وكانت منها أجادب[3] أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، ورعوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[4].

ثالثًا: حال المنافقين:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

قال ابن القيم عن حال المنافقين: «ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي، فشبههم بأصحاب صيب -وهو المطر الذي يصوب أي: ينزل من السماء- فيه ظلمات ورعد وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق، فحالهم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوفه جعل أصبعيه في أذنيه خشية من صاعقة تصيبه، وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرا من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، ويقول مختثهم: سدوا عنا هذا الباب، واقرءوا شيئا غير هذا، وترى قلوبهم مولية وهم يجمحون لثقل معرفة الرب -سبحانه تعالى- وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم، وكذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد وتليت عليهم نصوصه المبطلة الماء الذي به الحياة لشركهم اشمأزت قلوبهم وثقل عليهم، لو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا، وكذلك نجد أعداء

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٤.

(٢) الكلأ: النبات والعشب، وسواءٌ رطبه ويابسه. انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ٤/ ١٩٤.

(٣) الأجادب: صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعًا. وقيل: هي الأرض التي لا نبات بها. انظر: النهاية في غريب الأثر ١/ ٢٤٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ص ٧٩.

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل ذلك عليهم جدا فأنكرته قلوبهم، وهذا كله شبه ظاهر ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء، فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم»[1].

والعلاقة بين الماء وبين المنافقين واضحة جلية تتمثل فيما يلي:

أولها: أن الماء لا يستقر على حالٍ، فهو يتشكل بأشكالٍ مختلفة حسب الوعاء الذي يوضع فيه، وكذلك المنافق يتلون ويتقلب حسب المصلحة التي يريدها بعيدًا عن الثبات والمبدأ والقيم.

ثانيها: أن الماء ينحدر ويميل دائمًا في مجراه وحركته إلى السفل، وكذلك المنافق لا يتورع عن الانحطاط والسير إلى الحضيض.

ثالثها: أن الماء إذا قبضت عليه لم تجد منه شيئا، وكذلك المنافق إذا تمسكت به وتشبثت به ينفلت منك ولا تستطيع الاعتماد عليه.

رابعها: أن الماء إذا سرت معه أو فيه إما أن تبتل أو تغرق، وكذلك المنافق السير معه لا يأتي بخير فإنه إما أن يغدر بك أو تصيبك من رفقته الشبهة[2].

(١) الأمثال في القرآن ص١١.

(٢) الماء في القرآن دراسة موضوعية، فتحي العبادسة، ص ٢٧٤.

رابعًا: أعمال الكفار:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

عن أبي بن كعب قال: ضرب مثلًا آخر للكافر، قال: فهو يتقلب في خمسٍ من الظلم: فكلامه ظلمةٌ، وعمله ظلمةٌ، ومدخله ظلمةٌ، ومخرجه ظلمةٌ، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار[3].

وقال ابن القيم رحمه الله هذا المثل ضرب: «للذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليه ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم، فصاروا جاهلين، وظلمة اتباع الغي والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان»[4].

(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٣٢.

(٤) الأمثال في القرآن ص١٨.

لمسات إعجازية في الماء

أولًا: دورة الماء في الطبيعة والبيئة:

ذكر الله في القرآن جميع الحقائق المتعلقة بدورة الماء ونزول المطر بشكل يتفق مع أحدث المعطيات العلمية؛ لنتأمل كل جزء من أجزاء الدورة المائية:

١. أهمية الشمس.

الشمس هي محرك الدورة المائية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

فالشمس هي التي تبث الحرارة والضوء اللازمان؛ لتبخير الماء وتشكيل الرياح.

٢. دور الرياح.

بعد تبخر الماء يتكثف في السماء على شكل غيوم، والرياح هي المحرك الثاني لدورة الماء، كما أنها تقوم بمهمة التلقيح، يقول -الحق تعالى-: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

٣. أهمية تخزين الماء.

الماء النازل من الغيوم يختزن في الأرض لمئات السنين دون أن يفسد، مع العلم أن أحدنا لو اختزن الماء لأيام قليلة فإنه سيفسد!!

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

٤. تشكل الغيوم.

ذكر القرآن الغيوم العالية الركامية والتي هي مسئولة عن المطر الغزير وعن الثلج والبرد، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿يُزْجِي﴾ أي: يحرك ويسوق، ﴿رُكَامًا﴾ أي: عاليًا بعضه فوق بعض، و﴿الْوَدْقَ﴾: هو المطر الغزير. وهذه الآية من آيات الإعجاز العلمي التي تحتوي على معلومات دقيقة عن هندسة تشكل الغيوم وحدوث البرد.

٥. توزع المياه.

الماء لا يذهب عبثًا بل يتم تخزينه في الأرض؛ لينطلق على شكل ينابيع عذبة نشربها، وبالتالي تستمر الحياة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

ثانيًا: وجود قوانين دقيقة:

إن جميع العمليات تتم بشكل منتظم وفق قوانين فيزيائية ثابتة؛ ولذلك فإن العملية

بأكملها مقدرة ومحكمة ومنظمة، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وكلمة ﴿بِقَدَرٍ﴾ التي تشير إلى التقدير والنظام.

١. البرزخ المائي.

من أهم أجزاء الدورة ما يحدث في منطقة المصب حيث تصب الأنهار في البحار، وهذه ذكرها القرآن عنها ولم يغفلها، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

ولولا أن الأنهار تصب في البحار لجفت هذه البحار، وقد حدث ذلك مع بحر «الأرال» الذي كان يتغذى من نهرين، وعندما قام البشر بتحويل مجرى النهرين، جف هذا البحر! !

٢. دور الجبال.

إن الجبال لها دور مهم في نزول المطر وتشكل الغيوم وفي تنقية الماء، يقول عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

ففي هذه الآية ربط المولى عز وجل بين الجبال الشامخة وبين الماء الفرات، وهذا ما يؤكده العلماء اليوم.

٣. المعجزات المائية.

- ذكر الله في القرآن الخزانات المائية الضخمة المختزنة تحت سطح الأرض والتي تزيد كميتها عن المياه العذبة في الأنهار، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

فهذه الآية تتضمن إشارة إلى عمليات تخزين المياه في الأرض، وأن هذه الخزانات الطبيعية من المياه هي نعمة من نعم الله حيث تتم تنقية الماء فيها باستمرار، وهذا الأمر لم يكن معلومًا زمن نزول القرآن.

- ذكر الله في القرآن المدة الزمنية الكبيرة التي يمكث فيها الماء في الأرض دون أن يفسد أو يختلط ويتفاعل مع صخور الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن الماء يسكن في الأرض ويقيم فترة طويلة من الزمن. وعلى الرغم من وجود الأحياء الدقيقة والفطريات والأملاح والمعادن والمواد الملوثة تحت سطح الأرض، إلا أن الماء يبقى نقيًا وماكثًا لا يذهب، أليس الله -تبارك وتعالى- هو من أودع القوانين اللازمة لبقاء الماء بهذا الشكل الصالح للحياة؟

❁ ذكر الله في القرآن العمليات المنظمة والمقدرة التي تحكم نزول الماء ودورته في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]. أي: بنظام مقدر ومضبوط ومحسوب[1].

ثالثًا: الماء والأرصاد الجوية:

ذكر الله في القرآن الكريم في كثير من آياته بعض الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والمطر.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

تشير الآية إلى جملة من الحقائق الباهرة التي لم تكتشف إلا بعد تقدم علوم الأرصاد الجوية في العصر الحديث، من ذلك:

يقول علماء الأرصاد الجوية: «إن المطر يتوقف على تكوين السحب الماطرة (المزن)، ومن هذه المزن ما يسمى (المزن الركامي)، وهي سحب تنمو في الاتجاه الرأسي، وقد تمتد إلى علو عشرين كيلومترًا، وداخل السحب الركامية ثلاث طبقات:

وهي الطبقة السفلى وقوامها نقط نامية من الماء.

ثم الطبقة الوسطى وتكون درجة حرارة نقط الماء فيها تحت الصفر المئوي، ومع ذلك فهي باقية في حالة السيولة[2].

أما الطبقة العليا فتتكون من بلورات الثلج ذات اللون الأبيض الناصع، وجعل الله سبحانه وتعالى نقط الماء فوق المبردة غير مستقرة قابلة للتجمد بمجرد ارتطامها بجسم صلب».

لذا فبمجرد أن تتساقط بلورات الثلج من الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وتلتقي بنقط الماء فوق المبردة تلتصق البلورات بنقط الماء وتتجمد فينمو حجمها سريعا، وينشط عليها التكاثف فتتساقط على هيئة برد: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ وأثناء سقوط هذا البرد يلتقي بنقط الماء النامية فيتجمع معها، ويزداد حجم النقط كثيرا ولا يقوى الهواء على حملها فتتساقط على هيئة مطر، ويذوب أغلب البرد قبل وصوله إلى سطح الأرض.

ولنمو البرد وذوبانه أهمية عظيمة في

(١) دورة الماء بين العلم والإيمان، عبد الدائم الكحيل، ص٦٢-٦٣.

(٢) يجمد الماء تحت الضغط العادي في درجة الصفر المئوي، أما إذا اختل الضغط الجوي الذي يقدر بـ ٧٦ سنتمتر زئبق، فإن تجمد الماء وكذلك غليانه يختلفان، لذا تكون درجة الحرارة أقل من الصفر ولا يجمد الماء، لضعف الضغط الجوي.

عمليات شحن السحابة بالكهربائية التي تسبب البرق والرعد، فالبرد عندما ينمو فوق ملمتر يشحن بالكهربائية، وعندما يذوب يشحن أيضًا بشحنة مضادة، وفي كلتا الحالتين يحمل الهواء الصاعد شحنة كهربائية مضادة عظمى.

والآية الكريمة ذكرت كلمة ﴿رُكَامًا﴾ وأعقبتها بالـ ﴿بَرَدٍ﴾ وقد أثبت العلم أن هذا النوع -السحب الركامية- هي الوحيدة التي تعطي البرد.

وفي التعبير بقوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ سر من الأسرار الدقيقة الرائعة التي تعتبر الآن من أمهات الحقائق الجوية؛ إذ فيها الدلالة على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها، فإن التأليف بين السحاب وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعبأ في الجو تعبئة الجيوش، وهو يتفق مع ما يريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق وصواعق، ومطر أو برد.

وتشبيه الآية الكريمة هذه السحب بالجبال لا يدركه إلا من ركب الطائرة وعلت به فوق السحب أو بينها، فإنه سيدهش لدقة الوصف؛ إذ يجد مشهد الجبال حقا بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها.

وأشارت الآية الكريمة إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البرد بالنص على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض، الذي يخطف بالأبصار ويصيبها بالعمى المؤقت، وأكثر من يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1].

موضوعات ذات صلة

الآيات الكونية، الأرض، الأنهار، البحر، الجبال

(١) سنن الله الكونية، محمد الغمراوي، نقلاً عن لفتات علمية في القرآن، ص ٥٣.





عناصر الموضوع

مفهوم المال

أولًا: المعنى اللغوي:

المال: ما ملكته من جميع الأشياء، ومال الرجل يمول مولًا ومؤولًا إذا صار ذا مال، وتصغيره مويل[1].

ويجمع على أموال، وهو مذكر ومؤنث. يقال هو المال وهي المال[2].

وفي المعجم الوسيط: «المال: كل ما يملكه الفرد أو تملكه الجماعة من متاع، أو عروض تجارة، أو عقار، أو نقود، أو حيوان»[3].

قال ابن الأثير: «المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأنها كانت أكثر أموالهم»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المال: كل ما يتمول به الناس من جميع الأصناف، كالذهب والفضة والأنعام والحرث وغيرها[5].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٣٥.

(٢) العناصر المكونة لصفة المالية عند الفقهاء، صالح بن عبد الله اللحيدان، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٧٣، ص١٦٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٢٥٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٣٧٣.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٤.

المال في الاستعمال القرآني

ورد (المال) في القرآن الكريم (٨٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم مفرد	٢٥	﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦]
اسم جمع	٦١	﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾[النساء:٢]

وجاء المال في القرآن بمعناه في اللغة وهو ما يملك من الأعيان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٠٢٣-١٠٣٣.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٣٥.

الألفاظ ذات صلة

١ القنطار:

القنطار لغة:

اسم لمعيار يوزن . ويقال لما بلغ ذلك الوزن: هذا قنطار، أي: يعدل القنطار . والقنطار: جملة كثيرة مجهولة من المال [١] .

القنطار اصطلاحًا:

المال الكثير والعقدة المحكمة الكبيرة منه [٢].

قال ابن عطية: «وقد اختلف الناس في تحرير حده كم هو ؟ وروي عن أبي بن كعب أنه ألف ومائتا أوقية، وقال به جماعة، وهو أصح الأقوال، لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقية » [٣] .

وجاء عند ابن جرير: أن العرب لا تحد القنطار بمقدار معلوم من الوزن، ولكنها تقول: هو قدر وزنٍ، واختار هذا القول؛ لأنه لو كان محددًا قدره عندها لم يكن بين متقدمي أهل التأويل فيه خلاف [٤].

الصلة بين القنطار والمال:

القنطار هو المال الكثير الجزيل، بعضه على بعض [٥] .

٢ النقود:

النقد لغة:

تمييز الدراهم، وإخراج الزيف منها وإعطاؤها، والانتقاد: قبضها. ويقال: الدرهم نقدٌ، أي: وازن جيد [٦] .

النقد اصطلاحًا:

العملة من الذهب أو الفضة أو غيرهما مما يتعامل به . ويعبر به عن العملة التي تكون بين

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١١٨ .
(٢) انظر: لسان العرب ٥/ ١١٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢١ .
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٠٨ .
(٤) انظر: جامع البيان ٣/ ٢٠١ .
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٣٢ .
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤٢٥ .

أيدي الناس ويتعاملون بها.

والنقود:كل ما يدفع من أجل الحصول على السلع أو الخدمات، فيشمل ذلك العملات وتبادلها أو ما يقوم مقامها كالشيكات.

الصلة بين النقود والمال:

النقود هي الأموال المضروبة والتي صارت دنانير ودراهم، وتستعمل كوسيلة تبادل في البيع والشراء.

٣ الذهب والفضة:

الذهب لغة:

الذهب مذكر عند العرب، وربما أنث، فقيل: هي الذهب، ويقال: ذهبة . وهو مكيال لأهل اليمن[١].

الفضة لغة:

أما الفضة فجمعها فضض، وقد اختصت بأدون المتعامل به من الجواهر[٢].

قال القرطبي: «الذهب مأخوذ من الذهاب، والفضة مأخوذة من انفض الشيء إذا تفرق، وهذا الاشتقاق يشعر بزوالهما وعدم ثبوتهما كما هو مشاهد في الوجود»[٣].

وهما من الجواهر النفيسة والمعادن الثمينة والتي تستخدم في سك النقود.

الذهب اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الفضة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الذهب والفضة والمال:

الذهب والفضة هما أصل المال . يقول ابن الأثير: «المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة»[٤].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨١، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٩٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٢.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤/ ٣٧٣.

أهمية المال ومكانته

دلت نصوص القرآن الكريم على مكانة المال وأهميته الكبيرة في حياة الإنسان فردًا أو جماعة، كما أشارت إلى تأثيره في جميع أموره الدنيوية والأخروية وتظهر أهمية المال في القرآن في الآتي:

١ . وصف المال بأنه قوام الحياة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء:٥].

وصف الله تعالى المال في الآية الكريمة بأنه (قيامًا) أو(قوامًا)، فالأموال هي الوسيلة التي جعلها الله للناس لتقوم بها معايشهم وتستقيم بها مصالحهم الدنيوية والأخروية «فلا يستطيع المرء أن يحافظ على حياته المادية إلا بالمال، فبه يأكل، وبه يشرب، وبه يلبس، وبه يبني مسكنه، وبه يصنع سلاحه الذي يدافع به عن نفسه وحرماته، وبه يطور حياته ويرقيها»[(١)].

وبالمال أيضًا يستطيع المرء القيام بكثير من فرائض الدين كالزكاة والحج والجهاد والعلم ونشره، وأعمال البر والإحسان والصلة والصدقة .

«فالأموال قوام الحياة، وسبب إصلاح المعاش، وانتظام الأمور، فبالمال تتقدم الأمم، وتبني صرح الحضارة، وبالمال يسعد الفرد والجماعة، وبه يتحقق النصر على الأعداء.

وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالًا يحاسبني الله عليه خير من أن احتاج إلى الناس . وعن سفيان وكانت له بضاعة يتاجر بها، وقيل له: إنها تدنيك من الدنيا . فقال: لئن أدنتني من الدنيا لقد صانتني عنها »[(٢)].

٢ . تسمية المال خيرًا.

سمى الله تعالى المال «خيرًا » في كتابه العزيز - كما تقدم - وهذا مما يدل على مكانة المال وفضله، فهو ليس مذمومًا في ذاته، بل هو خير، وإنما المذموم هو فعل الإنسان فيه إن أساء استعماله، أو جعله غايةً ومقصودًا في ذاته فصار فكره وقلبه معلقًا به، وصارت أعماله ظاهرةً وباطنة من أجله، فشغله عما خلق لأجله، فأصبح لا يبالي من أي وجه حصل ذلك المال، ولا فيما أنفقه وصرفه، فذاك هو المذموم.

أما من طلبه من وجوهه المشروعة، ووضعه في مواضعه المشروعة، وشكر الله عليه، وجعله وسيلةً وطريقًا للتزود للآخرة والاستعانة به على مرضاة الله تعالى فهذا خيرٌ ولا شك.

يقول صلى الله عليه وسلم لعمرو

(١) انظر: مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال، يوسف القرضاوي، ص ٥.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٢٤٩.

ابن العاص: (نعم المال الصالح للمرء الصالح)[1].

وقد دعا صلى الله عليه وسلم خادمه أنس رضي الله عنه: (اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته)[2].

وقد وصف الله تعالى كثير من الأنبياء بالغنى والمال، كالأنبياء الذين أتاهم الله الملك، مثل يوسف عليه السلام، وداود وسليمان عليهما السلام.

قال تعالى في قصة سليمان: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل:٣٦].

٣. الامتنان بالمال وجعله من المثوبة العاجلة لعباد الله الصالحين في الدنيا.

وهذا مما يدل على فضل المال وأهميته ومكانته كما قال سبحانه في معرض الامتنان على بني إسرائيل: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [الاسراء:٩].

وكذا امتن سبحانه على المؤمنين بما حصل يوم الأحزاب، فقال عز وجل: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [الأحزاب:٢٧].

وقال سبحانه وتعالى على لسان نوح إبان دعوته لقومه وتذكيره إياهم بنعم الله عليهم: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [نوح:١٢].

وامتن سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى:٨].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

٤. الأمر بالمحافظة على المال.

لأهمية المال جاءت الأوامر والتوجيهات القرآنية والنبوية بالمحافظة عليه، فكان تحريم التبذير والإسراف في الاستهلاك، والأمر بالاعتدال والتوسط فيه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الاسراء:٢٦-٢٧].

وقال عز وجل: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف:٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان:٦٧].

وقال صلى الله عليه وسلم: (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ٢٩٩، رقم ١٧٧٦٣.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص١٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة، رقم ٦٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم ٢٤٨٠.

ولا مخيلة)[1].

ونهى صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال فقال: (إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[2].

ونحن نعيش اليوم في مجتمع يوصف بالمجتمع الاستهلاكي، وتوصف حياتنا بـ(نمط الحياة الاستهلاكية)، أي: إن الاستهلاك المفرط أصبح من سماتها البارزة .ولا يليق بالمسلم المهتدي بنور الشرع، ولا يجوز له أن يكون أسيرًا مستسلمًا للاستهلاك والسلبية، لا يفعل سوى أن يستهلك حتى يستهلك.بل لابد من التحكم العقلاني في أبواب الاستهلاك، وإغلاق ما يجب إغلاقه منها.

ومن المحافظة على المال الحجر على السفهاء .

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥].

وهو حجر لصالح المجتمع، وكذلك الحجر على الصغار والمجانين وكل من لا يحسن التصرف لصغر سن أو ضعف عقل.

كما أن أطول آية في القرآن الكريم نزلت في حفظ المال بكتابته والإشهاد عليه وهي آية المداينة في سورة البقرة[3] .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ۖ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

٥. جعل المال من الضرورات

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب اللباس، ووصله أحمد في مسنده، ١١/ ٢٩٤، رقم ٦٦٩٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٣٠، رقم ٤٥٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم ٢٤٠٨.

(٣) انظر: مقاصد الشريعة المتعلقة بالمال، القرضاوي ص ٨.

الخمس التي أمر الشرع بحفظها.

أجمع الفقهاء على أن المحافظة على المال من المقاصد أو المصالح الكلية الضرورية الخمس للشريعة الإسلامية، لذلك حرم السرقة وأوجب فيها الحد.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[المائدة:٣٨].

وفي الحديث: (كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه)[١].

٦. تقديم ذكر المال على الولد في أكثر الآيات التي قرن فيها الأموال بالأولاد.

بل تقديمه على النفس في مواضع ذكر الجهاد - كما سيأتي لاحقًا - فهذا مما يدل على مكانة المال ومنزلته حتى قدم على النفس حال الجهاد، وعلى الولد في أكثر المواضع

(١) سبق تخريجه.

المال والفطرة الانسانية

أولًا: المال زينة محببة:

أخبر الله تعالى في آياتٍ من كتابه الكريم عما بثه في الأرض للناس من أنواع المتع وأصناف الزين والمنافع والملاذ، وما جعل فيها من المحاسن التي تكون سببًا لتعلق قلوبهم بها وميل نفوسهم إليها، وتسخيرها للخلق وتذليلها لخدمتهم؛ لتكن عونًا لهم على الطاعة والامتثال؛ وسبيلًا لشكر المنعم الواهب، وحذرهم من الاغترار بها والركون إليها، أو الانشغال بها عن الطاعة والواجب، والتشاغل بتحصيلها عن الحياة الحقيقية الباقية، التي لها يكون العمل ولأجلها يسعى الإنسان وإليها المصير وفيها المستقر.

ومن جملة تلك المتع والمنافع: (المال) الذي جبل الإنسان على حبه، وفطر على التعلق به، والحرص على اقتنائه؛ لأنه زينة من زين الحياة، تهفو إليه القلوب، وترغب فيه النفوس، وتطمع في تحصيله الهمم، وتبذل لحيازته وجمعه الجهود والأوقات، وتضيع من أجله وفي سبيله - أحيانًا - أهم الواجبات.

وقد جاء تأكيد هذا المعنى في القرآن الكريم بثلاثة أساليب:

الأسلوب الأول: التصريح بكون المال زينة محببة للإنسان:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤].

قال الألوسي: «عبر عنها بالشهوات للإشارة إلى ما ركز في الطباع من محبتها والحرص عليها، حتى لكأنهم يشتهون اشتهاءها، أو تنبيهًا على خستها؛ لأن الشهوات خسيسة عند الحكماء والعقلاء، وفي ذلك تنفير منها»[١].

وقد فصل الشهوات المحببة للإنسان في آية آل عمران فبدأ بذكر النساء ثم البنين ثم ذكر المال، ولما ذكر المال فصل فيه فعدد أنواعه وأصنافه فأفاد ذلك أن المال من أعظم الشهوات والزين المحببة للإنسان، وأن كل نوع من أنواعه زينة قد تعلقت بها قلوب طائفة من البشر.

بدأ بالذهب والفضة فقال سبحانه: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ والمراد: المال الكثير الجزيل، بعضه على بعض[٢]، فهو إشارة إلى كثرة المال وحضوره[٣]؛ ولذلك عبر عنه بقوله: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾.

والمقصود أن الإنسان يحب المال الكثير حبًا شديدًا ويرغب فيه؛ ولذا جاء التعبير عن هذا المعنى بذلك الأسلوب المبالغ فيه ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾.

وقد صرح عزوجل بهذه الفطرة الإنسانية في مواضع أخرى من كتابه الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠].

وقوله عزوجل ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨].

وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[٤].

ويقول عليه الصلاة والسلام:(يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال وطول العمر)[٥].

وإنما كان الذهب والفضة محبوبين

(١) روح المعاني ٢/ ٩٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٣٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، ٨/ ٩٢، رقم ٦٤٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، ٢/ ٧٢٥، رقم ١٠٤٩.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة، ٨/ ٩٠، رقم ٦٤٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كراهية الحرص على الدنيا، ٢/ ٧٢٥، رقم ١٠٤٧.

«لأنهما - كما يقول الرازي - جعلا ثمنًا لجميع الأشياء، فمالكها كالمالك لجميع الأشياء»[1].

وقال ابن عاشور: «الذهب والفضة شهوتان بحسب منظرهما، وما يتأخذ منهما من حلي الرجال والنساء، والنقدان منهما الدنانير والدراهم، فهو شهوة لما أودع الله في النفوس منذ العصور من حب النقود التي بها دفع أعواض الأشياء المحتاج إليها»[2].

ثم ثنى بذكر الصنف الثاني من المال وهو ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ والمقصود بها الخيل الحسان الرائعة المعلمة المعدة الراعية[3].

فالخيل بهذا الوصف محبوبة مرغوبة في العصور الماضية وما بعدها، فقد كانت وما زالت زينة محببة للإنسان، فلم ينسها ما تفنن فيه البشر من صنوف المراكب برًا وبحرًا وجوًا، فمع كل ما لديهم من وسائل، مازال للخيل قيمتها وقدرها وعشاقها، وما زال الناس يعتنون بركوب ظهور الخيل، وجر العربات بالأفراس ويقيمون المسابقات بين الخيول[4].

ثم ذكر الصنف الثالث من المال وهو ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ والمقصود بها المواشي من الإبل والبقر والغنم. فإن قيل: «نَعَمٌ» فهو للإبل خاصة[5].

والأنعام بأنواعها زينة محببة للإنسان؛ لأنه في حاجة شديدة إليها في المركب والمطعم وغير ذلك من أمور المعاش.

قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: ٥-٦].

والأنعام - كما يقول ابن عاشور - زينة لأهل الوبر، فقد لا تتعلق شهوات أهل المدن بشدة الإقبال على الأنعام، لكنهم يحبون مشاهدتها، ويعنون بالارتياح إليها إجمالًا[6].

ثم ذكر سبحانه الصنف الرابع من المال وهو ﴿ٱلْحَرْثِ﴾ والمقصود به حرث الأرض وشقها للزرع، فيشمل أنواع الفلاحة من زرع الحبوب أو الجنات.

فهذه أصناف المال التي نصت عليها الآية الكريمة. قال القرطبي: «قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصنافٍ من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة فيتمول بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٧١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ١٨١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ١٨٢.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٣.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ٣/ ١٨٢.

الحرث فيتمول بها أهل الرساتيق، فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول به»[(١)].

وقد ختم الله تعالى آية عمران بعد ذكر أصناف الزين والمشتهيات بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ أي: كل ما تقدم ذكره من أنواع الشهوات المحببة إلى النفوس إنما هو متاع يستمتع به في الدنيا أهلها ما داموا أحياء، فيتبلغون به فيها، ويجعلونه من وسائل معاشهم، وأسباب قضاء حوائجهم دون أن تكون عدة لمعادهم وقربة إلى ربهم، إلا ما أسلك في سبيله وأنفق منه فيما أمر به[(٢)].

الأسلوب الثاني: تقديم المال على الولد في عدة مواضع من القرآن الكريم:

قرن الله تعالى في كتابه الكريم بين الأموال والأولاد في أربعة وعشرين موضعًا، قدمت فيها الأموال على الأولاد، وفي موضعين قدم الأولاد على الأموال.

قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: ٤٦].

إضافة إلى التصريح في هذه الآية الكريمة بأن المال زينة، جاء المال فيها مقدمًا على الولد، فدل ذلك على مكانة المال في نفس الإنسان ومنزلته عنده وحبه له وتعلق قلبه به، ولا غرو في ذلك فهو زينة كما سماه الله تعالى.

قال القرطبي: «إنما كان المال زينة الحياة؛ لأن في المال جمعًا ونفعًا»[(٣)].

وقال القاسمي: «تقديم المال على البنين لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد؛ ولكون الحاجة إليه أمس؛ ولأنه زينة بدونهم، من غير عكس»[(٤)].

وقال وهبة الزحيلي: «تقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه؛ لأنه أهم وأخطر، وأكثر تحقيقًا للحاجة والرغبة والهوى، فقد يكون البنون دون مال، ويكون البؤس والشقاء»[(٥)].

الأسلوب الثالث: الامتنان بالإمداد بالمال:

ولا يكون الامتنان إلا بما هو مرغوب محبوب للنفس، ذو مكانةٍ ومنزلة وفضل عند الناس، لذلك امتن الله تعالى في عدد من آيات القرآن الكريم على عباده الصالحين بالإمداد بالمال.

ثانيًا: أقسام الناس تجاه شهوة المال:

وصف الله تعالى المال بأنه شهوة، وفطر الناس على حبه، وهو شهوة وزينة ليست خسيسة أو مذمومةً في ذاتها، ولا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٠٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ٢٦٩.
(٤) انظر: محاسن التأويل ٥/ ٣٤.
(٥) انظر: التفسير المنير، ١٥/ ٢٦.



يقصد الشرع التنفير منها، إنما يريد من الناس أن يقتصدوا في طلبها، ويطلبوها من وجوهها المشروعة، ويضعوها في مواضعها المشروعة، وأن يشكروا الله عليها، وألا يجعلوها غاية مقصدهم في هذه الحياة، فالشرع لا يحارب الفطرة الإنسانية التي تشتهي المال وتحبه، إنما يهذبها ويضبطها ويرشدها لوضع المال في موضعه المناسب، حتى لا يطغى على غيره، ولا يستعمل في غير ما أراد الله تعالى له، وبذلك يسعد الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

قال ابن كثير: «وحب المال تارةً يكون للفخر والخيلاء والتكبر فيكون مذمومًا، وتارةً يكون للنفقة في وجوه البر فيكون محمودًا»[1].

وقال السعدي في تفسيره: «انقسم الناس بحسب الواقع تجاه هذه الشهوات إلى قسمين:

قسمٌ: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت لهم زادًا إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده؛ ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلةً لهم وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فجعلوها معبرًا إلى الدار الآخرة ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم»[2].

ثالثًا: المال فتنة وابتلاء:

كما وصف الله تعالى المال بأنه (زينة) وصفه عزوجل بأنه (فتنة)، ووصفه بـ(الزينة) جاء مخصوصًا بالحياة الدنيا فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[آل عمران: ١٤].

وقال: ﴿زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

فوصفه بكونه زينة مخصوص بالحياة الدنيا؛ ولذلك أرشد الله تعالى في الآيتين لما هو خير وأبقى للإنسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ وقال: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾.

والمراد بالباقيات الصالحات:كل عملٍ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٣٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٢.

صالح من قولٍ أو فعل يبقى للآخرة[(١)].

فالمال زينة خاصة بالدنيا، فإن أحسن الإنسان استعماله وجعله عونًا على الطاعة ووسيلةً وطريقًا للآخرة فقد نال ثواب الله الأبقى، بينما إذا انشغل بهذا المال عن الآخرة وصارت هذه الشهوة مقصده وغايته، أصبح ذلك المال بلاءً ونقمةً عليه، ومن هنا وصف الله تعالى المال بأنه (فتنة) قال عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [الأنفال:٢٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [التغابن: ١٥].

قال ابن جرير: «اعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي خولكموها اللهاختبار وبلاء،أعطاكموها ليختبركم بها ويبتليكم، لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها»[(٢)].

وقال ابن كثير: «أي: اختبار وابتلاء منه لكم، إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه»[(٣)].

وفي وجه وصف المال بأنه فتنة يقول الشوكاني: «لأنه سبب الوقوع في كثير من الذنوب فصار من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده، وإن كان من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا»[(٤)].

وقال القاسمي: «سموا فتنة اعتبارًا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم، ويجوز أن يراد بـ(الفتنة) الإثم والعذاب، فإنهم سبب الوقوع في ذلك»[(٥)].

وقال السمرقندي: «إنما ذكر الأموال والأولاد؛ لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل الأموال والأولاد»[(٦)].

وعلى ذلك فمعنى (الفتنة): إما الاختبار والابتلاء؛ ليتبين الشاكر لهذه النعمة من الجاحد لها، المشتغل بها عما خلقه الله من أجله.وإما أن يكون معنى الفتنة العذاب والإثم فسمى المال فتنة؛ لأنه سبب للوقوع في الإثم والعذاب.

فالمال من الفتن العظيمة التي يبتلى بها المؤمن، وقل من يصبر عليها، يقول صلى الله عليه وسلم: **(إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال)**[(٧)].

قال المناوي: «أي: الالتهاء به؛ لأنه

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٦٩.
(٢) انظر: جامع البيان ٦/ ٢٢٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٨.
(٤) انظر: فتح القدير ٢/ ٣٨٦.
(٥) انظر: محاسن التأويل ٤/ ٢٩.
(٦) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٢١.
(٧) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ١٥، رقم ١٧٤٧١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٣٠، رقم ٢١٤٨.

يشغل البال عن القيام بالطاعة وينسي الآخرة »[1].

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من فتنة المال فقال: (أبشروا وأملوا ما يسركم، فو الله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)[2].

قال الشيخ ابن عثيمين: «لما كان الناس إلى الفقر أقرب، كانوا لله أتقى وأخشع وأخشى، ولما كثر المال، كثر الإعراض عن سبيل الله، وحصل الطغيان، وصار الإنسان يتشوف لزهرة الدنيا وزينتها ويعرض عما ينفعه في الآخرة »[3].

يقول المراغي في تفسيره: «فتنة المال عظيمة لا تخفى، إذ أموال الإنسان عليها مدار معيشته، وتحصيل رغائبه وشهواته، ودفع الكثير من المكاره عنه، من أجل ذلك يتكلف في كسبها المشاق، ويركب الصعاب، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام، ويرغبه في القصد والاعتدال، ويتكلف العناء في حفظها وتتنازعه الأهواء في إنفاقها، ويفرض عليه الشارع فيها حقوقًا معينة وغير معينة »[4].

وفتنة المال قديمة، لكنها اشتدت هذا الزمان مع بعد الناس عن دينهم ولهثهم وراء الحياة، وانبساط الدنيا، وتنوع وسائل الكسب، وتفنن المصارف والبنوك في استجلاب واستقطاب الناس لكسب أموالهم بطرق مختلفة ووسائل متنوعة

رابعًا: من صور الافتتان بالمال:

الصورة الأولى: أن يكون المال سببًا في الإعراض عن الإيمان وقبول الحق.

وهو أعظم صور الافتتان بالمال وأخطرها على الإنسان، حين يصده ماله عن متابعة الحق والإذعان إليه؛ لذلك ندد الله تعالى بالمشركين والكفار كالوليد بن المغيرة وغيره؛ لما صدتهم أموالهم بكثرتها عن الإيمان بالله ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم:١٤].

أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة الأساطير التي يمكن صدقها وكذبها[5].

---

(١) انظر: فيض القدير ٢/ ٥٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ١٢، رقم ٤٠١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، رقم ٢٩٦١.

(٣) شرح رياض الصالحين ٣/ ٣٦١.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٩/ ١٩٦.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٥.

وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر:١١-١٦].

فهذا تقريع وتوبيخ لأولئك الكفرة على مقابلة ما أنعم الله به عليهم من المال بالكفر بآيات الله تعالى والإعراض عنها.

والآيات وإن كانت في سببٍ خاص إلا أنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف أو سار على هذا النهج، فكان ماله سبب كفره وجحوده وإعراضه عن الحق؛ لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم،فيدخل فيه أول الأمة وآخرها؛ ولأن العبرة في آيات الكتاب العزيز بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الصورة الثانية: أن يكون المال سببًا للبطر والطغيان.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق:٦-٧].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [الاسراء:٨٣].

قال القاسمي: «فيما يورث البطر مثل الغنى، وبه تستجمع أسباب السؤود والرئاسة والمجد والتفاخر»[1]

الصورة الثالثة: أن يكون المال سببًا في التشاغل عن الطاعات وذكر الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

فهذا نداء من الله تعالى لعباده المؤمنين وتنبيهٌ لهم بألا تشغلهم أموالهم وتدبيرها، والعناية بشؤونها، واستثمارها، وتنميتها، وتحصيلها، عن القيام بذكر الله تعالى وطاعته من التسبيح، والتحميد والتهليل، وقراءة القرآن، وأداء فروض الإسلام، وحقوق الله تعالى . ثم علق الخسران الكامل بالتلهي عن الذكر وطاعة الله بالدنيا وزينتها ومتاعها[2] حيث قال سبحانه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

وقد حذر الله تعالى من الانشغال بالأموال فقال عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة:٢٤].

وفي آية أخرى ذم الله تعالى وندد بالمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد في سبيله، من الأعراب الذين تعللوا واحتجوا بانشغالهم بأموالهم.

(١) انظر: محاسن التأويل ٢/ ٤٢.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٣١٤.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ [الفتح:١١].

الصورة الرابعة: صيرورة المال غاية في ذاته وبذل الوقت في جمعه وتنميته.

وقد ذم الله تعالى من كانت هذه صفته فقال سبحانه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝ ﴾ [الهمزة:١-٣].

والمقصود كل من لا هم له سوى جمع المال وتعديده، ولا رغبة له في إنفاقه، وجهلًا منه يحسب أن ذلك المال سببًا للخلود في الدنيا؛ ولذلك كان كده وسعيه في تنمية ماله الذي يظن أنه ينمي عمره[١].

وذم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عبد المال فقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ ﴾ [التوبة:٥٨].

فهؤلاء جعلوا الرضا والغضب تبعًا لأهواء أنفسهم الدنيوية، وأغراضهم الفاسدة، ومن ذلك حب المال والحرص عليه[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: **(تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض)**[٣].

قال ابن حجر رحمه الله: «(عبد الدينار) أي: طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده.قال الطيبي:خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا يجد خلاصًا،ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار؛ لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة»[٤].

وجاء في رواية أخرى: **(تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش)**.

قال ابن حجر: «وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة، وسوغ الدعاء عليه كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات»[٥].

الصورة الخامسة: عدم التحري في كسب المال والحصول عليه.

وهو ناتجٌ عن الصورة السابقة من صيرورة المال غاية في ذاته، فلا يأبه أمن حلالٍ جمعه أم من حرام، ولا يسأل ولا يتحرى في كسبه مشروع هو أم ممنوع، وينسى أو يتناسى قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى**

(١) انظر: المصدر السابق ٣٠/ ٣٩٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب، ما يتقى من فتنة المال، رقم ٦٤٣٥.
(٤) فتح الباري، ١٤/ ٣٠٦.
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٣٠٧.

يسأل عن خمس) وذكر منها: (وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه)[1].

والذي يتأمل حال الناس اليوم، يرى انكبابهم على كسب المال بأي وسيلة، سواء كانت مساهمات مشبوهة، أو معاملات فيها مخالفات، أو طرق محرمة أصلًا كالربا والغش وأكل المال بالباطل .فطاشت عقول الناس- إلا من رحم ربي- مع الأسهم والمساهمات وصنوف المعاملات، بالرغم من وجود البدائل المباحة، وجهود أهل العلم من المختصين في بيان أحكام المعاملات والأسهم والمساهمات، وكل ما يستجد من صنوف المعاملات المالية، فصدق عليهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليأتين على الناس زمان، لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام)[2].

الصورة السادسة: منع الحقوق فيه، سواءً كانت حقوقًا لله تعالى أم للخلق.

فمن الافتتان بالمال البخل، والشح به ،ومنع حقوق الله تعالى فيه وعلى رأسها الزكاة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء:٣٧].

أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة:٣٤].

قال السعدي: «وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت»[4].

وكذا الإمساك وكراهة الإنفاق في سبيل الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

[التوبة:٨١].

ومثله منع حقوق الخلق كالإمساك عن النفقة الواجبة، أوالتهاون في رد الحقوق كالديون والأقساط لأصحابها.

الصورة السابعة: التفاخر بالمال والتكاثر فيه واعتباره معيارًا للأفضلية.

فمن صور الافتتان بالمال التفاخر به والتكاثر فيه والتنافس في تحصيله وجمعه،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب في القيامة، ٤/ ١٩٠، رقم ٢٤١٦. قال الترمذي: هذا حديث غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٢٠، رقم ٧٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة)، ٣/ ٥٩، رقم ٣٠٨٣.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص١٤٣.

(٤) انظر: المصدر السابق ص٢٩٧.

وهذا ما سيأتي بيانه في المطلب القادم بإذن الله تعالى.

خامسًا: النجاة من فتنة المال:

إذا علم الإنسان فتنة المال وخطره، فعليه التوقي من تلك الفتنة والحذر منها ومما يعين الإنسان على النجاة من فتنة المال ما يلي:

١. الإيمان بالله تعالى، ومعرفة ما له من صفات الكمال ونعوت الجمال، فهو سبحانه الغني والخلق كلهم فقراء. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]. وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]. فالمخلوق فقير مهما بلغت أملاكه، والله تعالى هو الغني الحميد، فإن علم العبد ذلك عظم ربه واحتقر نفسه ونجا من فتنة المال.

٢. العلم التام واليقين الكامل بأن المال كله لله ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[النور:٣٣]. وقال عزوجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. وقد ذم الله تعالى قارون لما نسب المال إلى علمه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص:٧٨]. فرد عليه عزوجل بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾[القصص:٧٨].

٣. العلم بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الزهد والاقتصاد في العيش، فإنه لم يسأل ربه مالًا قط بل سأله الكفاف: (اللهم ارزق آل محمدًا قوتًا)[١].

٤. الدعاء واللجوء إلى الله تعالى أن يقيه وينجيه من هذه الفتنة، ومن الأدعية في ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، ومن عذاب القبر، ومن فتنة النار، ومن عذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر)[٢].

٥. التفكر والتأمل فيما قصه الله تعالى في كتابه الكريم من مصير أرباب الأموال الذين لم يقدروا النعمة ولم يرعوا حق الله تعالى في ذلك المال، كقصة قارون، وأصحاب الجنة، وصاحب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم، رقم ٦٣٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب التعوذ من شر الفتن، رقم ٥٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، رقم ٦٤٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، رقم ١٠٥٥.

الجنتين.

٦. العلم بحقيقة الدنيا وهوانها ومعرفة حقيقتها، والتفكر في أحوالها وسرعة زوالها وفنائها وانقضائها، فإن ذلك مما يسقط حبها والتعلق بمتعها وزينها من القلب وبذلك ينجو من فتنة المال.

٧. تذكر التهديد والوعيد الرباني لأولئك الذين طغى على قلوبهم حب المال فقدموه على محبة الله ورسوله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

٨. لزوم القناعة والرضا بما كتبه الله للعبد، والاستغناء بغنى النفس يقول صلى الله عليه وسلم: (كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قنعًا تكن أشكر الناس)[١].

٩. التحري في كل مالٍ يناله الإنسان، فيعلم مصدر رزقه ومورد دخله، فيبتعد عن المحرمات ويتقي الشبهات، ويحرص على تطييب مكسبه.

سادسًا: الابتلاء في المال:

كل ما تقدم كان في التحذير من فتنة المال وصور الافتتان به، وكما تكون الفتنة بالمال فإنها قد تكون فيه، ويكون ذلك بنزول البلاء والمحن على العبد في ماله امتحانًا من الله وتمحيصًا وتمييزًا وتبيانًا للمؤمن الصادق الصابر الشاكر، من الكافر أو المنافق الكاذب الجاذع.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٨٦].

فهذا قسم من الله تعالى بأنه سيصيب أهل الإيمان بشيءٍ من نقص الأموال، ويكون ذلك بما يعتريها من جوائح سماوية، أوغرق أو ضياع، أو أخذ الظلمة للأموال سواء كان ذلك الظالم صاحب سلطة ورئاسة كالملوك، أو من قطاع الطرق، أو ما يعتري الأموال من خسارة وكساد أو تعرضها للسرقة. أو غير ذلك.

فالمؤمن يصبر ويسترجع ويستسلم لقضاء الله وقدره، ويرضى بحكمه، ويسلم لأمره، فذاك الذي يؤجر على المصيبة،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، ٢/ ١٤١٠، رقم ٤٢١٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٤٠، رقم ٤٥٨٠.

فيعوضه الله خيرًا منها، ويؤتيه ثواب صبره في الدنيا والآخرة؛ لذلك قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

أما الكافر أو المنافق فإن الدنيا تضيق عليه إذا نزلت به المصيبة، مع الجزع والتسخط وعدم الرضا، بل قد يؤدي به حزنه إلى الاعتداء على الآخرين، والتفوه بما لا يليق من الألفاظ مع الاعتراض الكامل على قضاء الله وقدره.

سابعًا: المال مجال للتفاخر والتكاثر:

سمى الله تعالى المال (خيرًا)، ووصفه بأنه (زينة)، ووصفه بأنه (فتنة)، ومن أوجه كونه فتنة، أنه وسيلة لما يكون سببًا في الوقوع في الإثم واستيجاب العذاب من التنافس على الدنيا، والتكاثر في تحصيل متعها ومتاعها وزينتها وزخرفها، والتفاخر به، والتعالي على الناس بجمعه وتكثيره وحيازته، حتى ينشغل القلب بهذا التكاثر والتفاخر فيغفل ويلهى عن حقيقة الدنيا، وزوالها وهوانها وسرعة انقضائها وفنائها، وينسى الحياة الحقيقية والدار الآخرة الباقية فيقصر في العمل والاستعداد لها.

قال عز وجل في وصف الدنيا وحال الناس فيها: ﴿اعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ﴾[الحديد:٢٠].

وأخبر سبحانه عن حال الناس وانشغالهم بالتنافس والتكاثر والتفاخر فيها مدة حياتهم فقال عز وجل: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر:١-٢].

والتكاثر: التباهي بكثرة المال والولد والجاه والمناقب[1]. ويقع على أحد وجوه ثلاثة:

الأول: أن يكون بين الاثنين فيكون من باب المفاعلة.

الثاني: أن يكون من فاعل واحد لكن على سبيل التكلف، كما تقول: تكارهت على كذا، إذا فعلته وأنت كاره. وتقول: تباعدت عن الأمر، إذا تكلفت البعد عنه.

الثالث: أن يراد به مطلق الفعل، كما تقول: تباعدت عن الأمر، أي: بعدت عنه.

والتكاثر الوارد في الآيتين يحتمل الوجهين الأولين، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة؛ لأنه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف:٣٤].

ويحتمل تكلف الكثرة، فإن الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله[2].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٧٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ٣٢/ ٧٥.

وفي آية الحديد جاء التكاثر مبينًا فيما يكون حيث قال سبحانه: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فهذا تصريحٌ بأن المكاثرة تكون في المال والولد، أما في سورة التكاثر فجاء الخبر مطلقًا ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ولم يعين المتكاثر به بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء، لا المتكاثر به، وإما لإرادة العموم[1]، وذهب بعض أهل التفسير إلى أن المتكاثر به هو المال والولد[2]، حملاً للعام على الخاص الوارد في آية الحديد.

وذهب آخرون إلى بقاء العموم على عمومه، فيشمل ذلك كل ما يتكاثر فيه الناس من مالٍ وولد وجاه ورئاسة ومسكن ومركب إلخ[3].

قال الرازي: «وجاء في المراد بالآية أن المنهي عنه هنا والمذموم هو التكاثر بالمال،واستدلوا عليه بما ورد في الحديث،عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورة التكاثر، وقال: (**يقول ابن آدم:مالي . مالي. قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت ؟**)[4][5].

قال ابن جرير: «ألهاكم أيها الناس المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وعما ينجيكم من سخطه عليكم، حتى متم ودفنتم في المقابر»[6].

والعموم والإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يشمل كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويتفاخر به المتفاخرون سوى طاعة الله تعالى، ومن جملة ذلك بل وفي مقدمتها الأموال.

قال ابن القيم رحمه الله: «التكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمرٍ من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا، وهذا أسوء حالًا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها»[7].

وعلى ذلك فالتكاثر في المال مذموم، لا سيما إن قصد به المفاخرة والمباهاة وهو دليلٌ على حب الدنيا والتعلق بها والغفلة من الآخرة والعمل لها.

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ابن القيم ٥/ ٣٠٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٦٧٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١١٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١١٥، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦١٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، رقم ٢٩٥٨.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب ٣٢/ ٧٤.
(٦) جامع البيان ١٢/ ٦٧٩.
(٧) انظر: بدائع التفسير ٥/ ٣٠٨.

قال ابن الجوزي: «وأما من قصد جمعه -أي: المال- والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته وادخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح أثيب على قصده»[(١)].

وقال النووي رحمه الله في شرح حديث:(لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا) قال: «فيه ذم الحرص على الدنيا وحب المكاثرة بها والرغبة فيها»[(٢)].

لكن قد تحصل الكثرة من غير تكاثر فهذا لا يضر، وقد كان بعض الصحابة أهل كثرة في المال ولم تضرهم، لكونها حاصلة من غير تكاثر[(٣)].

فالمذموم هو التكاثر الملهي عن الآخرة، والتكاثر الواقع في متاع الدنيا الزائل، أما التكاثر في أسباب السعادة الأخروية فهو أمرٌ مطلوب شرعًا[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففين:٢٦].

والمتأمل اليوم في حال الناس يرى التسابق المحموم، والتنافس المسموم، والتكاثر المذموم، في كل غرضٍ من أغراض الحياة، لا سيما مع الانفتاح اللا محدود، والدور الكبير الذي تقوم به وسائل الاتصال والإعلام، ووسائل التواصل المختلفة في نشر مبدأ التكاثر والتنافس في متع الدنيا.

فقد يحصل الإنسان على كفايته ومطلوبه في الدنيا، فيجد رزقه ويتيسر له قوته وقوت ولده وأهله، ويملك مسكنه، لكنه ينـزلق إلى الجمع والتكاثر؛ حبًا في التملك والاستثار وطمعًا في الدنيا وحرصًا على متعها.

ومن التكاثر بالمال: التكاثر والتفاخر بالدور وأثاثها وزينتها، والمزارع والضياع، والسيارات، والهواتف المحمولة وأنواع الكماليات التي أصبحت من سمات هذا العصر، وأضحت المفاخرة بها واضحة للعيان، وتعدت الضرورة والحاجة إلى الكماليات بل إلى السرف المذموم، ويخشى أن يدخل ذلك في الأشر والبطر والظلم والكبر، ويخشى على الناس أن يسلبوا ما أنعم الله به عليهم بسبب سوء استخدام هذه النعم.

ولعل من أسباب التكاثر في المال والتنافس في جمعه والسعي في تكثيره، كونه من أسباب السعادة الدنيوية العاجلة؛ إذ به يتحصل الإنسان على ما يريده فيها. ومن الأسباب كذلك اعتبار كثرة المال معيارًا للأفضلية ودليلًا على الخيرية في مقاييس

(١) انظر: تلبيس إبليس، ابن الجوزي ص٢٢١.
(٢) انظر: شرح صحيح مسلم ٧/ ١٢٥.
(٣) انظر: عدة الصابرين، ابن القيم ص١٩١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤١٤.

البشر المغلوطة.

وقد ضرب الله تعالى في كتابه الكريم أمثالًا، وقص قصصًا، وحكى أخبارًا عمن اغتر بماله وكثرته، وظن أنه دليل على الخير، وحب الله تعالى له، ووافر حظه في الدنيا والآخرة، وكيف كانت عاقبة أمره في الدنيا مع ما له في الآخرة من جزاء؟!

فحكى سبحانه عن بني إسرائيل اعتراضهم أن يكون طالوت ملكًا وقائدًا حربيًا فقال: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البقرة:٢٤٧].

فتوهموا أن الغنى والمال شرطٌ أساسي في الملك؛ ولأنه كان فقيرًا لا مال له فإنه حسب زعمهم لا يستطيع الحكم[1].

وفي سورة الكهف قص الله تعالى خبر صاحب الجنتين ومحاورته لصاحبه المؤمن حيث قال: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف:٣٤].

وهذا غاية الجهل؛ لأنه افتخر بأمرٍ ليس فيه فضيلة ولا صفة تميزه عن صاحبه، فإن النعمة الحقيقية هي نعمة الإيمان والإسلام ولو مع قلة المال، أما ما عداها فهو معرض للزوال والبوار[2]؛ لذلك قال له صاحبه المؤمن: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩﴾ [الكهف:٣٧-٣٩].

وفي سورة مريم أخبر الله تعالى عن المكذبين بالبعث المنكرين للحياة بعد الموت فقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ [مريم:٧٧].

فهذا الكافر جمع بين كفره بآيات الله تعالى ودعواه الكبيرة أنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا، أي يكون من أهل الجنة؛ لأنه كان صاحب مال في الدنيا، وهذا من أعجب الأمور[3].

وفي موضع آخر يذكر الله تعالى اغترار الكفار فيقول عز وجل: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ:٣٥].

لما كان أولئك الكفار مترفون قد أنعم الله عليهم بفضله في الدنيا، عيروا المؤمنين الفقراء، وظنوا أن ذلك سبب لتميزهم وتفاخرهم، ودليلٌ على محبة الله لهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩، التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤٢٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٤٤٩.

ورضاه عنهم، وعن ما هم عليه من الكفر، وقالوا: ما كان الله ليعطينا هذا في الدنيا، ثم يعذبنا في الآخرة[1].

فرد الله عليهم وأبان لهم خطأهم بقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لا لمحبة لمن وسع عليه، ولا لبغض لمن ضيق عليه، وإنما له في ذلك حكمة تامة بالغة؛ ولأن الدنيا لا تساوي شيئًا في ميزان الله، كما قال صلى الله عليه وسلم:(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء)[2].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة سنن الله في الكون، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مسألة الرزق غلطٌ بين، أو مغالطة واضحة، فقد يعطي الله العاصي والكافر استدراجًا وإمهالًا، ويمنع الطائع والمؤمن ابتلاءً واختبارًا؛ ليصبر فتكثر حسناته عند الله.

وبذلك يتبين أن ما يزعمه المترفون من أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة، ومدار التضييق هو الهوان والذل، لا حقيقة له ولا أصل في تقدير الله تعالى[3].

فهذه النظرة خطأ محض وقياس باطل؛ لأن الإمداد بالأموال - كما تقدم - غالبًا ما يكون للاستدراج، كما قال عزوجل: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

أي: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد؛ لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، أو دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة وأن لهم خير الدنيا والآخرة ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝﴾ [سبأ:٣٥].

لقد أخطؤوا في ظنهم، وخاب رجاؤهم، بل نفعل ذلك استدراجًا وإملاءً لهم؛ لهذا قال:﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يحسون أنما نفعل ذلك بهم استدراجًا وأخذًا بأيديهم إلى العذاب إن لم يتوبوا[4]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾[آل عمران: ١٧٨].

وقال عز وجل: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٩٥.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، ٤/ ١٣٨، رقم ٢٣٢٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ٢/ ١٣٧٦، رقم ٤١١٠.
قال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٣٧، رقم ٥٢٩٢.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٩٥.
(٤) انظر: المصدر السابق ١٨/ ٥٩.

﴿لْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة: ٨٥].

أي: لا تعجبك أموال الكفار وأهل النفاق، ولا أولادهم، ولا سائر نعم الله التي آتاهم، فإنما هي من أسباب المحن والآفات والعذاب عليهم. فأموالهم في الدنيا سبب لتعذيبهم، والمراد بالعذاب هنا ما ينالهم من المشقة في تحصيلها والسعي الشديد في جمعها، حيث يتعبون في ذلك، ويصحبهم الهم والقلق والخوف الشديد عليها، ثم هي في الآخرة عذابٌ عليهم، حيث يموتون على الكفر والنفاق الموجب لدخول النار[(١)].

والآيتان في التوبة مع تفاوت في بعض الألفاظ «وفائدة التكرار التأكيد والتحذير من الاشتغال بالأموال والأولاد، مرة بعد أخرى، بسبب شدة تعلق النفوس بها، حتى لا تحجب عن طلب ما هو أولى وهو الاشتغال للآخرة، فهي تحذيرٌ ونهيٌ صريح عن الاغترار بالأموال والأولاد»[(٢)].

وقد أبان سبحانه ميزان القربى عنده، والنجاة والأمن من عذابه وأنها ليست بكثرة المال، وإنما بالإيمان والعمل الصالح فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران: ١٠].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: ١١٦].

وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فدل ذلك على أن المال لا ينفع صاحبه يوم القيامة ولو افتدى نفسه بملء الأرض ذهبًا إلا من آمن بالله وأحسن، واستعمله في طاعة الله تعالى، وأنفقه في سبيله.

وقد حكى سبحانه تحسر ذلك المغتر بماله يوم القيامة فقال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ [الحاقة: ٢٨].

وقال سبحانه تنديدًا بالكافر: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ

(١) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٢٥٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٨.

﴿مَا لُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[الليل:١١] أي: إذا مات وهلك وسقط في جهنم.

وقال عز وجل عن أبي لهب: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد:٢].

وخلاصة القول في ذلك:أن الكرامة والمكانة للعبد عند الله ليست بالمال وكثرته، بل بالإيمان والتقوى والعمل الصالح.

كسب المال بين المشروع والممنوع

أولًا: كسب المال المشروع:

الإنسان في هذه الحياة لا غنى له عن المال، الذي هو عصب الحياة وقوامها؛ لذلك نجد الإنسان يميل بطبعه وفطرته للكسب وحيازة المال وتحصيله، إذ يرى أن قوام حياته وتلبية حاجاته وتوفير قوته وقوت من يعوله متعلق بذلك، وبه يغني نفسه ويعفها عن السؤال والذل والحاجة.

وهذا الميل الفطري لا يدخل في الافتتان بالمال مادام أن الإنسان التزم العدل والحق في السعي لكسبه، ومادام أن تحصيله وفق ضوابط الشرع من الكسب الطيب الحلال، الذي ليس به اعتداء، ولا ظلم، ولا ضرر على الغير، ومادام أن المال عنده وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية يبذل كل وسيلة في سبيل الحصول عليه.

فالقرآن الكريم كما يحذر من الافتتان بالمال والالتهاء بجمعه وتكثيره وتحصيله، ويبين عاقبة من كانت هذه حاله، فإنه لا يرضى بالرهبنة والإعراض عن الدنيا وزينتها بالكلية ومن جملة ذلك المال .

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

والآيات التي وصفت المال بأنه (زينة) و(فتنة) وسبب للهو وما فيها من المفاضلة

بين الدنيا والآخرة، والتنبيه على أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا وما عند الله (الباقيات الصالحات) خيرٌ وأبقى أجرًا وثوابًا، إنما هي في المفاضلة بين المال الفاني الزائل بزوال الدنيا، وبين الأجر الثابت الباقي الدائم عند الله في الآخرة.

ويخطيء من يظن أن المفاضلة هنا بين كسب المال وترك كسبه وجمعه، فإن ذلك مخالف للفطرة والطبع البشري الإنساني، إنما المفاضلة بين تعظيم المال وتقديسه حتى يصبح عند صاحبه معبودًا، وبين من رعى حق الله تعالى فيه وابتغى رضاه وأنفقه في سبيله، وجعله طريقًا له إلى الجنة.

وليس في الآيات ما يدل على نبذ الدنيا ورفض العمل والكسب نفورًا من المال وإيثارًا لما عند الله، فهذا فهمٌ سقيم خاطئ يتناقض مع روح الإسلام وجمعه بين الدنيا والدين.

بل القرآن يقر جمع المال وتحصيله، ويشرع ويبين السبل الصحيحة في كسبه، ويدعو إلى التماس أبواب الرزق المتنوعة، ويبيح أنواعًا من الاكتساب، ويفتح أصنافًا من وسائل طلب الرزق، ويلفت النظر إلى ما في هذا الكون من منابع الثروات، ومصادر الخيرات، ويحثهم على الاستفادة منها واستغلالها.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وأعلمهم أن الأرض بكل ما عليها خلقت لانتفاع الإنسان بها، وجعلت مجال عمله وكسبه بكل ثرواتها ظاهرًا وباطنًا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك:١٥].

وحثهم سبحانه على ابتغاء فضله والضرب في الأرض طلبًا للرزق والتكسب.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨].

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠].

قال الشوكاني: «﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: من رزقه الذي يتفضل به على عباده بما يحصل لهم من الأرباح في المعاملات والمكاسب»[(١)].

وفيه إباحة لطلب الرزق بالتجارة، يعني: اطلبوا الرزق من الله تعالى بالتجارة والكسب.

قال السعدي: «﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾

(١) انظر: فتح القدير ٥/ ٢٨٢.

لطلب المكاسب والتجارات»[1].

وقال الزحيلي: «أباح لهم عقب الفراغ من الصلاة الانتشار في الأرض للتجارة والتصرف في الحوائج»[2].

وقال عز وجل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل:٢٠].

قال ابن كثير: «أي: مسافرون يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر»[3].

وحث النبي صلى الله عليه وسلم على الكسب فقال: (**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يديه وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**)[4].

وضرب الله تعالى الأمثلة على الكسب والعمل وطلب الرزق بأفضل الخلق وهم الأنبياء والرسل، فآدم كان فلاحًا يحرث الأرض ويزرعها، وإبراهيم الخليل كان بناءً، وقد بنى البيت، وإلياس كان نساجًا، وداود كان حدادًا يصنع الدروع، وموسى كان راعيًا للغنم، وعيسى كان يعمل بالطب، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم عمل في صغره برعي الغنم ثم في شبابه بالتجارة، فكل نبي كانت له حرفة يبتغي من خلالها فضل الله ورزقه؛ لأن من الدين أن يقوم الإنسان بأداء ما تتطلبه هذه الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وحرفة ومهنة، بالطريقة التي يرشدنا إليها القرآن؛ لهذا نراه يأمر الناس باستخدام وسائل الإنتاج المتاحة لهم في جميع المجالات على هذه الأرض.

وكسب المال بالأوجه المشروعة والوسائل المباحة إما أن يكون عن طريق العمل والجد والكد كالتكسب بأنواع المهن والحرف من تجارة وزراعة وصناعة وصنوف المعاملات، وإما أن يكون تحصيلًا للمال وكسبًا له من غير عمل أو بذل جهد كالمال الذي يتحصل عليه الإنسان من وصية، أو هبةٍ، أو ميراث.

قال الحافظ ابن حجر في بيان معنى (الكسب الطيب) الوارد في بعض نصوص الحديث: «ومعنى (الكسب) المكسوب، والمراد به ما هو أعم، من تعاطي التكسب أو حصول المكسوب من غير تعاطٍ كالميراث، وكأنه ذكر الكسب؛ لأنه الغالب في تحصيل المال، والمراد بـ(الطيب) الحلال؛ لأنه صفة الكسب»[5].

وقال في شرحه لـ(باب كسب الرجل وعمله بيده): «عطف العمل باليد على

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٠.
(٢) انظر: التفسير المنير ٢٨/ ٢٠٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٦٨.
(٤) أخرجه رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢.
(٥) انظر: فتح الباري ٣/ ٣٢٧.

الكسب من عطف الخاص على العام؛ لأن الكسب أعم من أن يكون عملًا باليد أو بغيرها »[1].

ثانيًا: كسب المال الممنوع:

كما فتح الله تعالى لعباده وسائل الكسب الحلال من أصناف المعاملات والحرف والمهن والمزاولات، وكما أمرهم بالسعي في الأرض وابتغاء فضله في شتى المجالات، وفصل لهم ما أحل لهم من الطيبات والتعاملات، فإنه كذلك بين لهم ما حرم عليهم من الكسب، حفاظًا على الأمة ووحدتها، وحمايةً لها من الفساد بأنواعه.

فإنَّ حبَّ الإنسان للمال إذا استشرى في النفس، وجاوز حده الطبيعي،انقلب من كونه غريزة وفطرة في الطبع البشري، ليكون مرضًا عضالًا؛ لأنه يصير المال غاية لا وسيلة، فيسلك كل طريق لتحصيله وجمعه وتكثيره، ويتفنن في وسائل كسبه، دون التفريق بين الحلال والحرام، بل يعتقد أنه متى حل المال بيده صار حلالًا، وقد يخوض في المعاملات المحرمة ووسائل الكسب الممنوعة والمشبوهة، كلُّ ذلك من أجل كسب المال

لذا فقد كشف القرآن العظيم عن المعاملات الممنوعة، وحرمها ونفر منها ورهب من تناولها، ومن الوسائل المحرمة في كسب المال وتحصيله التي جاء التحذير منها في القرآن ما يلي:

١ . الربا.

ومعنى الربا في اللغة: مأخوذ من الزيادة[2].

وفي الشرع: هو الزيادة في أشياء مخصوصة، والزيادة على الدَّيْنِ مقابل الأجل مطلقًا[3] . ويطلق على شيئين: ربا الفضل وربا النسيئة[4].

وقد وردت عدة نصوص في القرآن الكريم تحذر من الربا، وتنهى عنه، بل غلظ الله تعالى في عقوبة هذا الكسب،والذي أفرط فيه كثير من الناس- وبخاصة في هذه العصور-حتى قل أن يسلم أحد من الربا أو غباره.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا

---

(١) انظر: المصدر السابق ٥/ ٣٨١.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٠٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ١٩١.

(٣) انظر: الشرح الممتع، ابن عثيمين ٨/ ٣٨٧.

(٤) انظر: فتح القدير، ١/ ٢٩٤.



﴿يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة:٢٧٥-٢٧٦].

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٣٠].

فهذا خبرٌ من الله تعالى عن أَكَلَةِ الربا وسوء حالهم ومآلهم وشدة منقلبهم، حيث إنهم يقومون من قبورهم لنشورهم، كالذي يصرعه الشيطان، فيقومون حيارى مضطرين، أحوالهم أحوال المجانين.

وقيل: المعنى: لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم، وضعفت آراؤهم، وصاروا في هيئتهم كالمجانين.

ثم بين سبحانه شؤم الربا على صاحبه بأنه يمحق ويذهب بركة المال، فيكون سببًا في وقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وفي مقابل ذلك تكون البركة والنماء والزيادة في المال الذي أخرجت منه الصدقات[(١)].

وبعد أنْ بَيَّنَ الله تعالى لهم حال أَكَلَةِ الربا وعقابهم وأثره عليهم، خاطب أهل الإيمان، ونهاهم عن الربا؛ لأن الإيمان هو الوازع الأقوى والدافع الحقيقي للبعد عن كل ما حرمه الله تعالى.

فمن كان مؤمنًا وجب عليه الامتثال بالابتعاد عن الربا، فإنَّ أَكْلَ الربا والتعامل به دلالة عدم الإيمان.

وقد نَدَّدَ الله تعالى باليهود وبين عاقبة أمرهم لما استحلوا الربا فقال سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء:١٦٠-١٦١].

وقد كان الربا منتشرًا بشكل كبير في الجاهلية، فجاء الإسلام وحرمه ومنعه، وكان التحذير الإلهي من التعامل به وأكله، وكذا حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث: **(لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه)**[(٢)].

واعتبره النبي صلى الله عليه وسلم من السبع الموبقات كما في حديث: **(اجتنبوا السبع الموبقات)** وذكر منها: أكل الربا[(٣)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)، رقم ٢٧٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ١٤٥.

فالربا أخبث الكسب وأكبر الكبائر، وأعظم الجرائم، يهلك الأموال قليلها وكثيرها، ويستوجب صاحبه اللعن ما لم يتب، وهو حرب لله ورسوله، كما في الآيات السابقة، وأين التوفيق والبركة والخير لمن حارب الله ورسوله ؟

ومع كل هذا التحريم والتهديد لآكل الربا والمتعامل به، فإن فئات من المسلمين قد تجرَّؤوا على حدود الله تعالى، وأكلوا الربا، وخالفوا أمر الله تعالى ورسوله الكريم، وكان للبنوك النصيب الأكبر في خوض الناس في هذا الكسب الباطل، بتضليلهم، وتنميق المسميات، وتزييفها، إضافةً إلى الإعلانات عبر وسائل الإعلام، تحت شعارات مضللة، وانتشار الأسهم والمساهمات المشبوهة، كل هذا مع جهود العلماء في التبيين والتعليم والتذكير والتحذير وإصدار الفتاوى.

لكن اللهث وراء المادة والمال، والتعلل بأتفه الأسباب، والانسياق خلف إعلانات البنوك والشركات والمساهمات، أوقع كثيرًا من الناس في الربا؛ فخالفوا أمر الله تعالى وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣].

وقال عز وجل في المتعاملين بالربا: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٤].

فكل من تعامل بالربا فقط عرض نفسه للوعيد والعقاب الشديد في الدنيا والآخرة، بل إن آكل الربا يعذب من وقت موته، كما في الحديث (رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض مقدسة، فانطلقا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت:ماهذا ؟ فقال: الذي رأيته في النهر آكل الربا)[(١)].

٢ . الرشوة.

والمقصود بها ما يعطي من مالٍ لإبطال حقٍّ أو لإحقاق باطل.

قال القرضاوي: «هي ما يدفع من مال إلى ذي سلطان، أو وظيفة عامة، ليحكم له أو على خصمه بما يريد هو، أو ينجز له عملًا أو يؤخر لغريمه عملًا»[(٢)].

وقال الصنعاني: «الراشي هو الذي يبذل المال ليتوصل به إلى الباطل، مأخوذ من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب آكل الربا وشاهده وكاتبه، رقم ٢٠٨٥.
(٢) انظر: الحلال والحرام ص ٢٤.

الرشا وهو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء في البئر»[1].

وقد جاء في نصوص الشرع النهي عن الرشوة وأخذها وبيان عقوبة فاعلها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

جاء في معنى الإدلاء بها إلى الحكام أنه الدفع والإعطاء، أي: لا تعطوا الحكام وترشوهم بالأموال ليقضوا لكم بما هو أكثر منها، هذا المعنى على القول بأن مرجع الضمير في ﴿وَتُدْلُوا بِهَآ﴾ عائد على الأموال[2]. وفي الحديث: (لعن رسول الله الراشي والمرتشي والرائش)[3].

والراشي: دافع المال، والمرتشي: آخذه، والرائش: الذي يسعى بينهما. وكلهم في الذنب والعقوبة سواء.

والرشوة من وسائل أكل أموال الناس بالباطل، وقد أصحبت ديدنًا لكثير من الناس في هذا الزمان، نتيجة الفساد الإداري المالي الذي فشا في المجتمع، فصار البعض لا يتورع عن قبض الرشوة، ولا يتحرز من دفعها، وهذا من التهاون بكبيرة من كبائر الذنوب، وأكل للحرام والسحت الذي نهى الله عنه، قال ابن مسعود في تفسير ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾: «السحت أن يستعينك الرجل على مظلمة فيهدي لك، فإن أهدى لك فلا تقبل»[4].

وكذا فسره ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير، بأن السحت: الرشوة[5]. وعند الراغب: «سميت الرشوة سحتًا»[6].

٣. أكل أموال الناس بالباطل.

وهذا يعم كل كسب حرام، فكل ما أخذ بالباطل فهو حرام، فيدخل فيه ماتقدم من الربا والرشوة ويدخل فيه غيره من أبواب الكسب المحرم،الذي هو أكل لأموال الناس بالباطل.

وقد نهى الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل في أكثر من موضع في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال الشوكاني في تفسير الآية: «هذا يعم

(١) انظر: سبل السلام شرح بلوغ المرام، الصنعاني، ٢/ ٤٣.
(٢) انظر: التفسير المنير ٢/ ١٦٥.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٨٥، رقم ٢٢٣٩٩.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص٦٧٥، رقم ٤٦٨٤.

(٤) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٤/ ١٧٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٧٩.
(٦) انظر: المفردات ص٢٢٥.

جميع الأمة وجميع الأموال، لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه، فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، ومأكول بالحل لا بالإثم، وإن كان صاحبه كارهًا كقضاء الدَّيْنِ إذا امتنع منه من هو عليه، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها، ونفقة من أوجب الشرع نفقته . والحاصل أن ما لم يبح الشرع أخذه من مالكه فهو مأكول بالباطل، وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغي وحلوان الكاهن وثمن الخمر.

وقوله: ﴿وَتُدْلُوا﴾ المعنى: إنكم لا تجمعوا بين أكل أموال الناس بالباطل وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة . وفي هذه الآية دليلٌ على أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال، فمن حكم له القاضي بشيء مستندًا في حكمه إلى شهادة زور أو يمين فجور فلا يحل له أكله، فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وكذا إذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فإنه من أكل أموال الناس بالباطل »[1].

قال القرطبي: «الخطاب بهذه الآية يتضمن جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير حق، فيدخل في هذا: القمار والخداع والغصوب وجحد الحقوق وما لا تطيب به نفس مالكه، أوحرمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه كمهر البغي وحلوان الكاهن وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك»[2].

فتفسير (الباطل) على وجهين:

أحدهما: أن يأخذه من غير طيب نفسٍ من مالكه كالسرقة والغصب والخيانة.

والثاني: أن يأخذه بطيب نفسه كالقمار والغناء وثمن الخمر[3].

وقال السعدي في تفسير الآية: «يدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا أخذها على وجه المعاوضة بمعاوضة محرمة كعقود الربا والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل؛ لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجرة على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف والوصايا لمن ليس له حقٌّ منها أو فوق حقه، فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه، حتى ولو حصل فيه النزاع، والارتفاع إلى حاكم

(١) انظر: فتح القدير ١/ ٢٤٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٣٨.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ١٨٨.

الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحقِّ، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرمًا ولا يُحِلُّ حرامًا»[1].

وعليه فتناول الحرام محرم من أي وجه كان، سواء أكان رشوة أو سرقة أو ربا أو غلولًا أو قمارًا أو غصبًا، أو اختلاسًا من وراء وظيفة، أو قيمة شيء محرم أو أجرته، كثمن آلات اللهو والصور المحرمة والكتب والمجلات والصحف المشتملة على الإلحاد أو الخلاعة، وكثمن الخمر والدخان، وكالأجرة على الرقص والغناء والعزف، وعلى شهادة الزور، وما اقتطع بيمين كاذبة أو أخذ بغير حقٍّ، وإن كان حكم به القاضي، إلى غير ذلك من طرق الكسب الحرام.

ومما ورد في النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

وخص الله تعالى اليتيم بالنهي عن أكل ماله لضعفه، فقال عز وجل: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ [النساء:٦].

وفي التشنيع على آكل مال اليتيم يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:١٠].

وفي الأمر بحفظ مال اليتيم وعدم التعرض له إلا بما فيه صلاحه ونفعه، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢ والإسراء:٣٤].

وأكل أموال الناس بالباطل من صفات اليهود، فقد ذكر الله تعالى أن أكل الحرام من صفات اليهود المغضوب عليهم فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[المائدة:٦٢].

وأخبر سبحانه أنه حرم على اليهود كثيرًا من الطيبات عقوبةً لهم على ظلمهم وإعتدائهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل، فقال سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:١٦٠-١٦١].

قال شيخ الإسلام: «والأصل في ذلك أن الله حرم في كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل، وذم الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٧٠.

الناس بالباطل، وذم اليهود على أخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وهذا يعم كل ما يؤكل بالباطل في المعاوضات والتبرعات وما يؤخذ بغير رضا المستحق والاستحقاق، وأكل المال بالباطل في المعاوضة نوعان ذكرهما الله في كتابه: هما الربا والميسر، فذكر تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة في آخر سورة البقرة وسورة آل عمران والروم والمدثر، وذم اليهود عليه في سورة النساء، وذكر تحريم الميسر في المائدة »[1].

وأكل أموال الناس بالباطل باب واسع، وصوره كثيرة ومتعددة ومما جاء التنبيه إليه في القرآن ما يلي:

١. السرقة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة:٣٨].

٢. أكل أموال الناس بالقمار والميسر والخمر. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة:٩٠-٩١]. والميسر يشتمل على مفسدتين كما ذكر ابن تيمية: «مفسدة أكل المال بالحرام، ومفسدة اللهو الحرام والصَّدِّ عن ذكر الله وعن الصلاة، والوقوع في العداوة والبغضاء»[2]. والمقصود بالميسر القمار بأي نوع كان.

٣. أكل أموال الناس بالرشوة. وقد تقدم.

٤. أكل أموال الناس بالربا. وقد تقدم.

٥. أكل أموال الناس بالتطفيف في الكيل والميزان. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾ [الاسراء:٣٥].
وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:١-٣].

٦. أكل أموال الناس باسم الشرع والتقرب والتزلف إلى الله تعالى، كما كان الأحبار والرهبان يأخذون أموال أتباعهم ضرائب وفروضًا باسم الكنائس والبِيَع، أو مقابل صكوك الغفران، وإصدار الفتاوى لتحليل الحرام والحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك، ويوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله، وهم يحجبون تلك الأموال ويأكلونها بالباطل، فكانوا

(١) انظر: القاعدة النورانية، القاعدة الثانية.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٢/ ٣٣٧.

يأكلون الدنيا بالدين، لذلك ندد الله بهم في قوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦١]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [التوبة:٣٤]. ومثل ذلك النذور التي تدفع، والأوقاف التي تخصص لقبور الأنبياء والصالحين، أو الأموال التي تصرف مقابل الدعاء والشفاعة [(١)] .

إضافة لما ورد في السنة من بيانٍ للمعاملات المحرمة كالغصب والنهب والغش والاحتكار وأصناف البيوع التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، فالتعامل بأحدها هو أكل لأموال الناس بالباطل.

(١) انظر: التفسيرالمنير، الزحيلي ٦/ ٢٩، ١٠/ ١٩١.

الاعتدال والوسطية في الانفاق

من أعظم مميزات وسمات الدين الإسلامي:الوسطية، فهو يأمر بالوسطية والاعتدال، ويقيم جميع الأوامر والنواهي والتوجيهات والتشريعات على هذا المبدأ العظيم، فيأمر بالتوسط في كل أمر، وينبذ الإفراط أو التفريط، ويرشد إلى أقوم الطرق وأسدها وأعدلها في كل شؤون الحياة.

ومن ذلك أمره بالاعتدال في الإنفاق واتخاذ المنهج القويم بين الإسراف والتبذير والبخل والتقتير.

والناس في الإنفاق طرفان ووسط:

- هناك القابضون أيديهم، البخلاء بأموالهم، المقترون على أنفسهم وأهليهم، فضلًا عمن سواهم .
- وعلى النقيض من هؤلاء، آخرون مسرفون مترفون، باسطوا أيديهم كل البسط.
- وبين هؤلاء وهؤلاء قلة من الناس سلكوا السبيل القويم، والتزموا العدل والاعتدال، واتخذوا بين ذلك سبيلًا.

وقد جاءت آيات الكتاب العزيز تحذر من الضدين - الإسراف والبخل - وتأمر بالطريق الوسط المعتدل بينهما وتقرر سلامة هذا المنهج الشرعي وتؤيده .

فنهى عن البخل، وحذر من هذا

المسلك، وبين انحراف هذا المنهج فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠].

وقال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحديد:٢٣-٢٤].

وقال مبينًا خصلة من خصال المنافقين: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة:٧٦].

وقال سبحانه: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد:٣٨].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ﴾ [الإسراء:١٠٠].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي: الفقر خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تنفد ولا تفرغ أبدًا، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾.

قال ابن عباس وقتادة: أي: بخيلًا مَنُوعًا، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا ولا مقدار نقير»[1].

وقال القرطبي في تفسير قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: «هذه الآية نزلت في البخل بالمال، والإنفاق في سبيل الله، وأداء الزكاة المفروضة»[2].

وكما جاءت الآيات محذرة من عاقبة البخل والتقتير، فقد جاءت ناهية عن الطرف المقابل وهو الإسراف والتبذير.

قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الاسراء:٢٦-٢٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الانعام:١٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

والإسراف: مجاوزة الحد في كل فعل

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٨٦.

يفعله الإنسان، وهو في الإنفاق أشهر [(١)].

وقد فسر التبذير بالإسراف، قال ابن منظور: «بَذَّرَ ماله أفسده وأنفقه في سرف، والتبذير: إفساد المال وإنفاقه في السرف والمُبَذِّرُ: المسرف في النفقة » [(٢)].

قال ابن كثير: «التبذير إفساد المال وإنفاقه في السرف﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ نهى عن الإسراف » [(٣)] .

وعلى ذلك فالتبذير والإسراف بمعنى واحد.

وفسر التبذير كذلك بإنفاق المال في غير حقِّه، من الإنفاق في المعاصي والمحرمات.

قال ابن جرير: «﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لا تفرق يا محمد ما أعطاك الله من مالٍ في معصيته تفريقًا . قال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله، وفي غير الحق وفي الفساد» [(٤)].

وقال القرطبي: «التبذير: الإسراف في غير حق» [(٥)].

وقال القاسمي: «﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ أي: بوجه من الوجوه، بالإنفاق في محرم أو مكروه، أو على من لا يستحق، فتحسبه إحسانًا إلى نفسك أو إلى غيرك » [(٦)].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٣٠.
(٢) لسان العرب ٤/ ٥٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٦.
(٤) جامع البيان ٨/ ٦٨.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٦١.
(٦) محاسن التأويل ٤/ ٥٨٥.

وعلى ذلك يكون التبذير مقيدًا بما كان في غير الحق، لذلك قال ابن جريج ومجاهد: «لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرًا، ولو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيرًا » [(٧)].

وقال الشافعي: «التبذير إنفاق المال في غير حقِّه، ولا تبذير في عمل الخير، وهذا قول الجمهور» [(٨)].

وعليه فالإنفاق في وجوه البر والخير،لاسيما الصدقة،لايدخل في باب الإسراف والتبذير المنهي عنه.

وكما نهى الله تعالى وحذر من الطرفين (الإسراف والبخل) فإنه سبحانه وتعالى وجه إلى طريق الاستقامة، وسبيل الوسط، ومنهج السلامة، فقال سبحانه في وصف أهل الإيمان: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧].

قال ابن القيم «أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا » [(٩)].

وقال سبحانه في توجيهه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ

(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٦٩.
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٦١.
(٩) انظر: بدائع التفسير ٣/ ٣٠٣.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾[الاسراء:٢٩].

وفي بيان هذه الوسطية يقول الراغب:

«الإنفاق ضربان: ممدوح ومذموم.

فالممدوح منه: ما يكسب صاحبه العدالة، وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله، كالصدقة المفروضة والإنفاق على العيال.

والمذموم ضربان: إفراط وهو التبذير والإسراف، وتفريط وهو التقتير والإمساك، وكلاهما يراعى فيه الكمية والكيفية.

فالأول: من جهة الكمية أن يعطي أكثر مما يحتمله حاله . ومن جهة الكيفية بأن يضيعه في غير موضعه.

أما الثاني: وهو التقتير فهو من جهة الكمية أن ينفق دون ما يحتمله حاله، ومن حيث الكيفية، أن يمنع من حيث يجب، ويضع حيث لا يجب»[(١)].

وجوه الانفاق المشروع وثمراته

أولًا: وجوه الإنفاق المشروع:

كما بين الله تعالى وأرشد إلى وجوه كسب المال المشروعة، وأمر بطلب الرزق، ووجه للكسب الطيب الحلال، ورتب عليه الأجر العظيم والثواب الجزيل، فإنه كذلك بين سبحانه وفصل في وجوه إنفاق هذا المال ونبه إلى أبواب الإنفاق المشروعة، وحث على البذل والعطاء في كل بابٍ من أبواب الصرف والإنفاق المحمودة والمشروعة، سواءً كانت الواجبة أو المندوبة . ومن وجوه الإنفاق المحمود والمشروع في القرآن الكريم ما يلي:

١ . الإنفاق في الواجبات:

ومن ذلك:

١. الزكاة.

أوجبها الله عزوجل في المال بشروطٍ معينة محددة، وجعلها ركن من أركان هذا الدين العظيم، وبين مصارفها ووجوه إنفاقها، وحدد المستحقين لها دون غيرهم من فئات المجتمع.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

قال السعدي: «﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾

(١) انظر: المفردات ص٥٠٢.

وهي الزكاة المفروضة»[1].

وقال عز وجل: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات:١٩].

وقال سبحانه: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج:٢٤-٢٥].

ذكر الله ذلك ضمن أوصاف أهل الإيمان، ووصفهم هنا بأداء الزكاة والبر والصلة، بجعل جزءٍ مقسوم ونصيب مفروض من أموالهم مقررًا لذوي الحاجات[2].

وفي بيان مصارف الزكاة يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة:٦٠].

قال ابن قدامة: «فلا يجوز صرف الزكاة إلى غير من ذكر الله تعالى في الآية، من بناء المساجد والقناطر وإصلاح الطرق وما شابه ذلك من القرب التي لم يذكرها الله تعالى، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر والإثبات، تثبت المذكور وتنفي ما عداه»[3].

٢. الإنفاق على النفس.

لأن الإنسان مأمور بحفظ نفسه ووقايتها مما يتلفها أو يهلكها، وإنما يكون ذلك بالطعام والشراب والملبس وكل ما دعت له حاجة أو ضرورة تقتضيها حفظ النفس.

٣. الإنفاق على من تجب على الإنسان نفقته وإعالته؛ **كنفقة الرجل على زوجه وولده.**

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق:٧].

فنفقة الزوجة واجبة على زوجها، وهي من آكد حقوقها عليه، فيلزمه توفير كل ما تحتاج إليه، سواءً كان موسرًا أو معسرًا، فيجب عليه نفقتها حتى ولو كانت غنية ذات مال.

قال القرطبي في تفسير آية الطلاق: «أي: لينفق الزوج على زوجته، وعلى ولده الصغير، على قدر وسعه، حتى يوسع عليهما إذا كان موسعًا عليه، ومن كان فقيرًا فعلى قدر ذلك»[4].

ومما جاء في نفقة الزوجة والولد قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [البقرة:٢٣٣].

٤. الإنفاق على الأقارب ممن تجب

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٠٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٢.
(٣) المغني ٤/ ١٢٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١١٢.

نفقتهم على الإنسان.

إن كان الإنسان غنيًّا موسرًا قادرًا على الإنفاق، وكان ذوي قرابته فقراء لا مال لهم ولا كسب يستغنون به، فهنا تجب النفقة على المحتاجين إليها من قرابته كأصوله وفروعه، وإخوته وأخواته، ونحوهم.

قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

والمعنى: «أعط أيها الإنسان المكلف القريبَ حقَّهُ، من صلة الرحم والود، والزيارة، وحسن المعاشرة، والنفقة إذا كان محتاجًا إليها»[1].

٢. رد الحقوق إلى أصحابها.

ومن ذلك:

١. رد مال اليتيم ودفعه إليه إذا بلغ، وآنس منه وليه الرشد.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦].

٢. أداء الديون لأصحابها.

وقد أمر سبحانه بكتابة الدين صغيرًا كان أم كبيرًا إلى أجله، ودعا فيه للعدل، والتوثيق والإشهاد، حفاظًا على الحقوق، وإثباتًا لها، لتيسير ردها لأصحابها متى حل الأجل وطالب صاحب المال بالدين. كما في آية المداينة.

[انظر: الدَين: كتابة الدين]

٣. الإنفاق في تلبية حاجات الإنسان وضروراته.

كالإنفاق في تحصين النفس وإعفافها.

قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤].

٤. الانفاق في المباحات.

كالعطايا والهدايا، وما يقتنيه الإنسان من كماليات زائدة على ضرورياته.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ۝٣٩﴾ [الروم: ٣٩].

قال ابن كثير: «أي: من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسره ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والشعبي - وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، قاله الضحاك، واستدل بقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٥٧.

﴿ ٦ ﴾ [المدثر:٦].

أي: لا تُعْطِ العطاء تريد أكثر منه.

وقال ابن عباس: الربا رباءان، فربا لا يصح -يعنى: ربا البيع- وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾»[1].

فالإنفاق إذا كان في غير معصية فهو مباحٌ، ما تجنب الإسراف فيه، كالإنفاق على ملاذ النفس، فإنه إذا كان على وجه يليق بحال المنفق وقدره فهو مباح وليس بإسرف[2].

وكذا إنفاق الإنسان على أصناف ما يحتاجه من غير الضرورات في الملبس والسكن والمركب، فإنه مباح مالم يصل حد الإسراف.

٤ . الإنفاق في الجهاد في سبيل الله.

من أعظم وجوه الإنفاق المحمودة والممدوح فاعلها، الإنفاق على الجهاد في سبيل الله تعالى، نشرًا للدين، ودفاعًا عنه، وحمايةً وعونًا للمسلمين، ودحرًا للأعداء والمحتلين.

فالجهاد بالمال نوع من أنواع الجهاد المأمور بها شرعًا، وقد قرنه الله تعالى مع الجهاد بالنفس في القرآن الكريم، بل قدم ذكر المال على النفس في معظم الآيات.

ولعل من أسباب تقديم الجهاد بالأموال على الأنفس أن نفع الأموال متعدٍّ ومتنوع، بخلاف الجهاد بالنفس، فإن نفعه مقتصر على ذاته في الأعم والأغلب.

وكذا فإن كل إنسان باستطاعته الجهاد بماله بقدر طاقته، وليس كل إنسان قادرًا على الجهاد بالنفس، كما أن المجاهد لا يتمكن من الجهاد بالنفس مالم يتوفر له المال الذي يعد به نفسه ويشتري به سلاحه، ولعل ذلك من أسباب تقديم المال على النفس في آيات الجهاد.

والجهاد بالمال هو التجارة الرابحة مع الله تعالى في ميدان الأعمال الصالحة التي تقرب إلى رضوان الله، وتكون سببًا للنجاة من العذاب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التوبة:١١١].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف:١٠-١١].

قال الشوكاني: «جعل العمل المذكور بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤١٩.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٢٢.

ونجاتهم من النار »[1].

وصفة أهل الإيمان المبادرة إلى بذل أموالهم في الجهاد لا التردد أو الشك أو الحيرة الذي هو سلوك أهل النفاق.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥].

وقد فاضل الله تعالى بين القاعد والمجاهد بماله ونفسه، وفارق بينهما في الدرجات، وقرر عدم المساواة بينهما.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥﴾ [النساء: ٩٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [التوبة: ٢٠].

فصاحب الضرر والعذر لما عجز عن الجهاد بالنفس فتح الله تعالى له باب الجهاد بالمال، وفي هذا فرصة لكل مسلم وسع الله عليه في الرزق، ولا يمكنه الجهاد بالنفس - لأي سببٍ من الأسباب - أن ينال ثواب الجهاد وشرفه، بماله وإنفاقه على الجهاد، سواءً في تجهيز الغزاه والمجاهدين، أو توفير العدد والآلات وما يحتاج إليه من سلاح، أو بقيامه على مصالح أهل المجاهد فيخلفه في أهله . وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: **(من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا)**[2].

ويتأكد شرف وفضل الجهاد بالمال حال الشدة والضيق والحاجة، كما هو حاصل اليوم للمسلمين في فلسطين وبلاد الشام، فالإنفاق هذا الوقت أعظم درجةً من الإنفاق في أوقات أخرى، لأنه وقت حاجة، كما كان الإنفاق قبل فتح مكة وقت حاجة الأمة وضرورتها أعظم من الإنفاق بعد الفتح والتمكين، وفي كلٍ خير.

(١) فتح القدير ٥/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير، رقم ٢٨٤٣. ومسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركب، وخلافته في أهله بخير، رقم ١٨٩٥. واللفظ له.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

والجهاد بالمال في هذه الأيام من أعظم الأعمال، لا سيما مع تسلط أعداء المسلمين عليهم، وجهودهم في التضييق على أهل الإسلام بالحصار، والمصادرة، وإتلاف المزارع، وهدم البيوت، والاعتقال، والقتل. كما هو واقع في كثير من بلاد الإسلام اليوم.

فالواجب على المسلمين تجاه إخوانهم المجاهدين في كل مكان، البذل والعطاء والإنفاق قدر المستطاع، وقد تيسر اليوم بفضل الله تعالى الجهاد بالمال لكل من يريد، عن طريق الجمعيات والهيئات والمؤسسات الحكومية والخيرية، إضافةً إلى الحملات التي تقوم بها تلك الجهات المعتمدة، وعلينا الثقة بمؤسساتنا وجمعياتنا وهيئاتنا، وعدم الانسياق أو تصديق ما يثار من شبهات أو تشكيكٍ أو شائعات حول عدم وصول هذه الأموال لمستحقيها؛ لأن هذا من إرجاف أهل النفاق.

فالواجب الإنفاق وابتغاء الأجر والثواب من الله، وتأمل حصول الفلاح الذي جعل الله تعالى أحد أسبابه الجهاد بالمال.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة: ٨٨].

ويتحقق بجهاد المال معنى التكافل والتعاون والولاء لأهل الإيمان، والتضامن بين المسلمين ضد أعدائهم، فتتقارب قلوبهم وإن تباعدت بينهم المسافات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ولأهمية الجهاد بالمال - إضافةً على تقديمه على جهاد النفس في أكثر المواضع - فإن كل آية ورد فيها الحث على الإنفاق في سبيل الله عامة، يكون الإنفاق على الجهاد من أوائل ما تشمله الآيات وتدل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال مكحول: «يعنى به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك»[(١)].

وقال الطبري: «مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم»[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٩٩.
(٢) جامع البيان ٣/ ٦١.

بل جعل الإنفاق على الجهاد، أحد مصارف الزكاة الثمانية، لأهميته وعظيم أثره.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: ٦٠].

قال السعدي: « ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الغازي في سبيل الله، وهم: الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه »[1].

وقال الزحيلي: « ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هم في رأي الجمهور الغزاة المجاهدون الذين لا حق لهم في ديوان الجند، يعطون ما ينفقون في غزوهم، كانوا أغنياء أو فقراء، لأن السبيل عند الإطلاق الغزو، وهو المستعمل في القرآن والسنة[2]»

٦. الإنفاق في وجوه الخير المتنوعة:

من وجوه الإنفاق المشروعة، والتي دعا إليها القرآن العظيم وحث على البذل في سبيلها، الإنفاق في أنواع التطوعات والقربات وأبواب البر المتعددة.

قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

دلت هذه الآية على أنواع البر كلها، كما قال الثوري[3].

وفسر سبحانه البر بالإيمان والتصديق التام بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ثم ثنى بذكر الصدقة ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: تصدق وأعطى من ماله مع حبه له تقربًا لله تعالى وطلبًا لرضاه عزوجل . ومن إيتاء المال على حبه، أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة، كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر[4].

كما في الحديث: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم ؟ قال: (أن تصدق

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٠١.
(٢) التفسير المنير ١٠/ ٢٧٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٧.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٦٥.

وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى)[1].

وكذلك إخراج النفيس من المال يعتبر من إيتاء المال على حبه.

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨-٩].

ثم ذكر سبحانه أصنافًا ممن ينفق عليهم، فذكر الأقارب وهم أولى الناس بالبر والإحسان، ثم (اليتامى) وهم من لا كاسب لهم ممن فقد أباه، ولا قوة له يستغني بها، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن أوصى عباده بالإحسان إليهم، ثم (المساكين) الذين أذلهم الفقر، فلهم حقٌّ على الأغنياء بما يخفف عنهم هذه المسكنة، ثم ذكر (ابن السبيل) وهو الغريب المنقطع، في غير بلده، فحث الله على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، وييسر عليه حياته في غربته، (والسائلين) الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السؤال. ويدخل فيه من يسأل لتعمير المصالح العامة كالمساجد والمدارس، فهذا له حق، وإن كان غنيًا، (وفي الرقاب) يدخل فيه العتق والإعانة عليه، وفداء الأسرى عند الكفار أو الظلمة[2].

ومثل ذلك ما جاء في آية المكاتبة: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

وفيه حثٌّ للناس على الإنفاق والبذل للملوك بما يعينه على عتق رقبته، يستوي في ذلك مولاه ومن سواه من الناس، ولهذا جعل سبحانه للمكاتبين (الرقاب) نصيبًا مفروضًا من الزكاة.

فاشتملت الآية على أبواب البر، ونبهت على أصنافٍ ممن تدفع إليهم الصدقات، وينجم عن الإحسان إليهم خيرات ومصالح عظيمة.

وقد رغب سبحانه وتعالى في الإنفاق في سبيل الله تعالى، وضرب لذلك مثلًا يشوق النفوس للبذل والعطاء، ويدفعها للتصدق بسخاء، في تمثيل بديع يصف ثواب المتصدق وعظم أجره.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة:٢٦١].

أي: ينفقون أموالهم في طاعة الله.

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، رقم ١٠٣٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٩٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٥.

لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال سعيد بن جبير: في طاعة الله . وقال مكحول: يعنى به الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك . وهذا المثل أبلغ في النفوس، من ذكر عدد سبعمائة، فإن في هذا إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عزوجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة»[1].

وقال السعدي في تفسير الآية: «هذا بيانٌ للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وهنا قال: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله.

وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كأن العبد يشاهده ببصره، فيشاهد المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مذعنةً للإنفاق،سامحة بها، مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي:بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها»[2].

ثم ذكر سبحانه شرط الإنفاق المقبول وثوابه فقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة:٢٦٢].

لما ذكر سبحانه في الآية السابقة الإنفاق في سبيل الله وفضله، بين في هذه الآية أن ذلك الثواب إنما هو لمن لا يتبع إنفاقه منًّا ولا أذى، لأن المن والأذى مبطلان للصدقة، وإنما على المرء أن يريد وجه الله تعالى وثوقه . والمن: هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها.

وهو من الكبائر، كما في الحديث، أن المنان أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم[3].

والأذى: السب والتشكي، وهو أعم من المن، لأن المن جزء من الأذى، لَكِنْ نَصَّ عليه لكثرة وقوعه[4].

قال الطبري: «وإنما شرط ذلك في المنفق في سبيل الله، وأوجب الأجر لمن كان غير مانٍّ ولا مؤذٍ من أنفق عليه في سبيل الله؛ لأن النفقة التي هي في سبيل الله: ما

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٩٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ٤٦، رقم ١٠٦.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٠٢.

ابتغى به وجه الله وطلب به ما عنده»[1].

ثم عقب الله تعالى بقوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٣].

فقرر سبحانه أن القول الطيب والكلمة بالمعروف،والمغفرة،خيرٌ وأفضل من تلك الصدقة المتبوعة بالمن والأذى، وتنفيرًا من ذلك الفعل - المن والأذى - شبه الله تعالى بعض المتصدقين الذين يتصدقون طلبًا للثواب ويعقبون صدقاتهم بالمن والأذى، بالمنفقين الكافرين الذين ينفقون أموالهم لا يطلبون من إنفاقها إلا الرياء والمدحة، إذ هم لا يتطلبون أجر الآخرة، فقال عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤].

ثم ضرب الله تعالى مثلًا رائعًا، للمنفق المبتغي بإنفاقه وجه الله تعالى وثوابه الجزيل، فقال سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة:٢٦٥].

ثم عقب بمثلٍ آخر،فيه تمثيل لنهاية المن والأذى، وكيف يمحق الله آثار الصدقة المتبوعة بالمن والأذى محقًا في وقت لا يملك صاحبها قوةً ولا عونًا، ولا يستطيع لذلك المحق دفعًا ولا منعًا، فقال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة:٢٦٦].

وقد امتدح الله تعالى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأثنى عليه بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٧-٢١].

أي: ينفق ويطلب بإنفاقه تزكيه نفسه، وتطهيرها من العيوب والذنوب،قاصدًا بذلك وجه الله تعالى،مبتغيًا رضاه[2].

والإنفاق في سبيل الله باب واسع يدخل فيه عموم الإحسان والصدقات والمعونات والمساعدات التي تقدم، سواءً للأفراد من ذوي القربى وغيرهم، أو للمؤسسات والهيئات والجمعيات، كتلك التي تهتم بكفالة الأيتام، أو الأرامل، أو تقوم على تحفيظ القرآن، أو تدعم مشاريع الخير من الإسكان وحفر الآبار، وبناء المساجد،

(١) جامع البيان ٣/ ٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٥٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٧.

وإنشاء المدارس، أو إغاثة المحتاجين سواءً داخل البلاد أو خارجها.

وقد تيسر بفضل الله تعالى للإنسان الإنفاق في جميع وجوه الخير، بوجود المكاتب التوعوية لتلك الهيئات والمؤسسات المعتمدة، والتي تقوم على استلام الأموال وإيصالها إلى أصحابها ومن ينتفع بها، لا سيما في مواسم الخير كشهر رمضان وموسم الحج، كذلك الحسابات البنكية المعلنة لتلك الجمعيات أو الهيئات أو الجهات، مما ييسر على الإنسان البذل والعطاء في أبواب البر المتعددة.

فلم يبق للإنسان إلا نفس راضية سخية تبذل في سبيل الله، وتبتغي فضله، وتطلب ثوابه، وتقصد وجهه الكريم.

وأبواب إنفاق المال في الخير كثيرة، وكلما كان الإنفاق أنفع لعمومه، أو شدة الحاجة إليه، أو جلبه لمصالح أخرى، كان أفضل وأجدى.

ثانيًا: ثمرات الإنفاق المشروع:

١. في الإنفاق طهرة للمنفق، وتزكية لقلبه، وتنمية للمال، وسلامة له من الآفات، يقول عزوجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

٢. في الإنفاق تكثير للحسنات، ومضاعفة للأجور، كما دلت عليه آيات الإنفاق في سورة البقرة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ البقرة (٢٤٥) . وقال عزوجل: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة:٢٦١].

٣. في الإنفاق وقاية من النار، وتكفير للسيئات،كما جاء في الحديث:(**اتقوا النار ولو بشق تمرة**)[1]، وقال صلى الله عليه وسلم:(**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**)[2].

٤. الإنفاق سبب في دخول الجنة، يقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولوبشق تمرة، رقم ١٤١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، رقم ١٠١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ماجاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٦١٦. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٤٢.

٥. الإنفاق في الوجوه المشروعة،من أهم أسباب نهضة الأمم،وقوة اقتصادها، وذلك بدفع الأموال في التعليم وبناء المدارس والمستشفيات، والقيام على طلاب العلم ونحو ذلك مما يرتقى بالأمة.

٦. الإنفاق في المشروع سبب لقوة المجتمع وترابط أفراده وتكاتفهم وتعاونهم على الخير، بالبذل للمسكين، والقيام على الأرملة واليتيم، وإعطاء المحتاج، وإكرام الضعيف والبذل في وجوه الخير التي تنفع أفراد المجتمع.

وجود الانفاق الممنوع وعواقبه

أولًا: وجوه الإنفاق الممنوع:

كما بين الله تعالى وجوه الكسب الممنوعة، وحرم كل كسبٍ خبيثٍ ونهى عن تحصيل المال وجمعه بطريقة من الطرق المذمومة التي سبق بيانها، فإنه كذلك نبه عباده إلى وجوه من الإنفاق محظورة، ومصارف للمال ممنوعة، وأبواب من الدفع محرمة وغير مشروعة، حفاظًا على هذا المال، وحتى لا يكون المال - وإن كان من كسب حلال - سببًا في حصول الوزر والإثم، بإنفاقه فيما لا ينبغي . ومن وجوه صرف المال وبذله الممنوعة ما يأتي:

١. إنفاق المال طلبًا للرياء والسمعة والمدح والثناء من الخلق.

تقدم الأمر بإخلاص النية في الإنفاق لله تعالى، وقد ضرب الله تعالى مثلًا بمن ينفق ماله طلبًا للمحامد فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

في الآية تشبيه بعض المتصدقين الذين يتصدقون طلبًا للثواب، غير أنهم يتبعون

صدقاتهم بالمن والأذى، بالمنفقين المرائين الذي ينفقون أموالهم لا يطلبون من إنفاقها إلا السمعة والرياء والمفاخرة بين الناس . ثم شبه تعالى من أنفق ماله رياءً - وهو المقصود هنا - بالحجر الذي لا خصب فيه ولا ليونة، يغطيه تراب خفيف يحجب قسوته عن العين، فإذا نزل مطر غزير على هذا الحجر، ذهب بالتراب، وانكشفت حقيقته وظهرت قسوته ولم ينبت زرعه، ولم يثمر ثمره، فكذلك القلب الذي أنفق طلبًا للظهور بين الخلق، فإن إنفاقه هذا لا يثمر خيرًا، ولا يكسبه أجرًا؛ لأنه يذهب ويضمحل عند الله وإن ظهر له عمل فيما يرى الناس، كالتراب.

ولا شك أن من عمل عملًا مما يراد به الله تعالى والدار الآخرة، وقصد به الدنيا فلا شك أن عمله باطل مردود، وسعيه غير مشكور، لأن شرط العمل أن يكون لله تعالى وحده، فالمرائي في الحقيقة كان عمله للناس، وقصده المدح والشهرة بالخصال والصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، ويمدح، فيقال: هو كريم، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى، لهذا قال عزوجل: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[1].

فالإنفاق في وجوه الخير والبذل والإحسان إن خالطه الرياء وطلب الحمد والمدح والثناء والظهور عند الناس، فإنه لا أجر لصاحبه فيما أنفق ولا ثواب، لأن الرياء مبطل للعمل . والواجب الإنفاق لله تعالى وابتغاء فضله ورضاه، حتى تقبل النفقة ويجزى عليها بالأجر العظيم في الآخرة.

ومما يشاهد من حال الناس اليوم الإنفاق بإسرافٍ وترف ومخيلة، في المناسبات والاجتماعات، بل والتكلف أحيانًا فوق الطاقة والسعة، كل ذلك مراءةً واستجلابًا للمدح والثناء من الناس.

وليعلم مَنْ هذه حاله، أنه مهما عمل فإنه لن ينال رضا جميع الناس ومدحهم، بل سيجد من ينتقده وينتقص ويعيب فعله . وليعلم أنه لو أثنى عليه أهل الأرض جميعًا، فإن ذلك لن يقربه من الله تعالى إذا كان هو بعيدًا بعمله ونيته وقصده.

فالمرائي خاسر في الدنيا والآخرة؛ لأنه لا يستطيع إرضاء جميع الناس في الدنيا، ثم في الآخرة لا يجد له عمل عند الله تعالى مهما بذل من ماله وأعطى؛ لأن ذلك الرياء أحبط العمل وأذهب فضله.

٢ـ الإنفاق في الصد عن سبيل الله.

أخبر الله تعالى عن الكفار بأن دأبهم وديدنهم الإنفاق المستمر للصد عن سبيل الله تعالى.

قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥.

﴿أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

والمعنى: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم لا في وجوه الخير، وإنما ينفقونها ليصدوا عن سبيل الله، أي: ينفقونها ليمنعوا الناس عن الدخول في الدين الذي يوصلهم إلى رضا الله وإلى طريقه القويم»[(١)].

وفي هذا بيان لعداوة الكفار وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته، فهم ينفقون أعز الأشياء لديهم للصد عن الإسلام، وهذه صفة في جميع الكفار في كل عصر وزمان، فإنفاقهم حصل في الماضي، ويحصل في الحال والاستقبال، ولذلك جاء التعبير بصيغة المضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾[(٢)].

والآية وإن كانت في الكفار، وكان لها سبب نزول خاص، إلا أنها عامة في كل من يبذل ماله للصد عن دين الله، أو في تأييد الباطل ومعارضة الحق[(٣)].

ثم قال سبحانه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: سيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ندامة عليهم، حيث لم يجدوا شيئًا، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار[(٤)].

ولم يكن هذا حال أهل الكفر في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فحسب، بل هو طريقة أهل الضلال في كل زمان، فقد قال سبحانه حكاية عن موسى في بيان حال فرعون وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

قال ابن جرير: «﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ بمعنى: ليضلوا الناس عن سبيلك، ويصدوهم عن دينك»[(٥)].

وقال السعدي: «المعنى: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضلون ويضلون»[(٦)].

ويبقى هذا حال كل من أبغض الدين القويم، من الكفار والمنافقين وأشياعهم، فهم يبذلون من المال الكثير لهدم الدين، وتصديع أركانه وزلزلة ثوابته، وبث الشكوك

(١) تفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٤٠.
(٣) انظر: الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٤.
(٥) جامع البيان ٦/ ٥٩٨.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٨.

والشبهات في نفوس أبنائه، فسينفقون أموالهم وتكون عليهم حسرة وندامة في الدنيا والآخرة.

والصد عن سبيل الله قد يكون عامًّا، وذلك بالصد عن الدين كلية - كما يفعل أهل الكفر - وقد يكون الصد جزئيًّا، وذلك بالصد عن بعض تشريعات الإسلام، ومحاربتها ومنعها، والتضييق على أهلها، كالحجاب والنقاب، والأذان وحلقات التحفيظ.

وبذل المال في ذلك بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشر، هو من الإنفاق الممنوع، كمن يتولى فتح القنوات الصارفة عن ذكر الله تعالى أو القادحة في دينه وشريعته، أو المخالفة لتعاليمه، وكذا الإعانة فيها بأي نوع من أنواع العون، ومثله بذل المال في إيجاد المقاهي والملاهي، والتي تمارس فيها كثير من المحرمات، إضافةً إلى صدها الناس عن ذكر الله وشغلهم عما يصلحهم في أمر دينهم ودنياهم.

ويلحق بهم من يستغل التقنية ووسائل التواصل الحديثة في الصد عن سبيل الله، بنشر الكذب أو البدع أو الضلال، أو الاستهزاء بالدين وشعائره وأهله المتنسبين إليه.

والواجب على أهل الإيمان بذل أموالهم في نشر الدين وخدمته، إزاء ما يبذله أعداء الدين على مختلف المستويات حكومات وهيئات ومؤسسات وأفراد، من أموال طائلة ومبالغ عظيمة للصد عن سبيل الله تعالى، ونشر الكفر والفساد، لا أن يكون أبناء الإسلام معاول هدم في بنائه العظيم، أو أيدٍ خفية يشاركون بأموالهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون في الصد عن سبيل الله.

ومهما تآمر المتآمرون، أو علت أصواتهم، أو ظهروا وغلبوا في بعض الأحيان، سيبقى الحقُّ ما بقي الليل والنهار، وسيتم الله نوره ولو كره الكافرون؛ لأن هذا هو وعد الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال:٣٦].

٣. الإنفاق في المحرمات.

وهذا يشمل دفع الأموال في تحصيل ما لا يحل من المحرمات، كما في المعاملات المحرمة التي نهى عنها الشارع الحكيم والبيوع الممنوعة كالربا، والرشوة فقد قال عزوجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة:١٨٨].

والإدلاء بالأموال للحكام هو دفعها لهم وإعطاؤهم إياها مقابل أن يحكموا للدافع ضد غريمه، وقد تقدم في الرشوة . وكذا دفع المقترض للزيادة، هو من الإنفاق في

المحرمات لأنه ربا.

ومثله إنفاق الأموال أثمانًا للمحرمات، كدفع ثمن الخمر والدخان والمخدرات، والآت اللهو، واللعب المحرم كالقمار، أو المسابقات الممنوعة شرعًا، أو دعمًا لقنوات الشر والفساد.

بل إن التبذير المنهي عنه فسر بأنه ما كان نفقةً في المحرمات، ولو كان شيئًا يسيرًا . كما تقدم.

والإنفاق فيما حرم الله تعالى، دليل تسلط الشيطان على الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ [الاسراء:٦٤].

ومشاركة إبليس للعباد في أموالهم هو ما يأمرهم به من إنفاقها في المعاصي والمحرمات [(١)].

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الاسراء:٢٧].

«يعني: إن المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته أولياء الشياطين» [(٢)].

٤. الإنفاق في الشهوات.

فمن وجوه الإنفاق المذمومة والممنوعة الإنفاق في أصناف الشهوات، لا سيما المحرمة منها، فقد حكى الله تعالى عن الكافر تفاخره بإنفاق المال الكثير في سبيل تحصيل شهواته، فقال عزوجل: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد:٦].

ومعنى (لبدًا): أي كثيرًا [(٣)].

ففي قول الكافر تفاخر وتمدح بإتلاف المال في غير صلاح، وقد كان أهل الجاهلية يتبجحون بإتلاف المال ويعدونه منقبة، لإيذانه بقلة اكتراث صاحبه به [(٤)].

قال السعدي: «سمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا، لأنه لا يتتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسارة والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف ما أنفق» [(٥)].

وإنفاق المال في الشهوات - حتى وإن كانت مباحة - إذا بالغ فيه الإنسان وجاوز الحد كان ذلك من التبذير والإسراف المنهي عنه، قال القرطبي: «من أنفق ماله في الشهوات زائدًا على قدر الحاجات وعرضه بذلك للنفاد فهو مبذر» [(٦)].

(١) انظر: جامع البيان ٨/ ١٠٩.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٦٩.
(٣) انظر: جامع البيان ١٢/ ٥٨٩. وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٥٥.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٠/ ١٦٢.

وهو ضربٌ من إضاعة المال وإتلافه، وصرفه فيما لا نفع فيه غالبًا. وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال، فقال: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا... .ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[(١)].

قال النووي: «وأما إضاعة المال فهو صرفه في غير وجوهه الشرعية، وتعريضه للتلف، وسبب النهي أنه إفساد، والله لا يحب المفسدين، ولأنه إذا ضاع ماله تعرض لما في أيدي الناس»[(٢)].

ومن إضاعة المال ما يبذله الناس اليوم من أموالٍ طائلة، ومبالغ كبيرة في سبيل حيازة المباحات والتفاخر والتنافس في نيل أعراض الدنيا، وأغراضها من مساكن ومراكب ومقتنيات وأجهزة واتصالات ولباس وأثاث ومناسبات، أو شراء ما لا يستفاد منه، أو إنفاق المال في السياحات والتنـزه والسفر، كل ذلك من الإنفاق في الشهوات التي تذهب المال ولا نفع فيها غالبًا للفرد ولا للمجتمع.

والواجب على المسلم حفظ ماله، بتنظيم استهلاكه والاعتدال في نفقته، وصرفه فيما ينبغي، والبعد عن مجالات تضييع الأموال، لأنه مما نهى عنه الشارع الحكيم وحذر من مغبته.

٥. دفع الأموال لمن لا يحسن التصرف (السفهاء).

وقد نهى الله تعالى عن دفع الأموال للسفهاء فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾ [النساء:٥].

فهذا نهيٌ للأولياء عن دفع الأموال لكل من لا يحسن التصرف في ماله؛ لعدم وضعف عقله كالمجنون والمعتوه، أو لصغر سنه وعدم رشده كالصغير وغير الراشد، فهؤلاء لا يحسنون حفظها والتصرف فيها والقيام عليها، فلا تدفع لهم إنما يبذل منها ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية[(٣)].

والمتأمل في حال الناس اليوم، يرى مخالفة هذا التوجيه الإلهي وعدم المبالاة بالأموال، وبذلها لصغار السن ممن لا يدرك مصلحته، ولا يحسن التصرف في غالب شؤونه، فتترك الأموال في يده بلا حساب، ويدفع له دون تردد، وأكثر صرفه يكون فيما لا فائدة فيه ولا نفع منه، من البذل في الشهوات، والإسراف والتبذير في المقتنيات من سيارات وأجهزة وتجهيزات، وقد تكون سببًا في انحرافه ببذلها في المسكرات والمخدرات والدخان، فيكون ذلك المال

(١) سبق تخريجه.
(٢) شرح صحيح مسلم ١٢/ ١١.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص١٣٠.



ووبالًا عليه وهلاكًا له.

ومثله دفع الأموال لمن لا تحسن التصرف والتدبير من النساء، أو توليتها على شؤون النفقة في البيت، فيدفع المال غالبًا فيما لا ينفع الأسرة، بل يضيع عليها أكثر منافعها.

والواجب حفظ المال، ومنع السفيه من التصرف فيه حتى لو كان ماله، ودفع ما يحتاج إليه في النفقة والكسوة وسائر متطلبات حياته من قبل وليه والقائم عليه. كما أرشدت إلى ذلك الآية الكريمة. قال ابن عباس في الآية: «لا تعمد إلى مالك وما خولك الله، وجعله معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم»[1].

ثانيًا: عواقب الإنفاق الممنوع:

من خلال ما تقدم من وجوه الإنفاق غير المشروع، تتبين عواقب وآثارًا للإنفاق الممنوع ولعل أهمها:

١. بطلان العمل وعدم قبوله، كما في الإنفاق رياءً.

٢. الحسرة والندامة التي تعود على صاحبها بالوبال والخسارة في الدنيا، دون تحقيق مراده، فيضيع ماله ولا ينال مطلوبه، كمن ينفق ماله في سبيل الصد عن الدين، وقد وعد سبحانه بظهور دينه وغلبته، مهما فعل أعداؤه.

٣. تضييع المصالح الهامة للأفراد والجماعات، بدفع الأموال فيما لا ينبغي كالمسابقات والألعاب، والتخلي عن الإنفاق في المجالات الحيوية التي تخدم الأمة.

٤. حصول التنافس البغيض بين أفراد المجتمع، في تحصيل الكماليات، والإنفاق على مظاهر الترف والتفاخر، ولربما قاد ذلك إلى تحمل الديون، أو الدخول في معاملات محرمة من أجل توفير المال الذي به يفاخر.

٥. موالاة الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الاسراء:٢٧]. قال ابن جرير: «إن المفرقين أموالهم في معاصي الله، المنفقيها في غير طاعته، أولياء الشياطين»[2].

٦. دخول النار، كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٩.

(٢) جامع البيان ٨/ ٦٩.

﴿٣٦﴾ [الأنفال:٣٦].

٧. استنزافٌ لثروات الأمة، وإتلافٌ لأهم مقومات النهضة وعوامل القوة الاقتصادية (المال).

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الإنفاق، البخل، الجهاد، الدَّين، الزكاة، السعة، الشهادة، العطاء، الكسب